
Bibliotheca Alexandrina
00118571

حافظ رمضان



خلال تاريخ الانسانية

الجزء الأول

كيف تطورت المدنية فى العالم



هاك تاريخ الانسانية

الجزء الأول

DL

كيف تطورت المدنية فى العالم



الإهداء

يجري المؤلفون على أن يهدوا ثمرات قرائحهم إلى من يقدرون قدرا أو يرون له يدا فيما عملوا ، ولما كنت قد استوحيت بالهول ما خططت للأجيال القادمة من عبر الأجيال الغابرة ، استلهمت رفيف الأرواح حوله وحفيف العصور في ساحته .

فإني أهدي كتابي هذا إلى :

ناحت أبي الهول ، البعيد عنا بما مر من الدهر القريب منا بما خلد من الصخر ، الذي أبدع أقدم تمثال عرفه التاريخ ، عسى أن يكون في هذا الإهداء بعض الاعتراف بفضل كل خادم للإنسانية بقي عمله ، وضاع اسمه ، وكل عامل منسي ، وكل جندي مجهول

سليم حسن



الحديث الأول

لقد أويت فى إحدى ليالى الخريف إلى مضجعى مبكراً على خلاف عادتى ، واستيقظت فى السحَر بعد أن أخذت قسطى من الراحة والنوم وقد أحسست فى نفسى رغبـة فى الخروج إلى العراء أستقبل النسيم العليـل ، وأقر عينى بجمال الشروق ، وأنتجع مكاناً قصياً بعيداً عن الضوضاء أنعَم فيه بالعزلة الهادئة ، وأستجلى مباهج الطبيعـة وجمالها . فخرجت والناس نيام ، ووليت وجهى شطر أهرام الجيزة ثم انحدرت فى سفحها نحو اليمين وإذا بى أجد نفسى أمام أبى الهول ، وقد أخذتنى روعة لمرآه ، فجلست شاخصاً إليـه والمعبد خلفى حتى تنفس الصبح ورأيت وجهه يستقبل مطلع الشمس فتذكرت أنشودة (رع) أبى الآلهة عند المصريين الأقدمين ، تلك الأنشودة المدوّنة على ورق البردى والتى تقول : « أنت إله السماء ، تطلع على العالم فتملأ القلوب فرحاً ، وترسل أشعتك فى الوجود فتملأ النفوس بشراً ، والعيون نوراً . فالسلام عليك أنت الأبدى السرمدى » .

وتذكرت ما جاء عن النور فى التوراة : « إن النور هو أول ما خلق فى الوجود » .

وتذكرت كذلك ما جاء فى الذكر الحكيم من سورة النـور :

« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاةٍ فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّيٌّ يوقد من شجرة مباركة زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » .

فالنور أساس العبادة عند الأقدمين تبعثه الشمس مصدر الحياة ولا يقع تحت حواسنا الخمس فلا نلمسه ولا نشمه ولا نتذوقه ولا نسمعه ، وإذا كنا نبصره فإنّا لا نراه إلاّ فى صورة واحدة من صوره الكثيرة التى تقع تحت عدسات العلم الحديث ولا تقع تحت حدقات أبصارنا .

وأخيراً ألم يكن النور رمزاً لتلك القوة التى تنبعث فى نفوسنا عند ما يتجه العقل والقلب نحو خالق الكائنات ؟

وبينما أنا غارق فى هذه التأملات إذ سمعت هاتفاً يقول لى :

« ألا ترى الرابض أمامك فى جسم الأسد ورأس الإنسان ! إنه لرمز الإنسانية فى حياتها المادية والروحية » . فالتفتُّ أمامى وإذا بى أرى أبا الهول وقد راعنى ما بأنفه وشفتيه من التشويه فأخذت أسائل نفسى : « أيَّة يدٍ همجية يا ترى تلك التى امتدت إليه فمسخت ابتسامته الحلوة وجعلت منها ابتسامة ساخرة من الإنسانية ؟ .

أهى يد الإنسان أم الطبيعة ؟ .

أهي يد المماليك فى تمريناتهم الحربية ؟ أم يد الفرنسيس فى مناوراتهم العسكرية ؟ » .

ثم تذكرت أن المماليك كانوا يعتقدون أن لحارس الصحراء أسراراً غامضة وكانت معتقداتهم تلقى فى رُوعهم الرهبة منه لا الرغبة فى الاستخفاف به ، والاعتداء عليه .

وتذكرت أن الفرنسيين قد جاءوا مصر ومعهم نخبة مختارة من علمائهم يريدون البناء لا الهدم ، والتنقيب لا التخريب .

ثم قلت لنفسى : لماذا وقع التشويه على رأس الإنسان وهو رمز العقل ولم يقع على جسم الأسد وهو رمز القوة ؟ أوقع هذا الاعتداء لأن القوة تهاب القوة ولا تخشى العقل ؟ .

ثم تذكرت أن الصحارى المجاورة قد أسفت عليه الرمال مراراً فلم يبدُ منه غير رأسه ، وقلت : عسى أن يكون هذا هو سبب وقوع الاعتداء على الرأس .

رؤيا تحتمس

ثم تذكرت أن تَحُتْمُسَ الرابعَ قد أزاح عن جسمه الرمال عند ما رأى فى نومه[1] (رع) الإله الأكبر يقول له : « أريد أن أعطيك يا بُنَىَّ مُلك مصر بعد أن تُزيح الرمال عن جسم أبى الهول » . ففعل تحتمس ونال ما وعد به . وجلس على عرش مصر قبل تولية من هم أكبر منه سنًّا من إخوته وامتد مُلكه شرقاً إلى ما بين النهرين وجنوباً إلى الشلال الثانى فى بلاد النوبة .

رؤيا يوسف الصديق

ولقد ذكرتنى قصة هذه الرؤيا بما كان للرؤيا من بالغ التأثير فى نفوس قدماء المصريين وبما نال يوسف الصدِّيق من الإعزاز

(١) قصة هذه الرؤيا منقوشة على قاعدة تمثال أبى الهول .

والمقام الكريم عند فرعون بعد أن أفتاه فى رؤياه[1] .

تذكرت هذا ثم بدرت منى التفاتة إلى أقدم تمثال لم يعرف له التاريخ عهداً ولا ناحتاً ، فبدت لى عيناه الحجريتان اللتان كانتا تتجهان نحو الأبدية اللانهائية وكأنما تتحولان نحوى وتدعوانني إلى المحادثة فوقفت دَهِشاً وأطرقت رأسى وأخذت أسائل نفسى :

أيّ حديث يا ترى ذلك الذى يجرى بينى وبين هذا الذى عاصر الكليم والمسيح وعرفهما رسولين يجهدان النفس فى هداية الناس وسعادة الإنسانية ولا يحفلان بما تركز فى طباع البشر من عنت وجحود وعقوق وعدوان ؟ .

وأيّ موضوع يمكن الخوض فيه مع الذى شهد غزوات قُمبيز وفتوحات اليونان والإسكندر وقيصر والرومان وشهد فتوحات العرب ورأى صحابة محمد (ﷺ) يدخلون مصر آمنين وهم يحملون علم الأمن وينشرون لواء العدل ويحررون الفكر ويطلقونه من عقاله .

وماذا أقول لمن شهد غزوات الترك والفرنجة (من فرنسيس

---

(١) هذا ما جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون » . فلم يستطع أحد من وزرائه ولا من علماء مملكته إفتاءه وقالوا له جميعاً : « أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ولكن يوسف وقد علمه الله تأويل الأحاديث قال : « تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » . فسر من علم يوسف وأعجب بتأويله « وقال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين » . فسما قدر يوسف وعزت عند الملك مكانته وأصبح ذا حظ عظيم وقال : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » .

وانكليز) وهو رابض فى مكانه يشهد أحداث العالم متلاحقة ، كما يستقبل رمال الصحراء هادئاً مطمئناً وتجرى مياه النيل تحت قدميه فتغسل إساءة المسيء حتى لا يبقى لها أثر اللهم إلاّ فى صحائف التاريخ ؟.

وكيف أرتب الحديث مع ذلك الذى عرف الإنسانية فى مهدها وشهد عِبر المتقدمين ، وخبر أحوال المتأخرين ، ورأى الأكاسرة والقياصرة والأباطرة والجبابرة يقوى شأنهم ويضعف وينبُه ذكرهم ويخمل وتقبل الدنيا عليهم وتدبر ، ويحصدهم الموت ويطويهم الدهر وليس لهم من دنياهم إلا الأحاديث والذكر ؟.

وكيف أبدأ القول مع من رأى الأمم والشعوب تشقى وتسعد ، وشهد المدنيات شرقية وغربية تمتد وترتد ، وهو باق كما هو لا يتغير ولا يَبلى ؟.

وبقدر ما كان شوقى عظيما إلى الحديث والمسامرة مع أبى الهول كان اضطرابى أعظم وحيرتى وارتباكى أكبر.

كيف بدأ الحديث

وبينما أنا غارق فى حيرتى إذ غلبنى النعاس فرأيت فيما يرى النائم أبا الهول قد تحرك نحوى ودنا منى حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، ثم توقف عن السير فقمت وهو يقول لى برفق : « لا تضطرب ولا تفزع ولا يطل بك التفكير » ، وأخذ يقص علىّ تاريخ الإنسانية من بدء المدنيات القديمة ، فوعيت مما سمعته :

إن الإنسان قد ظهر فى أول نشأته على وجه الأرض محاطاً بقوى الطبيعة التى يجهل أسرارها فدفعته غريزته فى حب البقاء ، وحمله خياله

الفطرى بسبب وهمه وضعفه على أن يتصور أن وراء تلك القُوَى أشباحاً على مثاله فى حب الذات ولكنها أكبر منه خَلْقاً وأعظم قوة، ولا يلحقها الفناء مثله، فكان يغمض عينيه ويضع أصابعه فى أذنيه حذر الموت من الصواعق .

تقديس الظواهر الطبيعية

ثم أقام الإنسان لكل أمر استعصى عليه فهمه إلهاً خاصًّا فلما تعددت الآلهة وتعقدت أمامه وسائل الزلفى لجأ إلى السحرة والكهنة ليدلوه على الآلهة التى تستطيع أن تجلب له الخير وتدفع عنه الشر . فضل بذلك ضلالا مبيناً وظل غارقاً فى ضلاله أحقاباً طويلة . ويظهر من ذلك أن الإنسان هو الذى خلق معبوداته الأولى وأقام الوسطاء بين الأرض والسماء .

عقائد الهمجية الأولى

وإننا لنحار فى تكييف عقائد الهمجية الأولى وضبط قواعدها لأنها كانت تظهر فى مكانٍ غيرها فى مكانٍ آخر ، وفى زمانٍ غيرها فى زمانٍ آخر ، وكانت تظهر أحياناً فى مكان وزمان واحد ، متباينة بين قبيلة وقبيلة ، وأسرة وأخرى ، وهى لا تخرج فى مجموعها وتفاصيلها عن سخافات وخزعبلات منشؤها الجهالة والوهم .

المدنيات الأولى

فلما بدأت الإنسانية تنهض كالطفل يحبو ويتعثر فى خطواته نشأت المدنيات الأولى بين أقوام من البشر يقطنون على شواطئ الأنهار .

ولقد وُجد منذ آلاف السنين على شواطئ النيل وبين النهرين وفى شمال العجم وغرب التركستان وجنوب بلاد العرب أقوام شيَّدوا

المعابد والهياكل وأسسوا المدن والممالك . ووجد مثل هؤلاء الأقوام في الهند والصين وجزيرة كريت ، كما وجد أمثالهم في أمريكا الوسطى ، ولا يبعد أن تأتينا الاكتشافات العلمية بأمثال تلك المدنيات الأولى في بقاع أخرى من الأرض .

غير أن المدنية الفرعونية التي نقش تاريخها على الأحجار وكتب على أوراق البردي والتي حلت رموزها بعد اكتشاف حجر رشيد إبَّانَ الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٩ م ، وكذلك مدنية ما بين النهرين (دجلة والفرات) التي رسم تاريخها على الفَخَّار هما بمثابة منارتين تهديانا إلى معرفة تطور الإنسانية في تلك الأحقاب الغابرة من الوقت الذي بدأ الإنسان يعيش فيه باعتباره كائناً مدركا ، بعد أن تغلب على عوامل الطبيعة (معضلة الوجود) وعلى أعدائه من صنوف الحيوان المفترس التي كانت تهدد الجنس البشري بالانقراض والزوال في عصور ما قبل التاريخ .

مدنية الفراعنة

ولقد بنى المصريون الأقدمون الهياكل والمعابد وشيدوا المدائن وخضعوا لسلطان الكهنة الذين كانوا يرصدون الكواكب ويحددون مواقيت الزرع وينقلون أوامر الآلهة ، كما خضعوا لسلطان الفراعنة — أبناء الآلهة — في غزواتهم وحروبهم وتشييد أهرامهم .

وقد حكمت مصر ستٌّ وعشرون أسرة من الفراعنة في مدى ثلاثة آلاف من السنين ، وكان مقر الحكم في منفيس ثم انتقل إلى طيبة . ووصلت مصر إلى أوج مجدها ومدنيتها في عهد تَحْتُمس الثالث ورمسيس الثاني ، ثم تدهورت حالها زمناً طويلا ، ولم تبلغ مجدها

السالف إلا فى عهـد أمراء سايس[1] ثم سـقطت فى أيدى الفرس فى سنة ٥٢٥ ق . م .

وكانت مصر فى تلك العصور الغابرة مقسمة إلى مقاطعات لـكل منها معبود خاص قد يكون على صورة حيوان . وكان الـكهنة عنـد غزو مقاطعـــة لأخرى يحاولون التوفيق بين معبودات المقاطعتين بأساليب خيالية فى غاية من الغرابة . مثال ذلك : أنه عنـد ما غزا أوزوريس مقاطعـة أخته إيزيس حار الـكهنة فى أيهما يكون معبـود الشعب ، وهداهم تفكيرهم أخيراً إلى حل هذه المشكلة بتزويج الأخوين المعبودين إرضاء للجميع .

أفلا ترى فى هذا أسلوباً من أساليب الحكم فى الإنسانيـة منذ القدم ؟ .

ثم ألا يدلنـا تاريخ الغزاة والفاتحين على أنهم كانوا يسـتخدمون مشاعر الشعوب وعقائدهم فى السيطرة عليهم ؟ .

ألم تعرف أن الرومان كانوا يضعون تمثال (أُوجست) بجانب تماثيل المعبودات فى البـلاد التى خضعت لحـكمهم وهم لا يعرفون عن تلك المعبودات شيئاً ولا يؤمنون بها ؟ .

أوَلم ترأن رؤساء العشائرالمتبربرة التى هاجمت الدولة الرومانية كانو يسعَوْن فى تتويج أنفسهم بأيدى قساوسة الرومان ليخدعوا الشعوب وليظهروا أمامهم بأنهم السادة الشرعيون للبلاد الخاضعة للدولة الرومانية ؟

---

(١) سايس بالقرب من بلدة بسيون بمديرية الغربية بالدلتا .

أو لم تعلم أن ملوك فرنسا من أسرة « كابت » كانوا يمسحون جباههم بزيت الإناء المقدس فى كنيسة « ريمس » كما كان يفعل الملوك الشرعيون الذين أقصوهم عن الحكم وحلوا محلهم ؟ .

أو لم يرو لنا التاريخ أن نابليون بعد أن منحه نواب الشعب سلطة الملوك طبقاً للتقاليد الديمقراطية جعل البابا يتوجه وفق الطقوس الدينية لتكون سلطته شرعية من جميع الوجوه ؟ .

وأخيراً أليس ما تراه فى عصركم الحاضر فى تتويج ملوك انكلترا فى كنيسة وستمنستر عند اعتلائهم عرش الإمبراطورية البريطانية مظهراً من مظاهر استمساكهم بتقاليد دينية قديمة لا تزال باقية عندهم إلى يومنا هذا ؟ .

ويظهر لنا مما تقدم أن كهنة الفراعنة كانوا أساتذة العالم فى تسخير مشاعر الشعوب وعقائدهم الدينية للسيادة الدنيوية ، غير أن عقائد المصريين الأقدمين كانت فى بادئ الأمر خليطاً من سخافات القبائل الهمجية الأولى والمعتقدات الجديدة التى أضافها الكهنة فى ظروف ومناسبات خاصة فكانوا يعتقدون مثلا :

١ — أن (أوزوريس) غزا مقاطعة أخته (إيزيس) وكلاهما إله معبود وقد زوجه الكهنة منها فنشأت عند قدماء المصريين عادة زواج الأخوين .

٢ — إن (ست) إله الظلام قد غدر بأخيه (أوزوريس) وقتله وألقى بجثمانه فى النيل فانتشلته أخته وزوجه (إيزيس) وأعادت جثمانه

إلى الدلتا ثم عثر (ست) على جثة أخيه (أوزوريس) فقطعها إرباً ونشر رُفاته فى جميع أنحاء مصر فأخصبت أرضها ثم جمعت (إيزيس) هذه الرفات واستعانت بأكسير الحياة فى إعادة زوجها (أوزوريس) إليها حيًّا فعاد وأخصبها ووضعت منه ابنه (هورس) .

٣ — إن (هورس) معبود الأقاليم البحرية قد حارب عمه (ست) إله الظلام انتقاماً لوالده (أوزوريس) وإن عين (هورس) اليمنى هى الشمس وعينه اليسرى هى القمر ، فإذا كسفت الشمس أو خسف القمر هاج المؤمنون به وماجوا .

٤ — إن (هورس) تحالف مع والده (أوزوريس) إله الزرع والحصاد والنيل ، ولما كان الزرع ينمو ويحصد والنيل يفيض ويهبط كان (أوزوريس) يموت ويحيا تبعاً لذلك ولذا كان (أوزوريس) قادراً على أن يلقن الناس أسرار البعث بعد الموت .

ويخيل إلينا أن هذه الأساطير العجيبة خليط من أقاصيص القبائل الهمجية الأولى مضافاً إليها ما زاده كهنة الفراعنة فى وقت كانت فيه الإنسانية فى طور طفولتها . وهذه الأساطير تكشف لنا اليوم عن صورة تكاد تكون مطابقة للغرائز البشرية والمعتقدات التى رأيناها تسود الإنسانية فى أدواها وتطوراتها المختلفة

ويرى بعض الكتاب والمؤرخين فى قصة (أزوريس) و (إيزيس) و (هورس) أساساً لنظرية التثليث التى وجدت فى المسيحية فيما بعد .

ثم ألا ترى أن قتل (ست) لأخيه (أوزوريس) شبيه بقصة

(قابيل وهابيل) ورمز لشهوة الاعتداء السائدة فى الإنسانية منذ القدم ؟

ثم كيف أن (أزوريس) وهو إله معبود يقتل فيموت ثم يَحيا ويرتفع إلى السماء ؟ .

وماذا عسانا نجد هنا من الفوارق بين أساطير المتقدمين فى (أوزوريس) وأحاديث المتأخرين فى السيد المسيح ؟ .

والواقع أن الديانة المصرية القديمة قد مرت بأدوار كثيرة فى أزمان مختلفة حتى ليجد الإنسان فى نفسه رغبة أكيدة فى أن يُرْجع إلى أصول الديانة المصرية القديمة جميعَ مبادئ وأصول الأديان التى عرفتها الإنسانية بعد ذلك . فقد كانت عقائدهم الأولى كما عرفنا مجموعة من شتات الخرافات القديمة وإضافات الكهنة . ولما اتسع ملك الفراعنة بالفتوحات والغزوات أصبحت معبوداتهم القديمة (مثل النيل) لا تصلح لأن تكون آلهة للشعوب الجديدة التى تعيش بعيدة عن النيل ، ولذلك تطورت دياناتهم وتبدلت آلهتهم بآلهة جديدة وإن كانت تَمُتُّ بصلات إلى معبوداتهم القديمة . ويدل على ذلك ما وجدناه فى أنشودة الإله الجديد (آتون) التى تقول : « أنت إله الجميع تعنى بنا وبهم — أى الشعوب البعيدة عن النيل — ولهذا أقمت النيل فى السماء لينزل عليهم بأمواجه كالبحر من رؤوس الجبال فيُروى الأرض » .[1]

ويزيد هذا التطور وضوحاً ما حدث فى دين الفراعنة بتأثير

---

(١) إشارة إلى المطر .

ظروف ومناسبات طارئة ، منها ثورة الكهنة على ملوك الفراعنة عند ما تزوجوا من نساء أجنبيات .

فعند ما تزوج تحتمس الرابع ابنة ملك ميتانيا (وكانت أجنبية) ثار الكهنة ووجدوا أنفسهم أمام مشكلة هي : كيف يكون أبناء الأجنبيات ملوكاً وآلهةً للمصريين ؟ .

وأخيراً وصلوا إلى حل هذه المشكلة بأن وضعوا طقوساً دينية معيَّنة تقام فى كل معبد وجعلوا فى المعبد حجرة خاصة تقيم فيها الملكة الأجنبية حتى يهبط عليها الإله المصرى ليُخصبها وبهذا تصبح ذراريها أبناء إله .

وظل هذا الحال متبعاً حتى تولى الحكم (أمينوفيس) الرابع المعروف بأخناتون الذى تزوج من نفرتيتى ، فلم يرتض الحل الذى وضعه الكهنة وثار عليهم وحاربهم وصادر أملاكهم وعبد إلهاً جديداً هو (آتون) وعدّه القوة الكامنة التى تنبعث من وراء الشمس والتى تسيّر العالم وتسيطر على مصيره . وأسس مدينة مقدسة جديدة لتكون مقرًّا لتلك الديانة وهي مدينة (أخيتاتون) المعروفة « بتل العمارنة » .

ولا ريب فى أن هذه الديانة الجديدة ماهي إلا تطور كبير وتوجيه للفكرة الإنسانية نحو التوحيد والتخلى عن فكرة الوثنية المادية الأولى .

ولا شك فى أن ما ابتدعه الكهنة من الطقوس الدينية حلاًّ لمشكلة أبناء الملكات الأجنبيات وثورة (أمينوفيس) على هذه الطقوس والعقائد السائدة إذ ذاك لَدَليلٌ على استعداد الإنسانية فى تلك العصور

القديمة لقبول تطورات دينية تتمشى مع مقتضيات هذه الظروف حتى لا تتعارض النظم السياسية مع العقائد الدينية التى كان لها المقام الأول .

وأكثر من هذا وذاك ما حدث من التطور فى عقائد المصريين الأقدمين ، فبعد أن كان فرعون يعتقد هو ومن حوله من الطبقات الممتازة أنهم المتمتعون وحدهم بالحياة الأبدية ، وهم وحدهم الذين لهم حق احتكار المحافظة على أجسادهم فى مماتهم قبل بعثهم ، وبعد أن دعاهم اعتقادهم هذا إلى بناء الأهرام والقبور المشيدة ، وتحنيط أجسامهم ، واحتكار الطلاسم التى تهيئ لهم الحياة الأبدية السعيدة ، رأينا هذه المعتقدات قد أخذت تصطبغ بصبغة المساواة وقد حمل ذلك الملوك على التخلى عن أهراماتهم والاكتفاء بنحت قبورهم فى سفوح الجبال . وشاركهم الشعب السعادة فى الآخرة بما وضعه الكهنة من كتب الموتى التى أودعوا فيها أسرار الحياة الروحية الأبدية والتى أخذ الناس يحصلون عليها بشرائها من المعابد وتدوين أسمائهم فيها لتصبح أرواحهم متمتعة بالحياة الأبدية بعد موتهم والاكتفاء بذلك عن إجهاد أنفسهم فى حل رموز تلك الكتب وإدراك محتوياتها .

ومما لاجدال فيه أن هذا الانقلاب كان بمثابة حادث تاريخى فى الإنسانية قرر مبدأ المساواة بين جميع الطبقات ، وإن كانت مساواة أمام الموت .

ولقد كان الانتقال من الماديات فى شكل التحنيط وإيداع الطعام والشراب فى المقابر مع الملوك إلى كتاب الموتى بما فيه من طلاسم

وروحانيات حادثاً مهمّاً فى تاريخ التطور البشرى يتمشى مع تقدم الفكر الإنسانى على مر الأيام ، ولذلك كانت أناشيد هذا العصر خالية من خرافات الوثنية المادية الأولى ، وكان عليها طابَع من مذهب الروحية المجردة (ما دامت الروح وحدها هى التى تتمتع بالحياة الأبدية) . وإنّا لنورد هنا بعض تلك الأناشيد على سبيل المثال :

١ — لقد وجدت أنشودة على ورق البردى تقول : « إنك تمر فى الحياة بقلب هادئ ثم تلحق بالغرب (أى بلاد الأموات) وروحك مثل أرواح السابقين من الأمراء والآلهة السرمديين » .

٢ — وتوجد أناشيد أخرى تثبت الإيمان بالحساب فى الآخرة كالأنشودة الآتية :

« أواه يا قلبى الذى جئت معى فى الدنيا . أرجو أن لا يقيد ضدى شئ يوم الحساب » .

ثم تقول الأنشودة والميزان منصوب : « إننى لم أسرق ولم أقتل رجلا ولا امرأة ولم أكذب ولم أزْن ولم أنطق بالكفر . . الخ » .

وفى الواقع إن الدولة الفرعونية القديمة قد سقطت من جراء اضطرابات داخلية لا يزال أمرها غامضاً على المؤرخين . ثم انتقلت مصر بعد ذلك إلى طور الرقى فبلغت أوج مدنيتها وعظمتها بالرغم من إغارة الهكسوس (وهم الملوك الرعاة) عليها نحو قرن من الزمان ولم يأفُلْ نجم تلك المدينة الزاهية الراقية إلا حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م .

ويتبين لنا مما تقدم أن الإنسانية قد نهضت على شواطئ النيل

وتقدمت بخطوات واســـعة فى عهد ملوك طيبة بين سـنة ٢٠٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق. م. وأن المعتقدات الدينية قد تهذبت حيث زالت عنها ترهات المعتقدات الأولى وخرافات الهمجية. ولم يقف أثر هذه المعتقدات عنـد هذا الحد بل ظلت مستمرة فى تطورها رويداً رويداً ورائدها تمجيد الإنسان وَرَفْعُه إلى مرتبة الألوهية، وقد سبق وادى النيل فى هذا المضمار كلاً من اليونان والرومان. ودليلنا على هذا التطور ما نراه واضحاً فى الأناشيد المصرية القديمة لذلك العصر ومنها الأنشودتان الآتيتان :

١ — « إن قلب المرء هو معبوده وإلهه وإن قلبي مطمئن لما صنعتُ فَلأَكُن مثل (الإله المعبود) » .

٢ — « أجسام تذهب وأخرى تجيء من عهد الآباء، والأجداد، والملوك. الموتى راقدون فى أهراماتهم والعظماء مدفونون فى قبورهم، فماذا صُنع بهم ؟ وأين الآن مسـتقرهم ؟ لا يأتى أحد من الآخرة ينبئنا عما فيها أو يخبرنا عن حاجاتهم لتطمئن قلوبنا حتى تدق الساعة التى نلحق فيها بهم. فَلْتَـكن فَرِحاً واتّبع رغبتك مادمت حيًّا وافعل فى الأرض ما أنت فى حاجة إليه، ولا تجعل قلبك مضطرباً حتى يأتى يومك فالآلهة مع القلب المطمئن و (أزوريس) لا يسمع العويل، والشكوى لاتنجى إنساناً فى قبره. فكن سعيداً، ولا تكن مضطرباً، ولا تبخل فالإنسان لا يحمل معه ماله، ومن ذهب لا يعود » .

مدنيات الشرق الأدنى المعاصرة لمدنية الفراعنة

وعنـد ما كنت أسمع ما يهمس به أبو الهول خطرت لى هــذه الخواطر حول مدنياتنا القديمة، فإن غزو الفراعنة للبلاد المتاخمة لحدود

بلادهم الشرقية قرَّب صلة التعارف بين المصريين وبين الشعوب التى تقطن بين النهرين وسوريا وفلسطين .

ومنذ خمسين قرناً (٣٠٠٠ سنة ق. م.) كانت (كلدة) لا تقل عن مصر مدنية ثم أغارت عليها قبائل سامية وأسست مملكة بابل (بيت الله) وكان لبابل فى العصور القديمة شهرة (منفيس) و (طيبة) فى مصر .

وبلغت (بابل) أوج مجدها فى عهد الملك (حمورابى) سنة ٢١٠٠ ق.م. ثم أغارت عليها قبائل الحِيثيين ومن بعدهم الكاسيون . وكان ملوك آشور تابعين لملوك بابل .

وفى سنة ١٢٥٠ ق. م. قهر الآشوريون البابليين وأصبحو أعظم أمراء عهدهم واتخذوا (نِيْنَوَى) عاصمة لملكهم .

ولقد استقل (بُخْتُنَصَّرُ) ملك بابل بملكه وقهر (نيقو) فرعون مصر واسترد منه سوريا ثم استولى على بيت المقدس ، وظلت بابل مملكة مستقلة حتى أغار عليها الفرس فى عهد كورس فسقطت سنة ٥٣٩ ق.م.

ولقد أثبتت آثار مصر الفرعونية صلة الفراعنة بشعوب البلاد المتآخمة لحدودهم الشرقية ولا بأس من أن نأتى هنا على بعض هذه الآثار :

(١) قد ورد ذكر قبائل المؤابيين وهم الذين ذكرت التوراة عداءهم لبنى إسرائيل منقوشاً على جدران آثار الأقصر .

(٢) وورد ذكر نهر الشريعة منقوشاً على جدران معبد الكرنك ونهر الشريعة هذا هو الذى يفصل اليوم شرقى الأردن عن فلسطين

والذى أقام على شاطئيه القـديس يوحنا المعمدان وصب من مياهه على رأس السيد المسيح .

(٣) ماورد فى صلوات رعمسيس الثانى فى حربه ضد الحيثيِّين فى شمال سوريا حينما فرّ عنه جنده فى موقعـة قادش وقد ناجى ربه بقوله :

« أين أنت يا أبى آمون ؟ هل ينسى الأب ابنه ؟ إنى أناجيـك يا أبتِ آمون وأنا وحيد وسط شعوب عديدة قد تآمرت علىّ . وخذلنى جندى وذهبتْ عَرَباتى وناديتهم فلم يجبنى أحـد . ولـكنى أجد آمون أعظم من ملايين الجند وأ كبر من آلاف العربات فهو الذى ينصرنى » .

فلبى الإله آمون دعوة ابنه قائلاً : « أنا معك وجهاً لوجـه يارعمسيس أنا آمون أنا أبوك وساعدى يشد أزرك . أنا القوى الأعلى الذى يحب البسالة والجرأة . لقد عرفت فيك قلباً شجاعاً فأنا راض عنك . فظهر آمون لمعونتى وألقى صرخة فرح عندما دفعنى لمقاتلتهم » .

وعنـدئذ لم يجد أحد من هؤلاء الأعـداء ساعداً للقتال ولا قلباً للنزال ، وارتعدت فرائصهم فلم يُحْـكموا تصويب سهامهم ولم يَقْوَوْا على رميها ، فألقيتهم فى الْيَمّ يغوصون فيه كما تغوص التماسيح ».

ولقد أثرت صلة التعارف التى كانت بين المصريين وشعوب البلاد المتاخمة لحدود بلادهم الشرقية ، فى عقائد هـــذه الشعوب الدينية لأن الإنسان متصل الحلقات فى عقائده الدينية منذ المدنيات الأولى . ولهذا نرى شبهاً كبيراً بين عقائد المدنية الـكلدانية (السـامرية) وما بين النهرين وبين عقائد الفراعنة — وإن تباينت أسمـاء الآلهة وتضاربت

أساطير العقائد — فقد كان لهم فى كل مدينة معبود حتى تعددت معبوداتهم بتعدد مدنهم، ومثال ذلك أن (مردخ) كان معبود أهل بابل كما كان (آشور) معبود الأشوريين . وكان لكل معبود رسول وهذا الرسول هو الملك الذى يسيطر على قومه ويشيد المعبد للإله ويقدم له القربان ويغزو باسمه المقاطعات المجاورة ويزوجه من بناته .

ولقد وصف هيرودوت الغرفة التى كانت تقيم فيها ابنة الملك المختارة لأن تكون زوجاً للاله المعبود كما وصفت التوراة صورة من هذه العقائد[1] .

ولقد كانت قبائل العبرانيين قريبة من الكلدانيين لأن إبراهيم عليه السلام جاء من (أُور) فى أرض الكلدان وهو الذى أمره ربه أن يفتدى ابنه بِذِبْح عظيم ففعل كما جاء فى الكتب المقدسة والقرآن الكريم .

ويقول بعض المؤرخين إن عادة تقديم الضحايا البشرية للآلهة كانت شائعة معروفة فى (أور) حتى جاء (أورخان) ملك (أور) فأبطل تقديم الضحايا البشرية للآلهة واستبدل بها الذبائح الحيوانية — وعلى كل فإن الافتداء بالذبائح الحيوانية ليس إلا ارتقاء بالفكر الإنسانى فى ذلك العهد .

---

(١) جاء فى سفر التكوين — الإصحاح السادس — (١ — ٤) ما نصه : « وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرب : لا يدين روحى فى الإنسان إلى الأبد لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة — كان فى الأرض طغاة فى تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم » .

ولم يستقر لبنى إسرائيل بعد إبراهيم عليه السلام — وهم أحفاده — قرار، لأن الأمم المجاورة لهم من الكنمانيين والأشوريين والبابليين كانوا أشداء أقوياء، وكان بنو إسرائيل مشتتين بين اثنى عشر سبطاً وكانوا يجتمعون فى الأعياد والأسواق فى بقعة محايدة بين قبيلتى يهوذا وبنيامين فلما كثر عددهم وقلت مراعيهم انتشروا نحو الجنوب . وتروى التوراة خبر التجائهم إلى الحيثيين ليأووهم . ثم إلى المصريين ليستوطنوهم . وقصة يوسف الصديق وآل يعقوب فى مصر مفصلة تفصيلا كاملاً فى التوراة (من أول الإصحاح الثامن والثلاثين إلى آخر سفر التكوين) وفى القرآن الكريم فى سورة يوسف عليه السلام . وقد أفردت التوراة جزأين هما التكوين والخروج لشرح قصة موسى عليه السلام تلك القصة التى فسر القرآن أمرها فى عدة سور منها سورتا الأعْرَاف وَطَـهَ .

وإنه ليبدو عجيباً أن تثبت الكتب السماوية حوادث هاتين القصتين فى غير موضع ويقيم بنو إسرائيل ردحاً طويلا من الزمن فى مصر ، ومع كل هذا لا يوجد أثر واحد يشير إليها فى النقوش الهيروغليفيّة على الأحجار المصرية الفرعونية أو على أوراق البردى . ومن أجل هذا يقول العلامة (اليزيه ريكلوس) فى مؤلَّفه (الإنسان والأرض) فى الجزء الثانى صفحة ٦٢ : « إنه عند ما أخذ علماء العاديات المصرية يدرسون آثارها ويقرأون نقوشها ويجمعون تاريخها كان المؤمنون بالتوراة يعتقدون أن آثار مصر ونقوشها ستقدم شهادة صادقة على صحة وقائع

هذه الأقاصيص المدوّنة فى كتابهم ، ولكن آمالهم قد ذهبت هباء لخلوّ هذه الآثار والنقوش مما يؤيد صحة ما جاء بكتابهم .

وإننا مع احترامنا للعلامة (ريكلوس) لا نستطيع أن نوافقه على ما ذهب إليه من إنكار القصص المدونة فى التوراة وجعل ما جاء بها موضع شك بحجة أن الآثار المصرية لم تثبتها وذلك :

أولا — لأننا نعلم أن النقوش المصرية القديمة كانت تدون بمعرفة كتبة الكهنة أو كتبة ملوك الفراعنة وأولئك وهؤلاء كانوا لا يدوّنون إلا ما يروقهم ويتفق مع سياستهم فكتاباتهم فى هذا تشبه البلاغات الرسمية فى وقتنا الحاضر ولذا لا يصح أن نسلم بها ونتخذها معولا لهدم ما جاء فى الكتب السماوية ، كما لا يجوز لنا أن نعطيها من الأهمية غير قيمتها لأننا نعرف الأغراض التى كانت تتوخاها وترمى إليها .

ثانياً — لأن جميع ما ترجم إلى الآن من الكتابات والنقوش الهيروغليفية قليل جدًّا لا يقام له وزن بجانب تاريخ المصريين الحافل بالحوادث فى ستين قرناً ، ومعقول جدًّا أن يسقط كثير من مجموع ما أمكن ترجمته إلى الآن من حوادث مصر فى تلك العصور الغابرة الممعنة فى القدم .

ومهما يكن من شىء فإن ما ذهب إليه العلامة (ريكلوس) لا يحول بيننا وبين الاعتماد على التوراة ما دامت أغراضنا التى نرمى إليها هى تتبع التطورات الإنسانية وتدرّج الأفكار والعقائد فى العصور المختلفة .

ومما لا شك فيه أن التوراة كتاب تداولته أمم كثيرة منذ آلاف

السنين ويؤمن به ملايين من الناس وقد تطورت به عقائدهم فهو بلا ريب أحد الينابيع التى نستق منها عند بحثنا فى العقائد الإنسانية فى تلك العصور الغابرة .

كذلك لا ريب عندنا فى أن الفكرة الدينية لم تَرْقَ فى الإنسانية إلى درجة التوحيد الكامل إلا فى عهد بنى إسرائيل .

صحيح أن الفراعنة قد أدمجوا فى وقت ما آلهتهم إدماجاً قربهم من طريق التوحيد وكادت عقائد بابل تتجه فى النهاية إلى فكرة التوحيد فى صورة من الصور، لأن اللوح الذى كتب فى سنة ٢٠٠٠ ق.م.وقبل موسى، يدل على أن جميع آلهة بابل لم تكن إلا صوراً متنوعة من (مردخ) ولكن التدرج فى العقائد لم يتم تطوره ولم يتسرب إلى جمهرة الشعوب ولم يثبت على الدهر إلا بعد أن نادى به أنبياء بنى إسرائيل وثبتوا عليه وقتاً طويلا .

لذا لا نكون مخطئين ولا مسرفين إذا قلنا : إن عهد بنى إسرائيل هو عهد ظهور التوحيدَ للإله والتعدد فى الأنبياء والرسل .

ولما كانت رحلات بنى إسرائيل قد امتدت شمالا إلى (حيران) بالقرب من جبال (طوروس) وشرقاً (إلى بابل) وغرباً إلى (سوريا) وجنوباً إلى (مصر) كان مما لا شك فيه أن هذه الرحلات قد أثرت فى مدارك هذا الشعب المتنقل بين النيل والفرات ، وجعلته يفقه أصول العقائد المختلفة فى أمم متباعدة كانت فى هذه العصور مهد المدنيات الأولى فلما حط هذا الشعب رحاله فى شبه جزيرة سَيْناء قبل أن يصل إلى أرض

الميلاد كانت هذه المرحلة الأخيرة مرحلة تدبر واستجمام أمام مرتفعات من الجبال ذات ألوان جميلة ، تعلوها سماء صافية الأديم ، وفوق صحراء رائعة مترامية الأطراف وقد بعث ذلك في النفس المستجمة إعجاباً وهدوءاً وفي الجسم المُضْنَي راحة ، وفي العقل الحائر تفكيراً وتدبراً ، وهناك تلقى موسى أوامر ربه .

ومما تجب ملاحظته ، أن القوانين العبرية تشبه قوانين (حمورابي)[1] — وقوانين (حمورابي) ذاتها هي مجموعة لشرائع أخرى كانت موجودة في عهد السومريين والأكديين ومن عاصرهم أو جاء بعدهم من الشعوب التي استوطنت ما بين النهرين . وفي عهد (حَمُورابي) كان هناك ميل صادق إلى تنسيق هذه الشرائع وتقنينها وتبويبها وقد جمعت في ثنتين وثمانين ومائتي مادة وسميت بقوانين حمورابي .

وتمتاز مجموعة (حمورابي) هذه عن غيرها من المدوّنات القديمة بمَيزات منها :

١ — أنها لم توضع في أسلوب شعري كقانون الألواح الرومانية وقانون (مانو) الهندي وإنما وضعت في أسلوب علمي يماثل أسلوب القوانين الحديثة .

٢ — أنها على صغر حجمها جاءت مشتملة على :

(ا) الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وتَبَنٍّ ووصاية .

(ب) المعاملات من بيع وشراء وإجارة ومزارعة واستيداع .

---

(١) كشفت حفريات مسيو دى مرجان فى سنتى ١٩٠١ و ١٩٠٢ فى مقاطعة سوس بالعراق عن مسلة من الحجر الأسود يبلغ ارتفاعها نحو مترين وربع المتر قد نقشت عليها صورة الملك حورابى واقفاً بين يدى الإله شماس يتلق منه الشريعة التى نقشت على وجهى المسلة .

(ﺟ) العقوبات لجرائم الاعتداء على النفس والمال .

(ء) الأحكام التجارية والحربية .

٣ — إنها خلو من الأحكام الدينية اللهم إلا بعض امتيازات مدنية للراهبات فى معاملاتهن .

ولذا قد اعتبرها علماء تاريخ القانون أنها أول صحيفة مدونة (أى قانون مدون) فى تاريخ علم الحقوق .

ولم يكن استيطان هذه البقاع من الأرض مقصوراً على المصريين والسومريين وبنى إسرائيل فى هذا العهد فقد وجدت شعوب عاشت بعيدة عن مواطن المدنيات الزراعية وكانوا من البدو الرحل الذين يعيشون من تنقلهم بين مراعى الصيف ومراعى الشتاء ولم يعرفوا ما عرفه أهل الحضر من العناية بالهياكل والمعابد والركون إلى كهنة يدبرون لهم شئونهم الروحية .

وقد كثر الغزو فى هذا العهد وابتليت الشعوب بحروب طاحنة مستمرة .

فالأكاديون (فى عهد ملكهم سِرْجَون) قد أخضعوا السومريين نحو قرنين ولم يخلصهم من حكمهم إلاّ حمورابى الذى حكم السومريين حوالى سنة ٢١٠٠ ق. م.

وأغار الهكسوس (المعروفون بالملوك الرعاة) على مصر وأخضعوها لحكمهم واستوطنوها ولم يخرجوا منها إلا بثورة أهلية حوالى سنة ١٦٠٠ ق. م.

واستوطن الفينيقيّون (وهم قبائل سامية) شواطىء البحر الأبيض وأسسوا مدينتى صور وصيدا وموانئ تجارية كقرطاجنة واستحدثوا من كل من الكتابة السومرية والرسوم الهيروغليفية طريقةً كتابيةً جديدةً أكثر بساطة وسهولة من الكتابة القديمة. وقد عَبَرت حروفهم الهجائية بحر إيجه ودخلت بلاد اليونان وهناك أدخل عليها بعض التحسين ونقلت إلى إيطاليا فصقلها الرومان حتى انتهت إلى الحروف الهجائية اللاتينية .

وبالرغم من قيام الفينيقيين بهذا العمل الجليل لم تعرف لهم عقائد دينية ذات أثر فى تطور المدنية .

ويطول بنا الحديث إذا ما استقصينا حوادث الغزو والتطاحن فى هذا العهد الذى نسميه بحق عهد التنازع بين مدنيتى النيل والفرات وحسبنا أن نعرف أن هذا التنازع قد دام نحو ألف سنة وشمل شعوباً سامية أخرى كالبابليين والأشوريين والحيثيين والسومريين وظل الجميع فى حروب دائمة بين مد وجزر ونصر وقهر حتى دهمهم العنصر الآرى وانتزع من أيديهم شعلة المدنية لينير بها طريق الإنسانية فى تطوراتها المقبلة .

الحديث الثانى

تطور الحضارة عند الإغريق

لقد جاءتنى دعوة من (دار الفنانين) لحضور حفلتهم الساهرة فى أول أبريل سنة ١٩٣٩ بسفح أبى الهول فخشيت أن تكون دعوتهم من دعابات إبريل ولكنى وطدت العزم على إجابة الدعوة لحضور الحفلة وقلت فى نفسي إذا كانت الدعوة أكذوبة ولم أجد حفلة فإنى واجد أبا الهول لا محالة ،.. وكيف لا أجده وهو رابض فى مكانه لم يعرف التاريخ له بداية . تؤمه منذ أجيال بعيدة شعوب من أمم مختلفة ، يزوره أفراد منها فى أية ساعة من ساعات النهار أو الليل فيجدونه فى مكانه لا يخلف لهم وعداً . يستقبل الجميع من ألمان وأسبان وانجليز وفرنسيس وأمريكان بابتسامته العذبة الساخرَة وكأن لسان حاله يقول :

« لأى داع جعلتم فى مصوَّراتكم الجغرافية بداية خطوط الطول جزيرة الحديد بألمانيا أو مدينة مدريد بأسبانيا أو ضاحية جرينويتش بانكلترا أو مدينة باريس بفرنسا ولم تتخذوا مكانى لكم جميعاً بداية لخطوط الطول وأنا المقيم قبل أن تقام المدائن والعواصم والرابض مكانى وقد عفت آثار طرواده وقرطاجنه » .

وما وافت ساعة الاجتماع حتى كنت فى مكانى بين الحاضرين أشهد معهم حفل دار الفنانين وفى نهاية الحفل أطلقت السهوم النارية وحجب

عنى دخانها الكثيف جمهور الحاضرين فى الحفل فسبحت فى تأملاتى وأخذتنى سنة من النوم رأيت فيها أبا الهول يقبل علىّ هاشًّا حتى صار أمامى فوقف تبدو منه ابتسامة حلوة عريضة كأنه يرحب بمقدمى ويأنس بوجودى. وقد أحسست فى نفسي بشجاعة لم أعهدها فى مقابلتى الأولى له وخاطبته قائلا : لقد حدثتنى عن تاريخ الإنسانية فى مصر وبابل وفينيقيا مما أذكره ولا أنساه ، وإنى لأرجو منك الآن أن تحدثنى حديثاً جديداً عن شعوب أخرى لعبت دوراً مهما فى حضارة الإنسان ، فبدا عليه من الدهش ما لا عهد لى به وأشار إلى شبح وراءه وقال لى : ألا تعرف من هذا الذى تراه خلق ؟ فنظرت إليه مَلِيّا وقلت له : لعلى تخيلته وما عرفته. فقال : إنه أبو التاريخ (هيرودوت) سلْه عما تريد فمنده الخبر اليقين.

فتقدمت إليه بالتماسى من أبى الهول ولمحت ما بدا عليه من ارتياح وسرور وقد انبسطت أسارير وجهه وشرع يقول :

هيرودوت يتكلم

إن حضارةَ الإنسان سلسلة متصلة الحلقات من بدء الخليقة إلى اليوم وهى تنتقل فى موجات من قطر إلى قطر وتزداد فى كل مرة قوة وسرعة وتصطبغ بصبغة تؤهلها شيئاً فشيئاً لأن تصبح حضارة عالمية كما ترون فى وقتكم هذا.

فقلت له : وأين ذهبت المدنيات الأولى ؟ وكيف عَفَت آثارها ؟ وما الذى طغى عليها ؟ وقد أجابنى بقوله : عند ما آذنت شمس مدنيات مصر وبابل وفينيقيا بالأفول أخذت شعوب هذه الممالك فى أسباب التدهور والاضمحلال وظهر على مسرح تلك المدنيات القديمة جنس

آخر من البشر هو العنصر الهندى الأوربى (وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه أغار على أوربا والهند معاً) وهو أبيض البشرة كالعنصر السامى ولكنه يتكلم بلغة أخرى هى أم اللغات الأوربية إذا استثنينا اللغة المجرية والفنلندية والصقلبية .

ويسمى هذا العنصر أيضاً بالعنصر الآرى وكان يقطن بالقرب من بحر قزوين ثم انتشر شرقاً وغرباً واستقر بعضه فى أعالى هضبات إيران ونزح بعضه إلى سهول أوربا ووديانها ثم انحدر بعض المستقرين فى هضبات إيران نحو شواطئ نهر السند (الهند الانكليزية) . وأسس من بقى منهم على تلك الهضاب مملكتى (ميديا وفارس) اللتين بقيتا إلى عهد كسرى الذى سيطر على مملكة ميديا واتسع ملكه فى عهد خلفائه حتى شمل كل آسيا الغربية ومصر التى فتحت فى عهد قمبيز فى سنة ٥٢٥ ق . م . ولم تقف غزوات الفرس عند هذا الحد ، بل اتجهت غرباً نحو أوربا وهناك اصطدمت شعبة العنصر الآرى الأسيوية بشعبته الآرية الأوربية فى الركن الجنوبى الشرقى من أوربا فوقعت بينهما (الفرس والإغريق) حروب عرفت فى التاريخ بالحروب الميدية ، وقد انتهت بانتصار الإغريق ، الذين تناولوا شعلة المدنية من الشعوب الشرقية التى سبقتهم إليها وأورثوها بعدُ إلى الإمبراطورية الرومانية .

فقلت له : وكيف تطورت المعتقدات الدينية عند الفرس ؟

فأجاب قائلا : كان الفرس قبل زرادشت مضطربى العقيدة لا يعبدون إلهاً واحداً ، إذ كانوا يعبدون مظاهر الطبيعة ويرمزون لها

بالنار المقدسة ويشعلونها فى معابدهم وظلوا على هـذه الحال حتى ظهر رئيسهم ونبيهم زرادشت فى القرن الثامن قبل الميلاد، فأحدث لهم ديناً جديداً جاء فيـه . إنه لا يوجد فى العـالم إلا إلهان : إله الخير وهو (أهورامزدا) ويرضيه العمل الصالح . وإله الشر وهو (أهْرَمِنْ) وقد تنازعا وكتب النصر فى النهاية لإله الخير (أهورامزدا) فكان جديراً بأن يعبد وحده وبذا تطورت معتقداتهم الدينية وارتقت .

فقلت له : أليس لهؤلاء كتاب مقدس ؟

فأجاب بأن لهم كتاباً مقدساً يعرف بـ (الأفستا) وقد وضع فيما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ولم يخل من القصص الخرافية المعروفة عند الأقدمين .

فقلت لهيرودوت : قلتَ لى إن شعبتى العنصر الآرى اشتبكتا فى حروب انتهت بانتصار الإغريق وتناولهم شعلة المدنية التى كانت تحملها الشعوب الشرقية التى سبقتهم إلى المدنية فهل الإغريق هم الذين تناولوا شعلة المدنية من الشرقيين مباشرة ؟ .

فأجابني قائلا : لا أستطيع أن أقول ذلك لأن الإغريق من الشعبة الآرية الأوربية التى لم تستقر فى شبه جزيرة اليونان إلا بعد أن تغلبت على شعب آخر من الإيجيين وهم من التجار والبحارة الذين استوطنوا جزر بحر إيجه وكريت، وكانوا واسطة التعارف بين شعوب المدنيات الشرقية القديمة والشعوب الأوربية التى أخذت ترقى وهي على شواطئ البحر الأبيض عن طريق تناولها لتلك المدنيات رويداً رويداً .

فالإيجيون هم الذين اتصلوا بالشرق أولا منـذ أسسوا لهم امبراطورية بحرية عاصمتها (نوس) على الشاطئ الغربى من جزيرة كريت ، وهم الذين تناولوا شعلة المدنية من الشعوب الشرقية وظلوا يحملونها حتى غزتهم قبائل آرية همجية نزحت من شمال أوربا إلى شبه جزيرة اليونان وجزر بحر إيجه واتصلت بهم (بالإيجيين) وأخذت عنهم صـناعة الأسلحة وبناء السفن . ولما قوى شأنهم واشتد بأسهم حاربوا الإيجيين وغزوا جزرهم ومدائنهم وطاردوهم وحلوا محلهم ، ولم تمض عشرة قرون حتى كانوا هم سادة اليونان وجزر بحر إيجه وسواحل آسيا الصغرى ، ثم هدموا آخر معقل للمدنية القديمة باستيلائهم على مدينة طروادة فى القرن العاشر قبل الميلاد ، وتناولوا شعلة المدنية التى كانت بيد الإيجيين ، والتى أناروا بها طريق المدنية الأوربية ، وهؤلاء هم آبائى الإغريق .

فقلت له : وبماذا كانت تسمى هذه القبائل الآرية الهمجية ؟ ومن أى عنصر هي؟ وهل يوجد دليل قاطع يثبت أنهم هم الذين غزوا الإيجيين وحلوا محلهم ؟

فأجابنى بقوله : هـذه القبائل الآرية كانت تسمى قديماً بقبائل الهيلين (Hellins) وهى فرع من شجرة العنصر الآرى الذى كان يقطن فى الأصل بالقرب من بحر قزوين ولا شك فى أن هذه القبائل هى التى غزت الإيجيين وطاردتهم ، فالإلياذة والأوذيسة المنسوبتان إلى الشاعر (هوميروس) تحدثاننا بأسلوبهما الخلاب عن فتح مدينة طروادة . وإذا كانت أقاصيص الإغريق وأناشيدهم لم تتحدث عن إحراق مدينة نوس

عاصمة كريت فإنها قد تحدثت عن الملك مينوس وقصره الفخم بجزيرة كريت، وهو المعروف باللابيرنت (لما حواه من المداخل الكاذبة والمخارج الخادعة) مما لا يدع مجالا للشك فى أن قبائل الهيلين (القبائل اليونانية) هى التى حلت محل الإيجيين وانتزعت من أيديهم مِشعل المدنية الذى سبق لهم تناوله من شعوب طيبة وبابل. ولقد كانت قبائل الهيلين همجية قبل أن تتصل بالإيجيين، وما كادت تتصل بهم حتى خلعت رداء الهمجية وارتدت حُلّة المدنية وما كادت تَحُل مكانهم فى حكم البلاد حتى أسست مدنيّة أخرى بنظم تخالف المدنيات الأولى فى الحكم والسياسة، والاجتماع، والاقتصاد. ولعل أعظم الأسباب فى هذا التباين أن شعوب النيل والفرات كانت خاضعة لملوك فى مصاف الآلهة، وكهنة كانوا وحدهم منبع العلم والحكمة، إذ كان الفراعنة آلهة وأبناء آلهة، وكان ملوك بابل وما بين النهرين رسل آلهة جبّارة وكان الملوك والكهنة يسكنون قصوراً لا تعلم عامة الشعب عنها شيئاً ولا تعرف إلا الخضوع لأوامر ساكنيها.

أما الهيليون فكانوا قبائل متعددة كالأيوليين والإيجيين والأيونيين والدوريين وقد استوطنوا مع تعددهم هذا بلاداً جبلية وجزراً مبعثرة ولذا لم يكونوا شعباً واحداً يحكمه ملك يسكن قصراً بعيداً ولا يُرَى من شعبه إلاّ نادراً، بل كانوا شعوباً كثيرة أسسوا ممالك صغيرة كانت فى الأصل قرى تدرّجت إلى مدائن، وكان سكان كل مملكة يجتمعون فى صورة (مجلس أسرة) ليدبروا شئونهم فيختارون قائد الجند

إذا ما حاربوا ، ويفضّون خصوماتهم إذا ما شجر بينهم خلاف ، وهم جميعاً متساوون فى الحقوق مُتَمارَفون بينهم .

ولا ريب فى أن طبيعة مثل هـذه الحياة تقضى بأن يكون عدد سكان هذه المدائن محدوداً ، ولهذا قال أرسطو : « إن خير وطن هو ذلك الذى يصل فيه صوت الخطيب إلى سمع آخر مواطن » . كما تقضى مثل هذه البيئات المحدودة العدد بأن يكون عمل كل فرد عرضة لنقد جميع أفراد عشيرته ولهـذا نمت فى نفوس الأفراد عادة الإتقان والاعتدال فى تلك الممالك الصغيرة .

وعلى الرغم من أن هـذه الممالك كانت منفصلة بعضها عن بعض مستقلة بذاتها مثل أثينا واسبارطة وكورنت وطيبة وساموس وميليت فقد كانت تربطها روابط أدبية ومادية وثيقة فالأناشيد والأقاصيص التى يُتَغنى بها وتتحدث عن مجد الآباء والأجداد كانت تُتلى فى هذه المدن وترتل بين سكانها قبل أن يتعلم الهيليون الكتابة من الإيجيين ويدونوها ، وكانت الألعاب الألومبية تجمع أكثر سكان هذه الممالك فى صعيد واحد (Olympus) كل أربع سنوات وتفرض على المتحاربين منهم هدنة أثناء هذه الاجتماعات ، وقضت عليهم المعاملات التجارية بعقـد المحالفات والمعاهدات بينهم — وهذا النظام بعينه هو الذى كان سائداً فى جهة أخرى من العالم وهى جزيرة العرب ، حيث كانت تعقد الأسواق الأدبية فى الأشهر الحُرُم ، (أشهر الهدنة بين الأفراد والجماعات) فى عكاظ ومجنَّة وذى المجاز يتبارَوْن فى الأدب ، ويتفاخرون بالنسب — ولقد استمر

التخاصم والتنازع بالرغم من كل هذا بين هـذه الممالك حتى فى أشد الأوقات خطراً عليهم : وأعظم مثل لهذا التنازع ما كان بين إسبارطة وأثينا . ولقدكان التباين بين هاتين المملـكتين عظيما لا لأسباب جغرافية واستعمارية وتقليدية فحسب ، بل لأسباب هامة أخرى منها :

أن إسبارطة كانت ضيقة الصدر لا تعرف التسامح ولا حسن المعاملة ولا الرحمة لغير (الدوريان) وذلك لأن قبائل الدوريان بعد أن استقروا فى شبه جزيرة (البلوبينيز) — أى الجزء الجنوبى من اليونان — أخذوا يطاردون السكان الأصليين ويسومونهم الخسف . ولقلة عدد الدوريان كان جل اعتمادهم على قوتهم وبأسهم ولهذا شرع لهم (ليكورج) القوانين التي تعزز قوتهم فكانت جماعة الإسـبارطيين أو المملكة الإسبارطية تأخذ أولاد الدوريان وهم فى السابعة من عمرهم لتدربهم على القتال وأنواع البأس والقوة ليكونوا أشداء على من يعيشون معهم من السكان الأصليين ، وهم أكثر عدداً منهم وأشد بغضاً لهم .

ومنها أن أثينا كانت أوسع صدراً وأكثر تسامحاً من إسبارطة وكانت موطن قبيلة الأيونيين الذين كانوا يرحبون باللاجئين إليها من القبائل الأخرى .

ولئن كان الرق معروفاً فى كلتيهما إلا أن وطأته فى أثينا كانت أخف جداً وأهون مما كانت عليه فى إسبارطة .

ولقد طلب الأثينيون من (دراكون) أن يُشرّع لهم تشريعاً يكون لهم منهاجاً يسيرون عليه ، فسن لهم قانوناً كان غاية فى القسوة والصرامة ،

إذ كان الإعدام عقوبة للسرقة ولو كانت بسيطة ، وترتب على ذلك أن كثر عندهم الإعدام حتى قيل : « إن أثينا لا تملك من الحبال ما يكفى لشنق المجرمين » . وقيل أيضاً : « إن قوانين داركون لم تُخَط بالمداد وإنما خطّت بالدم » . ولذا لجأ الأثينيون إلى (سولون) ليُشرّع لهم تشريعاً يتناسب وحالتهم وقتئذ ، فأراد حماية الشعب من الأرستقراطيين وهم جماعة الأغنياء الذين اشتروا بأموالهم الأسلحة واستخدموا الجنود المرتزقة كعُدّة لهم ليسيطروا على الحكم . وأراد كذلك حماية الفقراء من تعسف القضاة الذين كانوا يُختارون من طبقة الأغنياء بلا راتب ، فوضع نظام حكم الشعب بالشعب ، وجعل لكل فرد الحق فى طلب ثلاثين من العدول المحلَّفين للفصل فى خصومته ، وكان هذا أول أساس للنظام الديمقراطى فى العالم كما أنه يعتبر مبدءاً لنظام العدول المحلَّفين .

ولا يبدأ التاريخ المدوّن عن الإغريق إلا من هذا الوقت الذى وجدت فيه إسبارطة الإرستقراطية بجانب أثينا الديمقراطية .

وقد أثبت هذا التاريخ أن (فيدون) أحد الحكام المسيطرين فى (ارجوليد) قد سَكَّ العملة باسمه ليتاجر مع فينيقيا وآسيا الصغرى .

وأن بيزيسترات بعد أن تمكن بدهائه وبمساعدة الجنود المرتزقة من السيطرة على أثينا أخذ يوجه جهود الشعب الأثينى إلى إنشاء امبراطورية يونانية عظيمة عن طريق التوسع الاستعمارى ، ولهذا اهتم بيزيسترات بتنظيم إنشاد الشعر الهوميرى وإقامة أسواق أدبية لإلقاء هذه الأشعار وهذا مما أذكى شعور اليونانيين على اختلاف قبائلهم

وممالكهم ، ولمقاومة النفوذ الفارسى بصفة خاصة ، ذلك النفوذ الذى كان سائداً فى الشرق مهد المدنيات الأولى .

ولما حذا الإغريق فى هذا المهد حذو الفينيقيين فى إنشاء المستعمرات على سواحل آسيا الصغرى بقصد التجارة ، رأى الفرس ضرورة إخضاع تلك المستعمرات لسلطانهم فبدأت الحروب الميدية بين الفرس والإغريق وحاول الفرس غزو شبه جزيرة اليونان ثلاث مرات فى أوقات مختلفة فلم يفلحوا .

ولكن هذه الانتصارات الإغريقية أثارت روح الحسد والموجدة بين أثينا وإسبارطة فنشبت بينهما حروب دامية دامت ثلاثين سنة وانتهت بسقوط أثينا بالرغم مما بذله (بركليس) زعيم الديمقراطية فى تحصين أثينا التى فشا فيها الطاعون فقضى على نصف سكانها ، وبسقوطها استولى الإسبرطيون على أسطولها ، وهدموا قلاعها ، ودمروا أسوارها . ولكنهم لم يستطيعوا أن ينتزعوا منها الفكر اليونانى والمدنية الإغريقية والتأثير الأدبى .

وبعد الحروب الداخلية بين أثينا وإسبارطة التى انتهت بالقضاء على الأولى وإضعاف الثانية ظهر فيليب المقدونى فأخضع الدويلات اليونانية لحكمه ثم بزغ نجم ابنه الاسكندر الأكبر تلميذ أرسطو الإغريقى ، فأتم ما بدأه أبوه وقضى على المنازعات القائمة بين الممالك القديمة بإخضاعها لأمره ، ودفع الشعب اليونانى إلى فتوحاته الجديدة لإنشاء امبراطورية عالمية مكونة من فينيقيا ومصر (التى تُوِّج فيها باسم ابن الإله آمون)

وفارس والهند ، وجعل من هذا العالم مستعمرة مقدونية مصطبغة بالمدنية الإغريقية . ولذا نشر اللغة الإغريقية وبنى المدن على الطراز الإغريقى ، ثم دهمه الموت فى قصر حمورابى ملك بابل فى سنة ٣٢٨ ق . م .

وهنا نفخ هيرودوت صدره ، وشَمَخ بأنفه وقال :

لعلك بعد هذا لا تشك فى أن للإغريق مركزاً ممتازاً فى تاريخ الإنسانية وهم الذين ورثوا مدنية الفراعنة والبابليين والإيجيين ، واعتنقوا المعتقدات القديمة لهذه الشعوب بعد أن هذبوها لتلائم تطور الزمن .

وإذا كان الجنس البشرى قضى لمجرد البقاء أحقاباً طويلة فى كفاح شاق بين قُوَى الطبيعة العاتية ، والنزاع الدموى مع بقية الحيوانات الفاتكة ، وإذا كانت أول مرحلة بعد هذا الجهد الطويل إنما هى مرحلة الإحساس بالحيرة والدهش حتى جاءت المدنيات الأولى ، وجعلت الإنسانية تضع تأويلات ميثولوجية لقوى الطبيعة ، وكانت هذه التأويلات تتغير من حين لحين تبعاً للمستوى العقلى فى كل عصر ، فإن جماعة المفكرين من الإغريق الذين كانوا يسكنون الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى قد وجهوا الفكر الإنسانى نحو معرفة المادة الأولى التى يتركب منها كل ما فى هذا الوجود ، وبهذا تجاوز الفكر الإنسانى حدود الميثولوجية ، فلم يعد الناس يتساءلون عمن خلق العالم ، بل تساءلوا عن العناصر الأولية التى يتكون منها هذا العالم .

فقلت له : إن هذا الانتقال من المرحلة الميثولوجية إلى مرحلة العلم والفلسفة لم يكن انتقالا تامًّا وليس الإغريق وحدهم هم الذين ابتدعوه .

فمثــلا :

١ — إن المـاء الذى وجد فيــه (طاليس) أصل كل شئ يذكرنا بأوزوريس وقد نقلها عن العقائد المصرية .

٢ — وإن النار التى رجَع إليها (هرقليطس) الأشياء كلها تذكّرنا برِع إله الشمس . وعلى هذا يستطيع الباحث الصبور ، أن يعيد ما محته الدهور من صحـائف التفكير الإنســانى ، ولا أظنك تنكر أن التفكير العلمى والفلسفى الإغريقى مدين إلى حدٍّ كبير للتفكير الميثولوجى السابق عليه ، كما أنه مدين لمصر الفرعونية وبلاد ما بين النهرين .

فقال هيرودوت[1] : إن الفكر الإنسانى قبل الإغريق كان ضالا فى ميــدان الخرافات الهمجية فهداه الإغريق إلى ميدان البحث العقلى . ويؤيدهذا ما ذهب إليه الفيلسوف (اكزنيفون) — من سنة ٥٧٠ إلى سنة ٤٨٠ ق . م . — من أنه لا يوجد إلا إله واحـد لا يشبه المخلوقات الأخرى فى شئ ، وقد حمل حملة شعواء على تعدد الآلهة فى عصره وعلى التشبيه الدينى الذى جعل الآلهة على مثـال الإنسان . وهو الذى وضع عبارة (الـكل واحد) و (الواحد هو الله) وهى نظرية الحلول والاتحاد ووحدة الوجود .

وترى بين مفكرى الإغريق الفيلسوف (ليوسيباس) وهو الذى وضع النظرية الذَّريّة التى نسبت إلى تلميذه الفيلسوف (ديموكريتس)

---

(١) كان هيرودوت مقراً بحضارة المصريين وتفوقهم على قومه وبأن الإغريق نقلوا كثيراً من ديانات المصريين كما هو معروف من كتابه .

ولذلك أطلق عليه اسم (أبو الفيزيقا) . وهو الذى يرى أن الذرات ليست ساكنة بل متحركة وبهذا قد ذلل الصعوبة التى كانت تعترض المفكرين إلى عهد (نيوتن) وهى : كيف تحركت المادة الساكنة لأول مرة ؟ وبذا كانت النظرية الذرية هى التى وضعت تفسيراً ميكانيكياً للكون قائماً على أساس المادة والحركة .

فقلت له : يعزو الكثيرون هذا التطور فى الفكر الإنسانى إلى ضعف عامل الدين عند الإغريق ، ولكن يبدو لى أن السواد الأعظم من هذا الشعب كان متديناً ومؤمناً بكثير من المعتقدات القديمة فقد اعتنق الإغريق شتى المعتقدات القديمة وقدسوا الغابات والأنهار والحيوان وكانوا يرون أن الإله (أَبْلُون) كان فى الأصل ذئباً وأن (زوس) كان أوزة وأن (أرتميس) كانت دُبًّا وأن (ذيمتير) كانت فرساً كما كان عندهم إله لإغاء الزرع وإله لطرد الذباب . فلما تكونت الممالك الصغيرة أصبح لكل منها ديانة خاصة رسمية ، كما كانوا يرون أن لزوس — وهو الإله الأعظم — زوجاً هى (هيرا) وكان (أثينا) للحرب و (أفروديت) للحب . أما الإله زوس فكان يحكم فى الأجواء لأنه هو الرعد وأن أخاه (بوسيدون) يحكم فى البحار وأن (أبلون) هو إله التنبؤات وأن أخته (أرتميس) للصيد والقنص وأن (هيفا يستوس) يحكم النار ويصهر المعادن .

وكانت لهم آلهة كثيرة ، ومعتقدات معقدة ، لا يمكن معها إيجاد نظام أو أسلوب تظهر فيه الروابط ، ولذا كانت الميثولوجية الإغريقية

عبارة عن فوضى الأديان ومتناقضاتها ، إذ نجد مثلا آلهة تنزح من الشمال وتندمج فى الأسرة المقدسة ، كما نجد أبطالا من البشر يصعدون إلى مقام الآلهة استجابة لرغبة الشعب مثل هرقل .

فقال هيرودوت : إن الطبقة الممتازة هى التى استنكرت وحدها سخافة تلك المعتقدات . وهى التى حاولت تفسيرها وتأويلها تأويلا ميثولوجيا لتهذيبها ، ثم ألبستها رداء الشعر والأدب لتظهر رواءها . وفى اعتقادى أن ما سميته فوضى الأديان هو الذى أيقظ الفكر الإنسانى ونفض عنه غبار القرون القديمة وحمل الأوساط الممتازة عندنا معشر الإغريق على أن يُحكِّموا العقل ويثوروا على مألوف التقاليد والمعتقدات .

ومما لا شك فيه أن الحروب الميدية وهجرة مفكرى الإغريق من شواطئ آسيا الصغرى قد أثارت اهتماماً كبيراً واسع المدى بالعلم فى جهات أخرى من شبه الجزيرة اليونانية ، وقد تجلى ذلك فيما تجاوب بين الطوائف الكثيرة من المفكرين والفلاسفة حيث قام الحكماء يوجهون نقدهم للعقائد السائدة ، ويحملون غيرهم من المفكرين على محاولة حل المشاكل الكبرى للحياة البشرية .

جاء (بركليس) رجل أثينا العظيم يقيم بناء ما خربته الحروب ويعيد تشييد (الأكروبول) ويجمع فى أثينا الشعراء والفلاسفة والبنائين والنحاتين والرسامين ، وأذكت أثينا عبقريات مثل (أناكساجوراس) وهو أول من وصف الشمس والكواكب وصفاً علمياً . كما أنجبت عباقرة الفلاسفة أمثال : (سقراط) و (أفلاطون) و (أرسطو)

وإذا كان سقراط قد حكم عليه بالإعدام وسقي السم ، إلا أن تعاليمه بقيت حية ماثلة ، فقد حمل لواءها أفلاطون أكبر تلاميذه (من سنة ٤٢٧ إلى سنة ٣٤٧ ق . م .) بجرأة عظيمة ودعا الناس للخروج على العقائد السائدة فى عصره ، وجعلهم يعتقدون أن فى استطاعتهم التغلب على مفاسد السياسة والاجتماع ، وأن سبب بلائهم هو جهلهم بحقيقة قوتهم ، وهو الذى وضع كتاب الجمهورية كما تصورها . وكتاب القوانين الذى لم يتم وضعه ، غير أن آراءه كانت فى الواقع أمانىّ لم تتحقق ، ثم جاء بعده تلميذه أرسطو يقرر أن الإنسان لا يعرف حقيقة أمره حتى تتسع دائرة معارفه . وتَدِقّ بحوثه . مما أدى بطبيعة الحال إلى الخوض فى المباحث العلمية ، وله آراء معروفة فى التاريخ الطبيعى والسياسة والأخلاق .

وبالإجمال نرى أن الإغريق قد خَطَوا بالإنسانية خُطوة كبيرة وارتضوا حكم العقل فى كل شىء ، ونبذوا ما عداه .

ولذا لم يكن الفكر الإنسانى حرًّا طليقًا قبل تلك النهضة الفكرية . بل كان يرزح تحت أثقال من قيود المعتقدات السائدة . والتقاليد القائمة حتى جاء أفلاطون وأرسطو ورفعا عنه أثقاله وفكَّا عنه قيوده .

فقلت له : لا أنكر عليك شيئًا مما قلت . ولا أكون مبالغًا إذا قلت : إن سادة الكهنوت المسيحى قد استخدموا الفكر اليونانى فى مسائل التثليث والتجسد والفداء ، ولكن لا تنس خطأ الإغريق فى أنهم كانوا يؤمنون بالنظريات المستندة إلى الإثبات المنطقى من غير ما اعتماد على العلوم التجريبية التى يعتمد عليها قادة الفكر فى عصرنا الحاضر ،

ثم لا يغيب عن ذاكرتك يا أبا التاريخ أن تحرير الفكر الإنسانى من قيود المعتقدات التقليدية القديمة لم يكن من عمل الإغريق وحدهم ، بل شاركهم فى ذلك أبطال من معاصريهم من شعوب أخرى فى جهات نائية ، وكانوا فى ذلك كفلاسفة الإغريق سواء بسواء . إذ كان فى نفس القرن السادس قبل الميلاد وفى الوقت الذى كان فيه (هيراقليطس) ينشر تعاليمه الحرة بين الإغريق كان (اشعياء) أحد أنبياء بنى إسرائيل يبشر الناس فى الشرق الأدنى ، ويعمل فى سبيل تحرير العقل الإنسانى وكان (بوذا) فى الهند و (كونفشيوس) فى الصين ينشران عقائدهما الحرة فى الشرق الأقصى .

ومن هذا ترى أن موجة التحرر من القيود القديمة فى القرن السادس قبل الميلاد لم تكن قاصرة على اليونان ، بل امتدت من البحر الأبيض إلى المحيط الهادى .

وهنا صمت هيرودوت طويلا وأخذ (يعبث بعصاه فى الأرض) فى تفكير عميق ، واستعراض طويل ، ثم خرج عن صمته بنظرة فاحصة فانفرجت شفتاه عن قوله :

لقد حدثتك ياصاح عن الإغريق وفلاسفتهم ، وأثرهم فى تطور الفكر الإنسانى وتحريره من قيود المعتقدات القديمة السائدة إذ ذاك فأشركت معهم أبطالاً آخرين . فعليك أن تحدثنى عن أبطال شعوب الشرقين الأدنى والأقصى الذين ذكرت أنهم لعبوا دوراً مهماً لا يقل شأناً عما قام به فلاسفة اليونان فى سبيل تحرير العقل الإنسانى .

فقلت له : استمع إلىّ فإنى محدثك عن هؤلاء الأبطال وسأبدأ الحديث بأنبياء بنى إسرائيل :

(١) أنبياء بنى إسرائيل

إن جماعة من بنى إسرائل خرجوا من بين صفوف الشعب وأخذوا يعظونه ويوقظونه لكى لا يستسلم إلى ملوكه وكهانه الذين كانوا يتآمرون مع أعدائه الأجانب من الغزاة والفاتحين لاستعباده والسيطرة عليه .

وكان هؤلاء الأنبياء يرسلون أقوالهم « عندما تجذبهم روحانيتهم » كأنهم ينطقون باسم الله فكانوا يبدأون حديثهم غالباً بإحدى هاتين العبارتين « اسمعوا كلام الرب » أو « هكذا قال الرب » .

وإذا رجعنا إلى أقوال بعضهم المدونة فى التوراة مثل أقوال (عاموس) و (ميخا) و (أشعياء) فإننا لا نتردد فى الحكم بأنهم كانوا يعملون لتحرير العالم من التقليد الأعمى للعقائد الإنسانية القديمة وتخليص عقائد بنى إسرائيل من كثير من شوائب الوثنية المادية والمظاهر الكاذبة للطقوس الدينية[1] .

وأنت تعلم يا أبا التاريخ أنه لم يستقر قرار لبنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر إلا فى عهد (يوشع) بعد وفاة موسى عليه السلام ، وقد استوطنوا فى أول الأمر أرض الكنعانيين (وهى هضبة واقعة بين البحر الأبيض

(١) يراجع سفر أشعياء الإصحاح الأول فهو يقول : اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم اصغوا الى شريعة إلهنا يا شعب عمورة لماذا لى كثرة ذبائحكم — يقول الرب تخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس — ما أسر حينما تأتون لتظهروا أمامى — من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دورى — لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة البخور هو مكره لى — رأس الشهر والسبت ونداء المحفل لست أطيق الإثم والاعتكاف إلخ .

ووادى نهر الشريعة عند منعطفه) واستمروا من ذلك العهد فى حرب دائمة، وقتال مستمر مع الشعوب الأخرى المجاورة لهم .

وتروى لنا التوراة فى سفر القضاة أقاصيص حماسية عن مغامراتهم وانتصاراتهم بقيادة زعمائهم أمثال (يفتاح) و (شمشون) على القبائل المجاورة لهم مثل الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين وأهل مَدْين .

وتروى لنا كذلك التوراة وقائع كثيرة عن خذلانهم وتدهورهم ويُعْزَى ذلك دائماً إلى خروج بنى إسرائيل عن تعاليم رسلهم ، وانحرافهم عن شريعة موسى وإبراهيم عليهما السلام .

ثم تروى لنا التوراة أيضاً أن بنى إسرائيل قد التجأوا إلى نبيهم (صمويل) ليختار لهم ملكاً ينضوون تحت لوائه فى قتالهم ضد الفلسطينيين ، فاختار لهم (شاؤول)[1] ولم يكن من أبناء (لاوى) فرع النبوة ، ولا من غصن (يهوذا) أصحاب الملك . وعندما التقى الجمعان خرج رجل من جيوش الفلسطينيين اسمه (جليات)[2] يطلب المبارزة فانبرى له داود عليه السلام وقهره باسم إله بنى إسرائيل ، ثم تولى الحكم وأسس مملكة إسرائيلية جعل قاعدتها (أورشَلِيم) « بيت المقدس » فى عام ١٠٠٠ ق. م. ثم تولى من بعده ابنه سليمان ، وهو الذى شيد المعبد المشهور الشامخ البنيان العالى الأركان ويقول المؤرخون إن سليمان عليه السلام تزوج من ابنة فرعون مصر وتحالف مع بلقيس ملكة (سبأ)

(١ و ٢) وهما الوارد ذكرهما فى القرآن باسمى طالوت وجالوت .

وحيرام ملك (صور) الفينيقية .

ولا ريب فى أن لهذا التحالف مع فينيقيا أثراً كبيراً فى تجارة العالم التى اتجهت منذ ذلك الحين من شواطىء البحر الأبيض إلى أورشليم، وإلى الخليج الفارسى ، حتى الشرق الأقصى .

ولا يخفى أن طرق التجارة إذا كانت تنقل السلع بين الشعوب فإنها تنشر بينهم الآراء والمعتقدات .

ومعروف أن أُورشَليمَ وقعت تحت سيطرة الأشوريين زمناً ، فلما سقطت نِيْنَوَى عاصمة الأشوريين فى يد البابليين فتح (بُخْتُنَصَّرُ) ملكُ بابل مدينة أورشليم وانتهك حرمة بيت المقدس ، وعطل العبادة فيه ، وأسقط شرفاته ، وساق اليهود إلى منفاهم فى مدينة بابل فى عام ٥٨٦ ق . م . ولم يعودوا إلاّ فى عام ٥٣٨ ق . م عند ما سقطت بابل بدورها فى يد الفرس فى عهد الملك (كورس) الذى سمح لهم بالعودة إليها .

ولقد يحار المرء عند ما يجد هذا الشعب الصغير قد حافظ بالرغم مما حل به من المحن على تقاليده وعقائده ، بل وأعياده وطقوسه الدينية فى حين أن العقائد لم يكن لها وجود فى الشعوب الأخرى المعاصرة له ، فيتساءل الإنسان أين : (أزوريس) و (مردوخ) و (أشور) و (أهورامزدا) ؟ بل أين البابليون والأشوريون والفينيقيون والفرس ؟ ، وكيف تندمج كل هذه الشعوب فى غيرها وتتطور معتقداتها ، ويبقى بنو إسرائيل وحدهم بعقائدهم وطقوسهم ، حتى وأعيادهم كما كانوا فى عهد موسى وإبراهيم وداود وسليمان ؟ .

ويعزو كثير من المفكرين تكوين وحدة بنى إسرائيل ، وحفظ عقيدتهم طوال الدهور إلى كتابهم المقدس وهو التوراة ، غير أننا لا نجد فى هذا مُقْنِعاً لأننا إذا فكرنا فى تاريخ الشعوب الأخرى وجدنا أن لها كتباً كالتوراة ، فللفرس كتاب قديم هو الافستا ، وللبابليين قانون حمورابى وكتاب الحكمة ، وللمصريين القدماء كتب منقوشة على الصخر الصلد باقية إلى اليوم ، فلِمَ لم يحتفظ هؤلاء وأولئك بعقائدهم الأولى ؟

يخيل إلينا أن فكرة التوحيد التى دعا إليها أنبياء بنى إسرائيل ، وعملوا لتخليصها من شوائب الوثنية هى سر هذا الارتباط الروحى القوى بين هذا الشعب الصغير . وبَدَهِىٌّ أن العقائد التى تؤسس على تعدد الآلهة والأصنام والمعابد تزول متى تحطمت الأصنام وتهدمت المعابد ، أما عقيدة التوحيد وعبادة إله واحد كائن أثره فى كل مكان فهى عقيدة روحية باقية لا يمحوها هدم المعابد ولا تحطيم الأصنام .

(٢) بوذا فى الهند

وإنى أرى لزاماً علىَّ — قبل أن أحدثك عن بوذا وتعاليمه وأثرها فى نفوس الملوك والشعوب ، وانتشارها فى الهند والصين وما جاورهما انتشاراً دعا إلى حب السلم ونشر الثقافة — أن أقف بك قليلاً عند الفترة التى سبقت ظهور بوذا فى الهند ، لتُلم إلماماً خاطفاً بما كان فى الهند من طبقات متعددة ذات عقائد متنوعة وكتب مقدسة متغايرة ، تدل فى مجموعها على مبلغ ما تضم هذه البلاد من ثروات دينية تحتاج فى شرحها إلى دراسات مستفيضة ، وبحوث عميقة لا يتسع لها المقام هنا ،

ولذا نجتزىء منها بذكر أكثرها شيوعاً :

١ — العقيدة السلبية : وهى تدعو إلى الزهادة فى الحياة . ولا تقول بأن الحياة مملوءة بالآلام والمتاعب فحسب ، بل تقرر أنه لامعنى لها أصلا ، ويجب على المتعبد أن يَروض نفسه على إنكار الحياة ولذاتها .

وهذه العقيدة تناقض تعاليم مؤسسى العقائد فى الشعوب الأخرى ومنهم (زرادشت) الذى نزح إلى الهند ، وسبق لنا الحديث عنه .

ويخيل إلينا أنه ليس لما فى هذه البلاد من الفروق الجنسية والعنصرية شأن فى هذه العقيدة السلبية .

فالآريون فى الهند سلبيون ، وإخوانهم الآريون فى فارس إيجابيون. ولم يظهر للعقيدة السلبية وجود فى أصول الديانات الأخرى إلا فى فترات قصيرة الأجل لا تذكر ، كما حدث عند فلاسفة الإغريق فى آخر عهدهم .

على أن هذه العقيدة لم توجد فى الهند ذاتها من أول الأمر عند الفتح الآرى ، بدليل الأناشيد الأولى المدونة فى كتاب (الاڤيدا) والتى يطلب فيها من الإله (إندرا) الثروة والنصر وطول الحياة ، مقابل ما يقدم له من القربان .

٢ — العقيدة البرهمية : وقد اعتنقها البراهمة وهم الذين يرَيِّضون أنفسهم رياضة روحية وجسمية ، ويشربون شراباً مخدراً يسمى (السوما) حتى ترتعد فرائصُهم وتعتريهم غيبوبة فيحُل فيهم روح الإله ، وبهذا يصبح لهؤلاء المتعبدين قوة خارقة للعادة .

ومنشأ هذه العقيـدة : أنهم يعتقدون أن كل كائن هو ذرّة من الرّوح العامّ يستمد وجوده منه ، ثم يرجع إليه فى النهاية .

والرّوح العام عندهم أشبه بالموقد الذى يرسل الشرر فى اتجاهات عدة ، ولا يقنع متعبدو البراهمة بهذا الاعتقاد ، بل عليهم مزاولته عمليا بالجسم والروح .

٣ — عقيدة التجسد المتكرر : ومنشأ هذه العقيدة قصة دينية . موضوعها : أن الأرواح تمر بعـد الموت فى طريقها إلى السماء بالقمر فتستقر فيه فترة من الزمن ، ثم يصعد بعضها إلى السماء ، ويعود البعض الآخر إلى الأرض مع المطر ، فتتجسد من جديد فى أشباح آدميـة أو حيوانية تبعاً لأعمال أصحابها قبل موتهم . ومن هـذا وجدت نظريات كثيرة تبحث عن علاقة الروح بالجسد وكيف يكون الخلاص الروحى من هذا الأسر المادى .

ونخيّل إلينا أن هـذه العقائد وتلك النظريات كانت كلها ممهدة لظهور بوذا .

بوذا ومذهبه

إن أصل اسم بوذا (سيد هارتا) ومعناه الملهَم أو الموصَى ، وهو من أسرة شريفـة تحكم فى إحدى مقاطعات (هملايا) ، وكان كغيره كارهاً للحياة ، ولذا اتجه فكره إلى البحث عن الخلاص من متاعب هذه الحياة التى تتجدد بتكرار التجسد ، وبينما هو غارق فى بحثه ، إذ رأى فى ذات يوم زاهداً يجوب البلاد ، وهو سابح فى تأملاته فاعتزم أن يحذو حذوه ، إلا أنه ما كاد يهمّ بما انتواه حتى علم بأن زوجه

وضعت مولوداً فقال لفوره : « ها هو ذا رباط جديد من أربطة الحياة يجب حله » . وبالرغم من الاحتفاء العظيم بمقدم هذا المولود ، فقد أصرّ بوذا على ضرورة تطليق تلك الحياة المرحة إلى حيث لا رجعة . وفعلاً ذهب فى دجى الغسق إلى غرفة زوجه ليلقى آخر نظرة عليها وعلى ولدها الذى بين ذراعيها ، ثم امتطى صهوة جواده وأرخى له العنان ، وسار يطوى به الأرض حتى التقى فى طريقه بيائس رثّ الثياب ، فخلع عليه حلته وارتدى منه رداءه الممزق ، وأخذ يجوب الآفاق منقّباً عن الحكمة التى ينشدها .

واستعان بوذا فى أول أمره بالصوم ، والقمع ، والتهجد ، والحرمان ليهتدى إلى طريق الخلاص فلم يوفق واقتنع بأن هذه الوسائل لن تصل به إلى ما يريد ، فعدل عنها وطلب الطعام ، وأعلن أن الإنسان لن يصل إلى معرفة الحقائق بغير جسم قوىّ وعقل نقيّ ، وترتب على ذلك أن هجره أنصاره الخمسة ، وبقي وحده فى عزلته وقضى يوماً وليلة فى تأملات عميقة بددت شكوكه ، وكشفت له عن الحقيقة واضحة صافية ، فعاد أدراجه إلى مدينة (بناريس) وجمع حوله أنصاره الخمسة من جديد ، وأقام بمساعدتهم أكواخاً فى حديقة الشوادن ليقيموا بها ، وليلقنوا الناس تعاليمه ، وأهمها :

أن السبب فى آلام الحياة كامن فى الشهوات الشخصية وأن الإنسان سيبقى حزيناً متألماً حتى يستطيع قهر شهواته ، وأن لتلك الشهوات ثلاث صور أصلية :

الأولى : الحساسية . والثانية : الرغبة فى البقاء والخلود فى الحياة . والثالثة : شهوة الظفر والنجاح .

هذه هى تعاليم بوذا . وإنى أرى أنها وإن كانت تتجه إلى وجهة أخرى بعيدة عن مباحث فلاسفة الإغريق ، كطاليس وهيراقليطس ، وبعيدة عن تعاليم أنبياء بنى إسرائيل المعاصرين له ، إلا أنى أراهم جميعاً قد اشتركوا بتعاليمهم وفلسفتهم فى تحرير الفكر الإنسانى فى ذلك العهد من قيود المعتقدات القديمة ، ولعمرى إن فى ذلك لارتقاء بالإنسانية ، وتمهيداً للمباحث العلمية التى ظهرت بعدُ .

ولقد ذاعت تعاليم بوذا فى الهند وبلغت أوج شهرتها ومجدها منذ اعتنقها حفيد (شندراجربتا) وهو الملك (اسوكا) الذى اتسع ملكه فى الهند فشمل البقاع من الأفغان إلى مدراس ، وحكم ثمانية وعشرين عاماً ، عدل فيها — منذ اعتناقه تعاليم بوذا — عن الغزو والفتح فكانت كلها أمناً وسلاماً ، وقد وجه فى خلالها جهوده إلى إنشاء المستشفيات والمتنزهات ، ونشر الثقافة فى ربوع البلاد بين السكان ، وأرسل البعوث إلى كشمير ، وفارس ، وسيلان ، والإسكندرية ، وارتضى لنفسه أن يظل حكمه رمزاً للأمن والسلام . وكان هذا سبباً فى نشر البوذية فى الصين وسيام وبورما واليابان من أيام حكمه إلى وقتنا هذا .

(٣) كنفشيوس ولاو فى الصين

إن تاريخ الصين القديم لأشد غموضاً من التاريخ القديم للهند والواقع أن المدنيات الأولى فى هذه البلاد الواسعة الأرجاء وجدت على شواطىء الأنهار أيضاً ، وأن الشعوب كانت فى تلك العصور الأولى خاضعة

لسلطان الملوك والكهان، كما كان الحال فى مصر وبابل وأمريكا الوسطى.

ويظهر أن القبائل البدوية الهمجية المعروفة بالهونس والمغول والتتار قد انحدرت من الشمال وهاجمت تلك المدنيات الأولى فاختلطت العناصر البشرية كما حدث فى شمال أوربا وآسيا الوسطى.

وكانت الصين فى سنة ١٧٥٠ ق.م. مقسمة إلى ممالك صغيرة تدفع الجزية إلى امبراطور من الكهنة، من أسرة (شونج) يطلق عليه اسم (ابن السماء)، ثم انقرضت هذه الأسرة فى سنة ١١٢٥ ق. م. وجاءت بعدها أسرة (تشو) فى عهد الملك (أسوكا) الهندى والبطالسة فى مصر. ثم انقسمت هذه البلاد إلى ممالك بلغ عددها فى القرن السادس قبل الميلاد نيفاً وخمسة آلاف مملكة. ويسمّى مؤرخو الصين هذا القرن (بعهد الفوضى).

كنفشيوس ومذهبه

لقد وُجد (كنفشيوس) فى هذا العهد المضطرب، كما وجدت فلاسفة اليونان فى عهد انقسامها وكما وجد أنبياء بنى إسرائيل فى عهد المنفى فى بابل. (وكأنّ مصائب الشعوب هى التى تُزجى إلى قلوبهم حرارةً تبين عنها مذاهبهم وشرائعهم).

وولد (كنفشيوس) هذا فى سنة ٥٥٠ ق. م. وعاش فى عهد ساد فيه السلب والنهب، وأدرك أنه لن يستطيع منع الشرور بسن القوانين، وأن خير علاج لهذه الأدواء المتفشية هو تغيير الشعور العام عند ملايين السكان. ولم يلجأ إلى تأسيس دين ولم يدّع أنه ملهَم ولا أنه مبعوث برسالة من القدرة الإلهية. ولعل الذى حمله على هذا مايعرفه عن الصينيين

من أنهم وإن كانوا يصدقون بوجود الأبالسة والمردة من الجن شأن الشعوب الأولى فى العصور الغابرة إلا أنهم قليلو العناية بالأديان ، ولذا اتجهت تعاليمه نحو الدعوة إلى الأخلاق الكريمة واحتمال المصائب كما يحتملها القدريون ، ونشر الفضائل بين أبناء جلدته وتخيل نظاماً جديداً للحكم وأخذ يبحث – كما فعل أفلاطون بعد قرن ونصف – عن أمير يصلح لهذا الحكم الصالح فلم يجد ومات ولكن بقيت تعاليمه حية .

لاو وتعاليمه

لقد كانت تعاليم (لاو) أكثر غموضاً ، وهى ترجع فى جملتها إلى الأسرار الخفية ولذا كانت مؤلفاته التى تركها مملوءة بالألغاز مما سهل على أنصاره أن يدخلوا عليها شوائب كثيرة من الوساوس والخزعبلات ، كادعائهم بأن لديهم إكسيراً لطول الحياة وغير ذلك من الخرافات التى لا يزال أثرها موجوداً حتى اليوم .

ولم تخل تعاليم بوذا وكنفشيوس من مثل تلك الشوائب بعد موتهما ، لأن الشعوب مفطورة على الميل إلى تصديق الخرافات والأسرار الخفية ، ولا أدل على ذلك من أن بوذا وكنفشيوس أصبحا بعد موتهما إلهين معبودين .

تعاليم بوذا فى اليابان

يقول المؤرخون بأن الشعب اليابانى خليط من شعوب كثيرة هبطت الجزيرة اليابانية واندمج بعضها فى بعض فاتحدت أجناسهم وعاداتهم وأخلاقهم ثم هذبوها وصقلوها . وتقول أقاصيصهم القومية القديمة « بأن الأسرة الإمبراطورية الحالية يرجع تاريخها إلى خمسة وعشرين قرناً ونصف القرن ، وأنها من نسل (المينوتنو) المدعو

(بالقديس الفاتح) الذى ينحدر من الآلهة التى خلقت العالم . وأن ثلاثة وعشرين ومائة امبراطور توارثوا حكم هذه البلاد جيلاً بعد جيل بلا انقطاع » .

ولم يبدأ التاريخ المدوّن لهذه البلاد إلا بعد أن عرفت الكتابة الصينية ، ومعروف أن المدنية الصينية القديمة قد امتد ظلها إلى كوريا واليابان ولهذا يسمى الصينيون كوريا واليابان باسمين صينيين هما : « صحو الصباح » و « الشمس المشرقة » .

وقد انتشرت فى اليابان عقيدة بوذا فقضت على دينها القديم المعروف بـ (شنتو) وهو نوع من عبادة الأجداد وتقديم الضحايا للأبطال من الأموات .

ومن العجيب أن تعاليم بوذا العادلة الرحيمة كانت أكثر انتشاراً بين الطبقة العسكرية اليابانية صاحبة البأس والقوة .

ويظهر أن الطبقة العسكرية قد أخذت العقيدة السلبية فى الحياة وفسرتها بعدم الاكتراث بالموت ، ومن هذا وجد الفداء والانتحار على طريقة (هِرا كيرى) كما وجد قانون الشرف العسكرى اليابانى . وبهذا مسخت تعاليم بوذا وانحرفت عن أصلها إلى العكس منه .

ويظهر من جميع ما تقدم أن الإنسانية قد أنجبت فى القرن السادس قبل الميلاد أبطالاً من بنى الإنسان متباعدين فى الموطن ، ولكنهم يعملون جميعاً وفى عهد واحد لغاية واحدة ، وهدف واحد ، هو تحرير الفكر الإنسانى من قيود الخرافات القديمة ، فى الوقت

الذى كان فيه هيراقليطس وباقى فلاسفة اليونان ينشرون تعاليمهم الحرة بين الإغريق كان (أشعيا) وباقى أنبياء بنى إسرائيل يعظون النـاس فى الشرق الأدنى ، ويوجهونهم إلى فـكرة التوحيد ، كذلك كان (بوذا) فى الهند و (كنفشيوس) و (لاو) فى الصين ينشرون عقائدهم الحرة الجديدة فى الشرق الأقصى . فكأن القرن السادس قبل الميلاد قد أيقظ فـكر العالم من البحر الأبيض إلى المحيط الهادى ، وهز الإنسانية بعد أن قضت عشرين ألف سـنة فى طفولتها حتى بلغت سن المراهقـة وتحررت من قيود المعتقدات الخرافية القديمة .

ومن هذا يتبين لنا يا أبا التاريخ أن الإغريق لم ينفردوا بنشر التعاليم الحرة التى سمت بالإنسانية ، وقضت على القيود القديمة للفكر الإنسانى .

وعند ما وصلتُ إلى هنا فى حديثى مع هيرودوت لمحت أبا الهول وهو يلقى بنظره بعيداً نحو مدينـة منف فالتفتُّ نحوها وإذا بى أرى شبحاً يعدو نحونا مسرعاً وهو متقلدٌ سـيفاً وعلى رأسه مِغفر كأنه من قواد الرومان ورأيت أبا الهول يهمُّ باستقباله ببشاشته المعهودة ، ويشير إليه بالجلوس فى مكان هيرودوت الذى هم بالانصراف .



الحديث الثالث

أبو الهول

أخبرني أبو الهول بأن هــذا الزائر هو أكتاف امبراطور الرومان ، الذي أغرق أسطول كليوبطرة فى واقعــة أكسيوم فى عام ٣١ ق . م وقهر فى الإسكندرية القائد المعروف (أنطونيو) الذى أحب كليوبطرة . فسنحت لى فرصة الـكلام عن الدولة الرومانية التى تركت أثراً كبيراً فى تاريخ أوربا وتطور الحضارة فيها وكأن أبا الهول وقد أدرك ما يجول بخاطرى يقول لى ها هو ذا أكبر أباطرة الرومان يحدثك عن تاريخهم .

أكتاف

فعندئذ أطرق أكتاف برأسه وقال: بماذا أحدثك أأسْرُدُ لك تاريخ دولة لها شأنها وخطرها فى تطور الحضارة أم أحدثك عن الانقسامات والحروب الداخلية التى سالت فيها الدماء أنهاراً ؟ أنظر إلى تاريخ جدى لأمى وهو القيصر يوليوس الذى رفع شأن الدولة الرومانيــة بفتوحاته العظيمة ولم يكن نصيبه فى آخر الأمر إلا الاغتيال من أخص أعوانه ضرباً بالسـيوف فى مجلس السيناتو ، ولم أجد أمامى إذ ذاك سبيلا غير ترك معهد أثينا الذى كنت أتلقى فيه علومى والذهاب إلى روما للمطالبة بميراث القيصر الذى كان قد تبنّانى . لقد ذهبت وأنا أحمل لقب ابنــه المتبنّى ووارثه الشرعى كما أحمل فى الوقت نفسه فكرة الانتقام له .

وعندئذ بادرته بقولى : إن تاريخ الإنسانية مملوء بالدموع والدماء والمآسى ، بيد أن هذا التاريخ نفسه يحمل بين طياته تقدم الإنسانية والحضارة وارتقاءها ، وكثيراً ما شاهدنا أن المدنيات العظيمة قد تنشأ عن معتقدات لم تكن فى الواقع إلا أقاصيص خرافية لا تتفق مع العقل والمنطق ، ومثال ذلك أن المؤرخ (تيت ليف) الذى عاش بين سنة ٥٩ ق . م وسنة ١٩ م روى لنا أساطير خرافية عن تأسيس وإسكان مدينة روما .

وقد ذكر لنا فى تأسيس هذه المدينة أن (يانوس) «Janus» بن (أبولون) «Appolon» أحد آلهة الإغريق أسس مدينة على تل (يانيكول) «Janicule» وأعطى تل (الكابيتول) «Capitole» إلى (زحل) «Saturue» وهو إله الزمان بعد أن طرد من جبل (الأولمبيا) «Olumpia» كما أنه زوج ابنته لابنه «Enee» المجاهد المعروف بمغامراته العظيمة بعد سقوط (طرواده) . وقد أنجبت منه (أسكانى) «Ascagne» الذى أسس مدينة (ألب) «Albe» وكان له ولدان هما (أميليوس) «Amulius» و(نوميتور) «Numitor» . وقد عزل الأولُ الثانى عن عرش مدينة ألب غير أن نوميتور المعزول كانت له ابنة اقترنت بالمريخ «Mars» وهو إله الحرب وأنجبت منه توأمين هما (رومولوس) و(ريموس) «Romulus et Remus» . وقد وضع أميليوس هذين التوأمين على ضفة نهر التيبر «Tibre» ليدركهما الفيضان ويقضى عليهما فجاءت ذئبة وتولت إرضاعهما وتعهدهما أحد الرعاة إلى أن اشتد ساعدهما

ووقفا على قصتهما ، وعندئذ قاما بقتل أميليوس انتقاماً ، وأعادا جدهما مونيتور إلى العرش .

وقد كافأهما جدهما بإقطاعهما جميع الأراضى المعروفة بالسبعة تلال على شاطىء نهر التيبر فاعتزما إقامة مدينة جديدة عليها ، واستلهما الطيور ليقفا منها على اسم مَنْ منهما يطلق على هذه المدينة الجديدة . وصعد ريموس على تل (أفانتان) «Avantin» وتسلق روميلوس تل (البلاتان) «Platan» . وقد مر على الأول ستة من البزاة . ومر على الثانى اثنا عشر بازاً ، وبذا تعين إطلاق اسم روميلوس على المدينة . فأخذ روميلوس هذا يخط على الأرض بمحراث يجره ثور أبيض وبقرة بيضاء مكان السور الذى أقيم فيما بعد لهذه المدينة ، أما ريموس فقد قفز فوق هذا السور نكاية فى أخيه روميلوس الذى بادر بقتله لفعلته هذه قائلا : إن هذا هو مصير كل من تحدثه نفسه بأن يتخطى هذا السور : وكان ذلك فى عام ٧٥٣ ق . م .

ويقول لنا (تيت ليف) فى كيفية إسكان مدينة روما : إن روميلوس دعا السابين «Sabins» وهى قبيلة من العنصر الآرى كانت تقطن بجوار روما إلى اجتماع عام للألعاب الرياضية ، وهنا اختطف سكان روما القليلو العدد بنات السابين وتزوجوا منهن ، فنشبت بين العنصرين حرب لم تقف رحاها إلا عند ما تدخلت بنات السابين بين آبائهن وأزواجهن ، فتصالحوا وعاشوا على وفاق .

ولا ريب فى أن هذه الأساطير تحمل طابَعَ الأقاصيص الخرافية

القديمة عن آلهة الإغريق وسور الصين المشهور[1] و (أوزوريس) و (ست) وقصة (قابيل وهابيل) .

أبو الهول

ولما وصلت إلى هذا الحد من القول لفتى أبو الهول إلى الحوار الذى دار بينى و بين هيرودوت قبل مقدم أكتاف وتبينّا منه أن معتقدات الشعوب إنما هى سلسلة متصلة الحلقات بعضها ببعض منذ القدم .

أكتاف

وعندئذ بدأ أكتاف حديثه قائلاً : نعم إن الرومان قد ورثوا عقائد الشعوب القديمة قبل أن يكون لها قوة الاعتقاد الدينى فكان الرومان يعنون بالطقوس الظاهرة والمراسم الخارجية دون أن يكون لها تأثير قوى فى نفوسهم ، فكانت دياناتهم بادىء بدء جافّةً ليس فيها غير المظاهر ، وكانت آلهتهم كثيرة لاعداد لها[2] وسبب ذلك أنهم

(١) هذا السور هو خط دفاعى لصد غارات التتار أنشىء فى شمال الصين فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وطوله ٢٢٠٠ كيلو متراً وارتفاعه يختلف ما بين خمسة أمتار وعشرة أمتار ويسمح عرضه لمرور ستة من الفرسان فوقه جنباً إلى جنب .

(٢) كان للرومان إله للباب وآخر لقبة الباب وستة آلهة للأطفال يعلمونهم الصراخ والرضاعة والأكل والشرب والخروج من المنزل والعودة إليه وكان الرومان كثيرى التفاؤل والتشاؤم وكانوا يستلهمون الإله قبل الإقدام على المهم من الأعمال وكان للحكومة إله مثل إله الأفراد والعائلات فكان (يانوس) إله باب مدينة روما وكان تمثاله يحمل وجهين يتجه أحدهما إلى خارج المدينة ويتجه الثانى إلى داخلها وكان باب معبده مغلقاً وقت السلم ومفتوحاً وقت الحرب ليخرج منه الجيش الرومانى لملاقاة العدو .

وكان عندهم الإله (جوبيتير) «Jupiter» مثل (زيس) «Zeus» عند اليونان وهو إله السماء والجو والرعد . وكانت لهم آلهة للزرع والأعياد الريفية وكان من عاداتهم أن يحتفلوا فى آخر شهر ديسمبر بعيد زحل وهو إله البذر فيتبادلون الزيارات والهدايا ومن هنا جاء الاحتفال بعيد رأس السنة الميلادية فى وقتنا الحاضر .

وكان لملوك روما كهان ينبئونهم عن إرادة الإله بأن يرسموا بعصيهم خطاً متجهاً نحو السماء أو أنهم يلقون الحب للدجاج ثم يتكهنون عن إجابة الآلهة فيما يسألونهم عنه بما يبدو لهم من تغريد الطيور أو من مبلغ شهية الدجاج فى التقاط الحب وأكله حتى إنه يروى أن أحد قواد الرومان خشى على جنده من الهزيمة عندما عافت الدجاج أكل الحب فأمر بأن يقذفوا الدجاج فى اليم قائلا : « من لم يأكل يشرب » .

كانوا متسامحين إلى حد بعيد فكانوا يعترفون بجميع آلهة الشعوب التى اتصلت بهم وبذا اتسعت عندهم دائرة الآلهة وترتب على ذلك ظهور نتائج مهمة فى نظامهم الاجتماعى والسياسى ، حيث اتسعت عندهم دائرة العائلة وأصبحت لا تضم الأبوين والأولاد فقط كما كان الحال عند الإغريق بل أصبحت تضم أيضاً كل سلالة الأجداد وذراريهم ، وكانوا جميعاً يحملون اسم الجد الأكبر بجانب أسمائهم . وقد اتسعت عندهم كذلك دائرة المواطنين تبعاً لاتساع دائرة الآلهة والعائلة ، فكانوا يقبلون الأجانب من الشعوب الأخرى . وأصبحت روما وجهة أنظار هذه الشعوب التى استوطن بعضها روما بجانب الأشراف ، بينما استوطن العدد الأكبر منها تل (افنتان) «Aventin» ودعوا (بالبليب) «Plebe» أى عامة الشعب مقابل البتريسيان أى الأشراف «Patricien»

هذا ولقد كانت للأشراف امتيازات لم تكن فى أول الأمر ممنوحة لعامة الشعب غير أن الحروب التى لجأ إليها الرومان جعلتهم فى حاجة إلى جنود من عامة الشعب التى كانت تثور للمطالبة بالمساواة فى الحقوق قرابة قرنين من الزمان (من عام ٥٠٠ إلى ٣٠٠ قبل الميلاد) حتى نالت مبتغاها ، غير أن علاقة الدائنين بمدينيهم . تلك العلاقة التى كانت تقضى باسترقاق المدين ، قد أثارت بينها اضطراباً كبيراً ، لأن هذه الطبقة من عامة الشعب هى التى كانت تجد أراضيها بوراً ، ومساكنها خراباً ؛ عند عودتها من الحروب . فكانت تلجأ إلى الاستدانة لإصلاح ما تخرب فى أثناء غيبتها ، وكان من الصعب عليها بعد ذلك توفية ديونها ، وبذا

كانت تقع تحت سيطرة الدائنين ، ولهذا ثار عامة الشعب على هذا النظام ، وانتهى الأمر بالاتفاق على إسقاط ديون الفقراء وإيجاد نظام القضاة «Tribuns» الذين كان يلتجىء إليهم كل فرد من الشعب فيحمونه بما لهم من حق إيقاف التنفيذ فى كل ما يرونه ظلماً وهو ما كان يسمى بحق «Vets» .

وقد جرى العمل بهذا فى انجلترا عند إعلان القانون المعروف بـ (هابياس كوربوس) «Hapeas Corpus» .

هذا ولما لم تكن قوانين روما مدوّنة فقد بدىء بتدوينها فى عام ٤٥١ ق. م. وعرفت بالألواح الاثنىعشرة التى قررت مبدأ المساواة أمام القانون ، ومبدأ أن الشعب هو مصدر السلطات جميعاً ، وكان للشعب مجلس السيناتو (الشيوخ) والجمعية العامة وكان السيناتو مكوناً من ثلاثمائة عضو ينتخبهم الملك من بين رؤساء العائلات ، ويؤخذ رأيهم فى جميع الشئون العامة ، ويصدقون على قرارات الجمعية العامة .

وعندئذ قلت لأكتاف : لقد عرفنا مما ذكرته لنا أن عامة الشعب الرومانى كانت تطالب بالمساواة وأن حاجة الأشراف إلى جمع الجنود للحرب قد ساعدها فى الحصول على تلك المساواة فى الحقوق ، ولم تقل لنا شيئاً عن تلك الحروب وأسبابها ونتائجها .

فقال أكتاف : لم تقم الدولة الرومانية بتلك الحروب فى أول الأمر إلا دفاعاً عن نفسها ، ولم يبدأ تاريخ الرومان إلا من الوقت الذى أسس فيه اللاتين مدينة روما ، ولم يكن اللاتين من سكان إيطاليا

الأصليين ، وإنما جاؤا مع العنصر الهندى الأوربى الذى نزح من شمال أوربا ، كما نزح غيره من الشعوب مثل الأتروسك «Etrusques» والإغريق إلى شبه جزيرة إيطاليا ، فكان وجود هذه الشعوب المختلفة فى شبه الجزيرة داعياً إلى نشوب الحروب بينهم ، ولا يزال تاريخ روما فى عهد ملوكها الأقدمين غامضاً ، غير أننا نعلم أن آخر ملوكها وهو (تاركان) العظيم «Tarquin le Superbe» قد أراد أن يستولى وحده على جميع السلطة فثار السيناتو وعزله ، وأسس الجمهورية فى عام ٥٠٩ ق.م.

وَفى عام ٤٧٤ ق . م . أغرق الإغريق فى (سَرَقُسْطَة) بِصقلِّية أسطولا لجماعة الأتروسك ، كما هاجمت هذه الجماعة فى الوقت ذاته قبائل الغال من الشمال ، ورأى سكان روما أن الفرصة سانحة للتخلص من سيطرة الأتروسك باستيلائهم على مدينة «Vis» عاصمة بلادهم غير أن قبائل الغال عادت فهاجمت روما ونهبتها فى عام ٣٩٠ ق.م. ولكنها فشلت فى الاستيلاء على قلعة الكابيتول ؛ بعد أن وقفت ذات ليلة فى الصعود على سور تلك القلعة فى غفلة من الرومان ، ويرجع سبب الفشل إلى أن الأوز الذى كان مخصصاً قرباناً لبعض الآلهة قد صاح صياحاً مزعجاً أيقظ الرومان فتنبهوا للأمر ، وردوا الأعداء على أعقابهم خاسرين .

واستمر الرومان نحو سبعين سنة يمدون فيها سلطانهم على وسط إيطاليا ، حتى تمت لهم السيطرة فى عام ٣٠٠ ق.م. على جميع الأراضى الممتدة بين نهر (الأرنو) «Arno» ونابولى . وفى هذا الوقت كان (بيروس) ملكاً على (ابيير) «Pyrrhus roi d'Epire» وهو من أقارب

الاسكندر وأحد الذين تقاسموا مملكته وقد عبر البحر إلى إيطاليا لمساعدة مدينة (تارانت) «Tarante» ضد روما، وقهر الجيوش الرومانية وردها إلى الشمال. غير أن هذا النصر قد لفت نظر قرطاجنة وهى الدولة التى أسسها الفينيقيون على شواطىء أفريقيا الشمالية وكانت فى ذلك العهد أقوى دولة بحرية على البحر الأبيض، ولا يروقها أن تجد إزاءها فى صقلية أحد الملوك الأقوياء من أقارب الإسكندر. وفى الواقع ما كان لقرطاجنة أن تنسى ما حل بصور عاصمة الفينيقيين منذ نصف قرن من الزمان، ولذا شجعت روما لمحاربة هذا العدو المشترك، وأرسلت أسطولا قطع طريق المواصلات البحرية على (بيروس) فهزمه الرومان شر هزيمة وعاد إلى مملكته التى كان الغال يهاجمونها بعد أن اخترقوا صربيا وألبانيا. وأصبحت روما من ذلك التاريخ مسيطرة على مضيق (مسينا) وعلى بعد أربعة كيلو مترات من صقلية التى يرونها امتداداً طبيعيا لإيطاليا.

ولما كانت صقلية تحت نفوذ قرطاجنة[1] وبها حامية من القرطاجيين بدأ النزاع بين هاتين الدولتين ونشبت بينهما حروب

(١) هي المدينة التى أسسها الفينيقيون على الشاطىء الإفريقى فى عام ٨٠٠ ق. م. لتكون مركزاً تجارياً بسبب موقعها الجغرافى، فلما استولى بختنصر ملك بابل على مدينة (صور) عاصمة الفينيقيين انقطعت صلة قرطاجنة بفينيقيا وأصبحت دولة مستقلة محكومة بجماعة الأغنياء حكماً يطلق عليه الإغريق كلمة (بلوتوكرات) من لفظه (بلوتوس) «Ploutos» ومعناها الموسر أو الغنى.

وعلى الرغم من أن نفوذ قرطاجنة قد امتد من سواحل أفريقيا إلى سواحل إسبانيا وفرنسا وجزر كورسيكا وسردينيا وصقلية فإن حكومتها كانت دائماً مزعزعة الأركان تحت رحمة المؤثرات المالية والاقتصادية فكان الشعب إذا راجت تجارته أيد الحكومة وإذا بارت أسقطها.

ولقد حافظت قرطاجنة على مركزها الاقتصادى مدى خمسة قرون حتى ظهرت روما على مسرح التاريخ.

استمرت قرناً ونصف قرن وعرفت باسم الحروب (البونيـــة) «Les guerres Puniques» .

الحرب البونية الأولى

لقد ظهرت روما على مسرح التاريخ عاصمة للشعوب اللاتينية ، وبدأت تتاجر مع صِقِلِيَة وأخذ نفوذها يمتد إلى سواحل بلاد الغال ورأى القرطاجيون وكانوا رجال أعمال أن لا يقفوا أمام العاصفة مكتوفى الأيدى ، فبدأوا سياستهم بالاتفاق مع الرومان ، وقد عقدوا معهم منذ عام ٣٥٠ ق . م . عدة معاهدات تشبه فى جملتها معاهدات حسن الجوار وعدم الاعتداء ، وكان أهم ما تضمنته عدم تدخل الرومانيين فى شئون صقلية وعدم تدخل القرطاجيين فى شئون إيطاليا .

وقد أوفَت قرطاجنة بعهودها وتخطتها بأن وقفت بجانب روما عند ما تدخل بيروس ملك إيبير لمساعدة مدينة تارنت ضد الرومان وقطعت عليه المواصلات البحرية مما أدى إلى هزيمته وانسحابه .

ولكن الرومانيين لم يقدروا هـذا الصنيع ولم يُوفُوا بعهدهم لقرطاجنة واستولوا على مدينة مسينا بالرغم من قوة قرطاجنة البحرية وذلك بفضل الكلابات التى فكر فى إنشائها قنصل روما (ديلوس) «Deillius» وكانت ذات أثر فعال فى إيقاف سير سفن القرطاجيين وانقضاض الجنود الرومانيين عليها وساعد على نجاحهم فى ذلك استخدامهم بحارة الإغريق فأضافوا إلى انتصارهم البرى انتصاراً بحريا فى شمال صقلية فى عام ٢٦٠ ق . م .

وقد احتفل الرومان بهذا النصر فى ساحة (الفوروم) وشجعهم

ذلك على غزو قرطاجنة فى عقر دارها فبعثوا بجيش برى عبر البحر الأبيض ليستولى على قرطاجنة نفسها ولكنهم باؤوا بالفشل وأسر قائد هذه الحملة فى عام ٢٥٥ ق . م . وانتهت بهذا أول حرب بين الدولتين خرجت منها روما مستولية على صقلية ، وصاحبة أسطول بحرى قوى، تمكنت به من الاستيلاء على جزيرتى كورسيكا وسردينيا ، وعلى الجزء الأكبر من بلاد الغال الواقعة وراء جبال الألب .

الحرب البونية الثانية

لم يكن فى وسع قرطاجنة بعد ما انتهت الحرب الأولى غير الاحتجاج على تصرفات روما ، وحِنْثِها بوعودها ، وغدرها بحليفتها فى الوقت الذى كانت فيه قرطاجنة مشغولة بإخماد فتنة أشعلها الجنود المرتزقة بالجيش القرطاجى بعد عودتهم من صقلية ومطالبتهم بأجورهم .

ولما سكنت هذه الفتنة وجهت قرطاجنة جنودها لاحتلال إسبانيا بقيادة (هاملكار) «Hamilcar» فاستولى عليها فى بضع سنين ثم انتخب بعده ابنه (هانيبال) قائداً لجيشها ، وكان محبوباً من جيشه حباً لا مزيد عليه ، وعلى الرغم من أن هذا الجيش كان خليطاً من أجناس متعددة وشعوب مختلفة ، فإنه قد أذعن لإمرة هانيبال ستة عشر عاماً وهو يقاسى أهوالاً كثيرة ، ولم تتزعزع له ثقة فى قائده ، ولم يتسرب إليه الملل والضجر ، وكان هانيبال حريصاً يملك دهاء فيليب المقدونى وشجاعة الإسكندر ، وهو الذى أدار الحرب الثانية ضد روما وقد دامت سبعة عشر عاماً من ٢١٨ إلى ٢٠١ ق . م . ورأى هانيبال أن يهاجم إيطاليا من طريق البر ولو كان شاقاً طويلا ، لأن ثقته فى الجيش كانت

أعظم منها فى الأسطول وكان يؤمل أن يدخل إيطاليا كمنقذ للشعوب اللاتينية من سيطرة الرومان ، معتمداً على هـذه الشعوب وعونها ، فغادر إسبانيا فى ربيع عام ٢١٨ ق . م . واجتاز جبال البيرينيه وقهر على شاطىء نهر الرُّون جيشاً للرومان بقيادة (سيبيون) «Scipion» ثم تسلق بجيشه جبال الألب غير حافل بالثلوج المتجمدة ولا بالشعوب المعادية .

وتسابقت الأخبار إلى روما منذرة بالهزائم الساحقة فى الوقت الذى كان الرومانيون يستعدون فيه لاستقبال الأخبار السارة بانتصاراتهم السهلة المحققة ، فاجتمع مجلس السيناتو وأرسل جيشين لملاقاة العدو فقهرهما هانيبال فى الحال ، وذاع خبر هـذه الهزيمة فانخلعت قلوب الرومانيين وأرسلوا جيشاً ثالثاً بقيادة (فابيوس) «Fabius» الذى رأى أن يحرص كل الحرص على جيش لم يبق للرومان غيره ، فلم يشتبك فى معركة فاصلة ، وأخذ يكر بجيشه أحياناً ويفر أخرى أمام أبطال هانيبال . ولكن هذه الحرب التى تشبه حرب العصابات لم تَرُقْ فى نظر الشعب الرومانى المرتعدة فرائصه فَرَقاً وراء أسوار روما ، فعزل فابيوس وانتخب بدله (فاروس) بين تصفيق الشعب وتهليله (لأنه كان بطلاً شعبيًّا وكان يخطب منتقداً أعمال سلفه) غير أن هذا التغيير والتبديل فى قيادة الجيش الرومانى لم يغيِّرا من حقيقة الموقف ولم يغنيا فتيلاً أمام عبقرية هانيبال الذى انتصر فى النهاية أمام مدينة (كان) «Cannes» فى عام ٢١٦ ق. م. انتصاراً باهراً وألحق بعدوه هزيمة مروِّعة لا مثيل لها .

وأخذ هانيبال يجوب إيطاليا من الشمال إلى الجنوب معلناً أنه

المنقذ لشعوبها من سيطرة الرومان ، وبالرغم مما أدركه من النصر ومما أذاعه من أنه لا يبغى غير إنقاذ الشعوب اللاتينية من مخالب الرومان ظلت جميع شعوب إيطاليا (غير أهالى كابو وسَرَقُسْطَة) مناصرة للرومان . فكانت هذه الحرب موازنة بين عبقرية هانيبال ، ونظام الرومان فى سياسة حكم الشعوب .

الحرب البونية الثالثة

ولما وجد هانيبال نفسه بين شعوب عديدة تحمل ولاءً لروما وغدراً له ، شعر بأنه سجين فى البلاد التى فتحها عنوة وأخضعها قسراً ، وأيّدهذا الشعورَعنده ما أصاب أخاه هاسدروبال «Hasdrubal» من الرومان إذ أنه بعد أن تغلب عليهم فى إسبانيا قصد إلى إيطاليا ليعين أخاه هانيبال وأرسل إليه رسله ينبئونه بمقدمه فوقعوا فى أيدى الرومان الذين استعدوا للقائه بجيش زاخر ، وحاربوه حتى قهروه ، ثم قتلوه وألقَوْا برأسه فى معسكر أخيه هانيبال ، فى وقت كان يترقب فيه قدومه لمعونته . وبهذا استطاع (سيبيون) أن يعيد إسبانيا لحكم الرومان وأن يجعل الرومان يوجهون حملة لغزو قرطاجنة التى دعى هانيبال للدفاع عنها فخف إليها بمن معه سراعاً وعبر البحر الأبيض وأقام ما استطاع من الحصون ، ولكن الرومان الذين عجزوا عن قهره فى عقر دارهم تغلبوا عليه وقهروه فى الأراضى التونسية فى واقعة زاما «Zama» فى عام ٢٠٢ ق. م. وعُقد صلح شائن لقرطاجنة انسحب على أثره هانيبال إلى مدينة (صور) ومنها إلى آسيا الصغرى ليؤلّب السوريين والمقدونيين على محاربة روما .

روما توسع ممتلكاتها

وبهذا النصر الذى نالته روما فى الحرب الثالثة ضد قرطاجنة أيدت

سلطتها على إيطاليا ، وبسطت نفوذها على صقلية وسردينيا وقرطاجنة وجزء كبير من إسبانيا ، وأصبحت وحدها صاحبة السيادة على الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط ، فتحركت فيها شهوة الفتح ونزعات الاستعمار وامتدت مطامعها إلى جاراتها ، وأخذت تتحين لها الفرص لغزوها واستعمارها . وساعدها على تحقيق أغراضها ما كان يتخبط فيه الشرق المطبوع بطابع المدنية الإغريقية إذ ذاك من الفوضى والانقسام بعد وفاة الاسكندر ، فقد تنازعه قواده وقسموه بينهم إلى أقسام ثلاثة هي :

١ — مصر وكانت تحت حكم البطالمة ، وكانت بينها وبين الرومان علاقات ودية منذ القرن الثالث قبل الميلاد . وقد وضعتها روما تحت حمايتها تحت اسم التحالف والصداقة . وحملتها على تموينها بالقمح في حرب قرطاجنة .

٢ — مقدونيا وسوريا ، ولملوكهما مطامع سياسية فكان فيليب الخامس في مقدونيا يرمي إلى وضع اليونان تحت وصايته وانطاكيوس الثالث ملك انطاكيا في سوريا يطمح إلى مد سلطانه ونفوذه حتى نهر السند من الهند .

٣ — اليونان وكانت كالريشة في مهب الريح تتنازعها الاضطرابات الداخلية بين الأغنياء والفقراء ، وتكتنفها المنازعات الخارجية بين الممالك الصغيرة المكونة لها . وقد تمكنت روما بدهائها من استغلال هذه الحال فتؤلب اليونان على مقدونيا ، وتخلق منها أنصاراً لها يؤازرونها ضد المقدونيين .

غزو مقدونيا

وعلى أثر انتهاء روما من حرب قرطاجنة أعلنت الحرب على مقدونيا بحجة تواطؤ ملكها فيليب الخامس مع هانيبال على روما وأحرزت بمعاونة بعض ممالك اليونان نصراً سريعاً فى واقعة تساليا فى عام ١٩٧ ق.م. وعقدت مع فيليب هذا معاهدة باسم التحالف والصداقة جعلته فى الواقع تحت حمايتها .

غزو سوريا

وما كادت روما تنتهى من غزو مقدونيا حتى بدأت بالحرب ضد سوريا بحجة احتماء هانيبال بملكها وإقامته فى بلاطه وانتهت فى عام ١٩٠ ق . م . بانتصار الرومان الذين طلبوا من ملك سوريا أن يسلمهم عدوهم هانيبال الذى كان قد فر وقتئذ وآثر أن يموت منتحراً بالسم حتى لا يقع فى قبضة أعدائه من الرومان .

روما تلبس جلد النمر

لقد حاولت مقدونيا الانتقام من عدوّها روما ، ولكنها غلبت على أمرها فى موقعـــة (بدْنَا) فى عام ١٦٨ ق. م. فخلا لروما الجو ، واستبدلت بسياستها المعسولة سياسة مُرَّة ظاهرة القسوة ، لم تقتصر فى تطبيقها على أعدائها بل طبقتها أيضاً على حلفائها وأنصارها ، فتنكّرت لليونان الذين ظاهروها فى غزو مقـــدونيا ، ولذا هبّت الثورات فى اليونان ومقدونيا ، وقامت روما بإخمادها جميعاً ، وأصبحت هذه البلاد ولايات رومانيـــة بحتة ، ثم مَنَحَتْ روما بعض المدن اليونانيـــة نوعاً منَ الاستقلال الداخلى تحت حمايتها .

وبالرغم من خضوع قرطاجنة لنفوذ الرومان كان هؤلاء ينظرون إليها دائماً بعين الريبة والحذر ، وكان كاتون الذى حاربها لا يلقى خطاباً

إلا اختتمه بالعبارة المشهورة : «Delenda est Carthaga» ومعناها يجب تخريب قرطاجنة ولهـــذا انتهز الرومان فرصة الخلاف بين قرطاجنة ونوميديا (الجزائر الآن) فى عام ١٥٠ ق. م. وأعلنوا عليها الحرب بحجة انتهاكها حرمة معاهدة عام ٢٠١ ق. م. التى لا تسمح لها بمحاربة أحد إلا بموافقة روما فخضعت قرطاجنة بدون حرب ، وسلمت عتادها الحربى للقائد الرومانى الذى طلب منها إخلاء المدينة لإحراقها ، فثار القرطاجيون لكرامتهم ووطنهم وهبّوا للدفاع عنه فدافعوا دفاع المستميتين عامين أرغمهم بعدهما الجوع على التسليم والإذعان ، فدخل الرومان المدينـــة ونهبوها ، ثم أحرقوها وصبّوا جام غضبهم على من بَقِىَ حيًّا من سكانها فباعوهم فى أسواق الرقيق ثم حرثوا مكان المدينـة بالمحراث ، وبذروا الْحَبَّ مبالغة فى إفنائها ومحوها من الوجود .

وما كاد الرومان ينتهون من قرطاجنـة حتى أتموا استيلاءهم على إسبانيا وانتهزوا فرصة استنجاد مرسيليا بهم فى محاربتهم لسكان الجبال المجاورة حتى خفوا إليهم ، واحتلوا بلاد الغـال وأسـسوا مدينة إكس «Aix» وقهروا فى عام ١٢١ ق. م. ملك (أرفرنس) « Arvernes » الذى كانت له السيادة على أكثر بلاد الغال ، وأخذوه غيلة ، وبعثوا به إلى روما وبهذا تم لهم الاستيلاء على جميع بلاد الغال من مدينة ليون إلى تولوز « طولوشة » وأصبحوا من هذا التاريخ مسيطرين على جميع شواطىء البحر الأبيض المتوسط الذى سموه «Mar Nostram» أى « بحرنا » .

وفى هذا الجزء من تاريخ الرومان عِبَر وعظات فإذا رجعنا بالذاكرة

إلى ما قبل هذا بخمسة قرون رأينا أن الدول السامية التى كانت زاهية بمدنيّتها قد انقرضت جميعها ، ولم يبق منها إلا بنو إسرائيل ، وكان طَبَعِيًّا أن يشعر الفينيقيون والقرطاجيون وغيرهم بأنهم مرتبطون بشعب بنى إسرائيل الصغير برابطة لغاتهم المتقاربة وخصوصاً فإن التوراة كان قد تم جمعها ، وفيها الكثير من الأقاصيص الخلاّبة والوعود الطيبة للأيام القادمة ، فهى يَنْبُوع لتحطيم اليأس وشحذ الآمال للنهوض والنشاط ، غير أن الرومان لم يمهلوا تلك الشعوب ، بل داهموهم بإغاراتهم المتكررة على مدينة أورشليم فغزَوها أول مرة فى عام ٦٥ ق. م. ثم فى عام ٧٠ ب. م. وهدموا هيكلها ثم خربوها فى عام ١٣٢ م. وأعادوا بناءها وشيدوا معبداً للإله جو پيتير على أنقاض هيكلها .

هذا وعند ما وصل أكتاف إلى هذا الحد فى سرد تاريخ الدولة الرومانية أردت أن أستوقفه قليلاً لأتعرف أسباب مجد هذه الدولة التى وصلت بفتوحاتها إلى منزلة دولة عالمية . وقلت له إن الرومان ياسيّد الأباطرة لم يسيطروا على الشعوب السامية وحدها بل قهروا الشعوب الآرية الأخرى ، وفى مقدمتها الإغريق الذين حملوا مشعل المدنية قروناً فتناولته روما منهم ونشرته فى أنحاء امبراطوريتها الشاسعة المترامية من الإطلنطى إلى الفرات ، فهل لنا أن نعزو هذا المجد إلى أن الرومان نجحوا فيما فشل فيه غيرهم إذ جعلوا دستورهم قائماً على العناصر الثلاثة فى نظام الحكم ، من حيث إنهم جمعوا فى دستورهم الملكية والأرستقراطية والديمقراطية فكانت الملكية تتمثل فى شخص

الإمبراطور والأرستقراطية فى مجلس الشيوخ (السيناتو) والديمقراطية فى المجالس الشعبية وقوة الرأى العام ، وأمكن لروما أن توجد لنفسها صمّامات للأمان ، لم تجعل للثورات الداخلية تأثيراً يدعو إلى الانهيار كما حدث فى الدول التى سبقتها ؟ .

فأجابنى أكتاف قائلا : يبدو لى أن نظام الحكم وحده لا يكفى لأن يكون سبباً فى هذا المجد لأننا إذا دققنا البحث فى تاريخ هذه الدولة نجد أنها بنَت عظمتها وقوتها فى فترَة من الزمن تبدأ منذ إغارة الغال على روما فى عام ٣٩٠ ق . م . وتنتهى فى آخر الحرب الأولى ضد قرطاجنة فى عام ٢٦٠ ق . م . فى هذه الفترَة من الزمن كان النزاع بين الأشراف وعامة الشعب قد انتهى ، وزال عن روما خطر إغارات الاتروسك والغال وأصبح الرومانيون متساوين تقريباً فى الحقوق والواجبات ، وكانت روما وقتئذ تحارب الشعوب المجاورة لا لغرض إبادتها أو لمجرد السيطرة عليها ، ولكن للدفاع عن كيانها ، وليتمثلوا بأنظمتها وعوائدها وتقاليدها ، وليصبحوا من عشيرتها لا لتتمثل بهم هى . فتصبح منهم ، أسوةً بما كان متبعاً عند الدول والممالك السابقة ، كما حدث للإسكندر عند قدومه إلى مصر حيث تُوِّج ابناً للإله آمون وكما حدث[1] للبطالمة الذين أصبحوا فى مصر فراعنة ، وكما حدث للملوك سوريا الذين أصبحت لهم حاشية تشبه حاشية بختنصّر .

---

(١) جمع بطليموس

فالرومان لم يندمجوا فى هـذه الفترة فى غيرهم من الشعوب ، وإذا كانوا قد تناولوا مدنيات الشعوب الأخرى وخصوصاً الإغريق ، فإنهم مع ذلك ظلوا محتفظين بقوانينهم وعوائدهم التى نشروها بين الشعوب التى خضعت لهم ، ليصبحوا رومانيين مثلهم ، وليشعروا بأن البلاد بلادهم ، ولهذا لم يفلح هانيبال فى تفريق شملهم ، وانهارت عبقرية القائد القرطاجى أمام النظام الرومانى .

فلما توسعت روما فى فتوحاتها ، وتوغلت جنوباً فى أفريقيا وشرقاً فى آسيا واليونان وغرباً فى اسبانيا لم تعد نظمها الأولى ملاءمة لهـذا التطور ، وإذا كان شكل الحكومة قد ظل بعد هذا التوسع جمهوريا إلا أن عامة الشعب كانوا قد فقدوا كل نفوذهم وسلطانهم ، لأنهم كانوا مجنَّدين يحاربون بعيـداً عن بلادهم فلمـا عادوا وجدوا أراضيهم بُوراً ومسا كنهم خراباً ولم يقوَوْا على إصلاحها واستثمارها ومزاحمـة كبار القواد وذوى النفوذ ، الذين استخدموا فى فلاحة أراضيهم العدد الوافر من الرقيق الذى جلبته هذه الحروب .

وقد ترتب على عجز الزارع الرومانى عن فلاحـة أرضه وإصلاح مسكنه أن حلّ به البؤس والشقاء ، وأدّى ذلك إلى انعـدام الطبقة الوسطى .

وزاد الطين بِلّة أن القواد الذين عادوا من غزواتهم ممجَّدين معظمين بالغين ذِرْوة الثروة من الأسـلاب التى اغتصبوها من البلاد المغلوبة قد صَلِفُوا و طَغَوْا واستبدوا وعاشوا عيشة البذخ والرفاهيـة ،

فدَبَّ الفساد وانتشرت الرِّشوَةُ إلى حد أن الجندى كان يشترى بالمال إجازته وأيام راحته، وكان الناخب يبيع صوته فى الانتخاب، وكانت أموال الدولة ذاتها مبدّدة منهوبة. ولا أدل على ذلك من أن (سيبيون) «Scipicn l'africain» وهو قاهر هانيبال قد اتُّهِم مرتين بتبديد أموال الدولة، ولما مَثَل فى المرة الأولى أمام مجلس الشيوخ أبى أن ينفى التهمة عن نفسه قائلا: «تريدون اتهامي بتبديد أربعة ملايين وأنا الذى أضفت بعملى مائتى مليون إلى خزانة الدولة» ثم مزق بيديه دفاتر الحساب وانصرف.

ولما تقدم فى المرة الثانية أمام قضاته مصحوبا بأصدقائه قال: لقد منحت القوة فى مثل هذا اليوم لأقدم لبلادى أعظم خدمة، وانتصرت على قرطاجنة فيجب عدلا أن توقف المحاكمات فى مثل هذا اليوم، وإنى من أجل هذا سأذهب توا إلى الكابيتول لأحيِّى جوبيتير ولأقدم شكرى للإله» وانصرف والشعب وراءه.

ولم يكن هذا الفساد قاصراً على روما نفسها بل جاوزها إلى الأقاليم، فكان الحكام وطبقة الأشراف يستبدون بالشعب ويرهقونه، ثم وُجدت بجانب الأشراف طبقة أخرى هى طبقة الفرسان، تلك الطبقة التى نشأت عقب صدور قانون سنة ٢١٦ ق. م. وقد حرَّم هذا القانون الجمع بين وظائف الدولة وبين الأعمال المالية، وترتب على ذلك أن تنازل كثير من الأغنياء عن وظائفهم ولُقّبوا بالفرسان فكان منهمَ التجار والمرابون الذين كانوا يقترضون المال فى روما ليقرضوه

بفوائد باهظة ، وكانوا يعملون لحساب ذوى النفوذ من أعضاء الشيوخ وكبار حكام الدولة[1] .

ولقد وجدت بجانب هؤلاء طبقة ثالثة عرفت باسم بوبليكان «Pablicains» وهى أشبه شىء بشركات مالية تقوم بالتوريدات العسكرية وتحصل على نوع من الالتزام لتحصيل الضرائب ، فترهق الأهلين ، ولا ضابط لها فى ذلك .

وكان من نتائج هذا كله ، أن عمت الفوضى ، وانتشرت الفاقة ، وزاد البؤس والشقاء ، ونشأت طبقة رابعة . هى طبقة المتسولين المحترفين ، الذين يقفون على أبواب الأشراف ويصحبونهم إلى مكان الاجتماع فى الفوروم مقابل حصولهم على ما يسمونه «Sportuli» أى « فضلات المائدة » حتى لا يموتوا جوعاً .

ومع أن الحكام والأشراف كانوا يعلمون الأخطار التى كانوا يستهدفون لها من غضب عامة الشعب ، إلّا أنهم كانوا يعتمدون على قوة الجند وعلى الاحتفالات الرياضية التى يقيمونها ليلهوا بها الشعب (وهى مسابقات بين العربات ومصارعات بين الإنسان والحيوان) . وكانوا فوق هذا وذاك ينغمسون فى شهواتهم ولذائذهم وراء أسوار قصورهم ، حتى إن مجلس السيناتو قد اضطُر فى عام ١٨٦ ق . م . إلى إلغاء

---

(١) ولقد حدث أن أحد المرابين المدعو سكابيوس «Scapius» كان يعمل لحساب الشيخ «Brutus» وهو صديق الخطيب الكبير «Cicéron» فأقرض جزيرة قبرص مالا بفائدة ٤٨ ٪ فلما عجزت الجزيرة عن الوفاء بدينها استصدر الدائن أمراً بحصار أعضاء مجلس هذه الجزيرة وتوجهت فصيلة من الخيالة لتنفيذ أمر الحصار الذى استمر حتى مات خمسة من أعضاء هذا المجلس جوعاً .

العيد المعروف عندهم بعيد إله النبيذ الإغريقي باكوس «Bacchus» ، بسبب ما حدث فيه من جرائم الفجور والفسق ، وغير هذا مما يدل على تفكك الأخلاق وانحطاطها . وقد حمل هذا الشاعر اللاتيني «Juvenal» على أن يقول يوماً : « لقد انتقم منا العالم الذى قهرناه بأن أعطانا عيوبه ونقائصه » .

ويظهر مما تقدم أن الفتوحات العظيمة التى قام بها الرومان كانت ذات حدين ، فبقدر ما درّت إليهم من خير وعظمة قد جلبت عليهم عوامل الشر والانحطاط ، ولم تكن الثروات العظيمة التى حصلوا عليها من البلاد المغلوبة إلا عوامل لتفكك أخلاق الأشراف . وانتشار الفساد واستغلال نفوذ الحكام . ثم إن هذه الحروب قد كانت سبباً فى انقراض الطبقة الوسطى وانتشار الرقيق ، والاستهتار بالقوانين ، مما أدى إلى فساد النظم الرومانية فى سياسة الحكم . فضاع بذلك جوهر النظام ولم يبق منه غير مظهره .

وليس من شك فى أن الاضطرابات والثورات هى وسائل الشعوب إذا لم تجد وسائل أخرى لرفع ظُلامتها ، ولهذا ترى تاريخ الرومان منذ القرن الثانى إلى القرن الأول قبل الميلاد مملوءاً بالاضطرابات الداخلية وتنازع القواد العسكريين للحصول على السلطة بغية الإصلاح .

وقد بدأ بالجهاد لهذا الإصلاح حفيدا سيبيون الأفريقى — «Scipion — l'africain» — وهما (كايوس) و (تبريوس) «Cajus et Teberius» اللذين حاولا تحديد مقدار الثروة الفردية ، بقصد إعادة الطبقة الوسطى إلى

الوجود ، غير أن عناد الأغنياء ، وجمود الشعب جهلا من هذين الأخوين كبشى فداء ، فقُتلا غدراً ونال قاتلوهما كل ثناء .

ثم جاء بعد ذلك تنازع القواد للحصول على السلطة وهو ما نسميه : « عهد الثورات الداخلية » .

عهد الثورة الداخلية

فلقد بدأت هذه الثورات بالنزاع الذى قام بين قائدين هما (سيلا) و(ماريوس) «Sylla et Marius» وكان سيلا على رأس الحملة العسكرية التأديبية التى وجهت إلى شواطئ البحر الأبيض لإخماد ثورة (مترياد) «Mitriade» وكان ماريوس على رأس الحملة التى وجهت إلى شمال إفريقيا لقمع ثورة (يوغرثا) «Jugurtha» . وكان كلاَ هذين القائدين طامعاً فى الحكم بحجة أنه ينشد الإصلاح ، فأقاما المذابح المروِّعة التى طغت على كل فكرة للاصلاح . وقد كان (سيّلا) من الأشراف يعمل لإعادة نفوذ السيناتو وكان ماريوس محبوباً من عامة الشعب يعمل لهدم سلطة الأشراف ، فانتهز ماريوس غيبة سيّلا وعاد إلى روما وأطلق جنده على الأشراف فذبحوهم حتى إن (انكاريوس) «Ancharius» وهو أحد أعضاء مجلس الشيوخ من الأشراف قد قُتل شر قِتْلة لأن ماريوس أبَى أن يرد عليه التحية التى وجهها إليه . فكان ذلك إشارة منه بقتله . وبعد أن دامت هذه المذبحة بضعة أيام عُيِّن ماريوس هذا قنصلا للمرة السابعة ، وأعلن أن سيّلا « عدو عام » ولما مات فى عام ٨٦ عاد سيّلا إلى روما قائلا : « إنه قادم لتصفية حساب قديم » وبدأ ديكتاتوريته بمذابح دامت بضعة أسابيع لا بضعة أيام ودُوّنت القوائم بأسماء من لا يحميهم

القانون، وأُحِلّتْ دماؤهم، ولم تكن الكراهية الحزبية وحدها سبباً فى الانتقام بل كانت الثروة من أسبابه؛ حتى إن الثرىّ (كنتوس أورليوس) «Quintus Ouralius» قد ساقه القدر إلى الفوروم ليقرأ أسماء المحكوم عليهم فوجد اسمه بينهم ولم يكن رجلا حزبيًّا فصاح قائلا: « إن ثروتى تريق دمى ».

ثم قام بعد سيلّا وماريوس نزاع جديد بين قواد آخرين هم (بمبى) و(جراسوس) و(قيصر) وبمبى هذا هو القائد الذى قضى على الثورة فى إسبانيا، أما جراسوس فقد كان أحد ضباط سيلّا وكلفه السيناتو بقمع ثورة داخلية كان يقودها (سبرتا كوس) «Spartacus» فقمعها جراسوس بقسوة مَريرة وشنق ستة آلاف من الثوار على طول الطريق بين كابو وروما، ومن بقى من الثوار قضى عليه بمبى عند عودته من إسبانيا. ثم اتفق هذان القائدان على حكم الرومانيين، وفى هذا الوقت اشتدت الثورات الداخلية بزعامة (كاتيلينى) «Catilinie» فحمل عليه (سيشرون) وهو أكبر خطباء عصره حتى اضطره إلى الفرار من روما ثم أسس سيشرون حزباً جمهوريًّا لمناوأة القواد الديكتاتوريين، ولكنه لم يفلح، وشكلت أول تريو نفيرا (أى حكم الثلاثة) فى عام ٦٠ ق. م. بين كل من بمبى وجراسوس وقيصر وكان هذا الأخير أكثر ذكاء وطمعاً من زميليه[1] فبدأ عمله بالحصول على انتصارات عظيمة يستطيع

---

(١) ويقال إنه نجا من القتل صبيا أثناء مذبحة «سيلا» بشفاعة أحد الجنود لصغر سنه كما يقال إنه بكى عند قراءة تاريخ الاسكندر قائلا: « لم أفعل شيئاً وقد بلغت سن الاسكندر عند ما غزا العالم ».

أن يبنى عليها تنفيذ مطامعه ، ففتح بلاد الغال جميعها (فرنسا اليوم) ثم عبر بحر المانش وغزا الجزر البريطانية ، وفى هذه الأثناء مات جراسوس أحد زميليه فى الحكم ، وقامت اضطرابات داخلية فقمعها بمبي ، وحصل من السيناتو على سلطة واسعة أراد استخدامها للتخلص من منازعه (قيصر) الغائب عن روما ، وقد انقطع آخر رباط بينهما بوفاة جوليا «Julie» وهى زوجة بمبي وأخت قيصر . فأدرك قيصر خطورة الموقف وأسرع بالعودة إلى روما قبل أن يمكّن خصمه من الاستعداد واضطر بمبي إلى الفرار إلى اليونان فتبعه قيصر وقهره فى واقعة فرسال «Pharsale» بتساليا ، ثم لجأ بمبي إلى مصر وقتل فيها غدراً ، وبقي قيصر فى مصر نحو سنة أقام فيها الملكة كليوبترة على عرش مصر بدلا من أخيها بُطْلَيْموس ثم قمع فى آسيا الصغرى ثورة أقامها (فرناز) بن (متردات)«Pharnase fils de Mitridate»وبعث إلى روما بكلمته المشهورة «Vini Vidi Vici» ومعناها (جئت ورأيت وانتصرت) . ثم قمع ثورتين أخريين أشعل نيران إحداهما أنصار بمبي فى شمال إفريقيا فقهرهم فى واقعة (تابسوس) «Thapsus» والأخرى اندلعت فى إسبانيا وانتصر فيها فى موقعة (موندا) «Munda» .

قيصر فى طريق المجد

ولقد كان الرومان يمنحون قيصر سلطة جديدة بعد كل نصر يناله ، فعُين قنصلا بعد عودته من إسبانيا ، وعُين ديكتاتورَ لسنة واحدة بعد واقعة فرسال وديكتاتورَ لعشر سنوات بعد واقعة تابسوس ثم ديكتاتور على مدى الحياة بعد وقعة موندا .

ولم يبدأ قيصر حكمه بالقسوة كما فعل سيلا قائلا : « لا أريد أن أحذو حذو سيلا وليكن عهدى مقروناً بالرحمة والكياسة . فأقام العدل فى المقاطعات وألغى نظام الالتزام فى تحصيل الضرائب ، ومحا الفروق فى الحقوق الوطنية بين الرومان والأجانب ، وجعل من الغال والأسبان أعضاء فى السيناتو ولم يبخل على خصومه الأقدمين مثل «Brutus» بوظائف الدولة غير أنه ضرب بسلطانه وسلطته على نفوذ السيناتو فتضاءلت بجانبه سلطة الجمهورية التى لم يبق لها غير اسمها . وقد عز ذلك على أنصارها وظنوا أن قتله يعيدها إلى شامخ مجدها . فتآمروا عليه بزعامة (كاسيوس) و(بروتوس) «Casius et Brutus» واغتالوه فى قلب السيناتو فى عام ٤٤ ق . م .

وما أن ذاع خبر هذا الاغتيال حتى قامت الاضطرابات فانتهز (مارك انطوان) «Marc Antoine» أحد ضباط قيصر فرصة هذا الاضطراب الذى كان فيه قَتَلَة قيصر وأنصارهم يفرون من روما خشية انتقام الشعب منهم ، فوضع يده على الجيش وخزانة الدولة (ثم استأنف أكتاف قائلا :) وفى هذا الوقت تركت معهد أثينا الذى كنت أتلقى فيه علومى ، وذهبت إلى روما كما قلت فى مطلع حديثى وكنت أول مستحق للعرش غير أننى قبلت أن أشترك فى الحكم مع أنطوان ولبيد «Lepide» وهو حاكم إسبانيا وأقمنا نظام الحكم الثلاثى الثانى فى عام ٤٣ ق . م . « Il Truinvirat » وهنا أطرق أكتاف رأسه إلى الأرض طويلا فنظر إليه أبو الهول وقال :

« لا تُرَعْ يا أكتاف وقل بأنكم بدأتم عهدكم كذلك بالدماء فدونتم قوائم المحكوم عليهم بالإعدام وقتلتم نحو الخمسين ومائة من شيوخ السيناتو ونحو الألفين من الفرسان وكان بين ضحايا كم سيشرون لمجرد خصومته لزميلكم أنطوان » .

فلم يجب أكتاف بشيء واستمر في حديثه يقول بأنهم : بعد أن حاربوا قاتلَيْ قيصر (بروتوس وكاسيوس) وانتصروا عليهما في اليونان عادوا فاقتسموا الملك بينهم في عام ٤٠ ق . م . فاختُص أنطوان باليونان ومصر وآسيا الصغرى واختص ليبد بأفريقيا أما هو فكان نصيبه إيطاليا وفرنسا واسبانيا ثم دعمنا هذا الاتفاق بأن زوجت أختي من أنطوان وحكمت البلاد التي وقعت في نصيبي بالعدل والحكمة واضطررت إلى محاربة سكستوس بمبي «Sextus pompée» وهو ابن بمبي وكان قد جهز أسطولا استولى به على جزيرتي صقلّية وكورسيكا وأقام حرب القرصنة وكان يتهدد إيطاليا خطرُ قطع مواصلاتها البحرية . وبعد أن انتصرت عليه نهائياً في عام ٣٦ ق . م . قرب مسينا حصلت على تنازل ليبد لمصلحتي .

وإني أقمت المعابد ، وعنيت بأمر الزراعة والصناعة والتجارة ، وشق الطرق وإيجاد جيش دائم للمحافظة على الدولة .

أما صهري أنطوان فقد فشل في حربه ضد البارث «Parthes» وهي القبائل التي نزحت من الشمال واستوطنت ما بين النهرين ، وكان فشله هذا في عام ٣٦ ق . م . أي في الوقت الذي كنت فيه منتصراً على قرصان سكستوس .

وفى الوقت الذي كنت فيه أرفع عرش روما إلى العلا ، كان أنطوان يجعل من عرش كليوبتره فراش غرام ، ويطلب من السيناتو فى عام ٣٢ ق . م . أن يعتمد تنازله عن نصيبه فى سوريا وأرمينيا لأولاد محبوبته ملكة مصر ، فذاع وقتئذ بين الرومان أن كليوبتره ستتحكم فيهم وستهدم الكابيتول وستنقل مقر الحكم الرومانى إلى الاسكندرية .
ولقد عزوْا إلىّ أننى أنا الذى أذعت كل هذا لِأُهيجَ الرأيَ العام على صهري ليخلو لى الجو وحدى . ولكن تصرفات أنطوان تكفى وحدها لإثارة الشعب عليه ، ومن أجل هذا منحنى السيناتو سلطة مطلقة فلم أعلن الحرب على أنطوان ولكنى أعلنتها على كليوبتره فاندحرت أساطيلها فى عام ٣١ ق . م . فى واقعة اكسيوم البحرية على شاطئ اليونان الغربى ، ثم جئت إلى مصر وانتصرت جيوشى فى الاسكندرية ثم انتحر أنطوان وحاولت كليوبتره أن تستميلنى كما فعلت مع قيصر وأنطوان ولما لم تفلح انتحرت هى كذلك ثم عدت إلى روما وقد انتهت كل الحروب الداخلية .

وهنا أردت أن أوجه إلى أكتاف أسئلة كانت تجول بخاطرى ، وشجعنى على هذا صراحة أبى الهول حين تكلم عن المذابح التى حدثت فى مبدإ حكم أكتاف وزميله ، فقلت له : نعم . يقولون إن حكمك ياسيد الأباطرة خير حكم فى الدولة الرومانية غير أن نفوذك الكبير وسلطانك العظيم قد انقلبا إلى درجة التألّه فلم تحجم عن أن تكون معبوداً للشعب الرومانى الذى أخذ يقدم لك الضحايا باسم معبودك الشخصي ، كما أخذت

المقاطعات الأسيوية تضمك إلى المعبودة « روما » وتحتفل بكما سواء بسواء فى الأعياد الدينية . فأجابنى أكتاف على الفور نعم ياسيدى هذا خيال الشعوب فى أبطال الإنسانية ، ألم يكن قيصر إلهاً قبلى؟ ألم يكن له تمثال فى معبد (كيرينوس) «Quirinus» ؟ ألم تكن واجهة منزله على شكل المعابد ؟ ثم ألم يتوج الاسكندر فى مصر إبناً لآمون إله المصريين؟ ثم ألم يرفع الإغريق أبطالا من البشر إلى منزلة الألهة ، ثم ألم يكن الفراعنة آلهة وأبناء آلهة ؟ . على أننى وقد رفعت شأن الدولة ، وقضيت على الحروب الداخلية فيها ، واحتفى بى الشعب احتفاء منقطع النظير عند عودتى إلى روما ظافراً منتصراً على جميع أعدائها ؛ فإننى مع ذلك عرضت تنازلى . غير أن السيناتو لم يقبل منى هذا التنازل ، ومنحنى فى حياتى لقب (الجليل) «Auguste» ثم رفعنى بعد وفاتى فى عام ١٤ بعد الميلاد إلى منزلة الالهة كما مجدنى شعراء عصرى مثل (هوراس) و(فرجيل) «Horace et Virgile»

الملكية المقنعة

قلت له لا ينكر أحد عليك ياسيد الأباطرة ما قدمته من خير لدولتك غير أنك زهوت بعملك ، فجنحتْ نفسك إلى الاستبداد والسيطرة . وإذا كنت قد استبقيت شكل الحكم الجمهورى فإنك قد أقمت فى الواقع الملكية المطلقة مكانه ، وإن كانت مقنَّعة . وإذا كان سيبيون الأفريقى قد استُهْتِرَ[1] بالجمهورية وقوانينها كما حدثتنا عنه ، وأبى أن يدافع عن نفسه حين اتُّهم بتبديد أموال الدولة معتمداً على جنده وأنصاره ، فإن ماريوس وسيلا وبمبى وجراسوس وقيصر وأنطوانيو وأنت

---

(١) من الأفعال الملازمة للبناء للمجهول دائماً .

نفسك لم تفعلوا غير هذا ، وغاية ما فى الأمر أنكم كنتم أحياناً تتفقون فتنشئوا الحكم الثلاثى بينكم ثم تختلفون فتقيموا الدكتاتورية أو الملكية المقنَّعة أو أية صورة أخرى من صور الحكم المطلق . ولا ريب فى أن تاريخ روما من عام ١٢٠ إلى عام ٣٠ ق . م . لم يكن فى الواقع مجرد نزاع بين الجمهورية والديكتاتورية ولكنه كان نزاعاً بين القواد العسكريين الطامعين فى الحكم والسيطرة على الشعب .

فقال اكتاف : ولكن لا تنس يا سيدى أن الشعب كان منهوك القوى يقتله الفقر وتفتك به الأمراض ، وأن روما أصبحت فى الواقع طوال هذا العهد مسكونة بالعبيد الأرقاء الذين جلبتهم الفتوحات العظيمة ، وما كان هؤلاء العبيد يفكرون فى غير غذاء يومهم ، وبهذا فقد الشعب كل حيويته . أضف إلى هذا أن جمعية الشعب التى كانت منذ نشأة الجمهورية تراقب أعمال مجلس السيناتو فقدت كل نفوذها . لأن البلاد كانت قد تطورت ، فروما التى كان عدد سكانها محدوداً . والتى كان أبناؤها يجتمعون على صوت الأبواق التى كان ينفخ فيها من أعلا الكابيتول إيذاناً باجتماع هذه الجمعية ، روما هذه أصبحت بعد اتساع أملاكها واسعة الأرجاء ، وتضاعف عدد سكانها ، وأصبح صوت الأبواق غير مسموع ، وغير مجدٍ للايذان بالاجتماع ، ولم تخطر وقتئذ للرومان فكرة التمثيل النيابى ذلك التمثيل الذى لم تعرفوه فى عصركم الحاضر إلا بعد مضى ثمانية عشر قرناً .

فإذا كنا قد اضطررنا إلى تغيير نظام الحكم وجعلناه حكماً مطلقاً

مع المحافظة على مظاهر الجمهورية ، ورقابة الشعب ، فما كان ذلك إلا تبعاً للتطور الذى حدث فى روما وقتئذ على أن هـذا التغيير فى ذاته يدلك ياسيدى على قدرة الرومان فى تكييف نظمهم الداخلية بما فيهم من مرونة ، وكذلك كانت سياستنا مع الشعوب التى خضعت لحكمنا ، فقد ابتكرنا الروابط التى تربطنا بها تبعاً لمقتضيات الظروف والأحوال . فمنهم من كانوا فى درجة الممتلكات ، ومنهم من كانت بيننا وبينهم اتفاقات هى فى الواقع من أنواع الحماية فى صورة التحالف والصداقة . ومن هذا نشأت منذ عهدنا قواعد القانون الدولى التى تنظم العلاقات السياسية بيننا وبين الشعوب الأخرى .

قلت له : يجوز أن تكون مرونة الرومان سواء فى نظام الحكم أو فى علاقاتهم بالشعوب الأخرى قد أطالت عُمُرَ الدولة الرومانية التى كادت أن تكون دولة عالمية وعاشت نحو العشرة قرون غير أن مآسى هذه الدولة كانت فظيعة ، وسقوطها كان أفظع . فقد زالت بزوالها كل المدنيات القديمة ووقفت الإنسانية بعد سقوطها فترة من الزمن كادت ترجع فيها إلى حالتها الأولى من الهمجية .

فقال أكتاف : إن هذا صحيح ولكن مآسى الدولة وفظائعها لم تأت بسبب تغيير النظام حيث أن صلاح الحكم أو فساده إنما يرجع على الأرجح إلى قدرة الحاكمين أو صلاحهم أوفسادهم . فقد حكم الدولة الرومانية من بعدى ثلاثُ أسر مدى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد .

الأسر التى حكمت بعد أكتاف

فحكمت الأسرة الأولى من عام ١٤ بعد الميلاد إلى عام ٦٨ وكان

ملوكها (تيبير) و(كاليجولا) و(كلود) و(نيرون) «Tibère, Caligula, — Claude et Néron»

وحكمت الأسرة الثانية من عام ٦٩ إلى عام ٩٦ وكان ملوكها (فزبازيان) و(تيتوس) و(دومسيان) «Vespasien, Titus et Domitien»

وحكمت الأسرة الثالثة من عام ٩٦ إلى عام ١٩٢ وكان ملوكها (تراجان) و (هدريان) و(أنطوان) و (مارك أوريل) و(كمود) «Trajan, Hadrian, Antoine, Marc Aurel et Commode

وكان أكثر هؤلاء الملوك ظالمين مستبدين ومكروهين، حتى أن الشعب عند موت تيبير قد صاح فى الشوارع قائلا : «Tiberius ad Teberime» ومعناها : «ألقوا تيبير فى التيبر[1]» .

وكان كاليجولا مبذراً إلى حد الجنون وهو الذى شيد مربطاً من المرمر لجواده، وجعل لهذا الجواد حاشية وأراد منح هذا الجواد لقب قنصل .

أمّا كلود فإنه لم يرق إلى العرش إلاّ بعد أن دفع ثمناً له مالاً طائلاً .

ولم يتورّع نيرون عن قتل والدته أجريبين «Agrippine» التى رفعته إلى العرش بقوة مكرها ودهائها . وقد ألقى على المسيحيين تهمة إحراق روما فعُذّبوا من أجل هذه التهمة عذاباً أليما . ولم تقف هذه الفظائع إلا عند ما تقدم جيش الشرق ورشح للملك قائده فزبازيان ثم أيده فى

---

(١) نهر التيبر .

هذا الترشيح جيش الدانوب فكان هذا الامبراطور خيّراً مصلحاً أقام العدل وأعاد الطمأنينة إلى النفوس وشيد العمارات ونشر التعليم وكان يهزأ من جعل الأباطرة آلهة بعد موتهم ، وكانت آخر كلماته وهو على فراش الموت فى عام ٧٩ هى : « إننى أشعر بأني سأكون إلها » إشارة إلى قرب مَنِيَّته . أما ابنه (تيتوس) «Titus» فهو الذى فتح أورشليم عَنْوة . وأما حفيده (دومسيان) «Domitien» فكان مستبداً متكبراً ، كثرت فى عهده قضايا المؤامرات ضد العرش وقتل فى عام ٩٦ وقد أعلن السيناتو اعتبار ذكراه بغيضة ومحا اسمه من جميع الآثار العامة . ثم إننا نرى بجانب هؤلاء الملوك أسرة (انطونين) الذين كان حكمهم عصراً ذهبياً . فقد وصلت روما فى عهدهم إلى أوج عزها وسعادتها . وكان ملوك هذه الأسرة عادلين مصلحين حتى أن تراجان عند ما ناول السيف لأحد الحكام وهو يقلده منصبه قال له : « ليكن هذا السيف لى إذا أنا أحسنتُ وعلىّ إذا ما أسأت » .

ومن العجيب أنه لم يكن بين هؤلاء الملوك من هو ابن لِسَلَفِهِ بل كانوا جميعاً مُتَبَنَّيْنَ لهم عدا (كومود) وقد كان هدريان مُوْلعاً بالمدنية الاغريقية ، وهو الذى شيد سوراً بلغ طوله مائة كيلومتر لحماية حدود الدولة من إغارة القبائل المتبربرة . ولم يتزعزع فى عهده السِّلم إلاّ عند قيام ثورة اليهود فى فلسطين ، وقد قمعها فى عام ١٣٥ ميلادية وحَرَمَ اليهود سُكْنَى أورشليم ففقدوا بذلك قوميتهم كشعب ، وظلوا مُشَتَّتين فى أنحاء الامبراطورية . وهو الذى عُنِيَ بطبقة الفرسان ، ونقل إليهم

كل سلطة السيناتو ، وشكّل من هؤلاء الفرسان إدارات متعددة يجتمع رؤساؤها تحت اسم مجلس الملك لتدبير شؤون الدولة ، وقد ضمّ إليهم كثيراً من رجال القانون مثل (سَلَفْيان) «Salavian» وهو الذى استبدل بالأوامر العديدة مرسوماً واحداً ، ثم تخلّى بمحض إرادته عن الحكم لمُتَبَنَّاه (انطونين) الذى لُقِّبَ بالوَرِع لتقواه . وهو الذى عُنِيَ بالعدالة ووضع المبدأ القائل بأن المتَّهَمَ برىء حتى تقوم الأدلة على إدانته ، وهو الذى منع تعذيب الرقيق بغير مسوِّغ .

وكذلك كان (مارك أوريل) ملكاً خيِّراً أقام المُنْشآت الخيرية كملاجئ اليتامى والفقيرات . ومن سخرية القدر أن يقْضِيَ هذا الفيلسوف المحبّ للخير والسلم حياته فى الحرب والقتال محافظةً على حدود مملكته . وقد وضع كتابه المشهور وهو فى معسكره تجاه القبائل المتبربرة .

أما ابنه كومود فقد كان غبياً قاسياً مُدلاًّ بقوة عضلاته لا يأنف النزول فى الميدان لمصارعة الوحوش .

ومن هنا نرى أن الدولة الرومانية قد حُكِمت مدى قرنين من الزمان بملوك كان بعضهم من الأخيار العادلين ، وبعضهم من المستبدين الظالمين ، غير أن كل هؤلاء الملوك يعتمدون فى ارتقائهم العرش على قوة الجند ، فبعد أن كان القواد هم الذين يصرفون جنودهم كما يشاءون ، أصبح هؤلاء الجنود هم الذين يُوَلُّون الملوك ويسندون عروشهم ، ويُقيلونهم إذا شاءوا .

هذا ولئن كانت الأسرة الأولى وهى الأسرة الْمُتَبَنَّاةُ لى مستبدة وحاكمة بأمرها . فإن الشعب قد ارتضاها ، لأنَ حكمها كان على كل حال أَهْوَنَ عليهم من العهد السابق ، الذى سادت فيه الاضطرابات والثورات . وعلى كل فإن أمد هذا العهد لم يطل أكثر من نصف قرن وأربع سنين ثم أعقبه حكم الأسرتين الأُخرَيَيْن ، وقد دام نحو قرن ونصف قرن ، وكان فى مجموعه عصر أمن وسلام وتقدم وارتقاء . وعلى الرغم من أن أباطرة هاتين الأسرتين لم يكونوا من عنصر رومانى لأن بعضهم كان من الغال وبعضهم من أصل اسبانى ، فإنهم قد أداروا حكم الدولة بنزاهة وعدالة . ووجهوا عنايتهم إلى إصلاح المقاطعات فعبدوا الطرق العديدة وشذَّبوا الغابات الكثيفة ، وردموا المستنقعات، وأقاموا الجسور ، ونشروا اللغة والعادات اللاتينية فى أنحاء الإمبراطورية . وأصبحت روما فى عهدهم مدينة المدائن بحماماتها البديعة ، ومسارحها العديدة . وملاعبها الفسيحة . تجرى فى جَنَبَاتها العربات ، وتقام فى أنحائها المصارعات . ولقد أنجبت روما فى هذا العهد أبطالا من الفلاسفة والكتاب أمثال الفيلسوف (سينيك) «Séneque» والمؤرخ (تاست) «Tacite» والكاتب (بلين) «Pline» . وارتقت الزراعة والصناعة والتجارة . وعمّ الأمن فى الأقاليم واستخرجت المعادن من بطون الأرض . فلا ريب أن هذا العهد هو عهد ارتقاء ومجد وهو جدير بأن يُدْعى عَصْرَ السِّلْم الرومانى .

بَيْدَ أن الدولة الرومانية على رغم هذا العصر الذهبى كانت مهددة

بخطرين عظيمين هما فوضى العسكرية الداخليـــة ، وإغارة القبـائل المتبربرة ، ثم لقد بلغ أمر التدخل العسكرى منتهاه بعد موت (كمود) فأصبح عرش الدولة يباع فى الثكنات بَيْعَ السِّلَع . فيتولاه من يدفع فيه أعلا ثمن .

فلما تولّى الحكم (سبتيم سيفير) «Septime Sévire» من سنة ١٩٣ إلى سنة ٢١١ نصح أولاده وهو على فراش الموت بألّا يعبأوا بشىء إلا بذل المال للجنود . وقد كتب ابنه (كارا كَلاّ) «Caracalla» إلى السيناتو يقول : « عندى سلاحى وجندى فلا أعبأ بما تفعلون » . وأصبح التاج الرومانى تتقاذفه أيدى الجنود زُهاء نصف قرن من سنة ٢٣٥ إلى سنة ٢٨٥

وفى هذا الوقت ذاته كانت حدود الدولة الرومانية مهدَّدة بالإغارات واستقلت بعض المقاطعات لتدافع عن حدودها .

ولقد سعى (ديوقلوسيان) «Dioclétien» الذي حكم من سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٥ وقسطنطين الذى حكم من سنة ٣٠٦ إلى سنة ٣٣٧ لإيقاف تدهور الدولة الرومانية ولكنهما لم يفلحا حتى أن قسطنطين استعان بالمسيحية فى حربه ضد أعدائه فنحهم حرية إقامة شعائرهم الدينية ، بمرسوم ميلانو سنة ٣١٣ قائلا : إنه رأى شارة الصليب فى السماء مقرونة بهذا النداء «In hoe syno vinces» ومعناها . إن النصر معقود بهذه العلامة . ذلك لأن قسطنطين رأى أن الشعب المنهوك القُوَى ، ومعــه الرقيق كانوا جميعاً يستمعون وقتئذ إلى وعظ القديس بولس ، ويُغذِّى الجمهور روحه

بتعاليم المسيحية بعد أن عزّ عليه أن يغذى جسمه بفضلات موائد الأشراف . غير أن المسيحية لم تلبث بعد أن أصبحت وحدها الدين الرسمى فى الدولة ، أن انقلب المسيحيون آلات تعذيب لا للوثنيين فحسب بل لإخوانهم المسيحيين الذين اعتنقوا مذهب أريوس «Arius» وأصبحت الدولة الرومانية ميداناً للانقسامات الدينية والسياسية والعسكرية ، وفى هذا الوقت كانت الحدود الرومانية مهددة بإغارات القبائل المتاخمة تهديداً خطراً لجأت إزاءه الدولة الرومانية إلى استخدام بعض هذه القبائل المتبربرة لحمايتها ، فأقطعت بعضها الأراضى على الحدود وكلفتها بالدفاع عنها ، غير أن عبث جُباة الضرائب من الرومان فى الأراضى المحتلة بهذه القبائل دعا إلى الشكوى منهم فى روما والهجوم على روما إذا لم تسمع شكواها وأصبح بذلك مقر العرش الروماني مهدداً ولذا رأى قسطنطين أن يؤسس مدينة القسطنطينية فى عام ٣٣٠ فى مكان بيزنطه التى شيدها الإغريق قبل ذلك بألف سنة .

إنقسام الدولة الرومانية

فكان هذا نذيراً بانقسام الدولة الرومانية . وقد بدأ هذا التقسيم فى الواقع فى عهد (تيودوز) «Tieodose» أحد أباطرة الدولة الرومانية حيث أنه قد أعطى ابنه (هونريوس) «Honorius» الدولة الغربية وعاصمتها روما وأعطى ابنه (أركاديوس) «Arcadius» الدولة الشرقية وعاصمتها القسطنطينية .

هذا ولم يأت القرن الرابع بعد الميلاد حتى حدثت أكبر إغارة من قبائل الهون «Huns» على نهر الدانوب فاندفعت قبائل الجوت «Gothes»

هاربة أمامها إلى مهاجمة الحدود الرومانية ، وغزا (الاريك) «Alaric» مدينة روما ذاتها . ثم توالت الإغارات فجاءت قبائل (الوندال) و(البرْغند) و (الألمان) و (الفرنج) «Les Vandales, les Bourgondes, Alamans et Franc» وأصبحت روما تحت رحمة الطامعين فيها .

سقوط الدولة الرومانية الغربية

فانتقل مقر العرش إلى فرْضة (رافين) «Ravennes» الحصينة فى عام ٤٠٢ م وهناك تمكن فى نهاية الأمر (أدواكر) «Odoacre» رئيس جند المرتزقة من الجرمانيين من أن يعزل بغير عناء (رومولوس اجستول) وهو آخر أباطرة الرومان فى الدولة الغربية ، ثم أعلن نفسه حاكما لروما فى عام ٤٧٥ م ، فكان من سخرية القدر أن يحمل (رومولوس) تاج مؤسسى روما ، ليكون آخر ملوكها .



الحديث الرابع

يسوع المسيح والنصرانية

لقد عزمت فى نهاية أحد أسابيع فصل الصيف أن أذهب إلى الإسكندرية ترويحاً عن النفس ، وشاهدت عن قرب فى أحد شوارع هذه المدينة العظيمة التى شيّدها ذلك العاهل الكبير (اسكندر الأكبر) خَصَّافاً (إسكافى) يعمل بجدّ ونشاط والعرق يتَفَصَّدُ به جبينُه وهوَ لاه فى عمله دونه ، فأعاد هذا المنظر إلى ذاكرتى تلك القصّة الدينية الطريفة عن دخول المسيحية حوالى سنة ٥٩ ميلادية فى أرض الفراعنة تلك القصة التى تحدثنا بأن مرقس الرسول عند عودته من أورشليم إلى موطنه الأصلى فى مِنْطَقَة الخمس مدن الغربية فى صحراء برقه مجتازاً أرض مصر، قد قابل فى الإسكندرية خصّافاً يدعى أنافيوس واتفق أن اخترق مِخْصَفُه إصبَعَهُ وهو يؤدِّى عمله فأبرأها مرقُس وكان من جرّاء هذا اعتناقُ الخصافِ المسيحية . وصار فيما بعد أولَ بَطَارِقة الكرسىّ السّكندرىّ .

وكان الدين الرسمى قبل ذلك هو الوثنية . وكانت الآلهة التى يعبدها المصريون خليطاً من آلهة قدماء المصريين وآلهة الإغريق ، لأن البطالمة وهم من أصل مقدوني قد نقلوا معهم كثيراً من عباداتهم وآلهتهم الوثنية

وإنى إذا ما تحدثت هنا عن يَسُوعَ المسيح أو عيسى عليه السلام

فإنى أتحدث عنه من ناحية التَّأريخ ضارباً صفحاً عن ناحية اللاّهُوت .
ذلك لأنه لا يصح للمؤرخ إذا ما أراد أن يَسْرِدَ حوادث التاريخ كما وقعت أو كما رُوِيَت على الوجه الأقرب إلى الحقيقة إلاّ أن يجرِّد نفسه (ولو مؤقتاً) من العقائد فلا يَخْلِط بين الدين والدنيا .

ولقد رأى بعض المؤرخين أن يسوع المنقذ للانسانية أو المخلص لها الوارد ذكره فى التوراة وُجدَ فى الاسكندرية كواعظ ووُجد قبل ذلك فى أورشليم كقائد عسكرى حارب Vapasiér وقام بمعجزة إشباع جيشه العرمرم بالنَّزْر القليل من الطعام كما أنّه وُجد وقت حصار أورشليم وهو ينادى : « ويل للمدينة ، وويل للمعبد » .

وقد استخلص هؤلاء المؤرخون من كل هذا أن يسوع المسيح لم يوجد فعلا وأن الذى وجد لا يخرج عن كونه صورة من مجموع ما ينسجه خيال الشعوب من الأقاصيص القديمة السالف ذكرها .

غير أن الأناجيل الأربعة وكذلك القرآن الكريم وهى المصادر الأولى فى هذا البحث تشعرنا بصحة وجوده وتعطينا صورة واضحة من حياته وأعماله تزيل كل شك وتؤيد أنه وُجد ووَعظ فعلا كسائر رسل أنبياء بنى إسرائيل .

لهذا رأيت أن أعود إلى القاهرة لزيارة أبى الهول مستلهماً إياه فيما أشكل علىّ وما كدتَ آخذ مكانى قريباً منه حتى خيل إلىّ أنه يقول : لستُ اليوم بمحدثك عن شيء ولا أنت بمحدثى حتى تقرأ هذا ففيه حديث اليوم والأمس وكأنه ناولنى كتاباً تبيَّنتُه فإذا به صحائف

فى التاريخ الإنسانى ، ووجدت فيه أنه فى عهد أوجست «Auguste» معبود الرومان وأكبر أباطرتهم وفى الوقت الذى كان فيه عامة الشعب الرومانى بائسين تعساء يتقاسمون غذاء المواشى ويسكنون حظائرها ، ولد عيسى عليه السلام . وفى عهد الإمبراطور «Thibere» وفى الوقت الذى كانت فيه الشعوب التابعة لروما سواء فى ذلك الغالبة والمغلوبة تهيم على وجهها حائرة بين ميادين روما . وأسواق فلسطين ، بائسة يائسة ، لا تدرى ماذا تصنع ، كان عيسى يعظ ويَعدُ بمملكة السماء التى أعدت للبائسين واليائسين فلا ريب إذن أن فكرة مملكة السماء وهى أساس دعوة السيد المسيح هى أكبر دعامة لأعظم ثورة أيقظت الإنسانية فى ذلك العهد المملوء بالمظالم والشرور ، فلقد كان البعض منغمساً فى الشهوات الدنيئة والبعض الآخر فريسة البؤس والفاقة فكانت ديانة الرومان جافة ليس فيها غير الرسوم والطقوس الظاهرية ، ثم هى خالية من كل إيمان صحيح ، وليست بذلك منقذة لمن حل به البؤس والشقاء .

هذا ولئن وُجدت عقائد أخرى اسيوية بجانب عقائد الرومان وأهمها عقيدة بنى إسرائيل إلا أن اليهود يرون أنهم هم وحدهم الشعب المختار الذى ينتظر بحق مملكة إسرائيل ، وكانوا يجتمعون وحدهم فى معابدهم لتلاوة التوراة ، وبذا لم تكن دعوتهم عامة للناس جميعاً ، ولم تكن موجهة بالذات للفقراء وهم السواد الأعظم ، فكانت إذن الدعوة المسيحية دعوة جاءت مطابقة لتطور اجتماعى جديد فى الدولة الرومانية ، وكان طَبَعِيًّا أن تلقى آذاناً صاغية ومرتعاً خصيباً لنموها وانتشارها سيما

وأنها تدعو الناس إلى التوبة من طريق الاعتراف بالخطايا والذنوب وتعدهم وتغريهم بمملكة السماء التي اعدت ليتمتع بها الأطهار والفقراء جميعاً ، وتعوضهم بآلام الفاقة والمَخْمَصةِ نعيماً وسعادة . وساعد يوحنا المعمدان على انتشار هذه الدعوة بطريقته فى التعميد بالماء والاعتراف ، وهى أشبه شيء بالعهد الذي يأخذه مشايخ الطرق الصوفية على ذويهم ومن يعتنق طريقتهم فى وقتنا الحاضر إذ كان يجمع حوله الأنصار بهذه الوسيلة ، ويبشرهم بقوله : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وكان يلبس رداء من وبر الإبل وعلى حقويه منطقة من الجلد وكان طعامه الجراد وعسل البر وكان يخرج إليه أهل أورشليم وتل اليهودية وجميع بقعة الأردن فيُعتمدون منه على نهر الشريعة معترفين بخطاياهم وذنوبهم وهو يقول لهم : « أنا أعمِّدكم بالماء للتوبة وأما الذي يأتى بعدى فهو أقوى منى وأنا لا أستحق أن أحمل حذاءه وهو يُعمّدكم بالروح القدس والنار » . فلما اعتمد المسيح من يوحنا قويَت دعوته وبعد أن قَتَل هيرودُ ملكُ اليهود يوحنا المعمدان التجأ الكثير من أنصاره إلى السيد المسيح الذي أخذ يبشر ويعظ على طول الطريق فى الجليل واليهودية بعبارات كلها أمثال ورموز ثم دخل أورشليم ذاتها وأخذ يعظ فى معبدها فاتهمه بنو إسرائيل بتهم لإثبات خروجه على شريعة موسى وإبراهيم .

ثم قرأت ما جاء فى الأناجيل من أنه فى مساء يوم الخميس من عيد الفصح وبعد تناول العشاء مع تلاميذه انسحبوا إلى جبل الزيتون وكان

رؤساء كهنة بنى إسرائيل قد أرسلوا أتباعهم للقبض عليه برفقة يهوذا الإسخريوطى الذى دلّ عليه وعندئذ استل أحد تلاميذه سيفه للدفاع فقال له يسوع : « ارددْ سيفكَ إلى غِمْده لأن كل من يأخذْ بالسيف بالسيف يهْلك » . وبعد القبض عليه فر تلاميذه وتبعه بطرس وحده من بُعد إلى دار قيافا رئيس الكهنة ثم حُكم عليه بالإعدام فى نفس الليلة التى قبض عليه فيها واضطرّ الحاكم الرومانى «Ponce Pilate» تحت ضغط الشعب اليهودى المائج أن يصدق على الحكم وينفذ فيه حكم الإعدام صلباً . وقبل أن يسلم الروح صرخ المسيح قائلا هذه الجملة التى لم نعرف مغزاها وهى : « إيلى إيلى لما شَبَقْتَنى » . ومعناها يا إلهى ياإلهى لماذا تركتنى . كذلك قرأت ما جاء فى القرآن الكريم : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم » .

ثم رجعت إلى الأناجيل فعرفت كيف أن مريم المجدلية وامرأتين أخريين ذهبْن إلى مكان الجثة فلم يجدنها فيه ، ثم كيف رآه بعد ذلك الحواريّون فوق الجبل فى الجليل .

وعرفت أن تلاميذ المسيح اجتمعوا بعدئذ فى أورشليم حول القديس بطرس ولم يقطعوا صِلَتَهم باليهودية ولكنهم أعلنوا أن عيسى هو المسيح المنتظر ، والمسيحية لم تنفصل فى الواقع عن دين اليهود إلا من عهد القديس بولس الذى كان من ألدّ أعداء النصرانية ، ثم أصبح بعد اعتناقه لها من أكبر أنصارها ، وهو الذى قال بأن المسيحيين بعد أن آمنوا بالسيد المسيح لم تعد بهم من حاجة إلى اتباع شريعة موسى ،

وإليه يرجع أعظم فضل فى نشر المسيحية ، لأنه أخذ يجوب الأقطار من آسيا الصغرى إلى اليونان ويُنْشِىء فى كل بلد كنيسة تضم جماعة منهم يَنْتخبون من بينهم لمدى الحياة اسقُفاً يساعده مجلس من الكهنة والشمامسة وكان هذا أساس نظام الكنائس وقتئذ .

ولم تصادف المسيحية فى أول عهدها إقبالا من الطبقات الممتازة بل كانت هدفاً لجميع أنواع الاضطهادات والتعذيب لأن معتنقيها كانوا موضع الرّيبة لأنهم كانوا يجتمعون فى يوم محاكمة المسيح صباحاً للصلاة وتلاوة الكتب المقدسة ، ويجتمعون مساء ليتقاسموا الخبز والنبيذ وهو ما يسمونه بالأوخارشيه وهو سر القربان ، ثم يتناولون معاً طعام العشاء المقدس ، وهم يقصدون بهذه الطقوس إعادة ذكريات العشاء الأخير للسيد المسيح . وقد أثّرت أساليبهم هذه وغيرها كامتناعهم عن دفن موتاهم فى مقابر الوثنيين فى النفوس فأصبحوا هدفاً لاتهامهم بأنّهم يذبحون الأطفال ليمتصُّوا دماءهم وأن عشاءهم هذا ما هو إلا سكر وعربدة[1] وزاد الطين بلّة أن الرومان كانوا يؤلهون أباطرتهم ويضعون تماثيلهم بجانب تماثيل الآلهة، ويرون أن عبادتها وإحلالها محل التعظيم والتكريم فرض على كل رومانى. فكان عمل المسيحيين فى إغفالهم هذه الفروض والواجبات جريمة لا تغتفر ، وهى الخيانة العظمى للوطن فتعقبوهم وساموهم كل أنواع الخسف والعذاب من تقتيل فيهم وتمثيل بهم وإلقائهم للوحوش المفترسة وحرقهم أحياء ، غير أن هذا الاضطهاد والتعذيب كانا

---

(١) كما كان يفعل الرومان فى عيد باكوس إله الخمر .

يقابَلان بالبشر والارتياح لما للعقائد الدينية من قوة سحرية . فلم يأتِ القرن الثالث حتى انتشرت النصرانية بين جميع طبقات الشعب . وأباح قسطنطين حرية إقامة الشعائر المسيحية بمرسوم ميلانو سنة ٣١٣م ثم إن الإمبراطور جوليان أراد إحياء الوثنية فلم يفلح لِقِصَرِ مدة حكمه التى لم تزد على سنتين من سنة ٣٦١ إلى سنة ٣٦٣ م . ولما تولى Theodore الحكم من سنة ٣٧٨ إلى سنة ٣٩٥ حرم عبادة الأوثان ألبتة ولم يَبْقَ فى الدولة الرومانية غير دين رسمىّ واحد هو النصرانية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل امتدت سلطة الكهنوت المسيحى على الأباطرة أنفسهم حتى أن الأسقُف القديس امبرواز Saint Ambroise منع يوماً مّا الإمبراطور تيودور من دخول الكنيسة قبل أن يستغفر ويتوب علناً مما اقترفه من المذابح فى إخماد فتنة كانت قائمة فى تسالونيك Thessalonique فى اليونان .

وفى هذا الوقت الذى انتصرت فيه المسيحية تمَّ تنظيم الكنيسة على مثال النظم الرومانية فأقيمت كنائس فى جميع الدوائر الإدارية للدولة وأنشئت فى كل بلدة أبرشية على أن تكون جميعها تابعة لأسقف العاصمة ، وكان لبعض الأساقفة نفوذ عظيم مثل أسقف الإسكندرية وأنطاكية اللذين أُعْطِيا لقب (بطريق) غير أن أسقف روما كان له المرتبة الأولى لما نالته كنيسة روما من الشهرة بسبب شهيديها القديسين بطرس وبولس اللذين عُذبا فى عهد نيرون .

ولقد حدث فى أوائل القرن الثالث أن بعض المتعبدين فى الشرق

كانوا ينسحبون إلى الوديان البعيدة وبعض الصحارى ليقوموا بالعبادة بعيدين عن العالم ، وأولئك هم جماعة النساك . وقد زاد فى القرن الرابع عدد الرهبان زيادة بالغة فأنشأوا الأديرة منذ سنة ٣٥٠

إغارات القبائل المتبربرة على الدولة الرومانية

ولقد كان هذا التنظيم الكَنَسِيّ المسيحى هو الذى حل محل النظم السياسية والإدارية فى الدولة الرومانية بعد انحلالها ، وهو الذى كان سائداً وقت إغارة القبائل المتبربرة المتاخمة للدولة الرومانية ، واستمر قائماً طوال القرون الوسطى .

وكان الرومان يعتبرون الشعوب التى لم تخضع لسلطانهم برابرة وكان شمال نهر الطونة وشرقي نهر الرين هى الحدود التى تفصل بين هؤلاء وأولئك .

ولقد وقعت على ضفاف هذين النهرين أكثر الإغارات على الدولة الرومانية من تلك الشعوب التى كانت أكثر قبائلها من العنصر الجرمانى المتوطن فى الأراضى الواقعة بين نهرى الرين والفستولا وبين شمال نهر الطونة وبحر البلطيق ، وهى البلاد المعروفة اليوم بهولاندا وألمانيا والدانيمارك وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وهنغاريا . ويمكن تقسيم هذه القبائل إلى ثلاثة أقسام مهمة هى :

الجرمان الغربيون ومنهم الفرنجة والألمان والسكسون .

والجرمان الشماليون ومنهم الدانيماركيون والسكندناويون .

والجرمان الشرقيون ومنهم القوط والوندال .

هذا عدا قبائل السِّلت Celtes الذين يقطنون بلاد الغال (فرنسا

الحالية) والجزر البريطانية وقبائل الصقلب Slaves الذين يقطنون شرقي قبائل الجرمان فيما يسمى الآن روسيا .

وكان الجرمان كسائر الشعوب القديمة يعبدون قوى الطبيعة كما كان الإله الأكبر عندهم هو إله الحرب (فودان) أو (أودين) (Vodan) الذى لا يقبل فى جنته إلا شهداء الحرب حيث يقدِّم لهم الحُورُ (العذارى) Les Walkyries مشروبَ الإدْرُومِيل L'hidromel .

وكان من عاداتهم أن يلتف الشبان حول الشجعان المبَرَّزين من الفرسان ويرافقوهم فى غزواتهم ، وهم لا يعرفون معنى للسلام ويعتبرون من الجبن والكسل أن يحصل الإنسان بعرق جبينه على ما يستطيع أخذه بإراقة الدماء .

العلاقات الأولى بين الدولة الرومانية والقبائل المتبربرة

وقد كانت هذه القبائل متاخمة للدولة الرومانية ، وكانت تعتدى على الحدود طلباً للعيش كلما قَلَّت عندهم المراعى . و استطاعت الدولة الرومانية طِوَال القرنين الثالث والرابع وأوائل القرن الخامس أن تَصُدَّ هجماتهم، وواصل أباطرة الرومان خُطَّة أوغسطوس «Augustus» الدفاعية ، فاكتفَوْا ببناء الحصون ووضع الحاميات على الحدود . فلما دبَّ الضعف إلى جسم الدولة الرومانية اضْطُرَّت أن تتخذ من بعض هذه القبائل المتبربرة عوناً لها على غيرها ، وبذا سنحت الفرصة للفرنجة ليصبحوا من رعايا الدولة الرومانية فى البلاد الواطئة ، وتوصل قسطنطين إلى عقد معاهدة مع القُوط بأن يقدموا له أربعين ألف مقاتل وقت الحرب ، فأصبح الكثيرون من زعماء هذه القبائل قواداً وضباطاً

فى جيش الدولة الرومانية وفى نفس البلاط الإمبراطورى الرومانى .

وبَدَهىٌّ أن هذا التدخل قد مهد لهذه القبائل طريق الإغارة على الدولة واحتلال بلادها فيما بعد ، على أنّ وجود المتبربرة داخل حدود الإمبراطورية الرومانية كان حتى عام ٣٨٤م قاصراً على استخدامهم فى الجيش والإدارة . أما بعد هذا التاريخ فقد بدأ تدخلهم الحربى الذى أدّى إلى استيلائهم على بلاد الدولة الرومانية .

بدء الإغارات وأسبابها

ولقد بدأت الإغارات فى أواخر القرن الرابع الميلادى وفى غضون القرن الخامس تحت ضغط حادث تاريخى كبير ، هو ظهور شعب جديد من العنصر الأصفر يسمى (الهُون) كان يقطن بلاد منغوليا وقد قام بهجوم فاشل على امبراطورية الصين ترتب عليه خضوع بعض أفراده لحكم الصين واتجاه معظمه نحو الغرب حتى وصل إلى شواطىء بحر قزوين وجنوب روسيا فى منتصف القرن الرابع ، ثم التقى بقبائل القُوْط الضاربة على شواطىء البحر الأسود كما عرفنا ، فاندفعت أمامه نحو حدود الدولة الرومانية . وبعد أن أقامت زمناً بين نهر الطونة والبلقان انتقلت إلى مقدونيا واليونان ، ثم اتجهت بقيادة رئيسها ألاريك «Alaric» غرباً نحو إيطاليا ، ولهذا أطلق عليها اسم (القُوْط الغربيين) وهى التى غزت روما وفتحتها عنوة ونهبتها فى عام ٤١٠ ميلادية ثم انتقلت بزعامة «Ataulf» أتولف بعد موت ألاريك إلى بلاد الغال وهناك تزوج بابنة هونوريوس «Honorius» امبراطور الدولة الرومانية الغربية ، ثم انتقلت إلى أسبانيا وأقامت فى مقاطعة أكيتين «Aquitaine» وأسست

هناك أول دولة للقبائل المتبربرة فى عام ٤١٩ م وكانت قد سبقتهم إلى هذه الأقطار قبائل أخرى هى الوندال والبُرْغُنْدُ — «Vandales et Burgondes» — . وقد أقام البُرْغُنْدُ فى بلاد الغال ، ونزح الوندال إلى أسبانيا ، وأقاموا فى مقاطعة «Andolousie» أندلوسيا ثم قادها رئيسها جنسريك «Genseric» إلى شمال أفريقيا فاستولت على قرطاجنة وأسست مملكة أخرى متبربرة فى عام ٤٤٢ م . وامتلكت الجزر الواقعة غرب البحر الأبيض المتوسط ، ثم انقضَّت على روما نفسها ونهبتها فى عام ٤٤٥ م. وبعد ذلك أخذ يدب فيها الضعف وينتشر بينها الفساد إلى أن أخضعتها الدولة الرومانية الشرقية فى عام ٥٤٣ م .

قبائل الهون

وإن ما تقدم لهو ملخَّصٌ لما حدث من القبائل الجرمانية التى ساقتها أمامها قبائل الهُوْن أما قبائل الهُوْنِ ذاتها فإنها بعد أن عَبَرَتْ جبال الكربات استقرت فى عام ٤٤٥ م فى وديان أوربا الوسطى وهى المعروفة الآن ببلاد المجر . ولما تمكن زعيمها أتيلاَّ «Atilla» من أن يضم إليه القبائل التى اتصل بها أثناء زحفه ، أنشأ مملكة متبربرة قوية تواجه الدولة الرومانية الشرقية التى اضْطُرَّت أن تُقْطِعَهُ أراضيَ بلقانية وأن تمنحه لقب رئيس الميليشيا ، ولكن أتيلاَّ لم يكتف بهذا بل اتجه نحو بلاد الغال (فرنسا الحالية) يُهدِّم ويُخرِّب ما صادفه فى طريقه إليها ، وَهَمَّ بالهجوم عليها وكان بعضها لا يزال تحت سيطرة الرومان والبعض الآخر فى يد قبائل الجرمان من الفرنجة والبُرْغُنْدِ والقُوْطِ الغربيين كما تقدم ، فاتحد الجميع على مقاومته تحت قيادة القائد الرومانى اكتيوس

«Aetius» وهزموه فى شالون فى عام ٤٥١ م وقد تقهقر أتيلاً عن طريق الطونه واخترق جبال الألب ودخل إيطاليا غازياً حتى وصل إلى ميلانو ، ثم مات ، فتفرقت القبائل التى كانت تحت زعامته من جرمانية وصقلبية، وعادت كما كانت تشن غاراتها على الدولة الرومانية منتهزة فرصة ضعفها وتوطدت سلطة الممالك الجرمانية فى بلاد الغال وإسبانيا وإيطاليا مع وجود الدولة الرومانية التى كان وجودها اسميا فقط إذ القوة الفعلية كانت فى أيدى القواد من المتبربرة ومن بينهم أدواكر «Odoacre» الذى عزل روميلوس أوجستيلوس «Romulus Augustulus» آخر امبراطور رومانى فى رافنا «Ravennes» وأرسل إلى القسطنطينية التاج وبقية شارات الملك قائلاً : إن إيطاليا ليست فى حاجة إلى امبراطور . وقد منحته الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية لقب حاكم إيطاليا ليكون هذا اللقب بمثابة اعتراف منه بسيادة الدولة الرومانية الشرقية على إيطاليا ، تلك السيادة الاسمية إذ السيادة الفعلية كانت فى يده وحده كما تقدم وكان ذلك نهاية للدولة الرومانية الغربية فى عام ٤٧٩ م .

قبائل القوط الشرقيين

كانت الدولة الرومانية الشرقية بالقسطنطينية أسعد حظاً لأنها لم تسقط إلا بعد نحو عشرة قرون من سقوط الدولة الرومانية الغربية على الرغم من الأزمات التى توالت عليها طوال هذه القرون ، فبعد أن زال عنها خطر غزو قبائل الهون هاجمتها قبائل القوط الشرقيين «Les ostrogoths» التى كانت قد خضعت لحكم أتيلاً زعيم الهون

واشتركت معه فى انتصاراته وهزائمه، وأقامت زمناً على نهر الطونه الأوسط، ثم استقرت شرق بحر الأدرياتيك تحت حكم ملكها تيودوريك «Théodoric» الذى قضى بضع سنين فى القسطنطينية خبر فى أثنائها أحوال البلاد .

ولما أراد الامبراطور زينو «Zeno» أن يتخلص من أدواكر حرض تيودوريك على غزو إيطاليا فغزاها وانتصر عليها فى مواقع ثلاث ، ثم اتفق مع أدواكر على أن يحكما البلاد معا إلا أن تيودوريك قد غدر بمنازعه أدواكر وقتله فى أثناء الاحتفال بالصلح . وأصبحت إيطاليا فى يد القوط الشرقيين يحكمها تيودوريك منذ عام ٤٩٣ حكماً صالحاً تربطه صلات المصاهرة أو المحالفة مع الممالك المتبربرة الأخرى التى أنشئت من بُرْغُنْد وفرنجة وقوط غربيين ووندال . وقد تبدد ملكه بعد موته فى عام ٥٢٦

قبائل الإنجليز والسكسون

وعندما اضْطُرت الدولة الرومانية إلى سحب جنودها من الجزر البريطانية لحماية موطنها الأصلى من إغارات القبائل المتبربرة أصبح أهل هذه الجزر غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم ، فأغارت عليهم قبائل الإنجليز والسكسون التى نزحت من جرمانيا فى القرنين الخامس والسادس ، وسهل عليها التغلب على البريطانيين وأصبحت البلاد تُعرف باسم بلاد الإنجليز ، وهى القبائل المغيرة التى كانت وثنية ثم اعتنقت المسيحية فى عهد البابا جريجورى ،وارتبطت بأسقفية روما ، وكونت ممالك صغيرة متنازعة بقيت فى نزاعها حتى تغلبت عليها (وسكس) أى

مملكة السكسون الغربيين فى عام ٨٢٥ م وأصبح إيجبرت (Eghert) ملكا على انجلترا جميعها حتى الفتح النورماندى .

قبائل اللومبارد

أما قبائل اللومبارد فهى من الجنس الجرمانى التى استوطنت شمال إيطاليا الذى أُطلق عليه اسم اللومباردى نسبة إليها ، ثم استولت على جميع إيطاليا ، ما عدا بعض المقاطعات مثل صِقِلّية وقُرْسِقَة وشرطانية Cerdagne التى كانت محمية بأسطول الإمبراطورية الشرقية .

وكانت هذه القبائل وثنية فاعتنقت المسيحية وأصبحت من سكان إيطاليا وتمثلت حضارتها وهى التى حاربت فردريك باربروسة وغلبته على أمره نخضع لسلطان البابوية كما سأذكر بعد .

قبائل الفرنجة

أما قبائل الفرنجة فهى من الجرمان الذين كان الإمبراطور الرومانى جوليان (Julien) قد أقطعهم الأراضى الواقعة بين الرين والإسْكُو (L'escaut) وهم الذين دافعوا عن الدولة الرومانية فى وقت الإغارات عليها فى عام ٤٠٦ م كما دافعوا عنها ضد أتيلا فى عام ٤٥١ . وقد انقسموا إلى فرنجة ساليان (Franc Saliens) التى توطنت فى هولاندة ، وفرنجة ريپوير (Franc Ripuaires) على نهر الرين وكلتاهما تنقسم إلى قبائل عديدة كان بعضها على نهر الإسْكُو ، ومما يُذكر أنه وُجدت جثة ملك الفرنجة شلديريك (Cheldéric) مدفونة فى مدينة تورنيه (Tournai) مع جواده وسلاحه وجواهره .

وقد مد كلوفيس (Clovis) ابن الملك شلديريك سلطته على بلاد الغال وأسس أول عائلة ملكت فرنسا باسم عائلة: ميروفنجيان (Merovingienne)

وكانت بلاد الغال قبل كلوفيس منقسمة ، فبلاد السين تحت العلم الرومانى وهى آخر ما بَقِيَ للدولة الرومانيـة شمال جبال الأَلْب، وكان القُوطُ الغربيون يقيمون جنوب نهر اللُّوار ، والبُرْغُنْدِيُّون فى حوض نهر الرون ، والألمان فى أعالى نهر الرين والغابة السوداء .

ووقعت كل هذه الممالك المختلفة تحت حكم كلوفيس الذى يُرْوَى عنه أنه نذر أن يعتنق المسيحية إذا نصره إله النصارى على أعدائه ، فلما تم له النصر المنشود اعتنق مذهب الكنيسة الغربية فى عام ٤٩٦ وتبعه كثير من شعبه ، وبدأت منذ هذا التاريخ العلاقات الطيبة بين الكنيسة بروما وبين ملوك الفِرِنْجَة ، ودامت قروناً مكنت الفِرِنْجَة من تكوين مملكة عظيمة على يد أبناء كلوفيس الذين استَوْلَوْا على ثورنجيا وبُرْغُنْدَا وبَفَارْيا ، وأخذ الفِرِنْجَة فى الغرب يتأثرون حضارة الرومان وبقى الفرنجة فى الشرق محافظين على عاداتهم الجرمانية وسُمِّيَ الجزء الشرقِيُّ أوستراسيا والغربى نيستريا «Austrasia et Neustria» وكان العنصر الجرمانى متفوقاً فى أوستراسيا التى نشأت منها الدولة الألمانية الحديثة بينما بقيت نيستريا وهى فرنسا تحت التأثير الرومانى .

ولما عظم شأن كلوفيس عَيَّن فى بلاطه رئيساً مسئولاً عن إدارة القصر قد تمكن تدريجيًا من أن يكون له شأن عظيم فى الدولة لدرجة أنَّ أحد هؤلاء وهو پيپين «Pepin» تمكن بهذه الوظيفة من أن يحكم فى أوستراسيا ، واستولى بعد حروب على نيستريا ، ووضع أساس دولة شارلمان الكبير ، وجاء بعده ابنه شارل مارتل

«Charles Martel»[1] من سنة ٧١٤ — ٧٤١ وسيأتى ذكره .

وكان اللومبارد في هذه الأثناء قد انتزعوا من الدولة الشرقية كل شمال إيطاليا كما عرفنا ، واعتدَوْا على الأراضى التى كان يحكمها البابا وكان بين البابا والقسطنطينية عداء شديد أدى به إلى الاستعانة برئيس بلاط الفرنجة وكان پيپين «Pepin» قد أرسل وفداً إلى البابا يستفتيه فيمن يجب أن يكون ملكاً ، أصاحب اللقب القابع فى قصره والذى لاحول له ولا قوة ؟ أم صاحب القوة والصَوْلة الذى يدير شؤون الدولة ؟ وقد أفتى البابا لمصلحته وعندئذ جمع (پيپين) الأشراف ورجال الدين فوافقوا على خلع الملك وحملوا (پيپين) على الأعناق وولّوْه ملكا ، وعرفت أسرته باسم الأسرة الكارولية نسبة إلى ابنه شارل أوكارل . وكان لهذا التتويج شأن فى نظرية الملكية التى كانت قبل هذا انتخابية بمعرفة الأشراف، وأصبحت بعد موافقة الكنيسة التى توّجت (پيپين) ملكاً تستمد حقها من الله وهى نظرية (الحق الربّانى) .

وفى عام ٧٥٤ توجه (پيپين) إلى إيطاليا وحارب اللومبارد وهزمهم واسترد منهم ما استولَوْا عليه من الأقاليم ، وقدمه هدية إلى البابا وحفظ صكّها فى قبر الرسول بطرس وصار البابا يحكم ما بين رافنا وروما كأمير دُنيوىّ ، وهو ماعرف فى التاريخ باسم (ميراث الرسول بطرس) .

والخلاصة من كل ما تقدم أن الممالك المتبربرة تأسست فى أوربا منذ أواخر القرن الخامس مع بقاء الدولة الرومانية اسماً بلا سلطة ،

---

(١) المعروف عند مؤرخى العرب باسم (قارلة) .

واختلطت شعوب الرومان بشعوب القبائل المتبربرة فكانت المدنية الرومانية الراقية تعيش بجانب البربرية المتوحشة ، واقتسمت هذه الشعوب المتنافرة فى الطباع والعادات الأراضى للزراعة ، والقصور للسُّكْنَى، مما أدى إلى منازعات كثيرة ، أضف إلى هـذا اختلاف العقائد بين هذه الشعوب ومع أن أكثر القبائل المتبربرة كانت قد اعتنقت المسيحية إلا أنها كانت تؤمن بمذهب أرْيُوس «Arius» أسقف الإسكندرية ، ذلك المذهب الذى اعتبره مؤتمر نيقية «Nicée» فى عام ٣٢٥ إلحاداً ، وكان الكاثوليك من الرومان يفضلون عليه الوثنية ، وقد حاول ملوك القوطِ والبُرْغُنْدِ وغيرهم تذليل هذا الخلاف فلم يفلحوا ، وأصبحت بين هذه الشعوب خلافات دينية وسياسية واجتماعية كانت كلها من أهم أسباب انتشار الفوضى فى ذلك العهد ، تلك الفوضى التى برزت خلالها فكرة إعادة الدولة الرومانية واستمرت ماثلة فى الأذهان إلى أن تولى الحكم الإمبراطور جستنيان .

الإمبراطور جستنيان فى الدولة الشرقية

لقد انتهز جستنيان فرصة النزاع الدينى بين الكاثوليك والأريوسيين — أى شعوب القبائل المتبربرة الذين تمذهبوا بمذهب أرْيُوسَ — وظهر بمظهر حامى الكنيسة الكاثوليكية وساعدته على ذلك فكرة إعادة الدولة الرومانية فاستطاع مدة حكمه من سنة ٥٢٧ — ٥٦٥ أن ينتزع من يد الممالك المتبربرة شمال أفريقيا بفضل قائده العظيم بليساريوس «Belisarius» الذى انتصر على الوندال فى عام ٥٣٣ وعَبَرَ البحر إلى صِقِلِّيَة فاحتلها فى عام ٥٣٥ ، واحتل جنوب إيطاليا وحارب القُوطَ الشرقيين وفتح

رافنا فى عام ٥٤٠ ، ثم فتح باقى إيطاليا على يد قائده نارسيس «Narsis» .
أما الصقالبة فأقاموا فى البلقان فى البلاد المعروفة الآن باسم يوغوسلافيا و بلغاريا واليونان ، واندمجوا فى أهالى هذه البلاد .
وأغلق جستنيان جامعة أثينا مركز التعاليم الوثنية القديمة لشدة كراهيته للوثنية، وأكبر فضل لجستنيان هو قيامه بجمع شتات القانون الروماني ، وهو الذى وضع المجموعة المعروفة باسمه خالية من المتناقضات ومما لا فائدة فيه . وهو الذى وضع كذلك مجموعة الأحكام التى أصدرها أكبر المُشَرِّعين والقضاة فى عصره . ويقال إن هذا العمل قد استلزم مراجعة نحو ألفَيْ مؤلَّف قانونىّ وثلاثة ملايين من الأسطر .
وجستنيان هو الذى شيد كنيسة (صوفيا) وقال عند افتتاحها « أحمد الله تعالى الذى جعلنى أقيم هذا العمل العظيم الذى تفوقت به عليك ياسليمان » يشير بذلك إلى هيكل سليمان بأُورشَلِيمَ .
هذا ولم تكن كل هذه النهضة التى جاءت فى عهد جستنيان إلاّ وقتية أعقبها انحطاط دام قروناً طويلة مضت فى دسائس البلاط والمؤامرات والمناقشات الأفلاطونية التى أصبحت عَلماً على بيزنطة ، والتى تطورت من بحوث دينية إلى جدل عقيم ، أضف إلى ذلك تبذير الأباطرة وازدياد قوة الشعوب الصقلبية فى البلقان واللمبارد فى إيطاليا .
ولقد زاد الطينَ بِلَّةً عِداءُ دولة الفرس الساسانية التى قامت فى سنة ٢٢٦ واستطاع ملكها أردشير الأول أن يسخِّر دين زرادشت لتقوية عرشه فهاجم الدولة البيزنطية ، وانتزع منها إنطاكية ، ثم تجددت

قوة الدولة الساسانية فى عهد كسرى قُبَاذَ الأول فاستولى الفرس على بلاد اليمن التى كانت تحت حكم الحبشة .

حضارة اليمن

تلك البلاد التى يُعَدُّ حكمها فى الزمن القديم سَيْطَرة على مفتاح الطرق بين الشرق والغرب بل بين الشرقين الأدنى والأقصى ، فضلا عما كان لهذا القطر من حضارة باذخة ومجد أثيل . وحسبك أن تنظر فى آثارها في مأرِبٍ ، وصُرواحَ ، وبَرَاقِشَ ، ومَعِينٍ ، ويَنُونَ ، وظَفَارٍ ، ويَحْصُبَ ، وناعطٍ .

فلقد كان لهذا البلد من مخازن المياه فى حقول يَحْصُبَ وحِبَرَه وشاحِك وَرَيْعَان وسد مأرب ما أشاد بذكره كتاب الانسانية الأول الذى ظهر بعدُ مُعْجِزاً مُوْجِزاً ، حين وصف أخطر حدث تاريخى فى حياة اليمن ذلك هو خراب سد مأرب وتفرُّق قبائل سبأ حيث نزحت بعد ذلك إلى الشمال والغرب ، ونزلت فى الحجاز ونجد والعراق[1] .

وأزهى حضارة اليمن كانت فى العصرين السبئيّ الأول (٨٥٠ — ١١٥ ق . م .) والسبئيّ الثانى ويدعى العصر الحِمْيرى (١١٥ — ٥٢٥ ب . م .) وهو عصر الفتح والقوة وكان الملك يُدْعَى (ملك سبأ وَرَيْدَان) وريدان مَحْفِدٌ من محافدهم الكبرى وهو الذى سُمِّيَ بعد ذلك ظَفَار ، ثم ضُمَّتْ إلى اليمن حضرموت وغيرها فَدُعِيَ « ملك سبأ

(١) القرآن الكريم حيث جاء فيه قوله تعالى من سورة سبأ : « لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور . وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين .

وريدان وحضرموت وغيرها » وكان لليمن قاعدتان إحداهما فى حضرموت والأخرى فى اليمن ، وينقسم ملوكها إلى طبقتين طبقة الملوك وطبقة التبابعة ، فالملوك كانوا من وَلَد حِمْيَر حتى صار الحكم إلى الحارث الرائش وهو أول من وحّد هذه الدولة وجعل لها قاعدة واحدة ، وسُمِّيَ تُبَّعًا ، وجرى تقليدهم بَعْدُ أن يُلَقَّبَ (تُبَّعًا) كلٌّ من ملك الشِّحْر وحضرموت مع اليمن فإن لم يملكهما كان ملكا .

وقبل أن تتخذ الدولة الرومانية طريق البحر الأبيض مسلكها لحمل تجارتها فى القرن الأول من الميلاد كانت بلاد اليمن طريقها بين الشرق والغرب.

ومن أشهر الملوك التبابعة أصحاب الحوادث الجسيمة فى التاريخ سبعة :

١ — (الحارث الرائش) الذى وحّد بلاد اليمن ، والذى غزا بلاد العراق ، ويدعى مؤرخوا العرب أنه غزا الهند والترك ويبدو لنا من النظر فى اتجاه هؤلاء المؤرخين أنهم كانوا يسمون العراق هنداً ، بل لقد سمّوا بعض تخوم اليمن من جهة البحر كَعَدَنٍ بالهند .

٢ — (أفريقش بن أبرهة) وقد زعموا أنه بانى أفريقية (تونس) وأنه غزا المغرب حتى بلغ المحيط الأطلسى .

٣ — (بلقيس بنت هدهاد) التى وردت قصتها مع سليمان فى القرآن « سورة النمل » .

٤ — (شمر برعش) وقد اتسعت فتوحاته ولقب بذى القرنين .

دخول اليهودية اليمن

٥ — (تُبّع بن حسان) وقد غزا يثرب واصطحب معه حبرين

من اليهود بعد أن دَانَ باليهودية لنشر هذه الديانة فى بلاده وفى عهده عقد حلف بينه وبين ربيعة فى الشمال .

٦ — (ذُو نُوَاسٍ) وهو الذى أفرط فى حب اليهودية حتى فرضها على أهل اليمن وكانت النصرانية فى عهده أخذت تتسلَّل إلى بلاده عن طريق التجار والرَّحَّالين الذين نجحوا فى دعوتهم فى نجران فحفر الأخدود وأحرق أهل نجران واضطهد النصرانية(١) .

٧ — (سيف بن ذى يزن) الحِمْيَرِى وهو الذى ذهب إلى كسرى قُبَاذَ الأوَّلِ يستنجده على الحبشة ، وكانت دولة الفرس تنافس الدولة الرومانية النفوذ ، وتعلم أنها إذا استولت على اليمن ظفرت بِمِنْطَقَةٍ خصيبة ومركز ممتاز فى جنوب الجزيرة وسواحل المحيط الهندى والبحر الأحمر ، فأمدّ كسرى سيف بن ذى يزن بجيوش لم تستطع أن تنتصر على الجيوش الحبشية ومن ورائها الإمدادات الرومانية إلا فى عهد (كِسْرى أُنُوشِرْوَانَ) حيث أرسل إلى سواحل اليمن جيشاً من المسجونين بقيادة (وَهْرَزَ) وكان قائد الأحباش يدعى (يكسوم) فلما التقى بوهرز دارت عليه الدائرة فلما قتل انهزم جيشه فتعقَّبهم وَهْرَزُ حتى دانت اليمن كلها لسيف ، ثم عيَّن كسرى عاملاً من قبَله كمندوب سامٍ يدعى (بازان) وظل عاملاً عليها حتى ظهر محمد (ص) بدعوته فى مكة وهاجر إلى المدينة وأرسل كتابه المشهور إلى كسرى فبعث كسرى إلى

دخول الإسلام

(١) وذكر القرآن قصته فى قوله : « قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود إلخ » .

بازان أن يبعث إلى محمد مَنْ يأتيه برأسه أو يأتى به أسيراً ، وحاول بازان أن يفعل ذلك لولا أن ثورة (شِيرَوَيْه) على أبيه (أَنُوشِرْاوَنَ) قد طَوَّحَتْ بنفوذ الدولة الساسانية على اليمن ، ورأى بازان مبلغ ماتصيبه الدعوة الجديدة من نجاح منقطع النظير ، فأعلن إسلامه ، وبث الدعوة فى اليمن وبعث إلى النبي يستمده العون فى ذلك ، فأمده بمعاذ بن جبل وعليّ بن أبي طالب ، وعيَّن النبي بازان عاملاً على اليمن من قِبَلِهِ ، ويسميه العرب (بَذْهَان) . ذلك مُجْمَل ما كان بين الدولتين الساسانية والرومانية من نزاع فى هذا الجزء من العالم ، وفى المدة من سنة ٥٩٠ م إلى ٦٢٨ م انتصر الفرس كذلك على الروم وانتزعوا منهم دمشق والقدس وأخذوا الصليب المقدس فى سنة ٦١٤ ثم استوْلَوْا على مصر سنة ٦١٩

البعثة الإسلامية

وما كاد الفرس يستولُون على كل هذه الأملاك حتى تولى (هرقل) الحكم فى بيزنطة إذ كان من قواد الجيش فثار على حكومة (فوكاس) الإمبراطور وكان من العوامل التى أطْمَعَتْ الفرس فى الدوله الرومانية فلما انتصر هرقل وتُوِّجَ إمبراطورَ للرومان بعد سقوط فوكاس حارب الفرس وانتصر عليهم فى معركة نِينَوَى سنة ٦٢٧ م .

نزاع الدولتين وانتصار هرقل

وبينما كان الروم منتصرين فى الشرق كان الفرس يهددون القسطنطينية فى الغرب ، وكانت كل هذه الأقطار مسرحاً لحروب دامية ومهداً لفوضى دائمة .

الحديث الخامس

محمد — رسالته — الخلفاء الراشدون

وما أن وصلت إلى هـذا الحد من قراءة الـكتاب الذى نَاوَلَنِيهِ أبو الهول حتى ألقيتُ نظرة جائلة فيما كانت عليه الإنسانية فى أواخر القرن الخامس الميلادى وهالنى ما رأيت ، وَوَدَدْتُ أن أعرف كيف انتهت هذه المآسى التاريخية ؟ أو على الأقل كيف خَفَّتْ وَطْأَتُها إلى حين ؟ وكيف كان العالم يقاوم بحيويته الداء العضال ، فتارة تتلاشى أعراض الداء ، وطوراً ينهزم البدن كليلا من طول ما رزح الجسم تحت عوامل فنائه وهو يأبى إلا أن يستمسك بأسباب البقاء ؟ .

عمرو ابن العاص

ولذلك اتجهتُ إلى أبى الهول علِّى أجد من حديثه معى ما يُبِين عن عوامل تلك الحياة ، وكم كنت أحس بالسعادة والبُلَهْنِيَةِ حين التقيت على شوق جَم ، وشغف أعظم ، بِشَبَح رجل رَبْعَة (متوسط القامة) عريض ما بين المنكبين ، أحمر العينين ، يبدو من بريقهما مع نتوء جبينه الذكاء المتوقد ، والذهن اللمّاع ، ومن ابتسامته اللازمة أنه داهية ماكر صبور ، بعيد الغَوْر ، لا يحفل بالشدائد ، ورأيْتُنى وقد سمعت صوته الأَجَش حين حيانا بلسان عربى مبين أننى إزاء رجل فى الطراز الأعْلى من الرجال ، قد توفرت له أسمى مناقبها ، وظهر من لباسه الأبيض

الناصع أنه يميل إلى البساطة والنظافة له لحية كَثّة قد وَخطها الشَّيْب مُضَمَّخَةً بالحنّاء ، يلبُس عِمامة قد ارتفع كُوْرُهَا عن مقدَّم رأسه فبدت ناصيته وقد انفرق شعره المرسَل إلى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ ، يَدَّهِنْ بالطِّيب وقد تَضَوَّع الجوّ بِعَبيرِه ، ترى من يكون هذا الرجل ؟ . . إنه الفاتح الرحيم ، والسائس العبقرىّ المُلْهَم، منشىء مصر الإسلامية (عمرو بن العاص) فقدمه أبو الهول هاشاً ، واضعاً يده بمخلبها على رأس عَمْرٍو قائلا:

— من هنا ومن هذا الرأس نَبغَتْ نوابغ الرأى والفكر والعبقرية

ثم يدنو بيده إلى فِىْ عمرو :

— ومن هنا سمعت الدنيا صدق اللهجة ، وفصاحة اللسان المُعْرِب ، وقوة العارضة الحافزة المثيرة . فالتفتُّ إلى عمرو وقلت :

كيف انتهت المآسى التاريخية

— أيها الفاتح العظيم : لقد جئت إلى هنا إلى مثابة التاريخ الصادق لأعرف كيف كانت الإنسانية فى ظل هذه الحروب الدامية فى الشرق والغرب . وكيف كانت الحياة فى هذا الجو الصاخب ؟ ثم كيف أُتيح للانسانية أن تتجه فى نضالها من الهدم إلى البناء ؟ وكيف جرفها تيار من الحياة والنهضة والمجد ؟ . . .

عمرو — إنك يا صاح إذا تدبرت ما وصلَتْ إليه الإنسانية فى أواخر القرن الخامس تَبيَّن لك أن القارة الأوربية قد أصبحت مسرحاً لحروب طاحنة بين شعوب مختلفة ، اندثرت فى غمارها المدنيات الشرقية واليونانية والرومانية ، كما انطفأ سراج التفكير الحر ، والبحث العلمى ، لأن القبائل المتبربرة التى هاجمت الدولة الرومانية لم تكن تعرف

من المبادئ غير ما حواه قانون الغابات من سلب وقتل ونهب ، والكنيسة الكاثوليكية التى حلّت بنُظُمها محل الدولة الرومانية الغربية وإن كانت قد وقفت أمام المظالم والفظائع وخَفَّفَتْ من آلامها إلاّ أنها قد أقامت مبدأ التصديق والإيمان من غير بحث ولا تفكير .

وإذا وليّتَ وجهك شَطْرَ الشرق وجدت أن دولتَيْ بيزنطه وفارس قد أعيد تأسيسهما على مبدإ العقائد الدينية ، وكما أن أباطرة بيزنطة اتخذوا لتثبيت عروشهم وتأييدها النصرانيةَ ديناً لهم أخذ أَرْدَشيرُ الأول فى فارس يتذرع بديانة زرادشت لتشييد حكم الأسرة الساسانية ، وكلتا الدولتين تدخلتا فى ضمائر الناس ، وَفَرَضَتَا عليهم عقائد لا اختيار لهم فيها ، وبلاد الشرق من سوريا وفلسطين ومصر كريشة فى مهب الريح تقع فريسة لنهب جنود فارس تارة ، وسلب جنود بيزنطة تارة أخرى .

ولا ريب أن الإنسانية فى هذا القرن الخامس كانت متداعية الأركان لعدم وجود دولة تحمى ذمار البلاد ، أو عقيدة يختارها الناس لتكون عزاء لهم وتهدئة لخواطرهم مما هم فيه من ظلم وشقاء قلت :

— لا شك أن هذه الحال التى طَمَّتْ على الإنسانية بشرورها لا تسمح مطلقاً بأن تنقلب بين عشية وضحاها عَالَماً يَنْشُدُ الخير ، ويستبق إلى بناء الحضارة العلمية والثقافية دَفْعةً واحدة ، وَفَورَ الصيحة الأولى ، فكيف استطاعت قوتكم أن تُغَيِّر من الناموس المنطق للوجود .

الجسم المريض

عمرو : — إن عالماً متداعياً من طول ما رَزَح تحت عوامل الظلم والجور لَقَمِينٌ أن يتطلع إلى التغيير والتبديل ، وكانت الإنسانية فى هذا

العهد تتلهّف على رسالة جديدة تأتيها ولكن من أين تتوقع أن تأتى هذه الرسالة ؟ ... و

فقلت مقاطعاً : ماذا لو أتت من ناحية القبائل الجرمانيـة أو من قبائل الهون أو من فارس أو الروم ؟

إلى الصحراء

عمرو : إن هذه الرسالة لا تأتى إلا كما تكون القوة السليمة فى الجسم المريض لا تظهر إلا من أبعد أعضاء الجسم عن مكان العلّة ، وتلك هى الصحراء التى دَرَجْنَا عَلَى رَمْضَائِهَا ، ورتَعْنَا فى سُهولها وحُزُونها ، وتُرُبِّىَ فى أحضانها صاحب تلك الرسالة المنشودة .

كانت الصحراء ذلك المكان السليم فى الجسم المريض ، فمنه جرى تيار من الدماء النقية فَتَكَ بالعِلَّة حين مرَّ فى دورته الطَبَعِيَّة على الأجزاء المصابة ، ولذا لم تأت هذه الرسالة من ناحية القبائل الجرمانية وهى التى هاجمت الدولة الرومانية ومحت آثار المدنيات القديمة ولم تأت من قبائل الهون المتبربرة التى هدَّمت وخرَّبت كل ما صادفها فى طريقها ، ولا من فارس أو بيزنطة وقد حَرَمَتَا الناس حرية الفكر ، وجَعَلَتَا بلادهم غنيمة لمن يظفر ويقهر ، لذلك ترى الرسالة المُبْتَغَاة قد جاءت من قلب الجزيرة العربية ، جاءت من مكة على يد محمد (ص) الذى أنزل الله عليه :

« غُلِبَتِ الرُّومُ فِى أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ » .

ولقد أرسل إلى كلٍّ من هرقل ملك الروم وأنوشروان ملك

فارس وأَضْحَمَة نجاشي الحبشة يدعوهم جميعاً إلى اعتناق دينه والإيمان برسالته ، ولم يَفُتْهُ أن يرسل إلى المقوقس حاكم مصر يدعوه بدعوته .

قلت : — وكيف نشأ بين ظَهْرَانَيْكُم النبي وكيف فعلت شخصيته النبوية فى أحداث التاريخ بقوّتها ومرّتها ؟ . . .

أبرهة وهدم الكعبة

عمرو : — لقد وُلد محمد (ص) فى عام ٥٧١ م أى فى عام الفيل الذى حاول أَبْرَهَةُ الأَشْرَمُ أن يهدم الكعبة فيه ، وولد بعد وفاة أبيه بعدة أشهر ، وأَسْلَمَهُ جده إلى حليمة السعدية فى بنى سعد بالطائف على عادة أهل الحضر إذ يبعثون بأبنائهم إلى البادية ليشبُّوا على الفروسية والحرية والصبر على المكاره إلى ما يتحلّوْن به — بالممارسة — من مزايا البادية من فصاحة العروبة وسعة الخيال ، وقوة القريحة ، ثم كفَله جده الذى لم يلبث أن مات فتعهّده عمُّه وسافر به إلى الشام صبيًّا ، ولما بلغ أشُدَّه أرادته خديجة أن يقوم بتجارتها بين مكة والشام لما أعاز به من الأمانة والصدق والذكاء ، ثم تزوج منها وهو فى الخامسة والعشرين وقد بلغت الأربعين من العُمُر ، ثم قضى بعد زواجه خمسة عشر عاماً لِيَتِمَّ عمره أربعين بما عُرف عنه من سجايا وصفات قلَّما عرفت فى غيره من عفّة نفس وحب للواجب ، حتى لُقِّبَ بيننا بالصادق الأمين .

قلت : — إن هذا العمر الذى قضاه محمد وقضى فيه زهرة صباه لم يكن ملكاً للتاريخ ولا لأحد — أعنى أنه لم تُبْذَلْ تهاويله فى دعوة عامة ، ولا فى إنشاء عالمى ، ولا قيادة إصلاحية — فكيف تمتلىء صحائف التاريخ بعد ذلك بما يَتَعَاظَمُ الدَّهْرَ شأنُه ، ويتكاثَرُه خطبُه ، أَهَلْ أُتِيحَ

لمحمد بعد رَيْعَان الشباب أن يُغيِّرَ وجه التاريخ ؟ ! !

كيف نزل الوحى

عمرو : — كان محمد فى صباه قد حُبِّبَ إليه الخلاء والعُزلة ، وكان يكره الملاهى ، ولا يشترك مع قومه فى أعيادهم أو أسمارهم ؛ بل كان يلجأ إلى غار حِرَاء بالقرب من مكة ليقيم فيه شهراً كل عام منعزلاً مفكِّراً مُتَحَنِّثاً . وبينما كان ذات مرة فى هذا الغار إذ أُوحِيَ إليه وشعر بأن منادياً يقول له : « إقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَق ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَق ، إقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم ، ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . فَرَجَفَ فؤادُه بهذه الكلمات ورجع إلى خديجة يقص عليها فى جزع ما رأى ، وأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان عالماً بالدين الموسوى حتى ترجم التوراة من العبرية إلى العربية فلما قصَّ عليه القَصَصَ[1] قال : « هذا هو الناموس الذى نزَّل الله على موسى » ثم أخذ محمد ينشر الدعوة سرًّا بين آله وصحبه فآمنت به زوجه وكانت أكبر عزاء له فيما لقى من عَنت الناس ، كما آمن به أبو بكر وعليّ وآمن على يد أبو بكر عثمان وعبد الرحمن ورهطٌ ، ثم آمن به عمر وحمزة . ولما رأت قريش شدة استمساكه بدعوته شكوه إلى عمه أبى طالب الذى لحق به بعضُ ما لحقَ ابن أخيه من أذى ، فأراد نصحه قائلاً :

ثبات ووثبات وهجرة

— يابنى : ابْقِ عَلَىّ وعَلَى نفسِك . فأجابه :

— ياعمّ : والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أَهْلِكَ دونه ما تركتُه .

---

(١) القصص بفتح المثناة الفوقية مفرد قصص بكسر القاف .

ثم اشتد اضطهاد قريش له بعد موت عمه وزوجته وكان موتهما رُزْأَيْنِ فى عام واحد امتُحِن بهما محمد. وتحدَّته قريش أن يأتى بالمعجزات ولو أتى بها ما صدَّقوه : « حتى تَرْقَى فى السماء وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلينا كتاباً نَقْرَؤُه » . فأُوحِىَ إليه : « قُلْ سبحان ربِّى هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ؟ » .

وأخذ يعرض نفسه على القبائل فى موسم الحج حتى آمن به جماعة من يثرب عاهدوه على حمايته إذا هاجر إليهم ، وانتقل فعلاً إلى مدينتهم عام ٦٢٢ م ربيع الثانى من سنة ١ هـ بعد أن ائْتَمَرَتْ قريش بقتله فأبقى عَلِيًّا مكانه فى فراشه متشحاً ببرده وذهب معه أبو بكر إلى (غار ثور) معرضين نفسيهما لغدر الأعداء والفتك بهما ، غير مباليين بذلك فى سبيل القضاء على سخافات العقائد القديمة من تقديس الأحياء من محترفة الدين والمرتزقة بالعقائد ، ومن تقديس الأموات من الأنبياء والقديسين والصالحين . أجل ، غير عابئين بهذه القوات التى تتجمع فى طريق هذه الرسالة التى طوَّحت بالوُسَطَاء والشُّفَعَاء ، وجعلت الإنسان مكرَّماً أمام خالقه سواءً مع أى إنسان آخر بالغاً ما بلغ من المنزلة والرفعة والسمُوّ ، فلا قِدِّيسَ يُفْضِى إليه المُتَجَانِفُ بما اقترف ، أو يطرق له باب الملكوت إذا اعترف ، ولاَ وَلِىَّ يقضى الحاجات ، أو تُوَجَّه إليه الضَّرَاعات ، أَلاَ إنه لا وَازِع للانسان إلا من ضميره[1] .

---

(١) إقرأ إن شئت ما جاء فى الكتاب : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » ، « قل إن الشفاعة لله جميعاً » « وما أنت عليهم بوكيل » « وما أنت عليهم بجبار » « وما أنت عليهم بحفيظ » « لست عليهم بمسيطر » « ويخوفونك بالذين من دونه » « أليس الله بكاف عبده » ومثلها فى تمحيص الفؤاد من تعظيم المخلوق وتطهيره من أدران الشرك فى الكتاب لا يحصى .

فيوم الهجرة يوم العِبْرة .

وليس هناك يوم هو أحق بالتأريخ من اليوم الذى أنقذت فيه الإنسانية بإنقاذ رسالتها [1] ، وكان حِقْد قريش على الأنصار ضربةَ لازب ، وكان على محمد وأنصاره أن يستعدوا للدفاع ، وهنا تنتقل الدعوة إلى طور جديد ، فيصبح محمد ليس داعية فحسب ، بل رئيساً لحكومة المدينة وقائداً لجيشها ، وقد أدّى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الحروب انتشر بها الإسلام بسرعة لم يعهد مثلها التاريخ .

إسلام عمرو وخالد وعثمان ابن طلحة

واستأنف عمرو : « وكنت أحد أعداء محمد حتى اتَّضَحَ الْمَيْسَمُ ، ورأيت بعد روِيَّةٍ وتفكير أن الرجل صادق ، وأن السحر والشعوذة — اللذيْن اتَّهمناه بهما ظلماً — لقد كان أعْدى أعدائهما فأسلمت مع خالد ابن الوليد وعثمان بن طلحه سنة ٧ هـ ٦٢٨ م ، وهاجرنا إلى المدينة وفرح بنا محمد وقال :

— لقد رمَتْكم مكةُ بأفلاَذِ أكبادها ، لقد أسلمت العرب وآمن عمرو .

ثم اشتركت فى غزواته حتى أمّرنى على جيش غزوةِ ذات السلاسل وأبو بكر وعمر من جنودى وبعد ذلك بعامين دخل مكة فاتحاً فأمّن أهلها وعفا عنهم ، وأعلن فى خطبة الوداع مبادىء المساواة فى وقفة عرفات .

مبادىء الحرية والمساواة

« إن الله قد أذْهَبَ عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وفَخْرَها بالآباء ، لا فضل

---

(١) « إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه » .

لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى إلا بالتقوى ، ألآ وإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى مكانكم هذا ، ألآ هل بلّغتُ ؟ . ألآ هل بلّغتُ ؟ . اللهمَّ فاشْهدْ ! »

قلت : — أيها القائد لقد عنّ لى أن أسألك — وأنت ابن بجدة البلدين مكة والمدينة — عن مبلغ صلتهما بعصر قبل الإسلام وبعده ، فإن بى لَشَغَفاً إلى سماع حديث مصر فى مَهْبِطِ الوحى ، وقد علمت أن ثمّة صلةً بيننا وبينكم .

مكة والمدينة مصريتان

عمرو : — إن من هذا التاريخ ما يكون الحديث فيه فى حضرة أبى الهول افتياتاً على صاحب الحق الأول .

أبو الهول : — أشكر لك يا فَتَى قريش جميل إيثارك ، ثم رمقنى بعينه وقال :

إن تاريخ مكة[1] عندى يرجع إلى سنة ١٨٩٢ ق . م . أى فى عهد إبراهيم (ع. س) وكان قد هاجر إلى مصر بعد حدوث مجاعة فى العراق ، وكانت مصر لشقيقاتها كُبْراهُنّ التى يفزع إليها العانى فتواسيه ، والمحروم فتعطيه ، والطريد فتؤويه ، وكان يحكم مصر وقتئذ الفراعنة المسمّوْن بالهكسوس[2] وحدث بينهم وبين إبراهيم حوار بسبب

---

(١) ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ متراً وهى على عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة وفى طول ٤٠ درجة و ٩ دقائق يحيط بها من الشرق جبلا خندمة وأبى قبيس وشمالا جبل المعلى وغرباً جبل الهندى والحجون ومن ثم الطريق الى جدة وجنوباً جبل عمر وطريق اليمن وانحناء جبل أبى قبيس .

(٢) المصريون يسمونهم الهكسوس أى الرعاة والبابليون يسمونهم (ماليق) والعبرانيون أضافوا إليها كلة (عم) أى أمة فقالوا (عم ماليق) ثم نطقها العرب (عماليق) ولما كان اللفظ فى صورة منتهى الجموع فقد أخرجوا منه مفرداً فقالوا عملاق والجمع عماليق وعمالق وعمالقه .

طلب الملك سارة لنفسه ، وأطمع فرْعَوْنَ فيها أن إبراهيم كان يقول (إنها أختى) ثم اتضح له الأمر وأدرك أنهما صالحان مُلْهَمَان فأكرمهما وأهداهما جارية هى إحدى حرائر مصر اللائى استرقّهن الهكسوس ، وأدى أسلوبهم فى الحكم إلى غَضْبة مصر وثورتها عليهم بعد ذلك بقرنين فإن مصر الوادعة هى مصر المتشبِّثَةُ بحقها ، ومصر الهادئة هى مصر المزمجِرَةُ الغَضُوب ، فلما عاد إبراهيم إلى العراق ألجأت مقتضيات الحياة سارةَ أن تزاوج بين جاريتها وإبراهيم فلما حملت هاجَر دفعتها الغيرة أن توعز إلى إبراهيم أن ينفيها ، وهناك فى هذا الوادى الذى لم يسكنه أحد لعدم وجود الماء به — اللهم إلا بعض العماليق الذين كانوا يسكنون فى شمال هذه المِنْطَقَة من الغرب بوادى الحَجُون[1] ، وكانوا قد قدموا إلى هذا المكان من جهة البحرين حيث يمتد ملكهم إلى شِبه جزيرة سَيْنَاء — ألقى إبراهيمُ هاجَرَ وولدها إسماعيل ، وأخذت تبحث عن الماء حتى عثرت على بئر زمزم فكانت حياة لهذا الوادى ، بعد أن ذاقت من آلام العطش ألواناً مريرة ، وكانت تجيل عينيها وترسلهما حتى خيل إليها أن مارداً شاخصاً حيالها ، يراودها على اليأس والاستسلام ، فتأخذ حُصَيَّاتٍ لترجُمَه ، وكانت فى غُدُوِّها ورَوَاحِهَا بين هَرْوَلَةٍ وسعْى من الصفا إلى المَرْوَة باحثة عن الماء مِثَالَ الأمل المجسّم والحياة المُرْجاة ، وهكذا كانت المصرية الأولى . . .

هاجر وإسماعيل وزمزم

لم يسجل هذا الواقِعَ صحائف التاريخ فحسب ، ولكن سجلتها

(١) وادى فاطمة الآن .

بشعائر مقدسة يمارسها المسلمون ، توارثها أبناء هاجرَ عن أمهم .

فمناسك الحجِّ من سعي وهرولة ورمي جمار (حصى) إنما هي تصوير لما اعتراها ، وتمثيلٌ لها في ساعات الظمأ ، ليتعلم أبطال الدنيا من هذه المصرية الصبر والثبات والأمل .

وجرى ماء زمزم في دماء مُتَبَلْوَرَة بماء النيل ، فمسحت هاجرُ بأقدامها البقاع الجرداء فاستحالت إلى خلايا من النحل تشعَّبت منها ممالك أخرى ، أَعْنِي تمخَّضَت الطبيعة من هذه المصرية عن قبائل ودول من أنبل الشعوب وأكرم الأمم ، ثم مازالت تسمُو في عَقِبِهَا حتى أَنْجَبَت سيد الهُدَاة ، ومنقذ الإنسانية (محمد) إذ تزوج إسماعيل من الهكسوس وأنشأ دُوَيْلَة صغيرة تتكلم بلغة أمِّه المصرية في تلك الأصقاع النَّائية ، واتصلت لغة مصر بأختها في الجزيرة ، وإنك إذا أمعَنْت النظر في لغة مُضَر لتَجِدَنَّ لغة مصر تَلُوح فيها كباقي الوَشْم في ظاهر اليد[1] ، ثم إن إبراهيم كان يرتاد هذا المكان بين الحين والحين حتى بنى الكعبة وأمره الله بتطهير البيت وجعله مثابة للناس وأمناً[2] . ثم أذن للناس بالحج إلى هذا المكان وذاعت شهرته فكان مقصد الناس وغلب عليه اسم مكة وهي كلمة بابلية معناها البيت وكذا (مكا) ثم رجع إبراهيم إلى وطنه ،

---

(١) يعلم ذلك كل من بحث في نشأة اللغة العربية وقد رأيت في كتيب عن الألفاظ المعربة في القرآن للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله كثيراً من الكلمات يقول إنها مصرية الأصل مثل (الأولى والآخرة وبطائن وظهائر وسيذ ومزجاة واليم) وتختلف قليلا عن معناها في العربية .

(٢) وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل (قائلين) ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم .

وتعهّد إسماعيل البيت حتى مات ، فتولى أمره بنوه إلى أن دبَّ الوَهَنُ فيهم ، فى الوقت الذى كانت مصر قد قامت بثورتها على الهكسوس وأَجْلَتْهُم عنها ، فنزحوا إلى تلك الربوع ، ورأى فريق منهم مكاناً تأتيه الخيرات والأرزاق من كل فج عميق ، ورأوْا قرب لغة هؤلاء العرب الإسماعيليين من لغتهم التى اجتمع فيها ولا شك من عناصر اللُّغَى الكلدانية[1] والسبئية والمصرية والعبرية ، وعلموا أن أمَّ هذا الشعب الصغير هى أخت أولئك الأبطال الذين يضربون أقْفِيَتَهُمْ فاسْتهْوَاهم مبدأُ « أسد عَلَىّ وفى الحروب نعامة » فغلبوا أبناء هاجر على البيت فاحتلّوه ونقلوا معبوداتهم المصرية إليه ، وما زالت السلطة لهم حتى طَغَى سَيْلُ الْعَرِم بعد خراب خَزَّان مَأْرِب فى منتصف القرن السادس ق. م. وتشتت أبناء حِمْيَر السبئيون[2] كما علمت ، ثم مرت بعض جحافلهم بقيادة رجل يدعى مضاض بن الحارث فاتفق مع زعيم أبناء اسماعيل ويُدْعَى (نابتاً) على إجلاء الهكسوس ؛ ومن ثَمَّ صارت الكلمة لهؤلاء القحطانيين ، وانتهى أمرهم بأن صاروا — بعد أن كانوا يزعمون أن بقاءهم فى مكة إنما كان للمحافظة عليها وحماية أبنائها — يعيثون فى الأرض فساداً حتى ضعف أمرهم فتغلَّب عليهم أبناء هاجر الذين كان قد نزح منهم رُهوط فى أنحاء البادية وكوَّنوا عشائر وبطوناً وأحياء لم تزل تقدس

اتصال الهكسوس بالعرب الاسماعيلية

(١) أخذ أبناء اسماعيل الكلدانية من جدهم ابراهيم والسبئية من جرهم والمصرية من هاجر وبعد ذلك أخذوا العبرية من بنى إسرائيل وتكون من هذا المزيج لغة فصحى كانت أصل هذه العربية لغة الكتاب المجيد وفى الحديث « أول من انشق لسانه عن العربية المبينة اسماعيل بن ابراهيم » .

(٢) ينقسم العرب إلى ثلاث طبقات . العرب البائدة . كعاد وثمود وطسم وجديس والعرب العاربة سكان الجنوب وهم أبناء قحطان الذين هاجروا إلى الشمال بعد سيل العرم والعرب المستعربه وهم أبناء اسماعيل .

بناء أتريبس أو يثرب

مَهْوَى أفئدتها . ومهبِطِ أرُومَتها (مكة) . وكان موسى عند خروجه من مصر قد أوفد بعض رجاله يكتشفون له الجهات القريبة من مكة وقد عرف أن جده ابراهيم قد ترك له أبناء عمومة فى تلك الربوع ، فلما كانوا فى أثناء الطريق جاءهم خبر وفاة موسى فاستطابوا مكاناً خصيباً يتحصّنون به ، وبَنَوْا مدينة أطلقوا عليها اسمين مصريين : (إتريبس) و (طيبة) والأول هو الذى حُرِّف فيما بعد إلى (يثرب)[1] ولم يلبثوا حتى ثار المصريون على الهكسوس فأجلَوْهم عن مصر فنزلت فلول منهم فى (طيبة) هذه إذ أَنِسُوا بأولئك المقيمين فيها لطول ما مارسوا عشرتهم ، كما أنس آخرون منهم بالمقام بين أبناء هاجر كما علمت ، وتشعبت القبائل الإسماعيلية واتصلت بالمهاجرين القحطانيين حيث تكوَّن منهم جميعاً عرب شبه الجزيرة العربية ، وقد نزح إلى المدينة أيضاً فلولٌ من عرب الجنوب بعد خراب سد مأرب وهم الأوس والخزرج ، فكان منهم ومن اليهود المؤسسين ليثرب كبنى قُرَيْظَة وبنى النُّضَير وبنى قَيْنُقَاع شعب واحدٌ وإن اختلف كلٌّ من الفريقين ديناً وثروة وتقاليد ونسباً .

نزوح عرب الجنوب

ثورة أبناء إسماعيل

واشتد ساعد أبناء اسماعيل فثاروا ثورتهم على مُحْتَلِّي البيت ومغتصبيه ، فنزحت جُرْهم من مكة إلى أرض جُهَيْنَة شِمَالَ يَنْبُع .

---

(١) يثرب وهى المدينة وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متراً وتقع على طول ٣٩ درجة و ٥٥ دقيقة شرقاً وعلى عرض ٢٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء (أعنى على خط الاستواء فيما بين دراو الواقعة بين اسوان وإسنا) ودرجة حرارتها صيفاً تبلغ ٢٨ سنتيجراد ، أما فى الشتاء فتهبط إلى ١٠ فوق الصفر نهاراً و٥ تحت الصفر ليلا .

وهنا أكون قد أديت واجباً عَلَىّ فى بيان نصيبى ونصيبك (يعنى عمراً) من هـذا المجد خالداً تالداً ، أما ماتلا ذلك من أطوار فإنه من حقك .

عمرو — لا عجب حين تُفيض فى سرد تلك الوقائع وتوضح عللها ونتائجها لأنك تذْكرتَها وتبيانُها وَبلاَغُها المُبين ، ولقد صدق أبو الهول حين أضْفىٰ على ما بين مصر والعرب المستعربة من رَحِمٍ مبْلُولَة ، ودماء موصُولة ثوباً من التحليل العلمى لا يدع سبيلا إلى الشك فيما بيننا من قُرْبىٰ ، وذلك ما تعلمناه من نَبِيِّنا منذ اللحظة الأولى التى شرع فيها يجرِّؤنا على هيبة الإمبراطوريتين ويحقِّرُهما فى أعيننا ، ويأمرنا بالإغارة على أطراف المملكتين (فارس والروم) ، أجل ، تعلمنا منه احترام المصريين ، وإيصاءنا بهم : « أوصِيكُمْ بأهل مصر خيراً فإن لكم فيهم نَسَباً وصِهْراً » أما أجدادنا أبناء هاجر فإنه على الرغم من تَحَكُّمِ المُغِيرين بأمر بيت الله — حظ أخوالهم فى وادى النيل — فإنه قد نَبَغ فيهم رجال أذكياء تَزَعَّمُوهم فى الشدائد ، ووحَّدُوا منهم الكلمة المتفرقة وبعثوا منهم الأشلاء الممزَّقة ، مثل كعب بن لُؤَىّ الذى كان أول من جمع العرب فى يوم العَرُوبَة[1] (الجمعة) ليخطب فيهم ويستحثهم على تلمُّس نِجَاد المكرُمَات ، واجتناب الخلائق الرذيلة ، وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره حتى أَرَّخُوا بعام موته مدة أربعمائة سنة

(١) كانت أيام الأسبوع عند العرب الاسماعيليه هكذا : الأحـد أول ، الإثنين أهون ، الثلاثاء جبار ، الأربعاء دبار ، الخميس مؤنس ، الجمعة عروبة ، السبت شبار .

إلى عام الفيل ، ولكن ما كادت تنحصر السلطة فى أبناء إسماعيل حتى جاءت خُزَاعة فتغلَّبَتْ عليهم ، وَوَلِيَتْ أمر البيت بما كان لها من العصبية ، رغم أن بنى اسماعيل كانوا أرقى منهم وأسمى منهم عقولاً ، حتى رجع أحد أحفاد كعب بن لُؤَيّ من الشام ، وكان قد ذهب مع أمه صغيراً وهو قُصَيّ بن كلاب الذى سمِّى يوم العَرُوبة الجمعة ، ودُعِىَ مُجَمِّعًا لأنه جمع حوله قبائل قريش بما مُنِح من حُسْن القيادة والسياسة والذكاء ، مؤثِّراً فى نفوسهم ببلاغته ، حتى أزال ما بينهم من الشحناء والسخائم ، وسعى لدى خزاعة وفاوضهم فى حجابة البيت حتى باعوها له .

اقتسام الامتيازات بين بنى قصى

ومن هنا أخذ مفاتيح مكة وظل يعمل على تقوية عشيرته حتى أَجْلى خُزاعة إلى بطن مِرّ (وادى فاطمة الآن) ومن ثَم اجتمعت له السقاية والحِجَابة والرِّفادة واللواء[1] ولم تجتمع لرجل قبله ، وبذلك كان ملكاً مستقلا على مكة وإن لم يُتوَّج بتاج الملوك ، أحبه الناس جميعاً فى بلاد الحجاز فرفع قومه إلى مرتبة الزعامة على سائر العرب ، وبنى دار النَّدْوَة ليكون بها مجلس شُورَاهم ، وجعل بابها إلى بيته ، ولم يَمت قُصَيّ حتى جعل على القبائل خراجاً تؤديه إلى مكة ، وتكسب به الزلفى لدى أهلها .

السدانة فى بنى شيبة

وكان لقُصَىّ ولدان ، عبد مناف وعبد الدار . نبغ أولهما وكان أذكى من الثانى قلباً وأسدَّ رأياً ، وأصغر سنًّا ، وسبق أخاه فى ضروب الشرف والمكارم . فأراد أبوهما أن يُرضى عبد الدار ويوفِّر له عِوَض

---

(١) السقاية : سقيا الحجيج ، والحجابة : خدمة البيت وسدانته ، والرفادة : اطعام الفقراء من آمى البيت ، واللواء : حمل الراية التى يرفعونها فى حروبهم وكل أولئك من المفاخر العالية .

ما نقص به حظُّهُ من رأى أخيه وعقله ونباهته ، فأوصى له بما كان في يده من السقاية والحجابة واللواء والندوة حتي يتكافأ مع أخيه ، ونشأ بنو عبدمناف ينازعون بنى عبد الدار هذه الامتيازات التى ورثوها عن أبيهم حتى كادت تقع الحرب بينهم ، لولا تَدَخُّل بعض القبائل بالتحكيم وقسمة هذه الامتيازات ، فكان لبنى عبد مناف السقاية والرفادة ولبنى عبد الدار الحجابة واللواء وما زال كل من الفريقين محتفظاً بامتيازاته حتى فتحت مكة، وكانت مفاتيح الكعبة مع عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار فأراد النبي أن يحتجزها منه فأُوحِىَ إليه أن يردها[1] فقال لعثمان : « ها كُمْ خذوها خالدة تالدة » . وبعد موت عثمان سلمها إلى أخيه شيبة[2]

مرض النبي وخطبته ووصيته

وفى أوائل السنة الحادية عشرة من الهجرة اعترت النبي وعْكَة ، وقَلِقَ عليه الأنصار والمهاجرون حين استَشْرى المرض واشتدت الحمّى ، واجتمعوا فى المسجد، فخرج عليهم متكئاً على علىّ بن أبى طالب معصوب الرأس وجلس فى أسفل مِرْقاة المنبر ، وبعد أن حَمِد الله وأثنى عليه قال : « أيها الناس : بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خُلِّدَ نبي قبلى فيمن بعث الله فأُخَلَّدَ فيكم ؟ ألا إنى لاحقٌ بربى وأنتم لاحقُون بى فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأُوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول : « والعَصْرِ إنّ الإنسان لَفِى خسْر ، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وَتَوَاصَوْا بالحق ، وَتَواصَوْا بالصبر » إلخ .

---

(١) روى أنه نزلت فى ذلك : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

(٢) ولا تزال هذه الوظيفة محفوظة لبنيه إلى يومنا هذا وتعد أقدم منصب فى العالم — بعد منصب امبراطور اليابان — بقى منذ القدم إلى اليوم فى سلالة أسرة .

ثم أسلم الرُّوحَ إلى الرفيق الأعلى ضحْوَة الاثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هـ. ٨ يونية سنة ٦٣٢ م .

قلت :— إنكم حين كان النبي بين ظَهْرَانَيْكُم جمع منكم الكلمة ، ولمّ الشمل ، وعمل على توجيه أمته إلى ما شاء الله لها بكلمة أو إشارة أو بادرة ، فهل جرت الأمور بينكم بعد على الوتيرة الأولى من عهد نبيكم .

عمرو :— لقد استخلف النبي أبا بكر فى مرضه ليصلى بالناس إماماً ، وفى هذا إشارة إلى أنه أحق الناس بالإمامة السياسية الكبرى ، وإن كانت إشارة غير صريحة ، ومن ثَمَّ اضطرب الأمر بعد وفاة النبي ، واسْتَشْرَف إلى هذا الأمر بعض زعماء الأنصار ، وأخذ بنو قريش يتشاورون : هل يبقى الأمر فى آل البيت ؟ أم يكون فى المهاجرين ؟ حتى حضر أبو بكر وكشف عن وجه النبي وجثا على ركبتَيْهِ يُقبِّله وهو يقول : « يا رسول الله : ما أطْيَبَك حيًّا وميْتاً ، بأبى أنت وأمى لا يجمع الله عليك موتتين » . ثم خرج إلى الناس وقد وقف عمر شاهراً سيفه يمنع أحداً أن يعلن مَنْعَاة النبي ، سيما وقد شك كثير من الناس فى الوفاة فمن قائل بأنها غَيْبوبة كغيبوبة موسى عند التجلى ، ومن قائل بأن روحه فى فَتْرة عُروج إلى الملأ الأعلى مشغولةٌ بما يحول بينها وبين البدن، فصعد أبو بكر المنبر وصاح صيحته : « ألا إن من كان يعبُدُ محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبُدُ الله فإن الله حيٌّ لا يموت ، ثم تلا الآية : « وَما محمدٌ إلاّ رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرّسُلُ أفإنْ مَاتَ

موقف الشيخين

أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ، وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ » .

قلت : فماذا كان موقف عُمَرَ وسائرِ المتردّدين فى قبول خبر الوفاة إذن .

عمرو :— أشهد أنى سمعت عمر يقول : « والله ماهو إلا أن سمعت أبا بكر تلاَهَا (يعنى الآية) فعُقِرْتُ حتى ما تُقِلُّنِي قَدَمَاى وحتى أَهْوَيْتُ إلى الأرض حين سمعتُه تلاَ أن النبي (ص) قد مات ، وأشهد والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقّاها الناس كلهم ؛ فما أسمع بَشَرًا إلاّ يَتْلُوها » . ثم دَفَنَّا رسول الله حيث مات فى بيت عائشة ثم استأنف عمرو حديثه فقال :

الخلفاء الراشدون

— لقد نبغ بعد وفاة النبى أمران لهما جسامة وخطر فى تاريخ الإسلام : (الأول) أن النبي لم يُعيِّن خليفة بعده ، وترك الأمر شورى بين المسلمين فنشأ عن ذلك أن أخذ الناس يبحثون فيمن يخلف النبي وتشعبت الآراء ، فذهب الأنصار إلى جعل الخلافة انتخابية بلا قيد ولا شرط ، وذهب فريق إلى حصرها فى آل محمد وأخذت أكثرية المهاجرين بأن الخلافة فى قريش . (الثانى) ارتداد العرب جميعاً عن الإسلام فيما خلا مكة والمدينة وحاولت الطائف ذلك فى أول الأمر ثم ثابتْ إلى رشدها، فكانت ثالثة المدن التى بقيَتْ على الإسلام .

ردة العرب

وكانت الرِّدّة قاصرة على منع الزكاة فى أكثر القبائل حتى أن عمر لم يرض أن يُعْلِنَ أبو بكر الحرب عليها بقوله : (كيف نحارب من

يقول « لا إله إلاّ الله ») . فقال أبو بكر : « والله لو منعونى عِقَال بَعير كانوا يؤدّونه إلى رسول الله لحاربتهم عليه » وادّعى بعض الزعماء فى قبائل أخرى النبوة كطُلَيْحَةَ الأسديّ ، وَمُسَيْلِمَةَ الحنفى ، وَالأَسْوَد العَنَسِيّ ، لذلك كان من الواجب علينا أن نَشُدّ أَزْرَ أبى بكر كخليفة للنبي للقضاء على هذه الفتن التى أُستَشْرَتْ ، وجعلت المسلمين كالغنم الشاردة فى الليلة المَطِيرَة وقد سقط عليها جِيَاع الذئاب ، وأسرعنا إلى تقرير خلافة أبى بكر الذى كان أول أصحاب الرسول وكان موقفه الفاصل عند الوفاة ، واضطراب أعصاب المسلمين ، فكان له فضل إسكان رُوْعِهم ، وتهدئة خواطرهم ، وموقفه فى ذياك غير هيِّن ، إذ ليس أخطر على حقائق الأشياء وعلى معقول السنن الكونية من خيال الشعوب الخصيب حين يُحَلِّق فى سماء عظمائهم ، وقد استبعدوا أن يتغلب عليهم الموت ، حينئذ يؤلّه العظيم وتُضْفَى على شخصيته تهاويل الأوهام ويُعْطَى من تسخير العقول إلى تنظيم تلك الأوهام وتسويغها — من طول ما رَزَحَتْ تحت سلطان الخيال الواهم ، والعاطفة الطائشة — غَيْر ما قسِمَ له من حظٍّ بشريٍّ يشاطر فيه بنى آدم جميعَ مظاهر الحياة فى بدايتها ونهايتها ، وفى موقفه هذا — وهو ألصق الناس بنبيّ الإسلام — دليل على أن هذا الدين أعدَى أعداء الوهم والخرافة ، ثم ظاهرة قوية بدت فى شخصيّة الصديق تلك هى قوة الاستشهاد ، وبآية من القرآن تكاد تكون قد نسِيَتْ ، إلى ما يحمل تاريخه من ذكريات نبوية مجيدة، وأحداث حافلة بالعظائم الفارهة ، وإذا كان علىٌّ عند بعض

الإسلام عدو الوهم

النـاس أحقّ بالخلافة إلا أن بَيْعة عليّ لأبى بكر معنا كانت حاسمة فى مَناط النزاع ، وكانت دليلاً على الوحدة والائتلاف ، وفى سبيلها يقوم صرح الإيثار ، ويتلاشى هيكل الأنانية فى بُحْران العواطف الجيّاشـة ، والإحساس النّبيل، وبذلك الإجماع فاز مبدأ أن الخلافة انتخابية فى قريش.

خلافة الصديق ١١ — ١٣ هـ ٦٣٢—٦٣٤ م

اهتم أبو بكر فى أول عهده بالفتنة فعمل على إخمادها وبذلك استعاد الإسلام هيبته وقوته ، وقَدّم له مساعدوه من قواد العرب المشهورين كل معونة كخالد بن الوليد الذى هزم طليحة بن خويلد، وطارد سَجَاح الكاهنةَ، وقضى على مسيلمة فى اليمامة ، وخضعت شبه جزيرة العرب للخليفة . على أن هذا الاهتمام بأمر الفتنة لم يَثْنه عن المُضِيّ فيما بدأ النبي رَسْمَه من تجهيز حملة أُسَامَةَ ليؤدِّب بنى غَسَّان لإقدامهم على قتل رسول النبي إليهم[1] . وبهـذا احتك المسلمون بالروم . هذا ، وسيَّرَ أبو بكر حملة إلى قبائل تغلب الضاربة فى شرق نهر الفرات عند الحيرة ، وكانت تدين بالمسيحية ويحكمها أمراء من العرب تحت سيادة الفرس ، وبهذه الحملة بدأ احتكاك المسلمين بالدولة الساسانية .

ولمـا اسْتَتَبَّ الأمر وتَمَّ إخضاع المرتدين فى شـبه الجزيرة تهيَّأَ الإسلام للفتح الخارجى ، فسار خالد بن الوليد والمُثَنّى بن حارثة الشيبانى نحو الحيرة وفتحاها ، فانتبهت دولة الفرس وخشيت انتصار هذه الأمة

---

(١) بنو غسان من قبائل العرب التى دانت بالنصرانية واعترفت للدولة الرومانية الشرقية بالسـيادة عليها وكانت هذه الحملة التى جهزها النبي ثانى حملة وجهها النبي إلى الشمال (والأولى سنة ٧ هـ التى قتل فيها قوادها الثلاثة جعفر بن أبى طالب وزيد بن حارثة — وهو أبو أسامة قائد الحملة الثانية — وعبد الله بن رواحة وقد تولى أمرها بعدهم خالد بن الوليـد فانتصر بإنقاذ جيشه بحركة انسحاب منظمة) وتعد هاتان الحملتان مبدأ احتكاك المسلمين بالدولة الرومانية .

الصغيرة الفُتيــة ، وكانت هذه الدولة قد امتدَّ نفوذهـا من وسط آسيا الصغرى إلى حدود الصين والهند وكان سلطانها قويًا على العراق وخراسان و بلاد العجم وما حول بحر قزوين من الأقاليم .

موقعة القادسية

ولما اعتلى يَزْدَجِرْدُ عرش فارس جرَّد جيشاً قويًّا بقيادة رُسْتَمَ القائدِ الفارسى المشهور لطرد العرب وردهم إلى بلادهم ، ولم يتمكن العرب من التغلب على الفرس إلاّ فى خلافة (عمر) حيث انتصروا فى وقعة القادسية ١٥ هـ ٦٣٦ م بقيادة سعد بن أبى وَقَّاص ، وقُتل رسْتَمَ بيد أبى مِحْجَنِ الثَّقَفِي بِرُمْحِ سعدٍ وعلى فرسه البلقاء ولذلك قيل : « لا صَبْرَ إلا صبر البلقاء ، ولا ظفر إلا ظفر أبى محجن »[1] .

وتُعَدُّ هذه المعركة من الوقائع الحاسمة فى تاريخ الإسلام ، سقطت على إثرها فى أيدى المسلمين بلاد العراق وما بين النهرين ، وارتد الفرس إلى المدائن عاصمتهم ، وتبعهم سعدٌ إليها فاستولى عليها ، ثم استولى على حلوان فى ٢١ هـ ٦٤٢ م وفر يَزْدَجِرْدُ إلى حدود الصين حيث قتل ، وغنم المسلمون فى هذه الحرب غنائم عظيمة ، وأصبحت فارس وممتلكاتها داخلة ضمن دولة الإسلام . و بنى المسلمون البصرة على خليج العجم ، والكوفة على الشاطئ الغربى لنهر الفرات ، واعتنق الفرس الإسلام ، واختلطوا بالمسلمين وصاهروهم وأصبحوا عنصراً إسلاميًّا هاماً يُعرفون

فرار يزدجرد

بناء البصرة والكوفة

(١) كان أبو محجن يكثر من الشراب واعتقله سعد فى هذه الغزوة يشرب الخمر فقيده وألقاه على الجبل فاستنجد بأسماء ابنة زوج سعد أن تفك وثاقه ليحارب الفرس الذين أوشك المسلمون أن يندحروا أمامهم وكانت المعركة حامية الوطيس وأخذ يتوسل إليها حتى فكت قيده عنه وأعطته فرس سعد ورمحه فانقض على الفرس وصار يهزمهم لا يقتحم جهة منهم إلا هزمها فبرز إليه رستم بن اسفنديا فقتله أبو محجن وعفا عنه سعد حين انتصر المسلمون بشجاعته وبأسه.

عنـد العرب بالموالى ، وكان حكم المسلمين فى بلاد الفرس صالحاً حيث قضى على نظـام الطبقات فيها وترك الأرض للفلاحين يزرعونهـا ويسـتغلونها كما ترك الناس أحراراً فى عقائدهم الدينية ، وا كتفى بأخذ الجزية ممن لا يقبل الإسلام منهم ولما مات أبو بكر عام ١٣ هـ — ٦٣٤ م كان قد أوصى قبل وفاته أن عمر خليفة له ليتلافى ما وقع فى أول عهده من انقسام المسلمين وبالأخص أنهم كانوا فى حرب مع الدول الأجنبية إذ كانوا يحاربون الفرسَ شرقاً من جهة ، والروم شمالاً من جهة أخرى . وقد بايعه الناس تبعاً لبيعتهم لسلفه إذ تعدُّ طاعتُهم لوصيته لمن يخلفه مما يندرج فى نطاق بيعتهم له على السمع والطاعة فى المَنْشَطِ وَالمَكْرَه .

خلافة عمر
١٣ — ٢٣ هـ
٦٣٤ـ٦٤٤ م

ولقد رأينا عمر يواصل خُطَّة سلفه العظيم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وكان أقوى رجـل فى عصره شخصية وأعلا رجل فى الصحابة همـة ، وأشدهم غيرة على الحق والإنصاف .

قلت :— أيها السيد إننى عند ما أَحْزِرُ تَعْدَادَ القوات التى تستطيع دولة فارس أن تحشدها فى معركة من المعارك الفاصلة لبلغ من راكبي الفيلة إلى ممتطى الجياد إلى الرجال غير الركبان مالا يقل عن مائة ألف أو يزيدون ، كما أننى عنـد ما أقدر جحافل الرومان فى سرا بيلهم من الفولاذ لما كان أقل من قوة الفرس عدداً وعُدة ، فماذا كان عددكم حينئذ كى تواجهوا قوات الدولتين ، وتحاربوا فى ميدانين ، وتأخذوا بأيديكم سلاحاً ذا حدين .

عمرو — إن المسلمين جميعاً لم يكن يزيد عددهم حين تُوُفِّىَ الصديق

على ثلاثين ألفاً وخمسة آلاف . فما كنا متكافئين مع أعدائنا فى العدد يوما ما ، وما كنا مثلهم فى العدة والسلاح فى أية معركة من المعارك ، ولقد كانوا يحاربوننا من وراء الحصون المنيعة ، وليس لنا من حصن إلا ظهور الخيل والغبار .

قلت : — فكيف إذن تسنّى لكم أن تنتصروا بَلْهَ أن تفتحوا وتستولُوا على عواصمهم وتَثلّوا عروشهم ؟ .

وهنا رأيت كأن أبا الهول قد تحرك وبدا كأنه يريد أن ينطق فأصغينا فإذا به يقول :

أبو الهول — إن أسباب ذلك ترجع إلى عوامل قد شهدتها بنفسى وجرت تحت سمعى وبصرى ووصل إلىّ من رذاذها وآثارها . كانت البلاد الواقعة غرب نهر الفرات (فلسطين وسوريا) خاضعة للدولة الرومانية الشرقية وكان بعض السكان من عنصر عربى وجميعهم من الجنس السامى ، وعلى ذلك كانوا مرتبطين بالعرب برابطة الجنس والدم وكانت هذه الدولة قد تضعضعت قواها من جرّاء حروبها مع دولة الفرس الساسانية ، ولم تكن مرتبطة برعاياها بروابط طَبَعيّة ، وزاد الطينَ بلّةً أن الشعوب كانت تئنّ من ثقل الضرائب التى كانت تَجْبيها الحكومة وكانت تعانى الأمرّين من الاضطهادات والانقسامات التى سادت زمناً طويلاً فى أنحاء البلاد ، على أن هذه الدولة كانت لا تزال لها آسيا الصغرى والشام ومصر وفلسطين وشمال أفريقية وشبه جزيرة البلقان وبعض جزر البحر الأبيض ، وكان عدد جيوشها أكثر من عدد المسلمين

كثرة مفزعة ، ولكن شعوبها لم تكن متجانسة ولا متفقة فى الشعور ولا مندفعة بروح حماسى إلى مثل أعلى كالذى كان يدفع المسلمين . أضف إلى هذا أن المسلمين كانوا يؤمنون بالقضاء والقدر .

فقلت — ولكن أليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو التواكل والاستسلام ، وترك الأمور تجرى بغير دفع من الإنسان ولا مساهمة فى تدبيرها ، ولا اتخاذ وسائل للقيام بأعباء الحياة من رسم خطة وتصميم مشروع ، وسير فى التنفيذ .

عمرو — كلا ياسيدى ، إن اعتقادنا بهذا لم يكن على هذا النحو أحاجى وألغازاً تُزْجَى وقتَ البَطَالَة ، ولا فلسفةً تُردد عند ما تَثبِط العزائم ، وَتَكَلُّ الجهود ، ولكنه كان عدة كاملة وسلاحاً ماضياً حين يدعو داعى الجد ، والوثوب إلى قمة المجد . هذا الاعتقاد كان وقت العمل لا وقت البطالة والكسل وبه استطعنا أن ندك الحصون ونسحق رؤوس الجبال تحت حوافر جيادنا .

ولقد جهز أبو بكر جيشاً للزحف إلى سوريا بقيادة أبى عبيدة بن الجراح وجهته حمص ، وجهزنى بجيش آخر إلى فلسطين ووجهته بيت المقدس ، وقد كان جيش الروم عظيما جداً يشرف عليه ويباشر تعبئته هرقل الامبراطور المحارب وكان منذ المعركة الفاصلة بينه وبين الفرس التى خلّص فيها الصليب المقدس وأعاده إلى موضعه من بيت المقدس يجوس خلال الشام ليعمل على استقرار النظام فى البلاد ويعيد هيبة الدولة إلى قلوب رعاياها ، وثمة عامل آخر جعله لا يعود إلى عاصمته

بيزنطة ذلك ما كان من أمر احتكاك المسلمين بالرومان على الحدود وظهور
شأن الإسلام فى قلب الجزيرة وخروج كثير من البلاد فى جنوب
الشام عن ولائها للروم واندماجها فى الدولة الإسلامية ، إما بأداء الجزية
كَدُومَة الْجَنْدَل ومدن تبوك وأَيْلَة وإما بإسلامها كَتَيْمَاء وغيرها ، كل
أولئك جعله يشترك فى وضع الخطط الحربية ويُشْرف على المعارك بنفسه
وكثيراً ما كان أخوه تيودور يخوض غمار المواقع ويبارز صناديد العرب
وأقرانهم . وإذ اختار الروم موقعاً حصيناً على نهر اليرموك أحد روافد
(الأردن) ووقفوا عند انحناء فيه يسمى (واقوصة) وقف المسلمون
أمامهم بعد أن جمعوا قواهم ووحدوا قيادتهم برياسة أبى عبيدة إلى أن
أرسل أبو بكر خالد بن الوليد من العراق لينضم إليهم فأصبحت قوة
المسلمين لا يستهان بها ، وبعقدم خالد دارت المعركة وكانت القاضية على
الروم بفضل حِذْق خالد ومهارته ، ولا غرو فخالد هو عبقرىّ الحرب ،
ودَهقَانها الذى لا يطيق أعداؤه مرارة كيده ، وهذه المعركة تعَدّ من
معارك الإسلام الحاسمة إذ لم تصادفهم بعدها صعوبات فى فتح المدن
الباقية كَدَمَشْق وإنطاكية . . . . وبينما كان أبو عبيدة يفتح الشام وقد
عينه عمر قائداً عامًّا بدل خالد الذى لم يجد حَرَجاً فى صدره أن يعمل
جنديًّا تحت راية أحد رجاله ، كنت أنا أفتح فلسطين ، حيث انتصرت
على الروم فى وَقْعَة (أَجْنَادَيْن) ، وكان انتصاراً متواضعاً ولكنه كان
حاسماً كواقعة اليرموك ، دخلنا على إثْره غَزّة ويافا والرملة وصور ، ولم
يبق إلا بيت المقدس الذى ظل بَطْرِيقُه يقاوم أربعة أشهر اشترط بعدها

أن يتسلم عمر بن الخطاب البيت بنفسه فجاء عمر فى مظهره البسيط وتسلم المدينة بعد الاتفاق مع البطريق ، ومما هو حَرِىّ بالتنويه فى نظر الروم وإن لم يكن عجيباً علينا فى خلائقنا وشيمنا معشر المسلمين أن عمر كان يتقاسم الركوب مع خادمه خلال الطريق أحدهما يقود المطية تارة والآخر يركبها إلى أن دخل بيت المقدس وهو يقود البعير وخادمه راكب وخرج الأقيال والقسوس يستقبلون الخادم الذى أشار إلى عمر : « هـذا هو أمير المؤمنين الذى يقود البعير » وكأن لسان حاله يقول لهم هـذا هو أمير الذين ساوى الإسلام بين العبيد والسادة فيهم ، فكانت أول صيحة فى الدنيا لتحرير العبيد وإنصاف الموالى ، وإعطاء الأجير العامل حقه من العيش والحياة والراحة كما يُعْطَى غيرهم من السادة والحكام . ومهما بلغ هؤلاء من المجد الشامخ والمنصب العريض، والسلطان المُشْمَخِرّ ، فلا تزيدهم تلك المظاهر جميعاً عن أن يكونوا على سواء مع كافة الأفراد ممن قعدت بهم وسائل العيش وأساليب الحياة عن أن يلحقوا بركبهم ، وأروع من هذا فى عين الروم وقد يكون من شوائق الأحاديث المليحة لكم وإن لم يكن نادراً ذلك فينا أن يقول حين يسأله أحدهم : أأنت أمير المؤمنين ؟ « يقولون ذلك ما دمت بينهم على الحق » .

وأخيراً . على أثر هذه الانتصارات غادر هرقل الشام وأصبحت جبال طوروس الحد الفاصل بين ممتلكات الدولة البيزنطية وأملاك المسلمين .

قلت — إنك أيها الفاتح العظيم قد سردت جانباً هامًّا من نصيبك فى هذه الفتوح بيد أنه إذا كان فتح بيت المقدس اولى القبلتين ومَسْرَى

النبي قد ضمّ مقدّسات الإسلام تحت ظل الدولة الإسلامية وكان ذلك من الضرورة بمكان عظيم فى نظر كل من أنصف بِغَضِّ النظر عن أن يكون مسلماً أو غير مسلم فإن هذه البقعة التى يشترك فى سكناها جميع أبناء الأديان المعروفة لايصح أن يكون أعدلهم ولا أقربهم إلى الإنصاف منكم معشر المسلمين ، فكيف إذن فتحت مصر وهى بعيدة كل البعد عن مَظِنَّة كل تقديس فى نظر الإسلام ؟ وما هو الحافز لك على ذلك ؟.

عمرو — إننا قد آمنا بموسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، وإن ديننا يعتبر اليهود والنصارى أهل ذمة ، ما لم يحاولوا إخراجنا من ديارنا والتضييق علينا فى حرياتنا الدينية والمدنية لهم مالنا وعليهم ما علينا ، لذلك يجب عليكم معشر الأحفاد أن تصونوا هذه المقدسات وألا تَعُدوها فتوحاً لنا بل اعتبروها تُراثاً تركناه لكم من حُرِّ دمائنا فإن لم تحفظوه وإلا كُتب عليكم الصغار ، وكنتم عالة على أبناء يهوذا كساؤكم من سُؤْلهم ، وشرابكم من فضلهم ، وطعامكم مما تَخِمُوا به وعافُوه .

خصائص مصر

ولما كانت فى الأرض أماكن قد امْتَازَتْ بخصائص كونية مَنَحَتْهَا إياها الطبيعة من تاريخ حافل بالمساهمة فى تطوّر العقلية الإنسانية أو موقع جغرافىّ له خطره فى حماية الحَوْزَة ، وتأصيل العزة ، أو ما تستمد منه الدولة بعض مِدْرَارِ الخير قوة وعُدَّة تواجه بها صعاب القضايا ، وعَارِمَ المشكلات . فإن كل أولئك المَيْزَات بضروبها وألوانها قد توفرت لمصر ، فهي بما مُنِحَتْهُ من طيب التربة ، وخصوبة العِرْق ،

وسخاء النَّبتة ، تترنح أفنانها السندسية على حافَتَيْ النيل المبارك الذى يجرى وسْطَها ميمون الغُدُوَات ، مبارك الرَّوَحات لجَرْى الشمس والقمر ، كأن الأرض وهى تحمله كَبَكْرَة عاقلة تحمل فيلسوفاً يسير مع الطبيعة على عليها فكره ونظامه ، أضف إلى ذلك ما سجله أبو الهول من رابطة العرق بيننا وصلة الدم . لذلك فكرت فى فتح مصر بعد أن قمت بفتح فلسطين ، وخاطبت فى الأمر أمير المؤمنين الذى تردَّد أولا لعدم استقرار الفتوحات الجديدة ، ولقلة ما يمكن الاستغناء عنه من الجند لميادين أخرى ، وأخيراً أقر عمر فتحها بعد إلحاح منى ، ووصلت إلى حدود مصر على رأس أربعة آلاف مقاتل وبلغت مدينة الفرما[1] واستوليت عليها بعد شهر ثم واصلت السير جنوباً إلى بِلْبِيس َ[2] وكانت حصناً منيعاً افتتحناه بعد قتال عنيف .

فتح مصر

قلت : — قيل إنك أَسَرْت فيها ابنة المقوقس حيث كانت بها عند الفتح فأرسلتها إلى أبيها مكرمة . أليس كذلك ؟ . .

أبو الهول : — إن المسلمين لم يكونوا فى جميع أدوار حربهم وسلمهم إلا رحمة على الناس وخصوصاً الضعفاء من الزَّمْنَى والنساء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يشهرون سلاحاً ، وما كانوا بحاجة إلى أن يبذُلوا من مَقُولهم ما يثبت مفاخرهم فإن فِعَالهم جديرة بأن تعطيك

---

(١) عند الحدود الشرقية من بلاد مصر وتبعد عن ساحل البحر بنحو ميلين وكانت حصن مصر الشرق واسمها باللاتينية (بلوزيم) .

(٢) يضبطها ياقوت فى معجم البلدان بكسر الباءين كما ينطقها عامة المصريين غير أنها فى القاموس بضم الباء الأولى وفتحها مع فتح الثانية .

آ كَدَ قواعد الحكم بأنهم كانوا أعدل وأرحم من حارب ففتح فحكم في دنيا الناس مذ عرفت الإنسانية الأخذ بأسباب المدنية. فابتسم عمرو ابتسامة الفخور ثم أطرق في تواضع واستأنف قائلا :

— وسرنا بعد ذلك إلى بابليون وهو قلعة على ضفة النيل اليمنى أمام (منف) على الضفة اليسرى[1] . وقد اعترضتني في أثناء السير حامية صغيرة بقرية (امُّ دُنَيْن)[2] على شاطىء النيل الأيمن فاستوليت عليها بعد بضعة أسابيع ، ثم عبرتُ النيل إلى (منف) وقصدت إلى الفيوم ، وهنا قطعتُ الحديث قائلا :

— إذن كأنكم قد تركتم حصن بابليون خلفكم وهو الذى قصدتم إلى فتحه منذ غادرتم بلبيس .

عمرو — إننى وقد رأيتُ قلة الجند الذين معى واقتنعتُ بعدم قدرَتى على مهاجمة حصن بابليون قبل وصول المدد الذى طلبته من عمر ، أهدفت إلى غرضين يقتضيهما فن الحرب ومكيدتها : (الأول) أن أشغل الحاميات المعسكرة فى الفيوم فلا تستطيع وقد دَهْدَهَتْهَا[3] الأخطار أن تعمل على نجدة الحصن إذا ما عدنا لمهاجمته (الثانى) أن أشغل جندى فلا أدعهم لما قد يجرُّه الانتظار من ضعف إذا علموا أن حياتهم رهينة بالنجدة ، التى قد تبطىء ، أو التى لا يكون إرسالها ضروريًا

---

(١) شيدها الفرس قديماً واتخذها الرومان معقلا لهم لتوسطها بين مصر العليا ومصر السفلى .

(٢) أم دنين حيث يقع الآن حى الأزبكية .

(٣) دهدهت المرأة ولدها إذا هزته لينام وأطلقت على الخطر المباشر الذى يهز كيان صاحبه إذا وقع ، أما إذا كان قريب الوقوع قيل له (التهديد) من (هدد وتهدد) بمعنى أوعد وأنذر فالأولى دليل وقوعه والأخرى نذير به .

موقعة عين شمس ٢٠هـ-٦٤٠م

في نظر الخليفة، وهنا قد تنهار الحملة ، ثم بعد الإغارة على الفيوم عدنا إلى (عين شمس) فوجدت مدداً كبيراً قوامه ثمانية آلاف مقاتل على رأسهم المقداد بن الأسود والزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ، فخفَّ الرومان لمناجزتنا ، وحينئذ قسمت جيشي إلى ثلاث فرق جعلت إحداها في عين شمس والثانية شمال قلعة بابليون (شرقي العباسية) والثالثة عند أم دنين ولما هاجم الرومان الفرقة الأولى وكانت بقيادتي انقضَّت الفرقتان الأُخْرَيَان على ساقة الجيش الروماني وجناحيه فدارت الدائرة على الرومان وكانت هذه الموقعة عام ٢٠ هـ. ٦٤٠ م .

واستوليت على مدينة مصر حيث يقع حصن بابليون ، ولولا أن مياه الفيضان قد طغت على الأراضي المصرية لتمكنّا من الاستيلاء على جميع أراضي الدلتا ، ولهذا اكتفينا بحصار الحصن من الجهة الشرقية .

ولما ضاق الخناق على الرومان وأوشك أن ينتهي الفيضان يئس المقوقس من صدنا وكانت بيننا مفاوضات جارية يقوم بها عنا وفد برياسة عبادة بن الصامت ، كان يروح ويغدو بين الفريقين على زورق صغير للرومان ثم عاهدنا المقوقس في جزيرة الروضة أمام الحصن بغير علم الحامية، وأرسل بالمعاهدة فوراً إلى هرقل في بيزنطة فجزع جزعاً شديداً واستدعى المقوقس إليه ، فجدَّ المسلمون في حصار الحصن حتى سلّمت الحامية بعد ثمانية أشهر وكان ذلك في أبريل ٦٤١م ٢١ هـ. ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة أهمها ما أحدثه موت هرقل من الفت في عضد الرومان وما أبداه أفراد المقاتلة المسلمين من الاستبسال والجرأة، ويُعَدُّ الانتصار أمام حصن

سقوط بابليون ٢١هـ-٦٤١م

بابليون نقطة تحوُّل فى حياة الأقباط ، فقد كانوا يسرُّون بمعاونتنا ، ولكنهم بعد ذلك أخذوا ينضوون تحت رايتنا جَهْرَةً رغبة فى الانتقام من الرومان .

قلت :— وماذا كان يدفع الأقباط إلى عداء الرومان وهم أبناء ملة واحدة تجمعهم كلمة الدين المسيحى حين لا يجمعهم بالمسلمين شيء ، فماذا جعل المسلمين آثر على اتساع شقة الخلاف — من الرومان — على وحدة الدين ووحدة المُثُل ؟ .

موقف الأقباط

عمرو :— ليس بين الرومان والقِبْط ما يوحِّد بينهم فالرومان مَلَكانيون والأقباط يعاقبه ، وكان الرومان يضيقون على الأقباط — لهذا الاختلاف المِلِّى — فاضطهدوهم وصادروا حرية عبادتهم وشتتوا القساوسة وألجأوهم إلى الاعتصام بالصحراء سنين ، ومن هنا جعل الأقباط — بعد أن رأوا سماحتنا — يشُدُّون أزرنا فى بناء الاستحكامات والجسور ، ويسهلون علينا الزحف من مكان إلى آخر حتى بنينا الفسطاط واتخذناها عاصمة لمصر وشيدنا بها مسجداً وقف عَلَى تحرير قبلته ثمانون صحابياً .

سقوط الإسكندرية ٢١هـ — ٦٤١م

ولقد أسرعنا إلى أخذ الفيوم بعد أن تركنا حامية صغيرة فى حصن بابليون ، ثم سرنا إلى الإسكندرية محاذين فرع النيل المتجه إلى رشيد ، وتغلبنا على من أدركْنا من الرومان عند دمنهور ، فالتجأوا إلى الاحتماء بالإسكندرية فعسكرنا حولها برًّا ، ولم يكن فى مقدورنا حصارها بحراً لقوة الأسطول الرومانى ، وعدم وجود وسائل بحرية لدينا . الأمر الذى أطال مدة الحصار حتى سلّمت فى ديسمبر ٢١ هـ — ٦٤١ م بسبب ما لحق حكومة القسطنطينية من الضعف على أثر موت (هرقل

وما أصاب أهل الإسكندرية من المَلَلِ من جرّاء تقلبات الحكم البيزنطى وما فيه من اضطهاد ، ولأن المقوقس أقنعهم بأن التسليم خير لهم ، وربما كان مراده الاستقلال بطريقية الإسكندرية ، وأن تترك له ولأهل البلاد كامل حريتهم الدينية فيظفر بسلطانه غير منقوص .

على أنه يمكنني إجمال ما قام به عمر بن الخطاب من تجديد فى الدولة الإسلامية وإنشاء فيها فيما يلى :

إصلاحات عمر ابن الخطاب

كان عمر أول من أنشأ الديوان وأول من عين القضاة وأول من جعل السلطة القضائية مستقلة عن السلطة الإدارية ، وأول من وضع التاريخ الإسلامى مبتدئاً من أول سنة قمرية بعد هجرة النبى من مكة إلى المدينة ، وأول من لقب بأمير المؤمنين ، وأوّل وأوّل إلى آخر تلك الأوليات التى لا تحصى . فإذا كان المؤرخون قد ذكروا تلك الأشياء مقرونة بأنه أول من أنشأها فهناك فى طوايا الأحداث الجليلة ما قد تستظهرونه بوسائل معارفكم الحديثة ، ذلك أن عمر أول من منع أهل البلاد الذين اجْتَوَوْا أو بئتها أن يهجروا بلادهم حتى تنحصر العدوى فى أضيق نواحيها ، ومنع أهل البلاد الأخرى أن يتصلوا بها وهو نظام (الحجر الصحى) فى عصركم ، وأول من صادر أموال الأمراء والحكام وحاسبهم على ثرائهم وما فى حوزتهم وهو قانون (من أين لك هذا ؟) وأول من جرؤ على تجنيد أهل الصُّفَّة ، وقد كانوا قوماً مهاجرين فقراء انقطعوا إلى طلب العلم فى المسجد وكان النبى يحبهم ويطعمهم قبل أن يطعم أهله وجرى على سَنَنِهِ أبو بكر حتى جاء عمر فأرسلهم إلى الميادين

المختلفة ، وهو نظام التجنيد العام ، وعدم اعتبار أي صفة من الصفات الدينية التي تحول دون أداء الواجبات الوطنية الكبرى .

مقتل عمر
٢٣هـ - ٦٤٤م

ذلك هو عمر الذي لم يشغله شيء عن تدبير أمور المسلمين وإصلاح شئونهم وكان من يقظة الضمير بمكان عظيم إذ يقول « لو أن سخلة في وادي الفرات أكلها ذئب لسُئِل عنها عمر » وقد حقد عليه أبو لؤلؤة[1] المجوسي مولى المغيرة بن شعبة فطعنه وهو يصلي بالناس في آخر عام ٢٣ هـ ٦٤٤ م وأبو لؤلؤة من سبايا الفرس الذين استرقهم المسلمون في فتح بلادهم وكثر عددهم في المدينة وكانت لهم اجتماعات سرية يتدارسون فيها أحوالهم ومشاريعهم العدائية للاسلام والمسلمين ، وكان أكبرهم فيها الهرمزان وهو أحد قواد الفرس المشهورين ، وكان من نتائج ما بيتّوا قتل عمر .

خلافة عثمان

اختار عمر ستة ينتخب الخليفة من بينهم علي وعثمان وطلحة والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأشرك ابنه عبد الله في الرأي على ألاّ تكون له الخلافة ، وأوصاهم وهو يحتضر أن يتشاوروا ثلاثة أيام وقد اختار هذا المجلس عثمان وكان من أحب المقربين إلى النبي حتى زوّجه بنتين من بناته واحدة بعد الأخرى ، وكان

---

(١) حضر يوماً أبو لؤلؤة إلى عمر يشكو كثرة الخراج عليه ويطلب منه أن يعيده إلى المغيرة بن شعبة فسأله عمر : كم خراجك ؟ قال درهمان ، فسأله عن صناعته فقال : نجار ، نقاش ، حداد . فقال عمر : ما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال وقد بلغني أنك تقول لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح لفعلت ، فقال : نعم فقال عمر : فاعمل لي رحى ، فقال : إن عشت لأعملن لك رحى يتحدث بها من في المشرق والمغرب ، فقال عمر بعد أن انصرف : (لقد توعدني العبد آنفاً) وقد صدقت فراسته .

ليّن الجانب وَرِعاً ولكنه لم يكن له حزم سلفيْه فترك شئون الحكومة في أيدى أهله وخصوصاً مروان بن الحكم كاتم سره، الأمر الذى جدَّد الانقسامات بين القبائل وجعل كثيراً منها يثور لاستعادة حريته الأولى، وزاد الطينَ بلَّةً عزلُ عثمان للولاة الذين عينهم عمر، وإحلال رجال أقل منهم كفاية من ذوى قُرْباه محلهم فعزل صاحبك عن مصر (يعنى نفسه) وأقام خلفاً لى عبد الله بن أبى السرح، واحتمل الناس على مضض السنوات الست الأولى من خلافته لمجرَّد الخوف من الانقسام فيما بينهم، وهم معرَّضون لفتك الأعداء بهم. إذ كان الترك يهدِّدُون الحدود الشرقية ويُغِيرُون على ما فتحه المسلمون، فاضطُرِرْنا إلى صدّ هذه الإغارات وامتدت الفتوح شرقاً إلى (بَلْخ) و(كابل) و(هرَّات). وكذلك قامت ثورة فى جنوب فارس ألزمت المسلمين أن يفتحوا (كرمان) و(سَجِسْتَان).

أما فى الشمال فأغار رجال الدولة الرومانية الشرقية على سوريا وردهم معاوية فى ٢٦ هـ ٦٤٦ م وغزا الأناضول حتى قرب من شواطئ البحر الأسود، وفى السنة نفسها هجم الأسطول الرومانى على الاسكندرية واستولى عليها، ولكن المسلمين استعادوها. ورأى معاوية ضرورة إنشاء أسطول بحرى ووافقه الخليفة على ذلك سيما ومعاوية كان يقاول[1]

إنشاء الأسطول

(١) قاول فلان فلاناً: تبادل وإياه النول، ومن ثم يكون اللفظ الشائع (مقاول) صحيح فصيح لأن الصانع يتبادل وصاحب العمرة النول فى صفاتها وفلوسها، وتقاولا: تلاحيا. ومنه حديث تقاول خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف فأغلظ خالد القول فبلغ ذلك رسول الله فقال: «لاتسبوا أصحابى إلخ ...».

عمر فى إنشائه من قبلُ ، فكان يأبى لأنه من الطفرة التى تأباها طبائع العرب المحافظين على بداوتهم ، وهم لم يألَفُوا إلا أن يسبَحُوا فى رمال الصحارى وفلواتها على المُطِيِّ والظُّعُن فكيف يتسنّى لهم أن يركبوا البحر الخِضَمَّ تتقاذفهم أمواجه اللجِّيَّة ظلماتٌ بعضها فوق بعض .

ثم آن للفكرة أن تبرز ووافق عثمان عليها وصار للمسلمين أسطول فى شرقى البحر المتوسط عقد لواؤه لعبد الله بن قيس الذى يُعَدّ أول أمير للبحار فى الإسلام .

قلت : — إن هذا العهد الذى تفضلت — أيها البطل — بالإفاضة فيه ليُخَيَّل إلىَّ أن الأمة بأسرها كانت فيه مشغولة بحروبها فى الخارج عن أن تقوم بأى إصلاح تتطلبه حالات السلم والاستقرار من نشر العلم والاتصال التجارى والسياسى بالعالم الخارجى الخ . . .

عمرو : — إنه بينما كانت جيوشنا تتقدم شرقاً وغرباً وتلتحم وتقتحم ، كنا نهتم بالشئون التجارية والعلمية فانتشر الإسلام فى كثير من الأمصار بفضل سفرائنا غير المفوضين من التجار والرَّحالين والجوَّابين ، أما فى شئون التشريع والفقه وتخريج العلماء والقضاة والأدباء فقد بدأ المختصون أولا من حملة الكتاب والقراء والحفاظ بتصحيح النسخ المتداولة من القرآن ثم عنوا بالقوانين الشرعية واللغة وكان من أئمة هذه النهضة علي بن أبى طالب السياسى الفقيه وعبد الله بن عباس المفسر وزيد بن ثابت عالم الفرائض والمواريث وعبد الله بن مسعود الراوية وأبو هريرة المحدث وعبد الله بن عمر زجل السنن أما

أمهات المؤمنين فقد قمن بدور هام فى هذه النهضة لاسيما عائشة وحفصة إذ كانتا مرجعين فى مهم الأمور الدينية والاجتماعية التى يقتضى البت فيها ذوقاً نبوياً رفيعاً .

قلت : — ثم ماذا كان من أمر الأمة وقد اشتكت الأمصار من جَوْر ولاة عثمان ؟ .

عمرو : — لقد بدأت الأقاليم تشكو فذهبت وفود مصر والعراق وغيرهما إلى كبار الصحابة في المدينة يحتجون على سوء تصرف حكامهم فقام علي والزبير وغيرهما بنصح الخليفة ، فأعلن عثمان رجوعه عن سياسته وعيَّن محمد بن أبى بكر عاملا على مصر — وهو الذى كان على رأس الوفود — وبينما هو فى الطريق إذ وقع فى يده كتاب بختم عثمان يحمله خادم له يأمر عامل مصر بالقبض على زعماء الوفد وقتل محمد بن أبى بكر ، ومن ثم عادت الوفود إلى المدينة ، وأنكر الخليفة الكتاب ، واتضح أن حامل خاتم الخليفة (مروان بن الحكم) هو الذى كتبه ، فطلبوا من الخليفة أن يعطيهم مروان فأبى ، فاعتبروا ذلك منه رجوعاً عمّا أعلنه من أنه سيقلع عن موالاة سياسة فتية بنى أمية ، وقد أثار ذلك غضب الناس فشددت الوفود الحصار على بيت عثمان فلم يرضخ ، فناشدت (نائلةُ) زوجُ عثمان مروانَ أن يُبقِيَ على حياة أمير المؤمنين وأن يخرج على القوم ثم يحتال بعد ذلك للنجاة فلم يُصغِ لرجائها ، وكان أن عزمت الوفود المحاصرة على مهاجمة الدار ، بعد أن لبث الحصار ثمانين يوماً امتنعت فيها المؤونة والزاد عمّن فى الدار ، وأرسل شيوخ الصحابة أبناءهم

إذ أرسل علي الحسنَ والحسينَ وأرسل الزبيرُ عبد الله وعروة كي يدافعوا عن الخليفة وكذلك فعل غيرهم ، ولكن كان قد تسلق محمد بن أبي بكر السور ومن خلفه نفر من الثوار ثم قتل عثمان قبل أن يحس المدافعون بذلك يوم ١٨ من ذي الحجة عام ٣٥ هـ — ١٦ يوليه ٦٥٦ م .

موقف محمد ابن أبي بكر

قلت : — وهل كان على محمد بن أبي بكر كِفْلٌ من دم عثمان . . من حيث اشتراكه في القتل أو قيامه بهذا العمل وحده ؟ .

عمرو : — الحق أنه ليس مشتركاً فيتكافل مع القَتَلة ، وليس منفرداً فيحمل أمام التاريخ وزر دم عثمان . لأن محمداً عند ما تسوَّر البيت وهجم على الخليفة في مجلسه وأخذ لحيته بيده ، شاهراً سيفه وهو يقول : « لتعزل نفسك أيها الشيخ وإلا قتلتك » لم يكن من عثمان إلا أن ذكره بمواقف الصحبة من أبيه وأنه يقف الآن ما إن كان أبوه حياً لأسخطه ذلك الموقف منه ! ، وهنا هاجت الذكريات في نفس محمد ومثَلَت له شواخص الأشجان ، فارتمى السيف من يده ، وخرج مذهولاً عما عساه يقع بعد ذلك ، ولم يفطن إلى الذين تسلَّلوا من ورائه فاقتحموا مجلس الخليفة وأعملوا فيه صوارمهم (أما بعد) فإنه إذا كان عثمان يستحق أن يُعْزَل فلا يستحق أن يقتل ، وإن هذا الحادث المروِّع في تاريخ الإسلام لا تبرر أسبابُه منطق القتل وسفك الدم ، والأمة التي تستطيع أن تولّي تَمْلك أن تعزل .

قلت : — أيها الفاتح العظيم ليكن هذا التاريخ الصادق الذي سأرويه للأجيال على لسانك مستوعباً لأهم الأمور وأخطرها ، لذا

أطلب إليك أن تواصل الحديث بلهجتك الصادقة فيما كان بعد ذلك .

عمرو : — لقد أوقفتنى موقفاً محرجاً حين ألقيتَ علىّ عِبْءَ الكلام عما كان بعدُ من الأحداث التى بلغت من الجَسامة والخطر — سيما وقد كنت أحد المبرّزين فيها — ما يجعل حديثى عنها مَشُوباً بالتحفظ ، ولكن من حيث كان الحديث للأجيال فإن للتاريخ لساناً صادقاً فى الآخرين فاستمع :

خلافة على ٣٦هـ ـ ٦٥٦م

بعد مقتل عثمان بويع علىّ فى المدينة بيعة عامة لما له من السابقة فى الإسلام والجهاد فيه ولأنه أفضل الأشياخ صحبة وقرابة من النبىّ من حيث أنه ابن عمه وزوج ابنته ، وإذا كان النبى يقول : « نحن معشر الأنبياء لا نُورَث » فإن كثيراً من الصحابة لم ينظر إلى الخلافة كتركة تُطَبَّقُ عليها فرائض المواريث ، ولكن على أنها دعوة وحكومة يقوم بها أقرب الناس فطرة وطبيعة إلى سَمْتِها ، وليس أجدر ممن تُرُبِّىَ فى حضن النبوة ، وغذى بلبان الوحى . وقد بدأ علىّ بعزل الحكام الذين علت منهم الشكوى ورد إلى بيت المال ما كان عثمان قد منحه لبنى أميَّة فعارضه هؤلاء منذ الساعة الأولى ، وكان معاوية بن أبى سفيان قد حكم نحو عشرين عاماً وجمع حوله مائة ألف فارس يأخذون العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم لا يعترفون بعلىّ وخلافته ، فأعلن العصيان واستعد لمقاومة على ، فتشجع غيره من بنى أمية وحلفائهم ، واتهموا علياً بالتقاعد عن نصرة عثمان ، ولقد ساعد هؤلاء على المُضِىِّ فى تمردهم أمور منها أن علياً آوى فى جيشه قتلة عثمان ولم يأخذ بثأره ، وأن طلحة

ابن عبيد الله والزبير بن العوام بن عمة النبي قد نقضا البيعة من على وفرا إلى مكة واتفقا مع السيدة عائشة لِمَا كان بينها وبين على من طول الخلاف . ثم انتقل طلحة والزبير إلى الكوفة ، ولحقت بهما عائشة وجمعوا جيشاً لمقاومة الخليفة ، وبذل علىٌّ جهداً لإقناعهم بالتسليم فأَبَوْا وحدثت موقعة الجمل بالقرب من الكوفة ، وفيها قتل طلحة والزبير وأسرت عائشة فأكرمها علىّ وزودها إلى المدينة فى إعزاز ، واتخذ علىٌّ من ذلك الحين الكوفة مركزاً للخلافة . وقد اعتمد معاوية على كثرة أعوانه فتقدم نحو العراق فقابله عند (صفين) غربى (الرَّقة)[1]

وحاول الخليفة إقناعه بالرضوخ والإذعان حتى لا تتصدَّع وحدة الأمة ، ولا تشيع فى المسلمين فتنة ، وعبثاً كانت محاولة علىّ ، فعرض عليه حقناً للدماء أن ينازله وجهاً لوجه فأبى معاوية وبدأ الهجوم ، فهزمه علىّ فى ثلاث مواقع تهيأ معاوية بعدها للفرار . ولقد كنت فى صفوف معاوية لأنه آثرنى بالمشورة ، وقدمنى فى الرأى وكنت أرى علياً أحق من معاوية ، ولكن ليس معنى هذا أن الأخير كان على الباطل ، فإن أىَّ الرجلين انتصر لا يكون له دستور يختلف عن دستور صاحبه إلا من حيث اعتبارات ذاتية ، تتناول الفروع ، وأساس الحكم هو القرآن ، ثم إن معاوية كان قد أحدث نهضة فى الشام قضى بها على الفقر وأقام ماتسمونه فى عصركم بالعدالة الاجتماعية،

---

(١) الرقة : مدينة على الفرات . معدودة فى بلاد الجزيرة . لأنها من جانب الفرات الشرقى ويقال لها الرقة البيضاء .

ساعده على إقامتها بَصَرٌ بشئون الدنيا وإقبالٌ عليها ، وطلبٌ المزيد منها ، ولذلك كان حريصاً على أن يعيش الناس على نمط من الترف والرفاهية حتى لقد قيل : « إن أهل الشام كانوا عبيداً للرومان فصاروا بمعاوية ملوكاً » ولقد كان فى وصيته لولده (يَزِيدَ) حين حضرته الوفاة يرشده إلى بعض أسباب الإبقاء على الدنيا وزينتها إذ يقول : « يا بُنَيَّ لست أخاف عليك إلا ثلاثة . الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . أما الحسين فأرجو أن يكفيكه الله فإنه قتل أباه ، وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خِبٌّ ضَبٌّ ، فإن ظَفِرْتَ به فقَطِّعْه إرباً إرباً ، وأما ابن عمر فإنه رجلٌ قد قَرْقَرَهُ الوَرَعُ فخلِّ بينه وبين آخرته يُخَلِّ بينك وبين دنياك ! ! » .

زينة الدنيا

ثم إنه كان إلى جانب حزمه وكياسته وحلمه حريصاً على أن يظهر فى بَزَّةِ الملوك المعاصرين فى الغرب من زينة وحجَّاب وقصور .

زهد وتقشف

رأى أهل الشام هذا كله فى معاوية ونظروا فإذا بعلى وأصحابه من الزهد والتقشف إلى حد الإغراق ، وما كان الخوارج إلا أثراً من آثار هذه الحياة المليئة بالكف والكبح حتى إزاء الملاذ المباحة ، ولذلك لم يكن بين على ومعاوية فى نظرهم — بغض النظر عن خطأ الرأى وصوابه — إلا معركة بين الدنيا المباحة السمحة وبين الزهد المتزمِّت العميق ، وحسبُك لتقدر مبلغ صحة هذا الفارق أن تستمع إلى (علي) حين يخاطب الدنيا خطاب التقريع واللوم ، والطلاق بالثلاث : « يادنيا غُرِّى غيرى ، ألى تعرَّضْتِ ، أم إلىَّ تَشَوَّفْتِ ، (ثم يقول) لقد باينْتُكِ ثلاثاً

لا رَجْعَة بعدها » وكقوله يصفها : « الدنيا أولها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب » .

وكنا نرى أن طريقة على أقرب إلى الدين وطريقة معاوية ليست بعيدة عن الدين ، ومع هذا كنا نَعُدُّ العمل مع معاوية نوعاً من التضحية علَىكَة الاحتياط الديني ، ولذلك قلت لمعاوية حين حَزَبَه هذا المهمُّ من الأمر واحتاج إلى مشورتى فى المعركة التى سُقْتُ إليك نبأ هزيمتنا فيها : « أُعطيك من دينى وتعطينى من دنياك » واشترطت ولاية مصر فولاَّنيها .

التحكيم

لقد اقترحت أن يرفع جنود الشام المصاحف على أسنة رماحهم إشارة إلى طلب تحكيم القرآن ، وذلك مَهْوَى أفئدة الأتقياء من أصحاب علىّ مهما بلغ ظنهم بأنها خُدْعة ، فلقد كان يسود بينهم مبدأ : « من خَدَعنا بالله انخدعْنَا له » وقد انخدعوا ، وأصروا إزاء موقف على وبعض المستنيرين من شيعته على التحكيم ، فضاع انتصاره سُدًى ، وأذعن للأغلبية وجاء دور اختيار كل واحد من الطرفين (مُفَوَّضاً) فاختارنى معاوية لأن الخدعة من صنع يدى وأنا الذى أهدف إلى مراميها وعزم على أن يعيِّن عبد الله بن عباس . فأبى أصحابه قائلين . « والله ما نبالى أنت كنت حَكَمَهَا أم ابن عباس ، ولا نرضى إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء » وأشاروا بلزوم تعيين أبى موسى الأشعرى ، فلما اجتمعنا — أنا وأبو موسى — اتفق كل منا أن نصدر قرارنا بعد بضعة أشهر وعاد معاوية إلى دمشق وعلىّ إلى الكوفة .

الخوارج

وعند عودة على إلى الكوفة فكر رجال من أصحابه أن قبولهم

التحكيم كبيرة لا تغتفر إلا بالتوبة والعودة إلى القتال، وقد أبى على أن يرجع عن وعده فاجتمع منهم اثنا عشر ألفاً وقرروا الخروج على على ومعاوية على السواء وتنادَوا بالجهاد، وطلب الاستشهاد، ولجأوا إلى الصحراء فتتبعهم على وقتل منهم عدداً كبيراً فى واقعة (النهروان) وفر باقى الخوارج إلى البحرين والإحساء والمغرب وكوَّنوا نواة لفرقة الخوارج، ومن رأيهم ألا تكون البيعة إلا لله [1].

وفى خلال المدة المقررة كنا قد اجتمعنا فى دومة الجندل — أنا وأبو موسى — وأقنعته بخلع على ومعاوية، وإخلاء السبيل لانتخاب خليفة جديد، فلما جاء الموعد أعلن أبو موسى أنه قضى بخلع على ثم أردفته فأعلنت خلعَ على وتثبيت معاوية، ولم يُجْدِ أبا موسى سُخْطُه واحتجاجه، وحدث بين الناس ذهول، ولم يرض معاوية أن يلقب بالخلافة إلا بعد سنوات حين ضعفت مقاومة خصومه.

مقتل على
٤٠هـ ـ ٦٦١م

وبقيت لعلى شيعة لا تقر معاوية، وكذلك الخوارج الذين دبروا مؤامرة لقتلنا نحن الثلاثة، أنا وعلى ومعاوية، وأخطأ رجلان إصابة هدَفَيْهما من رأسَيْنا ووقع على فى شراك عبد الرحمن بن ملجم فقتله عام ٤٠ هـ ٦٦١ م. وأسدل الستار على حياة بطل شهم ذى مروءة.

وإلى هنا انتهى حديث عمرو بن العاص وأخذت أُجِيلُ الرّويّة فيما سرد من أحداث جسام. فألفيتنى أمام الخلاصة التالية.

(١) ولا يزال بقية هؤلاء فى بلاد الجزائر ومراكش والدار البيضاء وأكثريتهم فى الجزائر ويعرفون بالأباضية وهم يعيشون على وتيرة منظمة وتقاليد عريقة ولا تحكم بينهم محاكم الدولة، وإذا ماطل مدين دائنه دخل المسجد وأعلن ذلك وحينئذ يقاطع الناس المدين فلا يسلمون عليه ولا يعاملونه حتى يوفى ما عليه.

إن أسلوب الحكم عند المسلمين بعد وفاة النبي (ص) إنما كان أشبه شيء بالنظام الجمهوري على أن يُنتخب رئيس الجمهورية لمدى الحياة، ولم يوجد وقتئذ نظام معين لطريقة الانتخاب، وإنما كان يحدث هذا الانتخاب بما يسمونه (البيعة) ولم يكن التمثيل النيابي معروفاً في ذلك العهد، وهو ما لم يعرف في الإنسانية إلا بعد ذلك العهد بقرون. ولهذا كانت تحدث المبايعة من ذوي الرأي والنفوذ ويعتبر هذا انتخاباً من عامة الناس افتراضاً، ولعل هذا الأسلوب في الانتخاب كان من أقوى الأسباب فيما قام من النزاع والانقسام ولا سيما في عهد الخليفتين عثمان وعلي.

الحديث السادس

الدولة الأموية — الفتوحات فى العالم

انقضى بنهاية الخليفة الرابع عهد الخلفاء الراشدين وآل الأمر إلى معاوية الذى أقام صرح المُلك شامخاً فارهاً، ثم تناولته الطبيعة حين تتناول جميع الأشياء بقانونها الذى لا يتخلف، والذى تراه ماثلا فى قذفِك الحَجَر حيث يتأرْجَحُ بين قُوَّتَى القذف وتأثير الجاذبية، إذ يكون أقوى اندفاعاً لأول وَهْلَة، ثم يتحكّم فيه قانون الجذب بالإضعاف والإهواء حتى يباشر الأرضَ التى قام من بين أحجارها الراكدة الهامدة، ولذلك هالنى أن تسقط دولة بنى أمية بعد تسعين عاماً وعاماً تَعَدّ عُمُر رجل لا عمر دولة قامت على جماجم ألوف من الرجال لو أُعطِيَتْ بقيةٌ من آجال الذين راحوا ضحاياها لعاشت آلافاً من السنين ولِمَنْ ينظر فى التاريخ للعبرة خواطر، وله فيه وقفات يحاول أن يستقر مع خواطره قليلا ليستعرضها فى هدوء.

وكان يوماً من أيامى التى أروح فيها وأغدو من وإلى أبى الهول، ذلك اليوم الذى وجدتُنى أتلمّس فيه مواطن الخُبْر، وأنظر إلى أبي الهول مرتقباً أن يوحى إلىّ بنبأ تلك الأيام الخوالى، والتى ازدحم بأنبائها وأنباء ما قبلها وما بعدها رأسه الإنسانى الذى يَشْحَذُه جسم من أجسام

الضوارى لا تهاب ، فليكن أبو الهول — كما قلنا — هو الفكر والقوة وأرسلت عينىَّ حتى أزْغلا[1] ، ورأيت كأن أبا الهول يحرك رأسه لينثر من مكنونه بعض ما اختزن للدنيا ، فهتفت :

« هات يا فكرةً تجسدت من الجندل الأشم ، تفجَّر بالأخبار ، كما يتفجّرُ مَنْبَتُك الأول بالأنهار ، وكما حفظ النيل الذى ينبُع من الجنادل صدق الوعد فى غُدُوِّه ورَوَاحه ، فأنت يا معدن النيل الطَّهُور مظنّة الصدق وموطن الحق فى تداوله وتناسخه » .

ولما كنتُ قد عرفت فى حديث عمرو بن العاص كيف انتقل الحكم من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق وكنت أعرف أن دمشق لم تستكمل السلطان جميعاً إلا فى عام الجماعة ٤١ هـ ٦٦٢ م حين دخل معاوية الكوفة ، وكِر شيعة علىّ ، وأخذ بيعة الحسن والحسين ، وقد زالت منذ ذلك الحين معارضة آل هاشم له ، وإن بقيت قوات أخرى من الخوارج شرسة تثير الفتنة ، ولكن ذلك لم يكن له خطر المعارضة المسلحة لبنى هاشم ، ومع ذلك فإن بنى هاشم الذين أعطُوا البيعة لمعاوية كانوا يتربَّصُون نهاية حكمه للوثوب من جديد ، فسلط معاوية على الخوارج المغيرة بن شعبة ثم زياد بن أبيه[2] فأوقعا بهم أشد النكال ، ثم أرهب حزب أبناء على بضربة قوية أنزلها على حُجْر بن عَدِىّ ومن

---

(١) أزغلت العين مجت الدمع .

(٢) زياد هو ابن أم لم يعترف به معاوية إلا بعد أن ظهرت مواهبه وهو ابن جارية تدعى سمية ، فقد كان أبو سفيان عائداً مرة من سفر طويل فلما بلغ الطائف قال لخمارها : « ابغنى بغياً فلقد طال عهدى بالنساء » ، فجاءه بسمية هذه فلما ولدت زياداً ألحقته به لأنه كان أشبه الناس بأبى سفيان .

معه ، ولذلك كان هدوء هذين الحزبين على مَضَض ، فإنه لم تذهب ريحهم ولكنها سكنت إلى حين ، وما كان معاوية ساذَجاً لا يدرى من أمر ذلك شيئاً فقد قال لابنه يزيد عند موته وصيته الرائعة التى مرت بك .

فتوحات معاوية

ولقد وحّد كلمة المسلمين بعد انتصاره ومدّ فى فتوحاتهم فى أفريقية التى صبغت بالصبغة الرومانية ، وكان البربر الذين أبَوُا الخضوع للرومان يدافعون عن استقلالهم معتصمين بجبالها ، وكانت صِقِلِّية القريبة منها ترسل إليها المدد أحياناً مما جعل المسلمين يستغرق فتح أفريقية منهم زُهاء ستين عاماً ، وعندئذ لاح لى أن أستلهم أبا الهول فذهبت إليه وأقمت بجانبه مطرق الراس ، وخُيِّل إلى أنه يقول :

كيف فتحت إفريقية

— « إليك عقبة بن نافع الُجهنى بانى القيروان وقائد الجيش المصرى الذى هزم الرومان لكى يحدثك عما تتساءل عنه » وهنا تمثل لى رجل فى ثياب عربية يتسربل بالحديد ، يبدو من نطاق الدروع التى يتشح بها أنه نحيل البدن طويل القامة ، فى عينيه بريق الذكاء فتقدمت محيِّياً وقلت :

— لقد دل تعريف أبى الهول عنك — أيها السيد — على أنك فى مصاف عباقرة الحرب الذين لم يجعلوا من الحرب وسيلة فتح وغزو فقط ولكنهم جعلوها وسيلة للبناء والتعمير ، وتلك ظاهرة تجعلك فى مصاف الإسكندر بانى الإسكندرية وجوهر وغيرهما من البناة والمشيدين ، فطالعنا بالحق من تاريخ تلك الأيام نروه للأَجيال .

عقبة بن نافع

قال : — إن أفريقية مدينة لمصر بإسلامها ، فمنذ عرفت مصر الإسلام وهى المنارُ الذى اهتدت بضُوءِه قارة أفريقية ، ويُعد فتح المغرب

الأقصى مفخرة لمصر ، ويتبع ذلك دخول الإسلام فى أوربا ، فإن معاوية ومن قبله عثمان قد خوّلا مصر أن تغزو ما يليها من الغرب والجنوب ، ولذلك أرسلنى معاوية إلى مصر لأقود جيش الغزو الذى عبر برقة وطرابلس وكانت قد فتحت فى سنة ٢٢ هـ — ٦٤٨ م والتقينا بالرومان فى معارك عنيفة سنة ٥٠ هـ ٦٧٠ م جنوبى (أفريقية) — مدينة تونس — التى كانت قد فتحت عام ٢٧ هـ ٦٥٣ م فانتصرنا عليهم فعاودوا هجومهم علينا لقرب الشاطىء الصقلى من ميدان الحركات ، فدحرناهم فى معركة كبرى فى الميدان الذى شيدت مكانه مدينة القيروان ، ولكن كان لا يزال فى داخل البلاد عدو مقيم لا يبرح يشن علينا حرباً شعواء ، ذلك هو العنصر البربرى ، فقد صنعوا كميناً راح فيه أكثر جيشى ، وكنت أحد شهدائه عام ٦٢ هـ — ٦٨١ م .

أما عهد معاوية فيعد أنضر عصور الإسلام بالفتوح والانتصارات

فتح السند وهزيمة الروم

فلقد أرسل المهلّب بن أبى صفرة إلى الشرق ففتح السند ثم أخضع القسم الشرقى من أفغانستان ، وأعظم انتصار رائع لمعاوية قضاؤه على قوة الرومان فى البحر والبر ، وأراد أن يضيق نطاق اختيار الناس للخليفة بعده فأخذ على الناس البيعة لولده (يزيد) أول ولىّ للعهد فى الإسلام ، فنشأت من ذلك الحين الملكية الوراثية ، وأقرته على ذلك وفود جميع الجهات عدا الحجاز الذى ظل متمسكاً بنظام الجمهورية الإسلامية الأولى ،

ثورة الحسين

وساعده على ذلك أن الحسين بن علىّ وبنى هاشم كانوا — أكثرهم — لم يبايع يزيد وسارعوا إلى التمرد على حكمه ولم يدخلوا فى طاعته ، إلى

أن سار الحسين مع أهله وبعض أتباعه إلى الكوفة بدعوة من أهلها ، ولقي الفرزدق الشاعر فى الطريق فسأله عن الناس ، فوصف الحال وصفاً صادقاً موجزاً : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل مايشاء » وكان الحسين قد أرسل مسلم بن عقيل بن أبى طالب رسولاً من قبله بكتاب منه إلى أهل الكوفة لينوب عنه فى أخذ البيعة من الناس ، فتلقاه جند ابن زياد والى الكوفة وساقوه إليه فسجنه ثم جمع الناس وألقاه عليهم من شاهق . وعسكر الحسين بمن معه فى كَرْبلاء ينتظر أهل الكوفة فى جيشهم الموالى له فلم يظفر بطائل لأن الناس قد روّعهم بطش ابن زياد الذى علم بوجود الحسين ورجاله فى كربلاء فجرد من فوره جيشاً وهاجمه فحال بينه وبين الماء أولا حتى غَرِثَت الأكباد من الصبية والنساء ، ومرض كثير من أبناء الحسين وأبناء إخوته ، ولقد أشيع أن الحسين طلب من ابن زياد أن يسمح له بالعودة إلى المدينة أو أن يوجهوه إلى الغزوات الشرقية فإن قتل فبسيوف غير مسلمة وفى أرض غير مسلمة ، أو أن يؤخذ إلى يزيد ، وليس عندى ما يثبت صحة هذه الأحدوثة ، وأبى أعداء الحسين إلا الحرب ، فكان اللقاء لا محالة ، ثم أظهر الحسين من البسالة والقوة ما جعله يُثْخِن فى عدوه ضرباً ولم يَعْيَ بالرماح تَنُوشُه من كل مكان حتى سقط عن جواده وقتل جميع من معه من الرجال والصبية وسُبِي النساء ، ولم يبق حيًّا سوى طفل صغير هو على زين العابدين الذى تناسلت منه ذرية الحسين ومن أبنائه وأبناء عمه

مقتل مسلم ابن عقيل ابن أبى طالب

مقتل الحسين ٦١هـ ــ ٦٨٠م

الحسن كانت ذرية النبي (ص) وكان مقتل الحسين فى اليوم العاشر من المحرم ٦١ هـ — ٦٨٠ م.

تخريب المدينة

وقد أثارت هذه الحادثة استياء المسلمين جميعاً، وكانت المدينة ثائرة فجرد يزيد جيشاً إليها بعد عامين ٦٣ هـ — ٨٦٢ م بقيادة مسلمة بن عقبة ليُخْمِد ثورتها فحدثت واقعة الحِرّة المشهورة التى قتل فيها أكثر أبناء المهاجرين والأنصار، وسلبت فيها المدينة وعادت إلى حالتها قبل الإسلام... وأمر يزيد الجيش بعد أن ينتهى من ضرب المدينة أن يذهب إلى مكة حيث عبد الله بن الزّبير الذى أعلن العصيان ودعا لنفسه بالخلافة وبايعه أهل مكة جميعاً فحاصرها الجند وهدموها ولم يُرْفع الحصار عنها حتى جاءهم مَنْعَاةُ يزيد فعادوا إلى الشام، وظهرت كذلك بوادر الثورة فى العراق على يد رجل غريب الأطوار يدعى المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى بادر إلى بيعة محمد بن الحنفية ثالث أولاد علىّ حين سمع بمقتل الحسين ثم بعث إلى محمد من أنقذه من سجنه فى مكة وأتى به إلى العراق، ولقد كانت مواسم الحج تشهد من ذلك ظاهرة عجيبة فى تاريخ الإنسانية، فقد كان كل فريق يهْتَبِلُ هذه الفرصة فى مؤتمر السلام العام فى البيت الحرام للدعاية، فهنا لواء معقود ليزيد ولواء لعبد الله بن الزّبير وآخر لمحمد بن الحنفية ورابع للخوارج الناقمين على الجميع (وتلك ظاهرة — على غضاضتها — لا تحلم بها أعرق الأمم ديموقراطية حيث تتمثل فيها المعارضة بقواتها ومعسكراتها وتشكيلاتها، وحيث حرية القول والاجتماع والتنافس فى سماحة وسعة صدر لكسب

هدم مكة وموت يزيد

ابن الحنفية والمختار ابن أبى عبيد

مواسم الحج وما كانت تشهد من ذلك

ثقة الرأى العـام ، وذلك قبل أن تعرف الديموقراطية الحالية بقرون)
ولما مات يزيد خلفه ولده معاوية الثانى ولم يمكث أكثر من شهر حتى
رأى ثقل هذا الأمر فخلع نفسه ولزم بيته ومات بعـد أربعين يوماً من
خلعه وانقرض بموته فرع أبى سفيان بن حرب بن أمية ، وهنا رأيت
كأن عقبة قد حصر وتلجلج القول فى فيه وتحرك فى سَمْت من يستقبل
قادماً من بعيـد ونظرت فإذا قادم يدل مظهره على عظم المنصب ، فلما
قرب إذا به هيئة كاملة للملوك والخلفاء من بنى أميـة ، سيف موشّى
بالذهب ، وعمامة موشحة بالجوهر والدرّ ، وثياب مزركشة بالديباج ،
فهش لنـا وحيّانا ثم ترجل عن فرسه وكأنه قادم من سفر طويل يبدو
عليه الحزن والهمّ ، ويبدو كذلك من قطوب الحاجبين وحركة العين
والفم اللذين يعروهما ضرب من الحيـاء الخفى أن ضميراً يقظاً بين جنبيه
يَزِعُه ، وهنا تنحَّى عقبة قائلاً :

أمير أموى

ها أنا ذا أقدم إليك ولى عهـد المسلمين وأمير مصر عبـد العزيز
ابن مروان بن الحكم فإنه قمين بالاطلاع على خفيّات الأمور وجدير بأن
يكون صادقاً فى روايتها ، فتقدمت إليه ؛

قلت :— أيها الأمير ... ! ... وهنا قاطعنى .

حيـاة الأرواح

فقال :— إننا فى ملإ الأرواح نتمتع بحياة أكبر من حياتكم
فى ملإ الأشباح ، فإن الروح إذا كانت فى هذا البدن حجبت بحجاب
المـادة التى صنع منها بناؤه فلا ترى إلا بشىء منـه ولا تسمع ولا تشم
إلا بحواس منه ، فإذا خرجت من هذا البدن خَلُصَتْ إلى حياة أوسع

وعالم أرحب ، لذلك يكون سماعها ورؤيتها وحسها من جوهر ذاتها لا استعارة من مسكنها ، ومن هنا نسمع ما تقولون ونرى ما تفعلون .
لقد ظهر أبي — بعد موت معاوية الثانى وانتقل الأمر إلى فرع أسرتنا (أسرة مروان) ومن ثم ظل فينا الى نهاية دولة بنى أمية — وكان شيخاً قويّ الشخصية حسن التأتّى استطاع — بالرغم من سُخْطَةِ كبراء الأمصار وزعمائها على استيزار عثمان له حتى أوْدَى ذلك بحياة عثمانَ — أن يحيل هذا الجو المضطرب القاتم إلى صفاء ، فقد جمع حوله شيوخ أهل الشام فبايعوه ثم أتى مصر واستولى عليها وأخذ البيعة من أهلها وقلدنى ولايتها عام ٦٣ هـ — ٦٨٣ م وعاد إلى دمشق أما أنا فلم أُعَمَّر طويلاً فتولى أخى عبد الملك الذى أقدمه إليك ليصل الحديث ، وإذا بى وجهاً لوجه أمام أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يحتل مكان عبد العزيز قائلا :

عبد الملك ابن مروان

— لقد استعد مروان أبى لمقاومة عبد الله بن الزبير منذ اللحظة التى شرع فيها بالمجىء إلى مصر لأنها كانت من شيعة عبد الله كالحجاز والعراق وخراسان وفارس بل لم يَخلُ الشام نفسه من أعوان له ، وكان فى وسعه أن ينال البيعة فيه لو أنه خرج من مكة وأظهر نشاطاً وإقداماً ، ولكنه تباطأ وتردد مما مكن لمروان وجعلنا نستعين بالعرب القحطانية فى العراقَيْن والشام الذين دفعتهم العصبية المحلية أن يكون الأمر (الحكم) بين أيديهم وفى ديارهم لا يتجاوزهم إلى العرب العدنانية فى الحجاز ثم لا يبالون بعد ذلك أن يكون لبنى أمية أو بنى هاشم من

العدنانيين[1] فتقدم بهم للقاء أنصاره من المضريين بقيادة الضحّاك بن قيس الذى ولّاه ابن الزبير على الشام فقابلهم عند (مرج راهط) على بضعة أميال من الشمال الشرقى لدمشق ونشب القتال حتى فنِىَ أنصار عبد الله عن آخرهم وأصبح مروان أبى خليفةً فى دمشق ولكنه مات عام ٦٥هـ — ٦٨٥ وكان قد جعلنى وأخى عبد العزيز وليين للعهد[2] على ترتيب أن أكون الأول فى الخلافة فوُسد إلىَّ أمرها ، وإن قلتُ : إن السياسة لا قلب لها فقد صدقت فى بناء قاعدة لجميع الساسة فى كافة العصور فالدسائس وعدم التقيد بالقوانين الأدبية كل أولئك مباح للوصول إلى الأهداف والأغراض ، فأرسلت جيشاً بقيادة عبد الله بن زياد لإخضاع

---

(١) تقدم أن العرب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : العرب البائدة كطسم ، وجديس ، والعماليق وعاد ، وثمود ؛ والعرب العاربة وهم القحطانيـة من أبناء يعرب بن قحطان وقد مر بك سبب نزولهم من اليمن إلى الشام والحجاز والعراق وأشهر قبائلهم — أى النازحين — غسان ولخم وجذام وكنده وطىء وخزاعة وحارثة وجفنة والأوس والخزرج وأزد شنوءة وهمدان وأشعر ومذحج وقضاعة وجهينة وغيرها ؛ والقسم الثالث العرب العدنانية أو المستعربة أو الاسماعيلية وأشهر قبائلهم مضر (بطن من عدنان) ومنهم فزارة وعبس وغطفان وفهم وهذيل وسليم وذكوان ورعل وظفر وعصية وطريف وكلاب وهلال وقشير وعقيل وتميم وزيد مناة ومازن وزرارة ومجاشع بن دارم وقريش وليث ثم قضاعة (أخو مضر وهو قول مرجوح وآخر راجح أنه من القحطانية) ثم ربيعة (أخو مضر من غير خلاف) ومن قبائلهم عبد القيس — بساحل الخليج الفارسى — وأسد ونمر وتغلب وبكر وغنم والدئل وحنيفة وعجل وعدى ومالك وذهل ابن شيبان وذهل بن ثعلبة وجساس وهمام وسعد (بطن من قيس بن ثعلبة) وعنزة وأكلب أما قبائل قريش فهم بنو الحارث وبنو جذيمة بن لؤى وبنو محارب وتيم الأدرم وحسيل وعدى (ومنهم عمر) ومخزوم (ومنهم خالد بن الوليد وأبو جهل) وعبد العزى (ومنهم الزبير وخديجة وورقة بن نوفل) وعبد مناف (ومنهم شعب عبد شمس الذين منهم عثمان بن عفان وأبو سفيان وبنو أمية) ومن عبد مناف أيضاً شعب بنى هاشم (ومنهم النبى محمد (ص)) وشعب المطلب (ومنهم الإمام الشافعى محمد بن إدريس) وأخو عبد مناف عبد الدار ومن أحفاده (عثمان بن طلحة) ومن قريش أيضاً بنو تيم (ومنهم أبو بكر وطلحة بن عبيد الله) وبنو سهم (ومنهم عمرو بن العاص) وقد أجملنا فى القبائل وفصلنا فى بطون قريش للتلازم والارتباط بأعلام رجالها .

(٢) عبد العزيز بن مروان توفى فى حلوان ونقلت جثته بالنيل إلى الفسطاط حيث دفن هناك .

الشيعة فى العراق ولكنهم أبادوه ثم وجهت جيشاً بقيادة الحجاج إلى مكة فضيق الخناق عليها حتى حدثت مجاعة عظيمة وانفض عن عبد الله ابن الزبير كثير من أتباعه فأشارت عليه أمه[1] أن : « يابنىَّ عِشْ كريماً أو متْ كريماً » فهاجم الأعداء وصدَّهم ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه وحملوا رأسه إلى المدينة ومنها إلىَّ بالشام وانتهت بذلك خلافته بعد أن ظل تسع سنين يُخطَب باسمه فى أكثر بلاد العالم الإسلامى ، وكان أهم ما حدث فى عهدى إتمام فتح إفريقية إذ أمرت ولدى عبد الله والى مصر أن يرسل جيشاً بقيادة زهير نائب عقبة بن نافع فتوغل الجيش المصرى فى البلاد ولكن جاء مدد من صقلية للرومان فقتل زهير وارتد جيشه إلى برقة ورأينا أن نهاجم أفريقية من البحر فأرسلت حسان بن النعمان والى القيروان بأسطول من الإسكندرية فاسترجع القيروان بعد أن تغلب على الروم والقبائل المتبربرة المتوطنة فى تلك البقاع وترك الرومان إفريقية عام ٧٨ هـ — ٦٩٨ م . إلا أن البربر ثاروا بقيادة امرأة تلقب بالكاهنة وفتكوا بجيش حسان وردوه إلى برقة فأرسلنا إليه المدد حتى يتمكن من القضاء على الكاهنة فخضع البربر واعتنقوا الإسلام ، فيما خلا مراكش التى فتحها بعد ذلك موسى بن نصير عام ٧٠٨ م فى خلافة الوليد .

مقتل ابن الزبير

كان من أبرز ما قمت به فى إصلاح أداة الحكم أن أحللت اللغة العربية محل اللغات المحلية المختلفة فى دواوين الولايات والأمصار ،

---

(١) أسماء بنت أبى بكر الصديق .

وضربت نقوداً خاصة بالعرب بدلاً من نقود الرومان والفرس التى كانت متداولة فى بلادى كالدرهم والدينار[1] وكان يَشُوب عزيمتى إفراط من القسوة لعله من وسائل تدعيم الملك ، ومسوّغات تركيز السلطان ، حتى قَضَيْتُ[2] عام ٨٦ هـ — ٧٠٦ م عشت فى دنيا كم ثنتين وستين سنة تولّى الخلافة من بعدى ولدى الوليد ، وكان أخوه عبدالله والياً على مصر .

وعندئذ سمعنا صوت عبد الله كأنه وراء السحاب حتى اقترب منا وهو يقول — أيها الرائد — وُقِيْتَ الهوان — إن الوليد الأول أخى تولى الخلافة بعد أبيه عام ٨٦ هـ — ٧٠٥ م فظل يدأب على تدعيم سلطان الإسلام فى ربوع المعمور ، وبلغت فى عهده دولتنا أعلى درجة فى الفتوح والثروة والمدنية ، وكان أظهر قواده ورجال دولته ، الحجاج ابن يوسف مؤدِّب العرب وقتيبة بن مسلم فاتح خراسان وبلاد العجم والذى وطيء بسنابك جياده دلتا الفولجا من بلاد الروسيا وأغار على بُخَارَى وطخارستان وفرغانه لنقض الترك عهدهم إياه ، وقيامهم بقتل من وقع تحت طائلتهم من المسلمين ، ولم يكتف بفتحها بل جلب إليها أسراً عربية تستعمرها ، نبغ منهم ومن أهل البلاد الذين اعتنقوا الإسلام كثير من الرواة والمحدِّثين والمفسِّرين والمُفْتِين والقواد ، ثم محمد بن القاسم عامل (مكران) الذى رأى مناوأة القبائل المقيمة بين السند وبلوخستان له فضم السند وملتان وجزءاً من البنجاب إليه .

---

(١) الدرهم نحو خمسة قروش وهو قطعة فضية والدينار نحو نصف جنيه وهو قطعة ذهبية .

(٢) قضى أى مات .

فاستوطن المسلمون تلك الجهات ونشروا فيها الإسلام ، ثم مسلم بن عبد الملك أخى وقد كان يقود الجيوش فى آسيا الصغرى واستولى على أكثرها ، وعمر بن عبد العزيز وهنا قاطعته قائلا :

— أيها الأمير ، إنك لم تجعلك سادساً لهم وإن شئت كنت صدرهم وطليعتهم فإنك أخو الخليفة وأحد أولياء عهد المسلمين ووالى مصر وفارس بنى مروان وأدناهن أرفع الشرف فَلِم لا أكون فى حِلٍّ من أن أضيفك أنت إلى أساطين دولة الوليد ؟

عبد الله — كلا يا سيدى . لست أعنى أننى من أبرز رجاله فتواضَعْتُ ، ولا من أغمارهم فاتَّضَعْت ، ولكنى — مما كان من رَكَن الوليد وحُسْن تَأَتِّيه — كنت أوسطهم منصباً حتى لا تكون قَالَةٌ فى الناس ذائعة : « إن بنى مروان قد استأثروا بجزئيات الأمور وكلياتها وتدافعوا بالمناكب مع ذوى المؤهلات العالية من أبناء الأمة » . لذلك عزلنى عن ولاية مصر بعد أن قضيت بها خمسة أعوام فى الوقت الذى عيّن فيه ابن عمنا عمر بن عبد العزيز عاملاً على الحجاز فأحسن إدارة البلاد وعمرّ مكة والمدينة وحفر الآبار وأصلح الطرق ونشر العمران فى شتى بقاع الحجاز ، فأمّه كثير من أهل العراق فراراً من الحجاج الذى شكا إلى الخليفة بأنه لا يستطيع حكم ولايته مع السماح لأهلها بالفرار إلى الحجاز ، وانتهى الأمر بعزل عمر بعد أن حكم ما يقرب من خمس سنين أعاد فيها إلى ذياك العهد ذكرى (الراشدين) فكانت حياته بركة على الإسلام وبنى أمية .

قلت : — إن بعض هذا من الأمور الخاصة فأحب أن تعرج بى إلى ما هو أعم ، فإني أعلم أن قد فتحتم الأندلس جنة الإسلام وفردوسه التى ضاعت من أيدى المسلمين يوم هانت على الزمان أيامهم ، فحدثنى حديث المجد الباهر .

الأندلس

عبد الله : — لقد كانت إسبانيا تئنّ من حكم القُوطِ الغربيين وفظائع الإقطاع فى الوقت الذى كانت فيه إفريقية متمتعة بالعدل والرخاء ، وكان اليهود المقيمون فى إسبانيا مضطهدين من الأشراف ورجال الدين حتى اعتُبروا عبيداً لهم فهرب منهم كثير إلى إفريقية وطلبوا من موسى بن نصير والى مصر على إفريقية أن يُخَلِّصهم من ظلم (لُذْرِيق) (Roderick) الذى كان مغتصب الملك وانضم إليهم أبناء الملك المخلوع (الكونت چوليان) وحاكم (سبته) وكان يبغض لذريق ويحسده ، فاستأذن موسى أمير مصر سَرِىَّ بن شريك فى فتح الأندلس فأرسل هذا بدوره يستأمر الخليفة فى دمشق فأذن ومن ثم هاجم موسى هذه البلاد حتى احتل جزائر (ميورقة) و(منورقة) وأرسل جماعة بقيادة طريف بن مالك لاستطلاع الأحوال فى أسبانيا ونزل طارق بن زياد مولى موسى فى الأندلس ومعه سبعة آلاف فى عام ٩٢ هـ — ٧١٠ م وتقدم داخل البلاد وجاء المدد من مصر ، وهزم جيش لذريق فى واقعة شريش ودخل المسلمون قُرْطُبة وغِرْنَاطة وطُلَيْطِلَةَ العاصمة وانضم موسى إلى طارق وأتمَّا فتح إسبانيا إلى جبال (البرانس) . ثم استُدْعِيَ موسى إلى دمشق فبلغها بعد موت الوليد ، ومات موسى فقيراً معدماً

أما المسلمون فى الأندلس فقد عبروا جبال البرانس وفتحوا جنوب فرنسا وحاربوا جيش شارل مارتل (قارلة) فى واقعة (بين بواتييه وتور) وذلك بعد أن أتم عبد الرحمن الغافقى فتح (أرل) سار إلى بوردو فاستولى عليها ثم (ليون) و بيزانسون فأخذهما عنوة وكان بينه و بين باريس حوالي ١٦٠ ميلاً ثم قصد (تور) فدخلها فاتحاً وهناك قابلته جيوش قارلة (شارل مارتل) فارتد عبد الرحمن بجيشه إلى السهول بين تور و بواتييه وحصلت وقائع يشيب منها الولدان فى عام ١٢٣ هـ — ٧٣٢ م وقتل عبد الرحمن الغافقى فارتد المسلمون إلى إسبانيا بعد أن كاد النصر يكون لهم لولا أن (قارلة) قصد بفرقة من جيشه إلى معسكراتهم وفيها أمتعتهم وغنائمهم وأقواتهم ، فلما أحس المسلمون بذلك اتجهوا إلى معسكراتهم ليحموها فضربت الجيوش الرئيسية للأعداء فى أقفيتهم فكانت هزيمتهم ، وعندى أن عبد الرحمن قد أخطأ فى شيء واحد ترتب عليه كل هذه النتائج ، ذلك أنه لم ينفذ رأي طارق بن زياد فى تطهير جبال البرانس ومنحدراتها الشمالية من القوط وغيرهم من باقى العناصر الشرسة التى بقيت بعد ذلك فكانت سبباً للإخلال بالنظام وإقلاق راحة المسلمين وتعكير صفوهم حتى استفحل خطرهم وتعاظم خطبهم ، فكانوا قوة محاربة أجلت العرب من أرض إسبانيا بعد ثمانية قرون من الزمان . ولقد نبغ من رجال الفتوح فى إسبانيا عبد العزيز بن موسى ابن نصير الذى خلف أباه فى ولاية إسبانيا وقد أمر بإنشاء ديوان للتوفيق بين الشريعة الإسلامية ومصالح أهل البلاد وعاداتهم ووضع

النواة الأولى للصناعات والعلوم والمعارف التى تقل من رجالها عدداً كبيراً من المشرق ، ثم السمح بن مالك الذى نهض بالفتح إلى جنوب فرنسا ومات فى حصاره لمدينة طولوشة (تولوز) . ثم عَنْبَسَة بن سُحَيْم الذى فتح (قرقشونة ونيما) وجزءاً كبيراً من جنوب فرنسا ومات فى كمين عمل له فى جبال البرينات ، وقد كان ولاة مصر بعد ذلك يتعاقبون فى زمن وجيز فبعد أن مات سرى بن شريك سنة ٩٧هـ — ٧١٥م تولى مصر عبد الملك بن رفاعة فأقام إلى سنة ٩٩هـ — ٧١٧م ثم ولى مصر أيوب الأصبحى فأقام إلى سنة ١٠١هـ — ٧١٧م ثم ولى بشر بن صفوان الكلبى إلى سنة ١٠٣هـ — ٧١٩م ثم ولى أخوه حنظلة إلى سنة ١٠٥هـ — ٧٢٢م ثم ولى محمد بن عبد الملك أخى فترة ثم ولى حفص بن الوليد إلى سنة ١١٨هـ — ٧٣٥م وولي بعده عبد الرحمن بن خالد فأقام سبعة أشهر وعزل وأعيد حنظلة بن صفوان فى سنة ١٢٠هـ — ٧٣٧م ثم عزل وولى بعده حسان بن العتاهية التجيبى سنة ١٢٧هـ — ٧٤٤م ثم أعيد حفص ابن الوليد وعزل عنها سنة ١٢٨هـ — وولي حوثرة بن سهل الباهلى ثم ولى المغيرة بن عبيد الفزارى سنة ١٣١هـ — ٧٤٨م ثم تولى عمى عبد الله ابن مروان ولاية مصر بعد أن شهدت من الأحداث الكبرى فى سائر أنحاء الإمبراطورية الإسلامية ما تضيق به صحائف الزمان لكى أشهد الخاتمة المروعة لدولتنا والنهاية الشؤمى لأسرتنا .

فلقد انتهت خلافة أخى الوليد أبو العباس بن عبد الملك بوفاته سنة ٩٧هـ — ٧١٤م ثم تولاها أخى سليمان بن عبد الملك وكان أهم

ما حدث فى عهده أنه أرسل جيشاً عَبْر الدردنيل وأخضع تراقيا ، وحاصر القسطنطينية فى عام ٩٨ هـ – ٧١٦م إلا أن المسلمين قد اضطرتهم المجاعة والمرض إلى رفع الحصار وفى العام التالى مات سليمان وخلفه ابن عمنا أبو حفص عمر بن عبد العزيز الذى ينسب إلى عمر بن الخطاب من جهة أمه فإن أمه كانت ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب من أمها التى سطرت فى تاريخ المرأة المسلمة صفحة فخار للأجيال .

عمر بن عبد العزيز

قلت :– حدثنى ماذا صنعت هذه المرأة وكيف سطرت مفاخر لبنات جنسها ؟ ...

قال :– لقد كان عمر بن الخطاب يتعسس فى ليلة ما فسمع امرأة فى بيتها تحاور ابنتها .

الأم – قومى يا بنية امزجى اللبن بالماء .

البنت – يا أماه إن منادى أمير المؤمنين نادى ألاّ يمزج اللبن بالماء .

الأم – يابنية ماذا يدرى أمير المؤمنين من أمرنا ؟ ونحن ليس معنا أحد .

البنت – يا أماه كيف نطيعه فى الملا ونعصيه فى الخلا ؟ !

وسمع عمر مقالتها وأرسل لبنيه فى اليوم التالى يدعوهم وقال لهم : يابَنى من أراد منكم أن يتزوج فهذه حسنة الدنيا ، فرغبها عاصم بن عمر فزوجها إياه فأنجبت بنتاً هى زوج عبد العزيز بن مروان وأم أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وهو الذى أحيا سنن الخلفاء الراشدين ، وأظهر الكثير من سعة الصدر وبخاصة فى معاملة بنى هاشم ، مما أثار

عليه حنق بعض العناصر التى يطيب لها أن تعيش فى جو كله حرب وخصومة ولو مع أنفسها وأولئك فريق من بنى أمية مأفون ، ومع ذلك فقد استطاع أن يقوم بإصلاحاته الواسعة ، فقد أرسل إليه والى مصر سنة ١٠٠ هـ أيوب الأصبحى : « إن القبط يدخلون فى الإسلام أفواجاً مما أثر على جباية الخراج ، وإنى سأجعل الجزية على من يسلم وسأعفى أبناءهم » فأرسل إليه يؤنبه ويقول : « إن الله بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جابياً » ولقد سمعت يحي بن سعيد يقول . « لقد كنت عامل عمر بن عبد العزيز على الزكاة فذهبنا فى آخر حكمه نبحث عمن يستحقها فلم نجد ، فابتعنا بها رقيقاً فأعتقناهم » ذلك عصر عمر بن عبد العزيز الذى قامت فيه العدالة الاجتماعية والتكافل التام بين أفراد الأمة حتى لم يبق للفقر ظل فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف ومات عمر يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة ١٠١هـ وسنّه تسع وعشرون سنة وقبره بدير سمعان بحمص ، ثم جاء بعده يزيد الثانى بن عبد الملك فظل أربعة أعوام وشهراً واحداً ثم جاء بعده هشام بن عبد الملك مدة تسع وعشرين سنة وسبعة أشهر غير أيام ومات سنة ١٢٥ هـ ثم ولى بعده الوليد الثانى ابن يزيد بن عبد الملك سنة واحدة وشهرين وكانت سيرته قبيحه مما أدى إلى زيادة نفوذ بنى هاشم وانتشار دعوتهم ولا عجب « فمن يُشابهْ أَبَهُ فما ظلم » فلقد بدأ جسم الدولة الأموية يتعفن ، ليتهيأ إلى حضيض الرميم . وهنا استوقفنى هذا التعبير منه ، وبدا علىّ التساؤل فبادرنى قائلاً : — لا تعجب من قولى هذا إذ أَردت أن أُشير بالتعفن إلى سلوك

فوائد الزكاة

تعفن

يزيد الثانى فيما يرويه المؤرخون من أنه أحب جاريته حباب التى أهدته إياها زوجه فطابت له الحياة بها وخرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان ، فرماها بحبة عنب فدخلت حلقها ، فشرقت ، ومرضت وماتت ، فتركها ثلاثة أيام لم يدفنها حتى انتنت وهو يقبلها ، وينظر إليها ويبكى فكُلِّم فى أمرها حتى أذن فى دفنها وعاد إلى قصره حزيناً . . وبقى بعد موتها سبعة أيام لا يظهر للناس . . ثم بقي بعد ذلك خمسة عشر يوماً ومات ودفن إلى جانبها .

ثم واصل عبد الله حديثه قائلاً : أما ولده هذا (يعنى الوليد الثانى) فقد فاقه فى المجون ، إذ صنع قبة أثناء ولايته للعهد على قدر الكعبة وأراد أن ينصبها فوقها ويشرب تحتها الخمر إلا أن صحبه خوفوه عاقبته ولذلك دبر ابن عمه يزيد بن الوليد الثالث مؤامرة لقتله وتولى بعده الخلافة ومكث بها ستة أشهر أصلح بعض ما أفسد من قبله إلا أن الزمن لم يمهله والتدهور الذى يحيق بدولتنا (بنى أمية) لا يقف فى سبيله أى إصلاح بعد هذا فقد كانت الأيام أيام فتن ، وكان حبل الأمن قد اضطرب وانتشرت الدعوة لبنى هاشم فى كل مكان ولم تنفع فيها قسوتنا فلما مات يزيد بويع أخوه إبراهيم بيعة لم تكن بطائل فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس يسلمون عليه بالامارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما واضطرب أمره فمكث سبعين يوماً . وسار إليه مروان بن محمد ، فخلعه وبويع له بالخلافة بعد حروب يشيب منها الطفل سنة ١٢٧ هـ — ٧٤٥ م ومكث خليفة خمس سنين وفر إلى مصر وقتل بأرضها .

مروان ابن محمد الملقب بالحمار

وهنا رأيت عبد الله قد أخذته رعدة وارتجف ثم أجهش وقال : —

أنظرها هو مروان بن أخى فما أطيق رؤيته بعد ما كان من نعت الناس إياه بـ (الحمار) وقتله فى مصر على صورة يشيب من هولها الوليد .

قلت : — يالله من أمره هـذا ، (ولـكأنى بالشغف يحدونى إلى استجلاء قَصَصِه منه) وهنا تقدم مروان فى بَزّة متنكرة غير التى رأيت عليها أمراء بنى أمية وقال

مروان : — لا تدهش أيها السيد من أن أكون محوطاً بهـذه الظواهر الغريبة فلقد توليت الخلافة وكنت جاداً فى لم الشعث ، جَلْدًا ، صبوراً ، احتملت فى سبيل ذلك أشد أنواع المكروه حتى سميت بالحمار ، أما سمعت بمروان الحمار ؟

قلت — قرأت عن خليفة من بنى أمية يدعى مروان الحمار فظننت أن ذلك مما كان من سخفه وحمقه وطيشه حتى دعى بهذا .

مروان — كلا — أيها السيد — إننى بعد أن اتسعت الشقة بين الدولة والأمة وحفرت الدولة الأموية بأيدى المستهترين من سلفى بؤرة عميقة بينها وبين الأمة أردت أن أجعل مكانها ردماً ، فظللت أعمل حتى قُصِم ظهرى ولم أسطع للأمر حملا ، فلقد هبت ريح شديدة من الخوارج استطاعت أن تكتسح المدينة وتحكمها لمدة ثلاثة أشهر تمكنت من إخمادها بعد نَصَب جهيد ، ولـكن هذه ريح أخمدت أعقبتها صرصر عاتية من بلاد فارس طوحت بى إلى مصر ثم أطاحت برأسى إلى العراق وبقيت جثتى لتُدفن بالفيوم . إن دولتنا أيها السيد كانت دولة سياسية

أكثر منها دينية فلم تتذرع بالأساليب الدينية فى تدعيم سلطانها ، بل كانت تعتمد فى الأمور الحربية والسياسية على الأرومة العربية ونُعَرتها وعصبيتها ، والعرب بطبيعتهم شعب قوى كريم متفان فى نشر الإسلام فأيدتنا العناصر العربية القحطانية والعدنانية بتشجيعنا للآداب العالية والفنون البلاغية ، ولكنا إلى جانب ذلك كنا لا نميل إلى استجداء التأييد من الرأى العام فكنا نعتمد على بأسنا وبطشنا ، مما شجع على انتشار الدعوة لبنى هاشم فلقد أيدهم الأعاجم لأن العرب يؤيدناسوادهم ، وأيدهم الرأى العام فى غير شبه الجزيرة العربية لأننا لم نحاول أن نجعل له السلطة التى مناه بها خصومنا ، لأن خصومنا كانت دعوتهم شعوبية تزخر خلاياها بعناصر الثقافات والآداب والفنون بل والعقائد والفلسفات ، فقد حاول كثير من أبناء علىّ انتزاع الخلافة من الأمويين ولكنهم فشلوا وذهبوا ضحايا مطامعهم وانتهى الأمر بقتل زيد بن على زين العابدين وابنه الإمام يحيى وأبى هاشم بن محمد بن الحنفية وهو أخطر دعاة بنى هاشم إذ وَفَد على سليمان بن عبدالملك فى دمشق فجلس إليه يتحدث معه فرأى سليمان فيه زكانة ورجاحة عقل ، وعذوبة منطق فخشى أن يأتيه الخطر من قبل هذا فعند عودته من دمشق إلى العراق دس له سماً فى الطعام وأحس أبو هاشم بدنو أجله فعرج على الْحُمَيْمَة ونزل عند على بن عبد الله بن عباس ، وقبل أن يسلم الروح تنازل عن حقه فى الخلافة ، لِمُضِيْفه وقريبه على ، وكان لأبى هاشم حزب قوى منظم ولكن كيف يقنعه علىّ بأنه خليفة أبى هاشم فى هذه الدعوة ؟ . لا بد من الحيلة . فاتصل بهم فى الكوفة وخراسان

النزاع بين العصبية العربية والشعوبية

فألفاهم يريدون أن ييمموا وجوههم شطر أحد أبناء فاطمة من الأحياء فخدثهم بوصية أبى هاشم فكثر التناظر بين أشياعه وبين أشياع الفاطميين وكادت تؤدى هذه المناظرات إلى فتنة تقصم ظهر دعوته فاهتدى إلى حل كله الدهاء والحيلة ذلك أنه أوصى أن يدعو الناس إلى (الرضا من آل البيت) وهو الذى ينتخب بالتراضى والاتفاق وفى هذا ما يجعل كل فريق من شيعة أبناء على يدعو إلى ما يدعو إليه فلا يعترض الشيعة الاثنا عشرية[1] ولا الشيعة الزيود ، غير أن دعاته هو كانوا ينشرون سراً تنازل أبى هاشم له عن خلافته ، ثم مات على بن عبد الله وخلفه فى هذه الدعوة ولده محمد الذى كان لبقاً كيساً استطاع أن يدير الحركة بحذق ومهارة فأدرك أن الشعب الفارسي مغلوب على أمره من العرب وأنه يجب أن يلون دعوته بلون شعوبى يتنازل فيها عن التعصب القومى فيظفر بتأييدٍ عظيم من غير العرب ولذلك خطب فى دعاته فقال : « أما الكوفة وسوادها فشيعة على ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحرورية صادقة[2] وأعراب أعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى . وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعندهم عداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر ، لكن عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها

---

(١) الاثنا عشرية : الإيرانيون ، وأكثر من نصف العراق ؛ والزيود : أهل اليمن فيما عدا بعض المناطق الشمالية من الشافعية .

(٢) الخوارج .

الأهواء ولم تتوزعها النِّحَلُ ولم يقدح فيها فساد . وهم جنـد لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل وهامات ولُحًى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة ، تخرج من أجسام منكرة ، وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » .

فكان لهذا النوع من الدعاية أثره فى نجاح أكبر عضد للعباسيين وهو أبو مسلم الخراسانى الذى دخل فى خدمة زعمائهم صبياً ولما ظهرت نجابته وذكاؤه أصبح زعيما لنشر الدعوة فى خراسان فأخذ يستحث الهمم حتى تمكن فى عام ١٣٠ هـ—٧٤٧م فى خلافتى من نشر العلم الأسود وجمع جيوشه من أتباع العباسيين بالقمصان السود[1] ليتحد زيهم أو ليرمز إلى السيادة أو الحزن على من قتل من أهل البيت أو لأن النبي اتخذ السواد فى بعض غزواته أو لذلك كله وعلى أية حال فقد أعلن أبو مسلم ذلك فى عهدى وفى بلدة سفيذنج قريبة من (مرو) عاصمة خراسان منتهزاً فرصة انشغالى بثورة الخوارج فأرسل عاملى (نصر بن سيار) يقول :

أرى خلل الرماد وميض نار	وأحر أن يكون له ضرام
فإن لم يُطفِها عقلاء قوم	يكون وَقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تذكو	وإن الحرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعرى	أأيقاظ أمية أم نيام

فلما قتل فى السجن ابن زعيم العباسيين إبراهيم الإمام كان أخوها

(١) وهذا يشبه الكتيبة الخضراء التى كانت حول النبى عند عمرة القضاء وتكررت فى فتح مكة كما كان شعار بنى أمية اللون الأبيض وكان العرب هم البادئون فى تنظيم الشعوب بالزى الموحد وهذا هو بعينه ما ظهر بعد ذلك فى وقتنا الحاضر فى الشعوب الأوربية التى اتخذت القمصان الملونة شعاراً لها.

أبو العباس السفاح وأبو جعفر المنصور قد تمكنا من الفرار إلى الكوفة حيث اختفيا وتقدم أبو مسلم غرباً فى عام ١٣١ هـ — ٧٤٩ م واستولى على العراق ثم التقى جيش العباسيين بقيادة (أبى عون بن يزيد) وجيش الأمويين بقيادتى عند نهر الزاب بالقرب من الموصل ولقد انتصرت فى أول الأمر حتى دب دبيب الشقاق فى جيشى بين بنى قضاعة و بنى سليم وغيرهم وإلى هنا كنا نربح جميع المعارك التى دارت بيننا و بين أعدائنا حتى كنت أسمع عبد الله بن علىّ العباسى ينادى : « يارب حتى متى نقتل فيك ؟ » فلما وقع الشقاق ذهبت ريحنا وهزم من معى وفررت إلى دمشق ولكن الإعصار الهائج لحقنى بها ففررت إلى مصر وتخفَّيت وظللت أتنقل بين ربوعها من الدلتا إلى الصعيد حتى وقعت فى فخاخ العباسيين الذين أعلنوا الخلافة ، وما أكثر الخناجر تمتد إلى صدر الضعيف الذى لا عون له ، لقد اختبأت فى دير أبى صير بالفيوم فدل علىّ من يطمع فى مثوبة العباسيين فاحتزُّوا رأسى بعد قتال بينى و بين حَفْنة من شيعتهم قليلة تتعقبنى وفيهم بائع رمان كوفى هو الذى ذهب نخوراً يتيه بأنه هو الذى قطع هـذا الرأس عن الجريح المكلوم بطعنات المدى فى الظلماء ولولا صياح بعض حاشيتى « أصيب أمير المؤمنين » ما كان إلا استمرار الضرب بينهم و بين من كان معى .

وهنا قد انتهى حديث أمير المؤمنين مروان بن محمد وكان قد حان وقت الرَّواح فعدت وقد تمثلت لى هذه المشاهد المروِّعة مما كان له تأثيره فى نفسى بعد حين .

الحديث السابع

الدولة العباسية ــ الدعوة الفاطمية

رجعت مثقلا بما حملت من فرط ما رأيت من ورود أرواح هؤلاء الأقيال ، وما أشبعتنى من أحاديثها ، ورأيت أن أستجم من ذلك ، فأخذت مضجعى فإذا بى أرانى كأنى لا زلت فى ساحة أبى الهول وكأنه قد مدت بين يديه فى هذا الأخدود الذى يشبه الزقاق مائدة بطوله ، من أصابع أبى الهول إلى صدره الجاثم ، ورأيت فى لَصْق صدره قائداً أبيض الوجه أشقر الشعر ضخم الجثة ، قد برز له شاربان من حافتى لأمته ، وأخذ هذا القائد يتكلم بلغة فيها نبرة العجمة ، يشرح أسباب قيام الدولة العباسية وكان حول المائدة رجال على رؤوسهم عمائم خضر وأخذوا بأيديهم أوراقاً وأقلاماً يكتبون ، فأومأت إلى أحدهم وقلت له أيها الشيخ : ترى من يكون هذا الخطيب الذى يتكلم بلغة مشوبة ، ولكنه متحمس لما يقول يضرب بيده المائدة ، ويأخذ بمقبض سيفه ، ويشير به هنا وهناك ؟ فقال : هذا جوهر القائد الصِّقِلِّىُّ مولى أمير المؤمنين المعز لدين الله وقائد جيوشه ووزيره الأول ، ونحن الجالسون جميعاً دعاة آل البيت العلوى وقد اتخذنا شعارنا عمائم خُضراً لنتميز بها على غيرنا وليتضح فى الناس شرفنا . فجلست وراء ذراع أبى الهول أسمع فإذا به يقول .

جوهر :— كان أبو العباس السفاح قد بويع فى ١٣ ربيع الثانى سنة ١٣٢ هـ قبل قتل مروان الحمار بنحو تسعة أشهر حتى انتصرت جيوشه فى معركة الزاب الفاصلة ثم أخذ ينتشر ظله فى أنحاء الإمبراطورية الإسلامية وكان أول شىء عنى به من سائر أقطار الخلافة تلك الولاية الآمنة والبلدة المطمئنة (مصر) فأرسل إليها عمه صالح بن على يتولى الأمر فيها وإلى جانب عناية العباسيين بها واختيارهم من أبرز شخصية بينهم لمصر رأينا الأمويين يلجأ البيت المالك بأسره إلى مصر ، ويبدو أن موقع مصر الجغرافى قد أفسح فى رجاء المنتصر أن يملك زمام البلاد منها ، ووسع فى أمل المقهور أن يجد منها منفذاً إلى سلامته ، ومهرباً من مطارديه ، ولما اتجه أبو العباس يؤسس ملك العباسيين أخضع الثورات التى قامت فى دمشق وفلسطين ، وولى على الأقاليم رجالاً يثق فيهم ثم عهد لأخيه أبى جعفر المنصور بالخلافة ، وهو الذى يعد بحق المؤسس الحقيقى للدولة العباسية لما قام به من إحكام الروابط بين القوة الزمنية والسلطة الدينية وكانت الثانية مصدراً هامًّا لقوة الدولة وعماداً متيناً لها وبدأ سلسلة من الإصلاحات وجلائل الأعمال وأهمها استبدال العمال بغيرهم من وقت لآخر ، وعزل من يخشى استقلاله بالحكم من ذوى العصبيات القوية ومن أهم أعماله اتخاذ دار السلام وإنشائها من جديد كعاصمة على الشاطىء الغربى للدجلة بالقرب من المدائن مكان قرية يقال لها بغداد فى سنة ١٤٨هـ — ٧٦٦م وقد قتل أبا مسلم الخراسانى[1]

كيف استمر حكم العباسيين

---

(١) اسمه إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جردزدة ، من ولد بزرجمهر ويكنى =

خوفاً من عظم نفوذه وأخضع الثورة التي قام بها أتباع بني مسلم وحصن الحدود التي بينه وبين الروم واتخذ خالد بن بَرْمَكَ وزيراً له فبدأت عظمة البرامكة الذين قاموا بأعباء الوزارة في صدر الدولة العباسية ، وكانوا من أكبر أسباب التقدم والرقي فيها ، وكان المنصور يشرف بنفسه على كل كبيرة وصغيرة حتى اعتلّت صحته فقصد إلى مكة فعاجلته المنية عام ١٥٧ هـ — ٧٧٥ م وهو على بضع ساعات منها ، وخلفه ولده محمد المهدي الذي كان كريماً رحيماً وطد العزم على إزالة أثر كل إساءة اقترفها والده فعفا عن كثير من المسجونين السياسيين ، ورد إلى بني هاشم ما كان أبوه قد أخذه منهم ووسع المدارس وأكثر منها ووسع الحرم المدني وأنشأ القصور على الطريق من بغداد إلى مكة وسعى في توفير الماء على طول هذه الطريق ورتب البريد بين مكة والمدينة ، ومن إصلاحاته الصحية والإنسانية الإنفاق على المجذومين منعاً لانتشار العدوى وإطعام المسجونين حتى لا يموت فقراؤهم جوعاً وقد قضى على حزب الزنادقة الذي ظهر على عهده في جرجان شرقي بحر قزوين وكان يدعو إلى عقائد مجوسية وإسلامية وإلى اشتراكية متطرفة ويحتقر الآداب والنظام ومن العجيب أن المهدي تولى الخلافة في وقت كان آباؤه وأعمامه جميعاً يتحرقون إلى التشفي من بني أمية

= أبا إسحاق ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة وهو ابن سبع سنين فلما اتصل بإبراهيم بن محمد إمام العباسيين قال له غير اسمك فسمى نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى أبا مسلم وكان عمره ١٩ سنة يجرى في عروقه دماء رفيعة من أجداده جعلته يثب بهمته إلى تحقيق غاياته مما خوف منه أبا جعفر .

حتى أن الأمير من بنى أمية يكون فى كَنَف الخليفة العباسى وقد أعطاه الأمان فيدخل شاعر عليه ينشد بيتاً يكون سبباً فى نقض الخليفة لعهده وحكماً على الأموى بالموت وهكذا قتل سليمان بن هشام بن عبد الملك حين دخل سديف الشاعر على السفاح .

الفتك والتشفى وأثر الشعراء فى تهييج السخائم الكامنة

وقد قتل فى يوم من الأيام سبعون أميراً من بنى أمية فى مجلس عبد الله بن على عم الخليفة المنصور بسبب قصيدة لشبل الشاعر الذى حرض فيها وأثار كامن الموجدة فى قلب الأمير العباسى .

فإذا استن المهدى سنة فيها رفق ورحمة وفيها وفاء وسكينة ، كان عهده جديراً بالتخليد ، وقد عهد إلى وزرائه آل برمك بمهام الأمور فأصبح لهم النهى والأمر ، وقد صادق معاصره فى غرب أوربا شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤ م) واستمرت المودة بين الدولتين إلى زمن الرشيد لأن العباسيين كانوا يجدون فى شرلمان أكبر مساعد لهم فى القضاء على الدولة الأموية الغربية فى الأندلس ، كما وجد شرلمان فيهم أكبر مساعد له للقضاء على الدولة الرومانية الشرقية وكان بين هذه الدولة وبين المهدى عداء قديم مستحكم قامت بسببه الحرب براً وبحراً وانتهى الأمر بأن تقدم المهدى وابنه هارون (الرشيد) إلى الروم الذين أكثروا من الإغارة على أملاكه وهزمهم وسار إلى البوسفور فصالحته (إيرين) القائمة بالحكم فى القسطنطينية والوصية على ولدها الإمبراطور قسطنطين السادس على دفع جزية سنوية .

اتفاق الرشيد مع شارلمان على حساب الأندلس

وخلفه ولده موسى الهادى ولم يطل حكمه أكثر من سنتين ،

حدثت فى عهده ثورة فى المدينة قتل فيها الحسين حفيد الحسن بن على وفر ابن عمه إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على إلى المغرب وصاهر من البربر وأنجب ولده الإمام إدريس الثانى وتمكن من إنشاء دولة الادارسة فى أفريقية عام ١٧٢ هـ ٧٨٨ م فى عهد الرشيد .

وقد عاجلت الهادى المنية فى عام ١٧٠ هـ ٧٨٦ م بينما كان يحاول خلع الرشيد من ولاية العهد ونقلها إلى ابنه جعفر وخلفه الرشيد الذى بلغت فى عهده الدولة العباسية غاية قوتها فلم تكن تضارعها دولة فى عظمتها وثروتها وعلومها ومعارفها وشيوع الترف واستتباب الأمن فيها ، وقد وثقت الرعية فى عدله لأنه بعد تغلبه على المناوئين من العلويين عفا عنهم وأحسن إليهم ، ثم جرد جيشاً بقيادة يزيد بن مَزْيَد الشيبانى لتأديب الخوارج الذين ناوأوه فى الجزيرة بزعامة الوليد بن مُطَرِّف الشيبانى وكانوا من الشجعان المستبسلين المسارعين إلى الشهادة فقاوموا مدة طويلة قبل أن يتغلب عليهم يزيد قرب (الأنبار) وقد قتل يزيدُ الوليدَ فى مبارزة بينهما فى هذه الوقعة عام ١٧٩ هـ ٧٩٥ م .

ويعد الرشيد من أكبر حكام العالم فقد كان مستمسكا بدينه تقيًّا محسناً محبًّا لمظاهر العظمة ماهراً فى قيادة الجيوش حريصاً على مصلحة الرعية ، فشيد المساجد والمستشفيات والصيدليات والقناطر والترع ، وكانت المساجد فى تلك العهود بمثابة الجامعات والكليات تدرس فيها جميع الفنون العليا من الفقه والأصول والطب والرياضيات والفلسفة والأدب والتاريخ والحديث والتراجم ، ويرجع بعض عظمة الرشيد إلى

نهضة الدولة فى عهد الرشيد

البرامكة لأنه استوزر فى أول عهده يحيي بن خالد البرمكي الذى كان معلماً له وأطلق يده فى أمور الدولة فأدارها بحكمة ومهـارة وساعده فى ذلك ابناه الفضل وجعفر وخلفه فى الوزارة جعفر فقام بأعبائها خير قيام .

وكانت أفريقية إلى ذلك العهد تابعة لحـكومة مصر التى كانت تعد ولاية ممتازة أو دولة لها استقلال ذاتى فرأى الرشيد أن حكم أفريقية يتطلب من مصر جيوشاً ويقتضيها جهوداً ضخمة ورأى أن إبراهيم ابن الأغلب أقوى زعيم فى تلك البلاد يطمع فى الاستقلال الذاتى فمنحه الرشيد ذلك وجعل الحكم وراثياً فى بنيه فأنشأ الدولة الأغلبية ، وقد أصبحت أفريقية لها استقلالها الإدارى فى الداخل نظير ما ترسله من جُعْل لبيت المال ، وقد مد الرشيد فى حدود الخلافة شرقاً إلى جبـال (هندوكش) وفصل جميع الثغور الواقعة على الحدود الرومانية بالجزيرة وأعالى الفرات وشمالى الشام وجعلها إقليما واحداً قائماً بذاته استكثر فيه من الحصون والحاميات وسماها (العواصم) لأنها تعصم المسلمين وتحميهم من غزو الرومان وكذلك إنطاكية وطرسوس وفى عام ١٧٥ هـ — ٧٩١ م عين أولاده حكاماً فأقام الأمين على الغرب والمأمون على الشرق والقاسم على ما بين النهرين والعواصم .

دولة بنى الأغلب

وبعد أن قام البرامكة بخدمة الدولة سبع عشرة سـنة بإخلاص وحزم حتى زادت ثروة البلاد وعمرت الأرض وارتقت الصنـاعات وتوفرت جميع وسائل الحضارة أوقع بهم الرشـيد على غرة منهم لسيطرتهم على شئون الدولة .

نهاية البرامكة

واستوزر الرشيد بعد الفتك بالبرامكة حاجبه الفضل بن الربيع الذى كانت له اليد الطولى فى الإيقاع بالبرامكة ولـكنه كان دونهم كفاية ومقدرة ، وقد عفا الأمين عمن بقى من أولاد يحيى فى السجن وردّ إليهم المأمون ضياعهم فى خلافته .

وقد مات الرشيد بعد أن حكم ثلاثاً وعشرين سنة بلغت شهرته فيها ما لم يبلغه خليفة قبله حتى اتصل بامبراطور الصين (فِغْفَوْر) وتبادل مع شرلمان الهدايا ومن هدايا الرشيد ما يشير إلى ما كانت عليه الدولة من الحضارة والمدنية كالساعة المائية التى دهش لها أهل أوربا وحسبوها سحراً وهمّ بعض رجال شارلمان بكسرها لولا أن منعهم الإمبراطور .

نهاية الأمين

وتولّى الأمين بعد أبيه سنة ١٩٣هـ ٨٠٩م ولـكنه كان ضعيفاً مسرفاً نفدت فى عهده أموال الخزانة وقد خلع أخويه وعهد إلى أبنائه دونهما وذلك بإغراء وزيره الفضل بن الربيع وأرسل جيشاً يأتيه بالمأمون فانهزم عند (الرى) وأعلن المأمون نفسه خليفة ، وحاصر بغداد وتهدم جزء كبير منها ثم وافق الأمين على تسليم نفسه لأخيه الذى قتله بعض الجنود من الفرس فى الطريق فحزن المأمون عليه وأكرم أبناءه وزوجهم من بناته ، وقد كانت أم الأمين زبيدة العربية زوج الرشيد فى حين أن أم المأمون مولاة من قينات الفرس مما أدى إلى أن يعطف الفرس على المأمون ويعدون دولته دولتهم وانتصاره انتصاراً لموالى العرب وأبناء موالى العرب ممن لا تزال ذكريات مجد كسرى ترتسم فى أذهانهم ، وكذلك كان المأمون يعطف على الفرس فاتخذ منهم جنده وحاشيته ووزراءه

وحجابه ، وعلى النقيض كان الأمين : فلقد ثار العرب لمقتله فى العراق والشام بضع سنوات فلما هدأت الحال تولى طاهر بن الحسين قائد المأمون الشرق وتولى ابنه عبد الله مصر وسوريا ، ولم يرض المأمون أن يتوقف نشر العلم على ما يدفعه الخليفة من بيت المال لمن يختار من أهل العلم والأئمة ، لذا نراه قد قرر الأوقاف واعتمد الأموال اللازمة لينفق منها على المعاهد ودور العلم والحكمة ، وكان مولعاً بالعلوم والفلسفة فكان عصره أرقى عصور العلم أيام العباسيين ، نبغ فيه علماء فى المنطق والفلسفة والرياضيات ونشطت الترجمة من اليونانية القديمة ككتب ارسطاليس الذى كان له شغف خاص به ، وترجم كذلك كل ما جاء به من بلاد الروم حنين بن إسحاق من طرائف الكتب فى الفلسفة والموسيقى والهندسة والطب والرياضة ، وقد أصلح العلماء فى عصره أخطاء اليونان ووضع بعضهم كتباً اشتقوا لهم فيها طرائق فى التفكير مستقلة كانت مزاجاً من فلسفة اليونان وثقافة العرب ، وما ينتجه منطق هذا الاحتكاك من تجديد فى العقليات والنظريات والكونيات .

وفى عصر المأمون خرج أهل مصر عن طاعة الخليفة وامتنعوا من أداء الخراج وطردوا العمال وصارت فتنة عظيمة بمصر حتى كادت أن تُدَمَّر فحضر المأمون إلى مصر وأطفأ تلك الفتنة وقتل من القبط خلقاً كثيراً ورجع إلى بغداد وتوفى غازياً فى (أرزن) ببلاد الروم فى رجب سنة ٢١٨ هـ – ٨٣٤ م وكانت مدة حكمه عشرين سنة ودفن بطرسوس

المعتصم بالله الأمي أخو المأمون

وولي بعده أخوه المعتصم بالله . ومن أغرب ضروب الاتفاق فى بيوت الملك العريضة أن الخليفة المعتصم يكون أميًا وهو ابن هرون الرشيد وأخو المأمون الذى كان يتكلم بعدة لغات حَذِق فى اللاتينية والإيرانية والتركية والقبطية والعربية والسريانية

أراد المعتصم أن يكبح جماح جيوشه الفارسية فكوّن جيشاً جديداً من الأتراك وغيرهم من الأجانب يقودهم ضباط من بينهم تحت إمرة الخليفة مباشرة ولما ضاقت بهم بغداد انتقل وجيشه إلى (سُرَّ مَنْ رَأى) أو سامرّا وسرعان ما صار للاتراك من القوة ما كان للحرس الرومانى حتى أصبح بيدهم أمر عزل الخلفاء وتعيينهم وتوفى المعتصم سنة ٢٢٧ هـ — ٨٤٣م وولى بعده ابنه الواثق بالله فزاد فى نفوذ الترك وأهمل الجيوش العربية والفارسية وعين أشناس التركى سلطاناً للدولة يقوم بإدارة الحكم فيها باسم الخليفة وكان الواثق خاتمة الطور فى عظمة العباسيين ثم أخذت الدولة بعد ذلك تنحدر إلى الهاوية واستمر اسم الخلافة العباسية ببغداد إلى عام ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م . حين أغار عليها (هولاكو) التتارى وقتل المستعصم آخر خليفة عباسى فانقضت بذلك الدولة العباسية .

ويرجع سبب سقوط دولة بني العباس إلى عوامل عدة أهمها أربعة وهي :

١ — تفوق العناصر غير العربية .

ذلك بأن ضَيّقَ الموالى من الفرس على الأمويين لاعتمادهم على العرب وتوليتهم المناصب السامية كلها ، وأخذوا يناصرون العباسيين وينشرون

لهم الدعوة ، وتمكنوا فى النهاية من انتزاع الخلافة من بنى أمية فجاءت دولة العباسيين فارسية الصبغة أولاً وعمل الفرس على إقصاء العصبية العربية عن الخلفاء بدعوى طموح العرب إلى الخلافة اعتماداً على نسبهم فأصبح الفرس يحكمون الدولة ويتضح ذلك من سطوة البرامكة ومن جاء بعدهم حتى خشى المعتصم سوء المصير فاستكثر من مماليك الأتراك واتخذ منهم جنداً استعان بهم على الفرس والعرب معاً ، وبذا سيطر الترك وأصبح بيدهم سجن الخلفاء وعزلهم وتوليتهم .

٢ — سوء الحالة الاقتصادية .

وذلك أنه نظراً إلى إمعان الخلفاء فى العهد الأخير فى الترف مما جر إلى كثرة النفقات فانحطت موارد الثروة وقل إيراد الحكومة .

٣ — ظهور الدويلات العلوية المستقلة .

إذ نافس السادة العلويون خلفاء بنى العباس ونازعوهم بالسلاح وتمكنوا من اقتطاع أجزاء من الدولة استقلت عنها ، ومنها دولة الأدارسة بالمغرب والدولة الفاطمية التى امتد سلطانها من المحيط الأطلسى إلى الحجاز واليمن وهي الدولة التى أفخر بنسبتى إلى خدمتها ، ودولة بنى بويه وكانت لها السيطرة على بغداد وبقية أجزاء الدولة العباسية وهم من غلاة الشيعة ، يضاف إلى ذلك اتساع رقعة الدولة وما جرى عليه بعض خلفاء العباسيين من إقطاع النواحى القاصية لأعوانهم مكافأة لهم على خدماتهم وما تلا ذلك من استقلال هؤلاء الأعوان .

٤ — تعدد الأجناس والمذاهب .

فلقد تعددت الأجناس وظهرت المذاهب التى لم تكن معروفة فى أيام الأمويين ، وسرت إلى الإسلام فى ذلك الحين ديانات قديمة من مجوسية ويهودية ونصرانية أدت إلى كثرة الملل والنحل وأذكت نار العداوة بين المسلمين .

ثم استأنف جوهر حديثه — بعد أن تجرع من قارورة معلقة فى كاهله جرعة ماء — فقال والآن أيها الدعاة أحدثكم عن الدولة الطولونية فى مصر فاسمعوا وعوا .

الدولة الطولونية
٢٥٤ــ٢٨٩ هـ
٨٦٨ــ٩٠٥ م

كان طولون مؤسس الدولة الطولونيــة مملوكاً تركيًّا ممن أرسلهم حاكم بخارى هدية للخليفة المأمون فى عام ١٩٩ هـ - ٨١٥ م فنال الحظوة لديه ورزق بابنه أو متبناه أحمد فى عام ٢١٩ هـ ٨٣٥ م فعنى بتدريبه وتعليمه حتى برعَ فى علوم اللغــة والقرآن والشريعــة وأولع بالتعليم العسكرى الذى كان يُرَبَّى عليه فتيان الترك فى سُرَّ من رأى (سامرا) ومن حسن حظ أحمد هذا أن الأمير بقبق الذى تزوج من أرملة طولون منحه ولاية مصر حوالى عام ٢٤٠ هـ — ٨٥٤ م واختاره نائباً عنه فيهـا فحضر إليها فى عام ٢٥٢ هـ — ٨٦٨ م وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره وكان أبو العباس أحمــد بن طولون حازماً واجه مصاعب جمــة أهمها دسائس (ابن المدبر) صاحب الخراج الذى أثرى من طريق الاختلاس وابتزاز المــال بمختلف الضرائب والمكوس . وقيـام العلويين فى وجهــه فى غرب الاسكندرية وفى إسنا .

ولم يضعف من نفوذه قتل الأمير (بقبق) لأن الخليفة منح مصر

للأمير (برقوق) وهو حمو ابن طولون ولهذا أطلق يده فى مصر وضم إليه الإسكندرية وغيرها ، فأخـذ نفوذه يزداد إلى أن أعطيت مصر طعمة (للموفق) أخى الخليفة فى عام ٢٥٦ هـ — ٨٧٢ م ولـكن ابن طولون أخذ فى استرضاء الخليفة بالتحف والهدايا حتى أصبح فى الواقع ملـكاً مستقلاً فى مصر وخصوصاً بعد أن تخلص من أكبر منافسيه فيهـا وهو ابن المدبر الذى قبل عن طيب خاطر أن ينقل إلى مثل وظيفته فى الشام خوفاً من بطش ابن طولون ولما استقر الأمر لأحمد بن طولون وكثر جنده وحاشيته شيد لهم مدينة (القطائع) على (جبل يشكر) بين ميـدان القلعة وزين العابدين وجعل قطعة لـكل طائفة من اتباعه يقيمون بها وبنى لنفسه قصراً فخماً تحت قبة الهواء به حديقة غناء وفيه ميدان لسباق الخيل .

جامع ابن طولون

ثم شرع فى بناء مسجده واستغرق بناؤه عامين . وأهم ما يلاحظ فى هـذا الجامع إقامة الأعمدة لأول مرة من الآجر بدل نقل أعمدة حجرية من الآثار القديمة وأنه أول بناء استعمل فيه العقد المخموس الذى لم يستعمل فى انجلترا إلا بعد ذلك بقرنين من الزمان .

ولما عظمت نفقات ابن طولون على جيشـه ومبانيه وحصونه وتضاعفت عطاياه للعلماء وصدقاته على الفقراء لم يستطع أن يرسل شيئاً إلى (الموفق) فجهز هذا جيشاً لإخراج ابن طولون من مصر ولـكن حاجته إلى المال أقعدته عن تسيير هذا الجيش فتشجع ابن طولون ووطد العزم على توسيع ملـكه فانتهز فرصة موت (ماجور) والى الشام وساق

إليها جيشه فى عام ٢٦٢ هـ — ٨٧٨ م ففتحت دمشق أبوابها وقدم رجال الدولة وأعيان البلاد خضوعهم له حتى صار ملكه يمتد من نهر الفرات إلى برقة ومن جبال طوروس إلى شلال أسوان .

و بعد أن ترك حاميات بالرُّقَّة وحِرَّان ودمشق عاد ابن طولون إلى مصر لأن ابنه العباس الذى كان يحكم البلاد فى غياب أبيه أراد أن يستقل بالملك فلما حضر أبوه التجأ إلى برقة وقاوم سنتين حتى هزم وقضى حياته سجيناً .

وقد شجر الخلاف بين ابن طولون والموفق دون أن يظفر أحدهما بالآخر وشجر أيضاً الخلاف بينه و بين الروم فانتصرت جيوشه عليهم بالقرب من طرسوس فى عام ٢٦٧ هـ — ٨٨٣ م وغنم أموالا طائلة وقد أعياه الجهد فمرض وحمل إلى مصر على سرير حيث قضى نحبه فى مايو ٨٨٤ م عام ٢٦٨ هـ قبل أن يبلغ الخمسين من عمره .

صفات ابن طولون

كان ابن طولون شجاعاً كريماً تقياً يشرف بنفسه على أعمال الدولة ويستطلع أحوال الرعية ويعد أول حاكم بعد الفتح الإسلامى أنهض قوة مصر وجمل عاصمتها .

خمارويه

وقد خلفه ابنه الثانى (أبو الجيش خُمَارَوَيْهِ) وكان فى العشرين من عمره ميالا للترف يجهل أساليب الحكم ويخاف الحرب وقد تآمر أعداؤه مع نائبه فى دمشق على إرجاع الشام إلى حكم الخليفة ودخل (أبو العباس بن الموفق) دمشق وتقدم جنوباً حيث قابله خمارويهِ ومعه سبعون ألف مقاتل عند (الطواحين) بالقرب من الرملة فذعر خمارويهِ

وفر بأكثر جيشه إلى مصر ولكن قائده (سعداً الأعسر) قد ثبت مع بقية الجيش وتمكن من أن يهزم الأعداء ولكنه أبى الخضوع لسيده .

استرجاع الشام

فسار إليه خمارويه وهزمه فى دمشق فى عام ٢٧٠ هـ — ٨٨٤ م وطارد أعداءه إلى (سَامِرًا) فولاه الخليفة على مصر والشام والعواصم على الحدود الرومانية مدة ثلاثين عاماً . وقد تشجع خمارويه وخاض غمار عدة حروب أظهرت مقدرته الحربية .

زواج قطر الندى

ثم زوج ابنته (قطر الندى) للخليفة (المعتضد) وأنفق فى ذلك أموالا طائلة يقصر دونها الوصف فقد بنى القصور على طول الطريق من مصر إلى بغداد لنزول العروس كل ليلة وأكثر من الجواهر والتحف إلى غير ذلك مما دعا إلى إنفاق أموال باهظة .

واستمر خمارويه يسرف فى البناء وأنواع الترف حتى كادت موارد ثروته تنضب . وأهم ما شيده توسيع قصر أبيه (بالقطائع) وتحويل الميدان إلى حديقة غناء يفوح منها عبير الأزهار المختلفة وقد صفت بأشكال بديعة تغرد فوقها الطيور التى أكثر من جمعها فيها . وقد زين أيضاً (بيته الذهبى) بتماثيل منقوشة تمثله وزوجاته وقيانه . ولما اشتد عليه الأرق ملئت له بركة من الزئبق يتأرجح عليه سريره وقد شد بخيوط حريرية إلى عمد من الفضة .

وقد حقد عليه بعض جواريه فأغرين به من قتله وهو فى طريقه إلى دمشق فى عام ٢٨٢ هـ — ٨٩٦ م .

أبو العساكر جيش

وخلفه ابنه الأكبر (أبو العساكر جيش) وكان فى الرابعة عشرة

من عمره منغمساً فى لهوه لا يفقه لمركزه الخطير معنى فخرجت عن طاعته سوريا وما يليها وعمت الفوضى فروع الإدارة ونفدت أموال الخزانة فعزله جنده بعد شهور من اعتلائه العرش .

خاتمة الدولة الطولونية

وقد جاء بعده أمراء ضعفاء لم يحسنوا القيام بأعباء الحكم وواجباته فأرسل الخليفة إلى مصر جيشاً بقيادة محمد بن سليمان هزم الطولونيين وخرب (القطائع) عن آخرها ما عدا جامع ابن طولون وبذا انتهت الدولة الطولونية بعد أن عمرت سبعاً وثلاثين سنة كانت فيها مصر مستقلة فى الواقع ؛ وقد استعادت كثيراً من عظمتها ومجدها السالفين .

عودة مصر للخلافة

ثم بقيت مصر بعد زوال الدولة الطولونية ثلاثين عاماً عمت فيها الفوضى لأن الأمر والنهى كانا بيد الجند الأتراك وقوادهم لأن الخلفاء العباسيين كانوا ضعفاء لا يستطيعون تأييد من يعينونه من الحكام على حكم البلاد فكان هؤلاء الحكام يسترضُون الجند بالعطاء .

وأكبر شاهد على ضعف الخلفاء العباسيين وولاتهم على مصر ورغبة المصريين فى التخلص منهم أن (محمد الخلنجى) وهو شاب من عامة الناس قد تمكن من جمع عدد صغير من المصريين فى فلسطين فى عام ٢٩١ هـ ٩٠٥ م وأعاد الخطبة للطولونيين هناك ثم دخل مصر وتولى حكمها ثمانية أشهر باسم الطولونيين .

كما أن شدة ضعف هؤلاء الخلفاء ظاهر من عجز حكامهم عن طرد جيوشنا فيما بعد حين وصلتُ إلى الاسكندرية والفيوم . واستمر هذا

العجز ست سنوات كاملة على الرغم من حضور المدد لهم من بغداد أكثر من مرة ، ثم استأنف وقال :

الدولة الأخشيدية ٣٢٣ــ٣٥٨ هـ ٩٣٤ــ٩٦٨ م

هذا . ولم يُعْقِبْ ردُّ جيوشنا عن مصر القضاء على الفوضى الضاربة أطنابها فى أنحاء البلاد بل بقى الجند العباسيون يجوسون خلال الديار يسومون أهلها سوء العذاب مدة خمس عشرة سنة حتى ولى أمرها (محمد بن طغج المعروف بمحمد الإخشيد) فى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م بأمر الخليفة الراضى . والإخشيد لقب ملوك (فرغانة) السابقين و (محمد بن طغج) من سلالة هؤلاء الملوك كان جده ضابطاً فى جيش المعتصم كما كان أبوه فى جيش خمارويه . وكان محمد هذا قوى الساعدين لا يقوى رجل آخر على أن ينزع عن قوسه وكان قائداً حذراً ولكنه يفضل السلم على الحرب . وقد أعاد إلى مصر الأمن والسكينة .

وكان خلفاء بنى العباس وقتئذ فى غاية الضعف ليس لهم من أمر الملك شىء فقد حكم (بنو بُوَيْه) فارس وحكم الحمدانيون العراق مستقلين عن الخليفة كما أن الإخشيد قد استقل بحكم مصر ولكنه لم يتأخر عن مدِّ يَدِ المساعدة للخليفة المُبْتَئَس .

الحرب فى سوريا

وبينما كان الإخشيد هادئاً فى ملكه إذ انقضّ (ابن رائق)[1] على حمص ودمشق فقاتله المصريون وتم الصلح على أن تكون سوريا شمالى (الرملة) لابن رائق وجنوبيها للإخشيد .

---

(١) محمد بن رائق كان صاحب شرطة (حكمدار) فلسطين وقد منحه الخليفة الراضى لقب أمير الأمراء فبدا له أن يغزو سوريا وانتصر فى أول الأمر حتى هزم فى موقعة العريش .

ولما مات ابن رائق أخذ الإخشيد سوريا كلها بغير قتال وضم إليه الخليفة مكة والمدينة ثم جعل مصر له ولأبنائه مدة ثلاثين سنة فأخذ الإخشيد لابنه البيعة من قواد الجند ووجوه الناس . ثم أغار سيف الدولة الحمداني على دمشق وهزم الجيوش المصرية التي كانت بقيادة (كافور) فخرج إليه الإخشيد وهزمه وشتت جيشه في واقعة (قِنَّسْرِين) ودخل حلب ودمشق ولكنه تنازل عن حلب وشمال سوريا لسيف الدولة حباً في مسالمته ومات بدمشق في عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م ودفن في بيت المقدس .

كافور

وتولى بعده ابناه (أبو القاسم أنجور) من عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٦ م إلى عام ٣٤٩ هـ — ٩٦١ م و (أبو الحسن علي) من عام ٣٤٩ هـ — ٩٦١ م إلى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م تحت وصاية (أبو المسك كافور) حاكم مصر الحقيقي وكان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيد بثمن بخس وولاه قيادة الجيوش ثم نصبه أستاذاً لأولاده . ونجح كافور بعد حروب مع الحمدانيين في مد أملاك مصر إلى حدود الأناضول وأحاط نفسه بالعلماء والشعراء وبذل لهم الهبات والعطايا .

ولما مات أبو الحسن علي الإخشيد في عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م اعتلى العرش (كافور) ومنحه الخليفة لقب أستاذ مصر ثم منحه ممتلكاتها فظل يدير شئونها في ترف وبَذَخ حتى مات في عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٨ م بعد أن حكم مصر اثنتين وعشرين سنة وبمجرد موته اجتمع رجال البلاط وانتخبوا من تلقاء أنفسهم — وبدون الرجوع لأمر الخليفة العباسي —

من بنى الإخشيد ملكا على مصر وممتلكاتها كما انتخبوا ولى عهد له . إلا أنهما لم يضطلعا بأعباء الحكم فرأى مولاى المعز لدين الله وهو رابع الخلفاء الفاطميين ضم مصر إلى أملاكه فجهزنى بجيش لغزوها ودخلتها فاتحاً فى عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م .

فقلت له : — أتسمح لى أيها القائد أن تشرح لنا كيف انهارت الدولة العباسية وأسباب ذلك قبل أن تدلى لنا بحديثك عن الدولة الفاطمية التى أنت أحد رجالها الأفذاذ ؟ ؟ .

قال جوهر : — إن انتشار الإسلام واختلاط العناصر بعضها ببعض من غير تحديد لمسئوليتها ولا تحديد لمجال النشاط بين كل منها قد بدّل أخلاق المسلمين ومسخهم على النقيض مما تفرضه عليهم الحياة الإسلامية . فاجتمع من مستلزمات الحياة العربيـة من الثارات والوِتْر والكرم والعصبيـة القَبَلِيَّةِ مع مستلزمات الحياة الإسلامية من الاتحاد والاقتصاد وطلب العلم ، والتزاوج لإكثار سواد الأمة ، والجهاد والغزو والنظام ، والطاعـة لولى الأمر ولو كان عبداً حبشياً ، أمشاجٌ من الخلائق .

عناصر التحلل

كثر المـال فى أيديهم من جرّاء الفتح والغنائم فأتلفوا وجعلوا بيت المـال وقفاً على المـادحين من متسكعة الشعراء على أبواب الأمراء والأثرياء ، فأفسـدوا الآداب بالإكثار من المَلَقِ وغلبـة طبيعة الرياء وانتشار التحريض على ذوى الخصومة والخلاف فسفكوا دماءهم وجعلوا بأسهم بينهم ، وتزوجوا وتَسَرّوْا فامتلأت البيوت بالأعجميات ، وسادت

السخائم والبغضاء فى الأسر من انتشار الغـيرة بين نساء البيت الواحد وكل واحدة تغرس فى بنيها كراهيـة إخوته من غيرها فرأينا الرجل يقتل أخاه، ولولا مابَذَرته الأم من استهانة بوشيجة الأخوّة ما قُتِل الأمين ولا عَزَل أخويه. وانتشرت مع الثروة والترف والاستمتاع ضروبٌ من الخنا والخـلاعة ثم التحلل والفناء ، وكان من تدافع الأجناس وتنافس العناصر التى يتكون منها هـذا الخليط من الأمم أن انحسر الإسلام فى قوته ومَنَعَتِهِ عن هـذا المجتمع كما ينحسر البحر فى جَزْره ولـكل مدٍّ جزر كما أن لـكل جزر مدًّا ؛ ومن هنا رأينا عهداً يسود فيه الحق والعدل والإنصاف ، وعهداً يسود فيه الظلم والعسف ، وهكذا الدنيا يتعَاورها ضربان من الخير والشر فى مدهما وجزرهما .

أضف إلى هذا أن المسلمين نقلوا علوم الاغريق والفرس وأضافوا إليها ما أضافوا فنجم عن هذا الاختلاط العلمى الجدلُ والتفلسف ثم الزندقة والحيرة واضطراب العقائد ، وتنافر المناهج ، حتى أفرز هذا المزيج الغريب من الترف والفلسفة والعربدة والتدين مبدءاً جديداً وعقيدة أخرى كانت نتيجة «رد الفعل» الذى أحدثته هذه الحياة ذلك هو التصوف فى دعوته للزهد والفناء، وهام كثير من المتصوفة على وجوههم يتنقلون فى البرارى والأديرة والخرائب والأطلال القـديمة كابراهيم ابن أدهم أحـد دهاقين الفرس وذى النون الإخميمى المصرى ٢٤٥ هـ والحارث بن أسد المحاسبى تلميذ البخارى ٢٤٣ هـ والجنيـد القواويرى ٢٩٨ هـ ، وكذلك كان من نتيجة الخلافات حول أي فريق أحق

بالخلافة ؟ أن صارت الإمبراطورية الإسلامية نهباً مقسماً بين الحكام المختلفين من الخوارج والشيعة والسنّية وكل فريق من هؤلاء انتابته أيضاً موجة من الجدل البيزَنطى ، وكان من نتيجة الخلاف الفلسفى انتشار مذاهب المعتزلة والجَهْمِية والكرامية والأشعرية والماتريدية واللاأدرية والجبرية والقدرية وما بين ذلك وبين التصوف من التوكلية وأصحاب الميثاق ووحدة الوجود ، إلى جانب الآراء السياسية الأخرى التى وزعت الجهود وشتتت الشمل كمذهب الشعوبية[1] وله أنصار ، ومذهب القومية العربية وهم الذين أحبوا أن يستأثر العرب بالحكم وقد انتشر بسبب هذا الاختلاف الدائر، أن كان كثير من أهل العلم والرواة والمحدثين يتزلفون لكل قبيل من الأمراء والحكام باختلاق الأحاديث ووضعها حتي وضعت آلاف الأحاديث فى فضل آل البيت وأخرى فى فضل بنى العباس وغيرها فى الكونيات لتوافق مذهباً شائعاً فى الفلسفة أو التصوف ؛ وانتشرت الحكايات والأقاصيص حول الكرامات وخوارق العادات : من ذلك أن أبا محمد الشامى المصلوب قال له بعضهم وهو يحتضر : إلى الجنة فقال : وكيف لا وقد وضعت مائتى حديث فى فضائل على ؟ وكان الجنيد يقول لتلاميذه : « الحكايات جند من جنود الله تعالى يقوى بها قلوب المريدين » أى اختراع الحكايات فى فضائل وكرامات الأولياء، وهو تحريض على الكذب والاختلاق[2].

(١) النسبة إلى الجمع خطأ ولكنه فى هذه العبارة قد جرى على أقلام بلغاء العرب وكتابهم كالجاحظ وأبى نواس وأبى العتاهية ومعاصريهم .

(٢) وماعصفت بمجد الإسلام ومبادئه الحنيفة إلا مثل هذه الأكاذيب والآراء الدخيلة التى شوهت جماله وأحالته إلى مجموعة من الكتب الموقورة بالخرافات .

الدولة الفاطمية

فأردت أن أرجع به إلى حديث الدولة الفاطمية ، فحسب أننى ظننته كفاطمى كبير ينتقص من العباسيين لهذا تدارك قائلا : إننى يجب أن أطلعكم على حقائق الأمور لتكيِّفوا موقفكم من الناس كما ترون فأنا هنا لا أشوه الواقع لأنى رجل أعجمى من صقلية وقد تكون صقلية أبعد عن أن تندمج فى غمار هـذا الخليط الناشز من الشعوبية ، فليست لى إذن عصبية أنحو بكم إلى الإنحياز إليها ، وأمنيتى أن تكون القاهرة مركز التوجيه العالمى ، فإن الصلة بين صقلية وطنى الأول وبين مصر وطنى الثانى ترجع فى عالم التاريخ إلى عهد الحضارة الرومانية القديمة ، ولما كنت أحب أن ألخص نشأة الدولة الفاطمية لكم فى إنصاف واعتدال فإنى أقول :

لقد كانت أفريقية تربة خصبة لِبَثِّ دعوة الشيعة ، لأنه لم يكن لها ارتباط شديد فى يومٍ مّا بالأمويين ولا بالعباسيين بل كانت مهداً للثورات والقلاقل إلى أن تركها الرشيد شبه مستقلة تحت إمرة بنى الأغلب ، وقد ساعد بُعْدُها عن مقر الخلافة ، وتَفَشِّى الجهل بين أهلها وتصديقهم الأخبار من جانب واحد وبعدها عن هـذا الخِضَمِّ المصْطَلم بشتى المذاهب على جعلها مهـــداً صالحاً لدعوتنا وسرعة انتشارها .

وذلك أن أبا عبد الله المحتسب لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد واشتهر خبره . وعلم تحويعه على عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم خَشِياَ على أنفسهما فهربا من الشرق محل الخلافة واجتازا مصر ودخلا

الإسكندرية ثم خرجا منها فى زى التجار ونما ذلك إلى عيسى النوشرى الوالى فى عهد المعتضد فسرح فى طلبهما الخيالة، حتى إذا وثقا من إتقان تنكرهما أفلتا إلى المغرب، فأوعز الخليفة المعتضد إلى الأغالبة فى إفريقية وبنى مدرار فى سجلماسة بالتضييق عليهما فعثر اليسع صاحب سجلماسة على خَفِىٍّ مكانهما فاعتقلهما فكان هذا الاعتقال مما ساعد أبا عبد الله هذا وهو أكبر الدعاة للشيعة على نشر دعوته فى عام ٢٨٢ هـ — ٨٩٣ م لهما وهما من نسل جعفر الصادق بن على زين العابدين بن الحسين الإمام وقد تبعه خلق كثير أقنعهم بقرب ظهور المهدى المنتظر من بيت النبوة وقد بلغ جيشه بعد بضع سنوات مائتى ألف مقاتل وقضى على الدولة (الأغلبية) فى إفريقية وبنى مدرار فى سجلماسة ثم أعلن عبيد الله المهدى أنه المهدى المنتظر وأنه وحده خليفة النبي وذلك عام ٢٩٩ هـ — ٩١٠ م وقد شكك بعض دعاة العباسيين وعلمائهم فى بغداد فى صحة نسب العبيديين أمثال القاضى أبو بكر الباقلانى والشريف الرضى وغيرهما — ونحن كنا فى مجال من الظنون بنا وتحت رقبة من الطغاة فتوصل بنو العباس عند ظهورنا — بعد أن كان أئمتنا يسرون بدعوتهم حتى لقد سمى محمد بن إسماعيل جد عبيد الله المهدى بالمكتوم لما اتفق شيعته على إخفائه حذراً من المتغلبين عليه — إلى الطعن فى نسب أئمتنا وازدلف شيعتهم إليهم بهذا الرأى ليدفعوا عن أنفسهم معرة العجز عن مقاومتنا للنوبة التى أصابت دولتهم من التفكك والضعف، على أنه لو كان نسب أئمتنا غير صحيح ما كاتب المعتضد أمير سجلماسة فى عبيد الله يوم كان عبيد الله ضعيفاً لا يجد له نصيراً

نشأة الدولة الفاطمية

إلا من حقه وباطل خصومه . وكان عبيد الله حاكماً نشطاً دان له شمال أفريقية من حدود مصر الغربية إلى شواطىء المحيط الأطلسى وقضى على ما كان يرمى إليه الشيعة أنفسهم من إهمال الدين والانغماس فى اللهو ونشر المذاهب الفوضوية .

وقد خلفه (ولده القائم بأمر الله) من عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م إلى ٣٣٥ هـ — ٩٤٦ م وأرسل جيشاً استولى على الإسكندرية عام ٣٢٤ هـ ٩٣٥ م فطرده محمد الإخشيد وهزمه شر هزيمة بعد أن جاءه المدد من بغداد ، ثم شغل القائم بأمر الله بإخضاع الثورة فى المغرب ، وقد كان الأدارسة وهم حزب من الشيعة يدعون لأبناء إدريس كما بينا يحكمون مراكش (المغرب الأقصى) فكانوا يؤلبون البربر بين حين وآخر مما شغل الخليفة الثالث (المنصور بالله) من عام ٣٣٥ هـ ٩٤٦ م إلى ٣٤٢ هـ ٩٥٣ م ثم أعقبه مولانا الإمام المعز لدين الله من عام ٣٤٢ هـ ٩٥٣ م إلى عام ٣٦٤ هـ ٩٧٥ م فافتتح عصراً جديداً وكان سياسياً محنكا لا يترك فرصة تمر به دون استغلالها لمصلحته ، وكان إلى جانب ذلك مثقفاً مستنيراً تأخذ بلاغته بالألباب واسع الكرم محباً للعدل .

وقد عيننى — حين نبغت من بين مواليه بدافع الدماء الرفيعة التى تجرى فى عروقى والتى تحفزنى إلى التسامى وطلب الأحسن من المقام — وزيراً وقائداً لجيشه ، فنهضت بفتح مراكش إلى ساحل المحيط ، وكان فتح مصر من أكبر أمانى مولاى المعز لعظم ثروتها ووفرة تجارتها ونشاط أهلها ولما علم ضعف حكومة مصر بعد موت (كافور) وتمرد

الجند وانخفاض النيل فى عام ٣٥٧ هـ — ٩٦٧ م وما تلاه من قحط وبلاء حتى كتب أهل مصر له أن يُنْجِدهم ، كما أن رجلا من يهود مصر قد لعب دوراً هاماً فى ذلك هو يعقوب بن كلّس وكان بينه وبين الوالى الإخشيدى عداء لأنه يشتغل بالتجارة وبينه وبين الأمير معاملة أفضت إلى هذا العداء فذهب إلى المغرب وأخذ يغرى المعز بفتح مصر وكان دليلاً عظيماً لجيشى حين دخلناها من الغرب فإن الرجل بحكم سياحاته وأسفاره كان خبيراً بمسالك مصر وطرقها من الشرق والغرب ، فأعاننا فى حملتنا إعانة صادقة نافعة . أما أنا فإنى قد أخذت أعدّ العدة للحملة بعد أن صدر أمر الإمام المعز ثم زحفت بالجيوش بعد أن مهد الخليفة بأن شرع يحفر الآبار على طول الطريق من (القيروان) و (المهدية) عاصمة ملكه إلى الإسكندرية وأخذ يخزن المؤن والذخائر ثم وجهنى إلى مصر فى عام ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م على رأس حملة، ولما وصلتُ إلى الإسكندرية طلب الأهلون الأمان فأمّنتهم واتجهت إلى الفسطاط فاستوليت عليها بعد مقاومة يسيرة ، ولم أبت ليلة حتى وضعت أساس القاهرة حيث شيدت قصرين عظيمين أحدهما قصر الخليفة الخاص والآخر كان بمثابة مُتَنَزَّهٍ يُطِلُّ على حديقة (كافور) وبينهما ميدان لاستعراض الجنود يعرف باسم (ما بين القصرين) وكان الخليفة يمر من أحدهما إلى الآخر بطريق تحت الأرض حتى لا تكثر رؤية الناس له فتقل هيبته .

بـ. لأزهر

وبدأت فى بناء (الجامع الأزهر) فى يوم السبت ٢٣ جمادى الأولى من عام ٣٥٩ هـ — ٩٧٠ م وتم فى ٩ رمضان ٣٦١ هـ — ٩٧٢ م ليصلى فيه

الخليفة الجمعة ثم وجهت اهتمامى إلى توطيد الأمن وإعادة السكينة ولضمان العدالة جعلت حكم كل جهة بيدحا كم مصرى وآخر مغربى وما لبثت النوبة أن قبلت أن تدفع للخليفة الخراج المعتاد ، وخطب له (الحمدانيون) فى شمال الشام وأخضعت جنوب الشام وطردت منه حسين بن الإخشيد ثم ألححت على المعز أن يبادر بالحضور إلى عاصمته الجديدة فحضر إليها بأهله وولده ، ودخلها فى سنة ٣٦١ هـ — مايو ٩٧٣ م فاستقبله أهل البلاد بالترحاب وأعجبوا بكرمه وبلاغته ، وصارت لمصر بحضور المعز السيادة على بلاد النوبة وجنوب الشام والحجاز وبلاد المغرب وانتفع المعز بثغور مصر لزيادة أسطوله فأقام حوضاً فى المقس (ثغر القاهرة قبل بولاق) وبنى به ستين سفينة وهو أكبر أسطول شهدته مصر منذ الفتح الإسلامى واستبقى الجيش وعززه وعنى بالنيل والرى والزراعة والقضاء .

ثورة القرامطة

ثم غزا القرامطة مصر فى آخر حكمه وتقدموا إلى (عين شمس) فى عام ٣٦٤ هـ ٩٧٥ وانتشروا فى أنحاء القطر يعيثون فى الأرض فساداً ثم حاصروا القاهرة وكادوا يستولون عليها لولا أن بادر الخليفة بتقديم مال وفير من الذهب الزائف إلى شيخ بنى طَيِّ أكبر حليف للقرامطة فتخاذل عنهم فى المعركة التالية واستطاع (المعز) مطاردة القرامطة إلى سوريا[1] .

ومات المعز عام ٣٦٥ هـ ٩٧٧ م وهو فى السادسة والأربعين من عمره وقد ترك لمصر دولة مترامية الأطراف لم يستطع من خلفوه

---

(١) القرامطة نسبة إلى رجل يدعى قرمط قام بالبحرين ودعا قوماً من أهل البادية الجفاة إلى =

الاحتفاظ بها كاملة بل لقد استقلت عنهم إفريقية . فإنه حين عين المعز على إفريقية يوسف بن بلكين بن زيرى الصنهاجى (من قبائل البربر) استمرت فى أيدى الصنهاجيين إلى سنة ٥٤٢ هـ وفيها استولى ملك صقلية على أغلب ثغور تونس كما حدثتنا أرواح الشهداء من جيوش الموحدين من أتباع الأمير يوسف بن عبد المؤمن صاحب مراكش الذى طردهم واستولى على تونس سنة ٥٥٥ هـ وكان ملك صقلية هذا يدعى روجير الثانى النورماندى وكانت بلاد الجزائر على الرغم من ولاء الصنهاجيين للدولة الفاطمية — والجزائر كلها من قبائل زناته وصنهاجة — قد استقلت عن مصر وأرادت أن تتبع الخليفة العباسى فى بغداد فأرسل إليها الخليفة المعز فى حياته أفواجاً كثيرة وقبائل كثيفة من صعيد مصر من بنى هلال وبنى عدى وبنى محمد وكثيراً من أهل أسيوط وقنا فأقاموا فى تلك البلاد وهم الذين كونوا العناصر العربية فى وسط هذا المحيط البربرى ، وكانت بين الزناتية البربر والهلالية المصريين وقائع وحروب لا تزال حديث أبناء مصر والشام وجميع البلاد التى كانت خاضعة

= دين جديد ذهب فيه إلى أن عيسى المسيح إنما هو احمد بن محمد بن الحنفية ، وكانت الصلاة عندهم أربع ركعات : ركعتين قبل طلوع الشمس ، وركعتين قبل غروبها . وكانت كلمة توحيدهم أشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم رسول الله وأن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، والصلاة إلى بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين حيث لا عمل ، والصوم يومان فى السنة ، يوم المهرجان ويوم النيروز ، والخمر حلال وأكل كل ذى ناب ومخاب حلال ، وقد استفحل أمرهم حتى استولوا على مكة والبصرة والكوفة وهاجموا بغداد ثم ضعفت شوكتهم وانحصرت سلطتهم فى بلاد هجر حتى لاشى أمرهم ولم تبق إلا « الأحاديث والذكر » .

ضعف الفاطميين

للفاطميين ، حتى افتن كثير من الناس فنظموا هذه الوقائع فى لغة العامة وأخذوا يرددونها على أنغام (الربابة)[1] ، وأخيراً بعد أن ضعفت الدولة بموت المعز ضعف نفوذها فى سوريا على بنى حمدان الذين أنشئت دولتهم فى الموصل سنة ٢٩٣ وعظم شأنها وامتد سلطانها على الجزيرة والشام واستبد ملوكها بالدولة العباسية حتى دانوا للفاطميين إلى حين وأشهر ملوكهم سيف الدولة الذى حكم من سنة ٣٣٠ إلى سنة ٣٥٦ ومات ولكن مناقبه بقيت منشورة فى شعر المتنبي خالدة خلود الأدب العربى كما اشتهر من بنى حمدان أبو فراس الشاعر المعروف .

فانظروا كيف ضعف نفوذنا فى هذه البقاع الطيبة التى أنجبت للإنسانية أعلامها المخلدين . أنظروا كيف آل أمر الدولة المصرية إلى ألاّ يبقى لها نفوذ إلا على الحجاز بعد أن كان ظلها الوارف أوشك أن يعم المشرقين ، رغم أننا اتخذنا جنوداً من العرب والبربر والترك والسودان . ثم خَلَفَ المعزَّ ولدُهُ نِزَار العزيز بالله من ٣٦٥ هـ ٩٧٧ م إلى ٣٨٦ هـ ٩٩٨ م وكان جريئاً باسلا يميل إلى التسامح حتى مع أعدائه واستوزر فى أول حكمه يعقوب بن كلس اليهودى بعد أن اعتنق الإسلام وتبحر فى مذهب الشيعة والذى كان يلقى دروساً بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع أمام الخليفة فى الجامع الأزهر وهو أول مدرس فيه وبقى فى الوزارة نحو خمسة عشر عاماً واستوزر أيضاً (عيسى بن نسطوريوس) وبفضل هذين الوزيرين

يعقوب ابن كلس

(١) وهذه لا تزال آثارها إلى اليوم فى الأحياء الوطنية وترتل فى قصص كثيرة على الربابة عن الزناتية (البربر) وبطلهم الزناتى خليفة والهلالية (من مصر) وبطلهم أبوزيد الهلالى سلامة.

امتلأت الخزانة واستتب الأمن ولكنهما كانا يحبان المال ويؤثران مظاهر العظمة والأبهة، وكانا كالخليفة فى حب التحف النادرة والملابس الفاخرة والأحجار الكريمة من وسائل الترف والثروة التى جعلت مصر فى عهد الفاطميين مضرب الأمثال، ولم أكن أستطيع أن أعاصر الخلفاء الذين جاؤا من بعد مولاى العزيز فإن الذى بلغنى قد أسخطنى فماذا يكون لو رأيت رأى العين! ولكن ذلك سببه أولئك المرتزقة من أحبار السوء الذين يتأكلون بالدين وأقرب شبهاً بهم الأنعام السائمة، ألم يكن حمزة بن على — وها هو بينكم أيها الدعاة والذى رفعه الحاكم إلى مرتبة داعى الدعاة — جديراً بأن يوجه بلاغته ومقدرته الأدبية إلى نصح الخليفة وكبح جماحه؟ ولكن قاتل الله الرغيف، وقاتل الله القلب المريض والضمير النائم، قم ياحمزة من مجلس الدعاة ليلقى عليك أبو الهول أسئلته، فإننا لا نرضى أن تكون بيننا روح شريرة.

ونظرت إلى القوم فرأيت رجلا يشبه الترك فى بياض البشرة أبيض اللحية يلبس العمامة الخضراء الكبيرة ويرتدى ثياباً بسيطة وفى يده مغزل كالذى يكون فى أيدى عامة أهل الريف وعرفت من سمته أنه غير مصرى وإليك ما دار فى المجلس.

أبو الهول — ما اسمك؟

— حمزة بن على.

أبو الهول — ما صناعتك؟

— قزاز.

أبو الهول — من أى البلاد أنت ؟ .

— من فارس .

أبو الهول — يا حمزة لقد وجه هذا المجلس إليك تهمة خطرة لو صحت كنت تستحق عليها الطرد والابعاد عن عالم الأبرار ، تلك هى أنك تركت مهنتك (القزازة) واشتغلت بالأدب فبرعت فيه وصار لك فيه قدم ثابتة ولكنك استعملت أدبك هذا فى دعوة باطلة هى أن الحاكم هو الله وأنك رسول من عند الله وصرت تفترى على الناس الكذب حتى ضل بك فريق منهم مما أطمع الحاكم وأغراه بأن يسفك الدماء ويشذ فى الأحكام ويغيِّر فى الأوضاع البدهية .

حمزة بن على — يارمز الإنسانية فى حياتها المادية والمعنوية ، لقد تولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد أبيه العزيز الذى نشر العمران وشيد العمائر وتقدمت فى عهده فنون الهندسة فشيد القناطر وحفر الترع والذى لم يعقب من النسل ذكراً سوى مولاى الحاكم وهو من أم مسيحية وخاله بطريق بيت المقدس الذى كان سفير المعز والعزيز لدى أمبراطور الروم فى بيزنطة وأخته (سيدة الملك) وكان توليه عام ٣٨٦ هـ ٩٩٨ م حيث كان فى الحادية عشرة من عمره وكان أبوه[١] قد عين (بيرجوان[٢]) أستاذاً له (أى وصيا عليه) وأسندت قيادة الجيش لابن عمار المغربى ولقب أمين الدولة وأصبح فى الواقع نائباً عن الخليفة ففضل أبناء

نفوذ الحاكم

(١) مات العزيز وهو يستحم فى حمام بلبيس .

(٢) لا يزال شارع بير جوان بالخرنفش يسمى باسمه .

جنسه وأعانهم على الجند الأتراك الذين أتى بهم العزيز فتعددت حوادث الشجار بين كل قبيل وقبيل فى الطرقات ، وشاع نهب المتاجر وانتهى الأمر بفوز الترك وقتل القائد بن عمار. وقد أهمل بيرجوان أمور الحكم وترك بذلك الفرصة للحاكم فبدأ يباشر الإدارة بنفسه وظهر ميله لسفك الدماء وشذوذه فقتل بيرجوان وأصدر جملة أوامر خارقة للعادة منها : إغلاق الحوانيت نهاراً ، وفتحها هى والبيوت وإضاءتها ليلا وتحريم صنع الأحذية للنساء حتى لا يخرجن من المنازل وقطع الكروم ومنع الناس من أكل الزبيب والعسل والملوخية ، فمتى كنت أنا أو أحد من الدعاة مسئولا عن هذه الأعمال ؟ ثم إنه أخذته بعد عشرة أعوام من حكمه نوبة من التعصب الدينى الأعمى فراح يضيق على المسيحيين واليهود فى حين أنه كان يختار منهم أعاظم رجال دولته ، وقد تمادى فى سفك الدماء حتى أن وزراءه وقواده كانوا لا يثقون باستقرار رؤوسهم على أجسادهم مهما جلت خدماتهم له .

ومن عجب أن يكون الحاكم هذا — على ما رأيت من شذوذه — عالماً واسع الاطلاع أديباً رائع الأدب كما كان حزَّاء ينظر فى النجوم ، زاهداً فى الدنيا وكأن حياته كانت رد الفعل من حياة أبيه المترفة . فقد كان يركب الحمار من غير لجام ولا بردعة ، ويلبس الثياب المرقعة ، وقد خيل إليه أنه جدير بالعبادة ، ولم يكن لنا إلا أن أعنَّاه على سبيله ولكنا لم نسن له ذلك ، فلقد جعلنى داعى الدعاة ولقبنى بلقب رسول الله ولا أستطيع رد قوله فإنى إن فعلت أكون عرضة للفتك بى ،

ومن هنا استثارتنى غريزة الحرص على العيش وطلب المجد أن أسخر عقلى ووجدانى لخدمة الحاكم أو بالأحرى لخدمة حياتى والإبقاء على نفسى ، فأخذت أدعو إلى ما يأمرنى به وأنظم اجتماعات الدعاة وأطلع على تقاريرهم وأوجه إليهم أوامر الحاكم حتى دبرت أخته (سيدة الملك)

مؤامرة

مؤامرة قتله مع شاب من المغرب من أسرة عريقة قتل الحاكم وهو ذاهب إلى مرصد حلوان حيث كان ينظر فى النجوم وألقيت جثة حماره فى (بركة) بحلوان ثم كانت سيدة الملك قد دبرت مؤامرة لإعدام هذا الشاب القاتل ومن معه فلما جاءوها بجثته ودفنوها فى بيتها لم تمهلهم حتى يخرجوا من بيتها بل أطبق عليهم الترك والسودان فقتلوهم وذهب سر مقتل الحاكم مع القاتلين ، ولم يعرف أحد سر قتله سوى سيدة الملك وحدها وأحاط اختفاء الحاكم هذا الغموض ، وبخاصّة وقد كنت ممن ذهبوا إلى حلوان للبحث عن جثته فلم نجد سوى قميص ملوث بالدم ولم نعثر له على أثر فلما أعيانا البحث طلع بعض أتباعه بفكرة شيطانية غريبة ساعد خيال الدَّهْمَاء الخصب على قبولها واستساغتها، ذلك أنهم قالوا إن الحاكم رفع إلى السماء كما رفع عيسى وأنه سينزل فى آخر الزمن وقد أكون عملت على بث هذه الفكرة جادا ولكنها لم تستمر إلا فى محيط ضيق ، فإنه بعد أن تولى الخلافة الظاهر أبو الحسن على بن الحاكم سنة ٤٠١ هـ سنة ١٠١٣ م ثار علىّ وعلى أتباعى الجنود والأتراك وسيدة الملك وكبار الدولة وأفراد الشعب المصرى وكان خَصمى فى المذهب وعدو الحاكم

نسبة الدروز

بأمر الله الأول رجل يدعى درزى بن محمد فقد صنف المصنفات وانبرى

لنا يناظرنا هو وأتباعه فى كل مكان ، فأمرت الدعاة بأن يأمروا أتباعنا بالرحيل إلى الشام وتواعدنا على التلاقى والتجمع فى مكان معين (حيث يقع جبل الدروز) ، فكان الناس يلقوننا فى الطريق يسألون عنا ومن نحن ؟ فكنا نجيبهم بأننا درزيون من أتباع درزى الذى اشتهر أمره بنا حتى أصبح أتباعى مسمّون باسم عدوهم ولعلها هى الجماعة الوحيدة فى هذه الدنيا — على ما أعلم — التى أطلق عليها اسم عدوها ونسبت إليه ، وتلاشى اسمى ولم يبق له وجود فى الأذهان ولا فى الأعيان . وكان من أهم آثار الحاكم إتمام جامعه الذى بدأه العزيز بالقرب من باب النصر وبناء (دار العلم) أو (دار الحكمة) لإذاعة مذهبه ونشر العلوم عامة وكانت دار العلم قصراً فخماً به مكتبة كبيرة مباحة للخاص والعام يقصد إليها العلماء من الأقطار النائية . ولما قتل وكان ابنه الظاهر حدثاً لا يتجاوز السادسة عشرة من عمره قامت عمته (سيدة الملك) بأعباء الحكم . فلما وافتها المنية التف حول الخليفة (الظاهر) ثلاثة شيوخ أقصوا عنه كل ناصح أمين وأهملوا الرعية ، وانخفض[1] النيل فعم الكرب واشتد الغلاء واشتبك الجند والأهالى فى الطرقات .

آثار الحاكم

وكانت الخلافة قد فقدت كل ممتلكاتها تقريباً فحاول الخليفة المستنصر بن الحاكم أن يستعيد سلطانه على المغرب فأرسل بعض قبائل من عرب (بنى هلال) ليتصلوا بأسلافهم المقيمين فى المغرب وليحيوا

(١) ومما تجدر ملاحظته أن يقترن انخفاض فى تلك العهود باضطرابات وقلاقل ترجع لحرمان الأراضى من مياهه مما يفضى إلى قلة المحاصيل ، ولعل هذا يفسر لنا سر تأليه النيل عند قدماء المصريين .

ولاء هذه القبائل للفاطميين ولكن هؤلاء وقد جرفهم تيار الحياة السائد بقي ولاؤهم قصير الأجل وقامت في بلاد المغرب دول صنهاجة والموحدين والأدارسة والملثمين والمرابطين وقد عظم نفوذ الفاطميين في اليمن والحجاز وقد ملكوهما دهراً طويلا فالحجاز قد انقطعت فيه الخطبة للخليفة العباسي من سنة ٣٩٣ هـ وخطب في مكة والمدينة للخليفة الفاطمي ولم يتمكن أحد من الوزراء الذين تتابعوا في أول حكم المستنصر من الاحتفاظ بالحكم طويلا حتى استوزر رجلا عصامياً يدعى (اليازوري) من عام ٤٣٠ هـ — ١٠٤١ م إلى عام ٤٣٨ هـ — ١٠٤٩ م وكان اليازوري محباً للفنون مشجعاً للعلماء وقد أراد إصلاح حال الفلاح وزيادة الإيراد فحرم على المرابين شراء المحصولات من الفلاحين قبل الحصاد بثمن بخس، وخزن القمح اتقاء القحط ولكنه رغم ذلك كله لم يفلح لسوء الحالة العامة. ومات مسموماً في عام ٤٣٨ هـ — ١٠٤٩ م. وقد تعاقب بعده كثير من الوزراء لم يستقروا في الحكم إلا قليلا لضعف الخليفة وتآمر الذين حوله من حاشية وجيش حتى عمت الفوضى واشتكت الرعية كثرة التغيير والتبديل في موظفي الحكومة المسئولين وزاد الأمر سوءاً اشتداد النزاع بين الجنود السودانية والجنود الأتراك، ثم تغلب الترك وطردوا خصومهم إلى الوجه القبلي فأصبح الصعيد كله في قبضة السودانيين، واستولى الترك وحلفاؤهم من البربر على الوجه البحري وخربوه. وتوالى القحط على مصر سبع سنين دأبا حتى أكل الناس الخيل والحمير والكلاب والقطط ولما فنيت ثروة

المستنصر على كثرتها نهب الجنود الأتراك قصره ونفائسه وبددوا المكتبة الكبرى وكان بها ما يربو على مائة ألف كتاب من أنفس الكتب فى أعلى ماعرفه العرب من الفنون والعلوم، من هذا ترى أيها المجلس أنى لم أشغل فى هذه الحقبة التاريخية حيزاً يذكر إلى جانب هذا الفساد فى مَدِّهِ وإذا امتد الفساد استحال على مثلى أن يَجْزره، واستغل الأمر الواقع مواهبي ليرفعني فوق مستوى القزّاز وليجعل مني حمزة ابن على داعى الدعاة، أفما يحق لى أن أسجد لهذا الأمر الواقع وأؤلهه؟.

أبو الهول — إنه كان مما شاهدت على وجه هذه الدنيا أن رجلا يدعى مكيافللى وضع كتاباً يبين وسائل الحكام المستبدين فى شعوبهم كما يبين للشعوب طرائق الاستبداد التى يتخذها هؤلاء الحكام الذين جعلوا شعارهم « الغاية تبرر الوسيلة » وعا أن عملك هذا له وجوه اعتبارية فى نظر العقل تبررها تبريراً مريضاً محموماً ، فإنا قد وضعناك فى أعراف بين دجاجلة الإنسانية والدخلاء عليها لأنك أردت أن تسوغ لنفسك الشعبذة بمثلها » .

ثم استيقظت حينذاك وقد وعيت ما قد قيل فدونته من فورى وأضفت إليه ما كنت أعلمه من تاريخ هذا العهد .

ذلك أنه لما ضاق الخليفة ذرعاً بمساوئ الجند لا سيما الترك منهم استقدم (بدر الجمالى) حاكم عكا وكان مملوكا أرمنيا تدرج فى الوظائف الكبرى حتى عين حاكما لجهات عدة فحضر بجنده وأمرهم باغتيال زعماء الترك فى ليلة واحدة فاستراح الناس من شرهم فى عام ٤٦٥ هـ ١٠٧٦ م .

ونزل الجمالى بشارع بيرجوان وأطلق الخليفة يده في كل الأمور فأخذ يعيد لقصر الخليفة كل ما عثر عليه من نفائسه السالفة . ثم فتح البلاد من جديد وخلص الدلتا من يد البربر والصعيد من يد السودانية . فاطمأن الفلاحون تحت حكمه العادل وعادوا يزرعون أرضهم فكانت العشرون سنة الأخيرة من حكم المستنصر عهد رخاء وبركة .

وأقام بدر الجمالى سوراً حول القاهرة وأزال الأبواب القديمة وبنى باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة[1] مكان البابين اللذين كان قد أنشأهما جوهر وكان موضعهما بسوق الحجارين الذى هو شارع المنجدين فى مقابلة درب القضاة وذلك فى سنة ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢ م هذه الأبواب لا تزال موجودة، وكان باب زويلة مكاناً لجلوس الأمير والقاضى فى أكثر العصور فدعى باب المتولى وهى أبواب على نمط الحصون البيزنطيـــة لمناعتها ، ومات فى ربيع عام ٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م وهو فى الثمانين من عمره وخلفه ولده الأفضل شاهنشاه ومات المستنصر فى نفس السنة وبموتهما لم يعد للخلفاء الفاطميين حول ولا قوة ، ومما هو جدير بالذكر أن المستنصر مكث خليفة مدة ستين عاماً لم يظفر بها خليفة قبله ومن بعده أهملت طريقة الوراثة فى الخلافة وصار كل وزير يختار من بين سلالة الفاطميين أصغرهم سناً أو أضعفهم إرادة ليملأ به عرش الخلفاء كلما شغر ليخلو له الجو فيفعل ما يشاء .

سور القاهرة

حكم الوزراء

وقد سار الأفضل شاهنشاه على نهج أبيه بالعدل والحزم واستمرت

---

(١) زويلة كجهينة كما فى القاموس وكسفينة كما فى معجم ياقوت والخطط للمقريزى .

فى زمنه الطمأنينة والرخاء وكانت سوريا تابعة لمصر منذ عهد ابن طولون
لم تشذ عنها إلا فى فترات يسيرة فلما أخذ الصليبيون بيت المقدس فى عام
٤٩٢ هـ ١٠٩٩ وتوغلوا فى جنوب فلسطين حاول (الأفضل) أن يصد
غاراتهم فهاجمهم مراراً دون جدوى حتى تشجع (بودوين) ملك بيت
المقدس ودخل الحدود المصرية عام ٥١٠ هـ ١١١٧ وأحرق (الفرما) وتقدم
إلى (تنيس) ولم يثنه عن فتح مصر كلها إلا مرضه . ومن ذلك الوقت
التزمت مصر خطة الدفاع عن نفسها وقتل (الأفضل) بإيعاز من
الخليفة عام ٥١٥ هـ ١١٢١ م . وبقيت مصر بعده فى فوضى لا تكاد
معها سلطة الحكومة تمتد إلى خارج قصر الخليفة حتى تولى الوزارة
(طلائع بن رُزِّيك) بلقب (الملك الصالح) عام ٥٤٩ هـ ١١٥٤ م فى
خلافة الفائز بالله فضرب بيد من حديد على زعماء الفوضى وعاقب
المجرمين وكانت مصر فى مسيس الحاجة إلى رجل قوى حازم مثله
بعد أن استولى فى العام السالف بودوين على عسقلان آخر حصن
لمصر فى فلسطين ولم يبق أمام هذا الملك ما يمنعه من غزو مصر الا خوفه
من انقضاض السلطان (نور الدين محمود) صاحب حلب على مملكته
أثناء تغيبه بمصر وخصوصاً عندما أصبحت دمشق فى حوزة نور الدين
سنة ١١٥٤ م بعد أن كان أميرها حليف الصليبيين ، وقد تطلع منذ ذلك
الحين كل من سلطان حلب وملك بيت المقدس إلى منع كل منهما الآخر
من امتلاك مصر . وبذل (طلائع) كل ما فى وسعه لمحالفة نور الدين لطرد
الصليبيين من سوريا ولكن نور الدين لم يبت فى الأمر فصرف (طلائع)

سياسة
طلائع
بن رزيك

همته إلى توطيد الأمن فى مصر نفسها ، وقد عرف طلائع بالكرم واستماع شكاوى الرعية على اختلاف طبقاتها ومساعدة ذوى الفطنة والعلم وقد بنى مسجده المعروف باسمه أمام باب زويلة سنة ٥٥٣ هـ سنة ١١٥٨ م وتمت عمارته سنة ٥٥٥ هـ — سنة ١١٦٠ م ولهذا الوزير أثر آخر من آثاره هو منبر الجامع العمرى بقوص الذى عمل بأمره سنة ٥٥٠ هـ سنة ١١٥٥ م حينما كان حاكما لإقليم المنيا بعد قتل الخليفة الظافر بأمر الله بباب الزهومة عقب فتنة وقعت فى القاهرة ، وينسب له من الآثار أيضاً جامع الأولياء المعروف بجامع القرافة لتجديده إياه ، ولما قتل طلائع بدسائس القصر خلفه ابنه (العادل رزيك) فى خلافتى عيسى ابن الظاهر والعاضد عبد الله بن يوسف الحافظ ولم يأت عام ٥٥٨ هـ سنة ١١٦٣ م حتى تغلب عليه (شاور) وقتله ، ولكن شاور هذا لم يتم سنة حتى نازعه فيها (ضرغام) حاجب الخليفة العاضد ، آخر الخلفاء الفاطميين .

نهاية الخلفاء الفاطميين



وفى هذا الوقت الذى جالت بخاطرى فيه تلك الذكريات التاريخية استهوانى — قبل الالتجاء إلى ملهمى أبى الهول — أن أعيد حوادث التاريخ التى جرت فى أوربا إبان هـذا العهد خصوصاً وأنه قد نشأت فى أوربا وقتئذ (المملكة البابوية) و (دول الحق الربانى) أى الملكية المطلقة المستمَدُّ حقها من الله . ودولة شرلمان وكيف اقتسمت بين بنيه وظهور نظام الإقطاع ونشأة الفروسية منه وظهور الرهبنة والأديرة .

وكيف نشأت الممالك الحديثة ، والنزاع الذى قام بينها وبين البابوية المعصومة ، إلى غير ذلك من أحداث التاريخ الهامة التى وقعت فى القارة الأوربية .

نشأة المملكة البابوية

ولا ريب — فيما يظهر لنا مما سبق من الأحاديث الخاصة بالدولة الرومانية ، وإغارة القبائل المتبربرة عليها — أن العنصر الآرى الذى ساد العالم منذ ألف سنة قدتقلص ظله فى القرنين السادس والسابع الميلاديين وخرجت من تحت سيطرته أفريقيا وإسبانيا وآسيا ما عدا ممتلكات بيزنطة بآسـيا الصغرى وعاد العنصر السامي إلى نشاطه ومجده وخاصة فى عهد الدول الإسلامية .

وانكمش العالم الإغريقي فلم يعد يشمل غير القسطنطينية وماجاورها ولم يبق من العالم الروماني غير الذكرى في اللغة اللاتينية عند قساوسة المسيحية الغربية . ولقد كانت الكنيسة في روما تابعة للدولة الرومانية فلما ضعفت الدولة واعتدت عليها الشعوب المتبربرة وأخذ زعماء هذه الشعوب يلتمسون تتويجهم من أساقفة الرومان أخذت الكنيسة تتخلص تدريجيا من تدخل الحكومة في شؤونها حتى إن أحد أساقفة روما قد جاهر في القرن الخامس بأن العالم تحكمه قوتان . قوة الكنيسة وقوة الملك والأولى تفوق الثانية، لأن مسؤولية الكنيسة أمام الله عن أعمال الجميع حتى الملوك أنفسهم . واستصدر ليون أسقف روما من الإمبراطور ڤالنتنيان الثالث (Valentinian III) إمبراطور الغرب منشوراً في عام ٤٤٥ م يعلن فيه أن أسقف روما متفوق على جميع أساقفة الغرب، أضف إلى هذا أن كنيسة روما أسسها الرسول بطرس صاحب المنزلة الممتازة عند السيد المسيح وقد نال من العذاب ألواناً على يد الإمبراطور نيرون عند ما عزا إلى المسيحيين حرق روما ، وهي مفخرة الكنائس ولها من المَيْزَات ما لا يمكن أن تفخر به كنيسة أخرى في الغرب . ولهذا اعتبر أسقفها في المرتبة الأولى بين الأساقفة ، ويعتبر غريغوري الأكبر Gregoire أول من رفع اسقفيه روما إلى مقام البابوية ، وكان له الفضل في إرسال المبشرين إلى الوثنيين ، وفي إعادة المسيحية إلى انجلترا بعد أن كانت قدمحيت بإغارة السكسون الوثنيين عليها، وفي إدارة ميراث الرسول بطرس إدارة حكيمة ، وفي ترتيب الطقوس الدينية والصلوات

والموسيقي، وكان لشخصه فوق هذا وذاك احترام خاص، وقد أدى ذلك كله لرفعه إلى مرتبة القديسين بعد موته، وتلقيبه بلقب «بابا» وكان هذا اللقب معروفاً من قبل عند الشرقيين، حيث كانوا يطلقون كلمة «أبونا» على القس والراهب وعلى رجال الدين المسيحيين.

ولقد عرفنا أن جوستنيان كان قد انتزع إيطاليا من أيدي ملوك القوط الشرقيين في عام ٥٥٥م وجعلها ولاية تابعة للقسطنطينية، وترتب على هذا أن فقدت روما مركزها السياسى، وهبط عدد سكانها من مليون إلى خمسين ألف نسمة، ولكنها ظلت مع ذلك عاصمة للكثلكة ومركزاً للبابوية.

فلما ظهر الإسلام ووضع تحت حمايته أهم مراكز المسيحية فى الشرق وبخاصة الكنائس التى أسسها الرسل فى بيت المقدس والإسكندرية وإنطاكيا تسربت إليها فكرة إخراج الصور والتماثيل من الكنائس والامتناع عن عبادة العذراء وغير ذلك، وأيد الإمبراطور ليون الثالث هذه الفكرة فأصدر البابا فى روما قرار الحرمان على هذا الإمبراطور بناء على ما أعلنه مجلس روما فى عام ١١٥ هـ ٧٣٢ م من أن تحطيم هذه الصور زيغ وإلحاد[1]. وبهذا بدأ الانفصال بين كنيستى القسطنطينية وروما واعتمدت كنيسة روما على دولة الفرنجة.

ولما هزم عبد الرحمن الغافقى عامل الدولة الأموية فى الأندلس عام ٧٣٢ م ظهر شارل كأنه حامى المسيحية، فلما خلفه ابنه پپين (Pepin)

---

(١) كان ذلك فى عنفوان الدولة الأموية والعالم الإسلامى يعج بالعباقرة والدعاة والمصلحين وكان على التحديد فى خلافة هشام بن عبد الملك بدمشق مثوى رأس يوحنا المعمدان.

فى رياسة البلاط الفرنسى أخذ على عاتقه حماية المسيحيين القائمين بالتبشير فى البلاد الجرمانية ، وفى هـذه الأثناء أغار اللومبارد على شمال إيطاليا ولم يكن فى استطاعة البابا فى روما أن يستعين بالإمبراطورية الشرقية لقيام النزاع بينهما وهو الخلاف الدينى السالف ذكره ولهذا التجأ البابا إلى پيين الذى كان يتطلع إلى عرش فرنسا فانتهز هذه الفرصة وأرسل وفداً إلى روما لاستفتاء البابا فيمن يكون أولى بالملك أصاحب اللقب الذى لا قوة له أم صاحب القوة الذى لا لقب له، وقد أفتى البـابا بأن صاحب القوة أولى بالملك . وعنـدئذ جمع پيين الأشراف ورجال الدين فولوه ملكا كما عرفنا ومن هـذا التاريخ أصبح منصب الملك مقدساً ونشأت نظرية الحق الإلهى أو الربانى أى أن الملك يستمد سلطته من الله.

وفى عام ١٣٩ هـ ٧٥٤م هزم پيين اللومبارد وانتزع منهم أكثر ما استولوا عليه من الأقاليم بين رافنا وروما وقدمه هدية منه إلى البابا وحفظ وثيقة هذه الهبة فى ضريح الرسول بطرس بكنيسة روما وأصبح البـابا يحكم تلك الأقاليم كأمـير دنيوى له مملكة وله رعايا وهو ما يسـمونه « ميراث الرسول بطرس » وقد أطلقنا عليه عبارة «المملكة البابوية» .

شرلمان من سنة ٧٦٨ إلى سنة ٨١٤

ولما مات پيين اقتسم أولاده ممتلكات العرش طبقاً للتقاليد المرعية التى تقضى باعتبار هـذه الممتلـكات كأنها تركة شخصية ولـكن لحسن طالع النظام الجديد، نظام الملـكية المطلقة التى تستمد قوتها من الله، والتى يجب أن لا توزع ممتلـكاتها بين الورثة فيمتنع النزاع عليهـا ولا تقف الـكنيسة حائرة بين الورثة لا تدرى من تنصره منهم، تقول لحسن حظ

هذا النظام أن مات أحد الأخوين بعد سنتين من وفاة والده وبقى الابن الآخر وهو شارل ملكا وحده باسم شرلمان، وحكم خمسة وأربعين عاما امتد أثناءها سلطانه على فرنسا وبلجيكا والبلاد الواطئة وألمانيا وسويسرا والنمسا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا ويوغوسلافيا وإيطاليا ووصل نفوذه الى أسبانيا وكانت عاصمته «اكس لاشابل» فطبقت شهرته الآفاق وصادقه هارون الرشيد خليفة بغداد وراسله بالهدايا كما عرفنا كما أذن لبطريق اورشليم أن يبعث إليه بمفاتيح كنيسة القيامة المقامة على قبر المسيح، وكذلك أرسل إليه البابا مفاتيح قبر القديس بطرس.

دولة شرلمان

هذا ولقد كانت حروب شرلمان ضد إيطاليا وأسبانيا والساكس حروبا دينية سياسية لحارب اللومبارد أعداء الكنيسة فى روما وأنشأ مملكة إيطالية ولى ابنه ملكا عليها فى سنة ١٦٦هـ ٧٨١م. ووجه إلى عرب أسبانيا سبع حملات عسكرية فى مدى عشرين عاما وأنشأ فيها منطقة حراما عسكرية Marche d'Espagne جنوبى جبال البرانس تقع فيها مدينة برشلونه الا أنه لم يسعده الحظ فى جميع تلك الحملات فقد اضطر الى الارتداد فى أولى حملاته ضد سَرَقُسْطَة وهاجم (الباشكنس) Les Basques فى مضايق الجبال فى عام ٧٧٨م وفتكوا بمؤخرة جيشه على الرغم من بطولة رولان Rolan أحد قواده ولقد نظمت لهذه الموقعة قصيدة شعرية حماسية معروفة باسم (أنشودة رولان) كانت تتلى وتنشد طوال القرون الوسطى كالالياذه عند الإغريق وقد عُزِىَ إلى العرب فى هذه الأنشودة التى ظهر أنها من وضع الكنيسة الكاثوليكية فظائع لم يعرفها التاريخ

عنهم وللاشادة بيطولة شرلمان والاساءة الى سمعة العرب حتى لا تتسرب حرية آرائهم وتنتشر بين الشعوب الأوربية .

أما حروب شرلمان ضد بلاد الساكس فكانت بمثابة الحلقة الأخيرة في سلسلة الحروب ضد جرمانيا وهى التى ابتدأت من عهد كلوڤيس أى منذ ثلاثة قرون . ولقد ظل أهل هذه المقاطعات وهى وستفالى وهانوفر Westphali et Hanovre وثنيين متعصبين لدينهم وكانوا أكثر الشعوب خطراً على شرلمان الذى أعدم من أسراهم ٤٥٠٠ نفس فى يوم واحد واضطرهم بعد إخضاعهم إلى اعتناق المسيحية وأنشأ مناطق حراماً عسكرية على الحدود — مقتدياً بعاصره الرشيد الذى أنشأ العواصم وأمّر عليها أبناءه — جعلها تحت إدارة حكام أطلق على كل منهم « لقب المركيز » . ومن هذه المناطق برندبورج Marche de Brandbourg وهى أصل مملكة بروسيا .

وقسم شرلمان مملكته الواسعة الأرجاء إلى دوقيات وكنتيات ومن هنا نشأت الألقاب الأوربية المعروفة إلى يومنا هذا .

نظام الطبقات

وقد شدد الرقابة على أمراء الأقاليم فكان يرسل رسله Missi Dominici إلى الجهات ليوافوه بتقاريرهم كما كان يجمع فى شهر مايو عظماء الدولة وقساوستها ليستشيرهم ثم يصدر قراراته فى مجموعات دورية سميت كابيتولير Capitulaires ويرى المطلع على هذه المجموعات أن بذور عهد الاقطاع غرست من ذلك الحين[1] .

---

(١) نجد مثلا من بين هذه الأوامر أن الجنود يجب أن يحضروا عند دعوتهم للقتال جماعات لا فرادى وأن تكون كل جماعة مع أميرها مدنيا كان أو دينيا . كذلك نرى ضمن أوامر عام ٨٠٥ أن اليمين التى يحلفونها على ثلاثة أنواع : يمين العدالة أمام القضاء ويمين الإخلاص للأمير ويمين الإخلاص للملك . وغير هذا مما هو وارد فى نظام الاقطاع كما سيأتى بعد .

وكانت كنيسة روما تعترف بسيادة امبراطور الدولة الشرقية إلى أن قام النزاع بينهما على التماثيل المقدسة فانفصلت كنيسة روما الكاثوليكية عن كنيسة القسطنطينية وارتبطت بملوك الفرنجة لحمايتها فلما قام النزاع بين أشراف روما والبابا وكان الأشراف يريدون إعادة الجمهورية اضطر البابا «ليون الثالث» أن يلجأ إلى شرلمان ويسأله المعونة كما التجأ سلفه إلى سلف شرلمان « پپين » عند إغارة اللومبارد على إيطاليا فدخل شرلمان روما وأعاد البابا إلى عرشه وبينما كان شرلمان راكعاً أمام المذبح فى كنيسة الرسول بطرس فى عيد الميلاد فى عام ٨٠٠ وضع البابا على رأسه تاج الإمبراطورية، ويروى أن شرلمان أظهر دهشة عند ما فوجىء بهذا التتويج .

وعلى أية حال فقد أعيد بهذا التتويج تكوين الدولة الرومانية على يد امبراطور لم يكن رومانيا مثقفاً بل كان من الجنس الجرمانى وكان ملما بالقراءة ولكنه لا يحسن الكتابة . ورغم أنه كان معتبراً فى نظر الرومان من الهمج المتوحشين فقد اضطر امبراطور بيزنطة الشرعى إلى مراسلته معترفاً به وملقباً إياه بأخى العزيز كما هى آداب المخاطبات بين الملوك .

وإنى لأعجب لانكباب الناس على قراءة الأقاصيص الروائية الموضوعة بينما نجد فى الحقائق التاريخية ما يغنى عنها .

ثم إنه بعد موت شرلمان فى عام ٨١٤م قام النزاع بين أولاده وأحفاده على اقتسام ممتلكات العرش وانتهى الأمر بمعاهدتى فردون ومرس Verdun et Merse فى عامى ٨٤٣ و ٨٧٠ فاختص لوتير Lothaire مع

تقسيم دولة شرلمان

لقب الإمبراطور بالبلاد المعروفة اليوم بهولندا وحوض نهر الرين الى ماينز وكذلك حوض الرون وسويسرا وشمال إيطاليا ، وانفرد شارل بالجزء الغربى المعروف ببلاد الغال وهو الذى تأثر المدينةَ الرومانية وأصبحت لغته هى اللاتينية، واختص لويس بالجزء الشرقى الذى لم يتأثر بمدنية الرومان وبقيت لغته جرمانية . ومن هذا التاريخ وجدت مملكتا فرنسا والمانيا .

أما حصة لوتير فقد انقسمت فى أقل من نصف قرن إلى عدة ممالك هى إيطاليا والبروفنس وبرجونيا Provence et Bourgogne .

وقد ظل الجزء الصغير الواقع غربى نهر الرين والذى سمى باللورين ميدان قتال ونزاع بين فرنسا وألمانيا إلى وقتنا هذا .

ومن هذا تتبين أن تنازع أحفاد شرلمان لم يكن السبب الوحيد فى انحلال دولته بل كان للعوامل الجغرافية واللغوية تأثير يذكر فى ذلك .

وليس هناك من شك فى أن تقسيم دولة شرلمان كان سبباً فى إضعاف الملكية المطلقة وزادها ضعفاً كثرة الإغارات على هذه الممالك من نواحى عديدة ، فقد شن المجريون الغارة على شمال إيطاليا والعرب على البروفنس وشواطىء إيطاليا الجنوبية والنورماند على شواطىء المانيا وفرنسا وانجلترا .

النورماند

وكان النرامدة هؤلاء يقطنون فى هذا العهد فى البلاد السكندينافية والدانمرك ثم انقضوا على شواطىء بحر الشمال والمانش والإطلنطى ونظراً لأنهم بحارة مهرة فقد انحدروا بمراكبهم فى أنهار فرنسا كالسين

واللوار حتى وصلوا إلى قلب فرنسا . وكانت إغاراتهم بادئ الأمر قاصرة على النهب والسلب ولكنهم عند ما شعروا بضعف البلاد التى كانوا يغيرون عليها وطنوا النفس على الإقامة بها ولم يكن لملوك فرنسا إذ ذاك بد من الاتفاق معهم فاتفق شارل «Charles le simple» حفيد «Charles le Chauve» مع زعيمهم رولون «Rolon» وأقطعه أرضاً هى المعروفة إلى اليوم بنورمانديا كما منحه لقب دوق وزوجه من ابنته على أن يعتنق المسيحية وأن يكون تابعاً لملك فرنسا فأقام القوم فى مقاطعتهم واتخذوا اللغة الفرنسية لغتهم ولكنهم ظلوا شغوفين بالمغامرات والإغارات وهم الذين غزوا انجلترا وصقلية وجنوب إيطاليا ولعبوا دوراً كبيراً فى الحروب الصليبية .

نظام الاقطاع

ويبدو واضحاً أن اقتسام ورثة الملك المتوفى لممتلكات العرش وماينجم عنه من منازعات، وعجز الحكومات عن صد الغارات المتكررة هى من العوامل التى مهدت السبيل لظهور نظام يحل محل الملكية المطلقة ، وهذا النظام الجديد هو نظام الاقطاع .

ولقد عرفنا كيف كان الأهالى منذ عهد شرلمان يحضرون جماعات مع أميرهم كلما دعاهم الامبراطور للقتال . وكذلك عرفنا كيف كانوا يحلفون يمين الإخلاص للأمير ثم للملك فلما عجزت الحكومات العليا عن صد الإغارات وردع المعتدين قام أمراء الجهات بالدفاع عن مقاطعاتهم فسلحوا أتباعهم وأصبحوا شبه مستقلين لايملكون الأراضى فقط بل يحكمون الأهالى ويقضون بينهم ويقودون الجيوش ويجمعون

الضرائب. وإذا كانوا يتظاهرون بالخضوع للملك ويقدمون له المساعدة وقت الحرب إلا أنهم كانوا على أى حال يعتبرون إدارة شؤون مقاطعاتهم حقا لهم دون غيرهم .

وقد ترتب على هذا أنه كلما ضعفت سلطة الملوك قوى نفوذ الأمراء والأدواق وشرع هؤلاء الأمراء فى تشييد القصور على نظام يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم وعن رعاياهم إذا أغار عليهم مغير أو اعتدى معتد فكانوا يحيطونها بأسوار عالية ويحفرون حولها الخنادق ويقيمون جسوراً متحركة تفتح وتقفل عند الحاجة .

وقد أدت هذه الحال إلى وضع بعض القواعد لربط التابع بالمتبوع فكانت الأرض طبقاً لنظرية الاقطاع ملكا لله تعالى الذى منحها للملك ثم أقطعها الملك لأتباعه وهؤلاء الأتباع قد أقطعوها بدورهم إلى فدَّادِيهم (مماليكهم أو عبيدهم)[1] . وكان من واجب السيد أن يحمى تابعه وأن يدفع عنه العدوان وأن يفصل فى قضاياه — وكان على التابع أن يحلف يمين الولاء والإخلاص لسيده وأن يحارب تحت لوائه وأن يقدم له شيئاً من المال لافتدائه من الأسر أو ليقدمه عند زواج ابنته الكبرى أو عند إقامة حفلة الفروسية لابنه الأكبر .

ولقد عم هذا النظام (نظام الاقطاع) أوربا واستقر فى شكله النهائى خلال القرن التاسع بعد الميلاد واستمر سائداً إلى القرن الثالث

(١) وأصل هذه الطبقة المعروفة باسم رقيق الأرض من نسل الأرقاء فى عهد الدولة الرومانية فكان السيد يمنح رقيقه قطعة أرض يزرعها لنفسه خاصة فى مقابل جزء من المحصول يقدمه لسيده وليس لهذا الرقيق أن يغادر الأرض ولا أن يزوج أولاده بغير إذن سيده وكان ينتقل مع الأرض بالبيع والهبة كأنه من ملحقاتها .

عشر . ولم تَسْلم الكنائس والأديرة نفسها من نظام الاقطاع واضطرت إلى الاحتماء بأقوى الأشراف المجاورين لها وأصبح رجال الدين تابعين لهؤلاء الأشراف الذين قسموا هم أنفسهم أرض الكنائس إلى إقطاعات منحوها بدورهم لمن أصبحوا أتباعاً لهم .

نشأة الفروسية فى أوروبا

ويظهر أن العرب الذين كانوا يعتمدون فى حروبهم على الجياد لما لها من الميزات الحربية قد حملوا شارل مارتل (قارلة) بعد موقعة (تور — بواتيه) إلى تكوين فرق من الفرسان على طراز يخالف الطراز العربى لأنهم لم يكونوا خفافاً فى ملابسهم بل كانوا يحملون دروعاً ثقيلة ومع ذلك فقد اتصفوا بصفات الفرسان العرب من حيث الشهامة والمروءة والأخذ بيد الضعيف ونصرته .

وكان أبناء الأشراف ينضوون تحت لواء فارس يعلمهم ضروب القتال من كرٍّ وفرٍّ حتى إذا ما تم تدريبهم يُمْنحون لقب فارس فى احتفال كان يقام فى الأصل مدنيا ثم أصبح دينيا . ويجب فى هذا الاحتفال أن يضع الشاب المرشح للفروسية سيفه على المذبح ليباركه له القس ثم يلقنه واجبات الفروسية ويجعله يُقْسِمُ بأن يكون خادماً أميناً للكنيسة وأن يعمل على إنصاف المظلوم وأن يأخذ بناصر الضعيف .

وقد تدخلت الكنيسة أيضاً فى إيجاد ما يسمونه بالهدنة الربانية وهى الكف عن القتال فى أيام معلومة كما هى الحال فى الأشهر الحرم عند العرب .

ولعل أهم ما خلفته الحروب بين العرب والفرنجة وقتئذ هو ظهور

هذه الفروسية التي تنطوى على هذه الأخلاق الراقية والمبادىء السامية التي توارثتها الأجيال ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم ، تلك المبادئ التي أملت على المعتصم أمير المؤمنين العباسي — عند ما استجارت به السيدة العربية التي زُجَّ بها في السجن في عمورية فنادت وامعتصماه — أن يخرج إليها بجيشه ويحطم قيودها وأن يخرجها من سجنها باسطاً لها يده قائلا لها : لبيك ها أنا ذا .

وتلك المبادئ هي التي أملت على غوردون أن يقف بجانب من جاء لإنقاذهم في عاصمة السودان وأبى أن ينجو بنفسه عند ما نصح له بذلك وأصر على أن لا يترك رجاله عرضة لانتقام المهدى منهم وقرر في نفسه أن يدافع عنهم حتى الرمق الأخير .

وتلك المبادئ هي التي رفعت من شأن الإنسانية وغرست في النفوس حب التضحية وإنكار الذات قياماً بالواجب .

ويخيل إلينا أن الكاتب الروائي العالمي سرفانتز Cervantés الذي جعل بطل روايته دون كيشوت Don Quiechotte موضوع تسلية وهزء وسخرية للنَّيْل من المدافعين عن العدل والحق بغير وسائل عملية لم يستطع أن ينتزع من ضمير الإنسانية مجد تلك الصفات العالية . وفي يقيننا أن القدرة على دفع الظلم والإغاثة أو العجز عن ذلك لا يقلل من الاحترام الواجب للمدافعين عن القضايا العادلة ولو قعدت بهم وسائلهم قصوراً .

ولقد كان الظلم مخيما على أوربا في القرون الوسطى والفساد

الخلق فاشياً وكان يبدو أن الفروسية سترفع من شأن العالم الأوربى وتضرب على أيدى الطغاة والبغاة فتقضى على تلك المظالم والمفاسد ولكنها كانت فروسية أرستقراطية فلم تُفِدعامة الشعب إلا قليلا .

الرهبنة والأديرة

ولهذا لجأ الكثيرون من المتعبدين إلى حياة العزلة بعيداً عن المدن وساكنيها فنشأ نظام الرهبنة والأديرة فى أوربا وكانت حياة الزهد والعزلة عن العالم معروفة فى الشرق الأقصى قبل ظهور المسيحية . وقد لجأ إليها بوذا نفسه فى أول ظهوره فى القرن السادس قبل الميلاد .

وجاءت الرهبنة إلى مصر بعد المسيحية وكان أول من أخذ بها هو أنطنيوس المصري فى أواخر القرن السادس الميلادى ووجدت الأديرة فى صحارى مصر منذ أوائل القرن الرابع ثم انتقلت إلى شمال إفريقيا وصقلية ومنها إلى إيطاليا وأوربا فلما ظهر القديس بندِكْتْ Saint Bénédicte من سنة ٤٨٠ إلى سنة ٥٤٣ وضع نظاماً للأديرة جعل حياة الرهبان حياة كد ونصب فى الكنيسة والدير والحقل وقاوم فكرة العزلة الفردية وأخذ الرهبان يعيشون معاً كهيئة تابعة للبابا .

ومن أهم النظم محو جميع الفوارق الاجتماعية والمالية والجنسية وبذا ظهرت المساواة والاخاء فى داخل الأديرة بين الرومانى الحر والعبد والمتبربر .

ولما حل القرن العاشر تطرق الضعف والفساد إلى نظام الأديرة فنهض دير كلونى Cluny فى سنة ٩١٠ بالإصلاح . وفى هذا الدير تخرج الراهب هلدبرند الذى تولى البابوية باسم غريغورى السابع .

الإخوان الفرنسيسكان

وفى أوائل القرن الثالث عشر بدأت حركة رهبنة جديدة باسم

القديس فرنسيس St. Francis الذى عنى بمواساة البائسين وهو الذى أسس عهد الإخوان الفرنسيسكان ونال موافقة البابا أنوسنت الثالث Innocent III. فى عام ١٢٠٩ . وهؤلاء الإخوان هم الذين قلدوا حياة المسيح فشرعوا يجوبون البلاد حفاة بملابس رثة خشنة ويعيشون من كدهم أو من الصدقات ويعنون بالمرضى والمساكين .

ولما مات فرنسيس فى عام ١٢٢٦ وتوالت على هيئة الفرنسيسكان الهبات والعطايا زالت عنهم الحماسة الدينية وحياة الزهد والتقشف . وفى الوقت ذاته الذى تكونت فيه هيئة الفرنسيسكان قام القديس دومينيك St. Dominic بإحياء عهد آخر للرهبان المتسولين واعترف بهم البابا وأباح لهم تأدية الفرائض والواجبات الدينية . فلما انهالت عليهم العطايا والهبات أصابهم ما أصاب إخوانهم الفرنسيسكان ولقد عرفنا الخلافات التى شجرت بين الكنيستين اليونانية واللاتينية منذ أوائل القرن الحادى عشر بسبب الصور والتماثيل . فلما انفصلتا دانت أوربا الشرقية من اليونان والبلغار والروسيا بالولاء للكنيسة اليونانية واتخذت الأرثوذكسية مذهباً لها . وانتمت كل أوربا الوسطى والغربيـة من بولونيا إلى إسبانيا للكنيسة اللاتينية الكاثوليكية .

ولم تقف الخلافات والانقسامات عند هذا الحد بل تعدته الى حيث انقسم الكاثوليك على أنفسهم ونشأت قبل ظهور البروتستانت جماعتان هما « الفودوا والألبيجوا » Voudois et Albigois .

والجماعة الأولى منسوبة إلى رئيسها Valdes الذى أخذ بحكمة

المسيح فباع جميع أملاكه ووهب ثمنها الفقراء فى عام ١١٧٠ وأخذ يستحلن وينشر بين الناس بأن كل إنسان حر فى تفسير الإنجيل وفهمه وبهذا خرج على مبدأ الإيمان والتصديق بغير بحث ولا تفكير .

أما الألبيجوا فقد كانت تعاليمهم أكثر انتشاراً بين الجماهير وهم يعتقدون أن المسيح لم يكن إلا ملاكا أرسله إلهُ الخير لإنقاذ النفس وخلاصها ، ويعزو البعض سبب انتشار هذه التعاليم إلى الفساد الخلقى الذى غَشِيَ رجال الدين وقتئذ فى جنوب فرنسا فخشى البابا امتداد نفوذهم وانتشار تعاليمهم التى اعتبرت (هرطقة) أو زيغاً وإلحاداً . وشن عليهم أنوسنت الثالث .Innocent III حرباً صليبية دفع فيها أمراء فرنسا الشمالية إلى محاربتهم ، وأرسل البابا جريجوار التاسع موظفين من قبله لإجراء التحقيقات السرية والمحاكمات القاسية وقد عرفت فى التاريخ بمحاكم التفتيش وكانت تكتفى بتبليغات تقدم لها خالية من التوقيع ولا تسمح بسماع شهادة الشهود ، وقد حكمت فى يوم واحد على ثلاثٍ وثمانين ومائة نفس بالحرق أحياء (فى عام ١٢٣٩) حتى لقد قيل إنه لو تقدم أمامها القديسان بطرس وحنا لما استطاعا تبرئة نفسيهما .

ظهور الممالك الحديثة فى أوروبا

أما تَطَوُّر الممالك الحديثة فى أوربا فمما لا ريب فيه ولا مراء أن عهد الاقطاع كاد يقضى على نظام الملكية الوراثية . وليس هذا غريباً لأن نفوذ الأمراء وقوتهم جعلاهم يتدخلون فى تعيين الملوك وعزلهم ، ولقد حدث عندما اشتدت إغارات النورماند على فرنسا فى أواخر القرن التاسع وحاصروا باريس وعجز الملك عن صدهم أن انبرى لهم

كونت باريس « أودو » وهو أحد الأمراء الأقوياء وتمكن من رفع الحصار المضروب فانتخبه الأشراف ملكا عليهم وعزلوا آخر ملك من أحفاد شرلمان غير أن هذا الانتخاب لم يرفع من شأن الملكية لتمسك كل أمير باستقلاله فى مقاطعته ، واستمر الحال على هذا المنوال نحو قرن من الزمان ظل الملوك فيه قانعين بالتمتع بالسيادة الاسمية إلى أن انتخب هوج كابت Hugue capet ملكا وهو من أسرة أودو فى عام ٩٨٧ . ومن هذا التاريخ أخذ ملوك فرنسا يوسعون ملكهم ويجورون على أملاك الأمراء بوسائل شتى حتى أصبحت فرنسا كلها تحت سيطرة العرش وتكونت بهذا مملكة فرنسا الحديثة .

فرنسا

وفى عهد فيليب الأول (من سنة ١٠٦٠ إلى سنة ١١٠٨) غزا غليوم دوق نرماندیا الجزر البريطانية فى عام ١٠٦٦ وأصبح هو وأحفاده ملوكا على انجلترا مبتعدين بذلك عن فرنسا فتمكن الملوك الفرنسيون من انتزاع أملاك فرنسا من أيدى هذه الأسرة .

كذلك انتهز الملوك الفرنسيون غيبة أدواق فرنسا وأشرافها فى الحروب الصليبية منذ عام ١٠٩٥ وبسطوا نفوذهم على مقاطعات هؤلاء الأمراء .

وكذلك عمل هؤلاء الملوك على تقوية الطبقة المتوسطة لتكون عونا لهم ، تلك الطبقة التى نشأت بسبب انتشار التجارة والصناعة عقب الحروب الصليبية ولعبت دوراً هاما فى تأسيس المدن والبلديات وقاومت نفوذ الأمراء واشترت منهم حرياتها .

واستطاع فيليب أغسطس (من سنة ١١٨٠ إلى سنة ١٢٢٣) ضم مقاطعتى نرمانديا وانجو إلى أملاكه بعد انتصاره فى موقعة بوفين Bouvines فى عام ١٢١٤ بسبب النزاع الذى أثاره على ملك انجلترا چون عند ما دعاه ليحاسبه على أعماله باعتبار أنه من أتباعه إذ كان يملك بعض المقاطعات فى فرنسا . ولما أبى الملك چون الحضور صادر فيليب أملاكه فى فرنسا بمساعدة الكنيسة وبالنصر الذى ناله فى موقعة بوفين اتسعت أملاك العرش الفرنسى وأصبحت باريس أعظم مدن فرنسا .

أما الملك لويس التاسع (من ١٢٢٦ إلى ١٢٧٠) فإنه على الرغم من صلاحه وتقواه كان شديد التمسك بحقوق فرنسا إزاء البابوية وقد لعب دوراً فى الحروب الصليبية وفى أواخر حكمه صار أخوه ملكا على صقلية ونابولى فزاد هذا فى عظمة العرش الفرنسى وهيبة ذلك العرش الذى امتدت ممتلكاته من البحر الأبيض إلى البحر الشمالى .

أما فيليب الرابع (من ١٢٨٥ إلى ١٣١٤) فإنه قد انتزع مقاطعة الفلاندر من يد أميرها إلا أن أهلها ثاروا عليه وانتصروا فى موقعة كورتريه Courtrai فى عام ١٣٠٢ فقنع بجزء من هذه المقاطعة الشهيرة بصناعة نسج الصوف .

ثم أراد فيليب هذا أن يفرض الضرائب على رجال الدين أسوة بغيرهم فثارت ثائرة البابا وأمر بالامتناع عن دفع هذه الضريبة فرأى فيليب أن يجمع مجلس الأمة فى عام ١٣٠٢ ولم يكتف بدعوة كبار الأشراف والأساقفة ورؤساء الأديرة كما كان متبعاً من قبل بل طلب

إلى كل مدينة أن ترسل مندوبين عنها وعقد مجلساً قرر الموافقة على خطة الملك وهى تقضى بمنع انتقال الذهب من فرنسا إلى إيطاليا فخسرت البابوية كل ما كانت تجنيه من الكنائس واضطر البابا أن يخضع لأمر الملك وأن يصالحه .

وكان فيليب يعتمد على مجلس الأمة هذا ويجمعه من وقت إلى آخر . وهذا المجلس هو المعروف بمجلس طبقات الأمة Etats généraux أعنى الأشراف ورجال الدين وطبقة الشعب المسماة Tiers Etats ولا نذهب بعيداً فنظن أن لمجلس الأمة أى نفوذ إذ ليس لأعضائه إلا أن ينفذوا أوامر الملك كدعوة اجتماعهم التى تنص على أنهم « مدعوون ليسمعوا ما يقول الملك وليوافقوا عليه ولينفذوا ما يأمرهم به » .

ومن هذا يتبين أن الملكية المطلقة فى فرنسا ظلت فى طور التكوين نحو ثلاثة قرون جاهد فى أثنائها ملوك فرنسا فى محاربة الأشراف فلما تكونت الملكية بعد هذا الجهاد الطويل نشأت قوية وطغت على عهد الاقطاع وبددت نفوذ الأمراء فلم يستطيعوا أن يحدوا من سلطانها أو يقيدوا من نفوذها ولذلك تأخر فى فرنسا ظهور نظام الملكية المقيدة ولم تبدأ فيها النظم الدستورية إلا فى عام ١٧٨٩ إبان الثورة الفرنسية التى قضت على سلطة الملوك ورفعت فوقها سيادة الشعب وإرادته وأيدت حقوق الإنسان . وحدث هذا الانتقال من نظام الحكم المطلق إلى نظام الحكم النيابى طفرة على عكس ما حدث فى انجلترا التى نشأت فيها الملكية المطلقة ضعيفة وتمكن الأمراء

والأشراف من أن يَنْقُصُوا من سلطة الملوك ويحدوا من نفوذهم فنشأت النظم النيابيـة عندهم مبكرة وتأيدت مبادؤها رويداً رويداً .

إنجلترا

ولم يعرف المؤرخون فى أى عهد ا تنقلت قبائل الكلت من سكان مقاطعة « برطانىْ » فى شمـال غربى فرنسا إلى الجزيرة المقابلة لهم والتى سموها « بريطانيا » .

ولقد عرفنـا أن تلك الجزر البريطانية كانت قد خضعت لحكم الدولة الرومانية التى اضطرت عند ما أصابها الضعف والانحلال إلى سحب جنودها من هـــذه الجزر البعيدة للدفاع عن باقى أراضى الامبراطورية عام ٤١٠ م . فسنحت بهذا الانسحاب الفرصـــة لقبائل الانجلو والسكسون الذين نزحوا من ألمانيا فى القرنين الخامس والسـادس من الاغارة على هذه الجزر وكانت هذه القبائل وثنيـة ، ويروى أن البابا غريغورى التقى ببعض شبانها يباعون فى أسواق الرقيق بروما ولمـا عرف من أين هم آتون أرسل الراهب أغسطين Augustin فى عام ٥٩٧ ليبشرهم بالمسيحية فارتبط الانجلو والسكسون من هذا العهد بأسقفية روما .

وكانت هـــذه الجزر عرضة للاغارات المتكررة فقد هاجمها الدنماركيون واستوطنوا الجزء الشمالى الشرقى منها واعتنقوا المسيحية وبقى الملك الفرد Alfred « الذى حكم بعد Eghort ملك السكسون » ملكاً على أسكس وتمكن خلفاؤه من إضعاف الدنماركيين وتقوية أسكس التى أصبح لها شأن عظيم فى عهـد الملك ادجار Edgar ثم انحطت

وقويت شوكة الدنمار كيين بانضمام النرويج Norvège إلى حكم الملك كنوت Canut الذى حكم انجلترا نفسها فى عام ١٠١٧ . ولما مات تفرقت دولته وأصبح أدوارد الملقب بالتق Edward le Confesseur ملكاً على أسكس ومن بعده ادعى العرش غليوم (ويليم) دوق نرماندیا وعبر بحر المانش وغزا انجلترا وأخضعها إلى حكمه بعد موقعة « هستنجس » Hastings فى عام ١٠٦٦

ويظهر لنا من هذه الإغارات المتكررة أن الملكية فى انجلترا كانت ضعيفة فأراد ويليم الفاتح النرماندى أن يرفع من شأنها وأن يقاوم عهد الاقطاع و نفوذ الأمراء كما جرى ذلك فى فرنسا فأقطعهم مساحات صغيرة من الأراضى فى أقاليم متباعدة لتفريق قوتهم وأقام الحصون فى جهات عديدة ثم جمع ملاك الأرض من جميع الطبقات سواء أكانوا تابعين للعرش مباشرة أم للبارونات أو للامراء الآخرين وجعلهم يحلفون له جميعاً يمين الطاعة والإخلاص وأن يكونوا فى جانبه إذا ما قام نزاع بينه وبين الأشراف . وسمح للكنيسة أن تكون لها محاكم خاصة فعمل رجال الدين على تأييد عرشه وسنده البابا وشجعه فأسس مملكة مركزية قوية أدت إلى امتزاج النرمانديين بالانجليز وأصبحت اللغة الفرنسية لغة البلاد والطبقات الممتازة واتصلت انجلترا بالقارة الأروبية .

ولما كثرت فى يد ملوك انجلترا الأراضى والممتلكات الفرنسية، هبَّ ملوك فرنسا لاستخلاص هذه الممتلكات من أيديهم كما تقدم . هذا ولقد حاول الملك هنرى الثانى (من ١١٥٤ إلى ١١٨٩) أن

يقوى سلطة العرش فأنشأ نظام القضاة المتجولين وكان أعيان البلاد يقدمون لهؤلاء القضاة أسماء المجرمين ومن هذا النظام نبتت فكرة العدول المحلفين وهو الذى فرض ضريبة تدفع بدل الخدمة العسكرية لتساعده على إعداد جيش تحت أمره مباشرة غير أن جهود هذين الملكين فى تقوية الملكية المطلقة ضاعت هباء إزاء الملوك الضعاف الذين تولوا الحكم بعدهما لأن ابن هنرى وهو ريشارد الملقب بقلب الأسد Richard cœur de Lion (من ١١٨٩ إلى ١١٩٩) قضى أكثر أيام حكمه فى الحروب الصليبية واشتهر بالشجاعة ولكن انجلترا لم تفد منه شيئاً وقد استنزفت ثروتها فى حروبه وافتقدته من الأسر . وكان أخوه جون[1] الذى تولى الحكم بعده ضعيفاً سيء التصرف وقد عجز عن حماية أملاك انجلترا فى فرنسا عقب موقعة بوفين كما أسلفنا وأساء التصرف مع البابا الذى لجأ إلى إصدار قرار الحرمان ضد المملكة كلها فاستاء الشعب وأحس الأمراء — بمعونة الشعب — بقدرتهم على الثورة ضده وضموا إليهم رجال الدين وأرغموا الملك على منح الميثاق العظيم Magna charta وهو أساس الحرية عند الشعب الإنجليزى وهو الذى قضى على سلطة الملك فى القبض على الأفراد وزجهم فى السجون ومصادرة أملاكهم بدون محاكمة كما أنه قضى على سلطة الملك فى فرض الضرائب بدون موافقة المجلس الأعلى .

ولقد كان فى انجلترا مجلس منذ زمن بعيد يحضره الأشراف

---

(١) Jean Sansterre أى جان الذى لا أرض له ذلك لأنه كان صغيراً عند وفاة والده فلم يمنحه شيئاً من الأراضى التى كان قد وزعها على أولاده الآخرين .

والأساقفة فلما غزا ويليم (غليوم) الفاتح انجلترا استدعى إلى مجلسه كل من تسلموا أرضهم منه وسماه المجلس الأعظم . ولما تولى الحكم هنرى الثالث (من ١٢١٦ إلى ١٢٧٢) فرض ضرائب جديدة فقاومه الأشراف بقيادة سيموند دى منتفورت Simon de Montfort وأكرهوه فى عام ١٢٥٨ على دعوة المجلس الأعلى الذى أصبح من هذا التاريخ يسمى برلماناً وعلى أثر ذلك قامت الحرب الأهلية وهزم فيها الملك وأخذ أسيراً وصار سيمون دى منتفورت يدير شئون المملكة باسم هنرى الثالث وقد جمع فى عام ١٢٦٥ برلماناً دعا إليه الأشراف والأساقفة كالعادة وأضاف إليهم فارسين عن كل مقاطعة وعضوين عن كل مدينة وبهذا أصبح نواب الشعب يشتركون فى أعمال البرلمان فى مجلس واحد ثم انقسم هذا المجلس إلى مجلسين هما مجلس العموم ومجلس اللوردة (الأعيان) ولما تولى الحكم ادوارد الأول (من ١٢٧٢ إلى ١٣٠٧) لم يعتمد على البرلمان بل اتخذه وسيلة من وسائل الحكم وأدخل عليه تعديلات تزيد من تمثيل الشعب فيه . وظل هذا النظام سائداً معمولاً به بدون إدخال تعديل جوهرى عليه إلى عام ١٨٣٢ ثم تعهد ادوارد من جديد بأن لا يفرض ضريبة إلا بموافقة البرلمان وبذا رسخت أقدام هذا البرلمان فى رقابة أعمال الحكومة منذ أوائل القرن الرابع عشر بينما كانت جمعية طبقات الشعب فى فرنسا ضعيفة أمام قوة العرش للأسباب الجوهرية التى ذكرناها ولأن اشتراك الشعب مع الملك كان سائداً فى انجلترا قبل الفتح النرماندى بينما لم يعمل به فى فرنسا إلا فى حكم فيليب الرابع . ولأن

البرلمان الإنجليزى قد انقسم بعد نشأته بقليل إلى هيئتين بينما ظل مجلس طبقات الأمة هيئة واحدة كانت الغالبية فيه للطبقتين الممتازتين اللتين كانتا ترعيان حقوقهما ومصالحهما دون حقوق الشعب ومصالحه .

هذا ولقد حارب إدوارد الأول أهل ويلز واستولى على جزء من هذه البلاد فى عام ١٢٨٤ ولقب ولى عهده بلقب أمير ويلز Prince of Wales وظل هذا اللقب لأولياء العهد فى انجلترا إلى يومنا هذا .

وفى عهد الملك إدوارد ثارت اسكتلندا بعد انضمامها وانتخبت ملكاً عليها هو روبرت بروس Robert Bruse .

ألمانيا وإيطاليا

أما إيطاليا وألمانيا فقد ارتبط مصيرهما بمعاهدة فردان فى عام ٨٤٣ وكانت استراسيا منقسمة إلى دوقيات مستقلة هى سكسونيا وبفاريا وفرانكونيا وسوايا وتورنجيا ولورين وجميعها محكومة بأدواق لا ينظرون إلا لمصلحة دوقياتهم ولا يخضعون لأحفاد شرلمان ولا يتبعونه إلا تبعية اسمية وكانت الملكية انتخابية بطريقة غير منظمة فتارة يختار الملك من السكسون وأخرى من الفرانكونيان وفى عام ٩١٩ انتخب أهالى سكسونيا وفرانكونيا هنرى السكسونى ملكا عليهم ودام حكمه من عام ٩١٩ إلى عام ٩٣٦ وانتصر على عدة قبائل صقلبية وفتح (برندبورج) واحتل جنوب الدنمارك وانتصر على المجر الضاربين فى حوض الطونة الأوسط واكتسب بهذه الأعمال طاعة الادواق الاسمية فكانت ألمانيا فى عهده أشبه شىء بتحالف بين تلك الدوقيات . ثم تولى الحكم من بعده ابنه أتو الأول Otto I. (من سنة ٩٣٦ إلى سنة ٩٧٣) وكانت إيطاليا فى

حالة فوضى لأن وارث شرلمان يقيم فى الشمال وكان البابوات لا يهتمون بغير مصالحهم الذاتية . وكانت روما يمزقها تنازع الأحزاب على خيرات البابوية فدخل أتو إيطاليا تلبية لدعوة من أديليد Adelaide أرملة لوتير آخر ملوك سلالة شرلمان تطلب فيها إنقاذها من برانجيه Beranger الحاكم الجديد الذى أراد أن يزوجها من ابنه فعبر أتو جبال الألب فى عام ٩٥١ وتزوج من أديليد هذه وأعلن نفسه ملكا على لمبارديا .

وفى عام ٩٦٢ استعان البابا بأتو الأول ضد أحزاب روما التى اتهمته بأفظع المخازى فأيد أتو سلطة البابا وأعاده إلى كرسى الرسول بطرس فتوّجه البابا إمبراطوراً فى ٢ فبراير عام ٩٦٢ ومن هذا التاريخ بدأت الامبراطورية الجرمانية المقدسة وهى الوارثة لامبراطورية شرلمان غير أن امبراطورية أتو لا تشمل غير ألمانيا وجزء من إيطاليا بينما كانت امبراطورية شرلمان تتناول ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإسبانيا ولهذا لم يكن للامبراطورية الجرمانية المقدسة من الصفة الرومانية ما كان لامبراطورية شرلمان . وفوق هذا قد ورثت هذه الإمبراطورية عبئاً ثقيلا للاحتفاظ بإيطاليا وللرقابة على أطماع البابوية . ولما انتقل عرش ألمانيا إلى أسرة الفرنكون وتولى الحكم هنرى الثالث (من ١٠٣٩ إلى ١٠٥٦) بعد أبيه كنراد الثانى وزار إيطاليا فى عام ١٠٤٥ ليتوّج امبراطوراً وجد ثلاثة من البابوات يدعى كل منهم أنه صاحب الحق بتعضيد حزب من أحزاب روما فعزلهم جميعاً وولى (بابا) آخر من قبله ولم تكن البابوية فى ذلك العهد تحت رحمة الملوك وحدهم بل كان الأمراء يتحكمون

فى تعيينهم حتى أن أحد هؤلاء الأمراء وهو الـكونت تسكولم Tusculum اشترى فى عام ١٠٣٣ تاج البابوية لابنه بنوا Benoit ولم يكن قد بلغ سن الثانية عشرة بعد .

أسباب ضعف الكنيسة فى عهد الاقطاع

ولا ريب أن لهذا الضعف أسبابا أهمها نظام الإقطاع نفسه الذى صبغت به الـكنيسة فلم يكن القساوسة فى ذلك العهد رؤساء دينيين فقط بل كانوا أمراء أيضاً . ولما كانت قوانين عهد الإقطاع تقضى بأن يكون كل أمير تابعاً لأمير أكبر منه فلا بد إذن أن يكون للملوك والأباطرة رأى فى تعيين هؤلاء القساوسة الأمراء فلم يكن أعوان البابا ومساعدوه من رجال الدين تابعين له، ولهذه الأسباب تدهورت أخلاق رجال الـكهنوت فى ذلك العهد فـكانوا مثلا يدفعون المال رشوة لتعيينهم فى وظائفهم ثم يحصلون بعد تعيينهم على مادفعوه من طريق بيع الفرائض الدينية للأفراد مثل سر تناول القربان وصك الغفران وما شاكل ذلك حتى أصبحت هذه الفروض سلعاً يتجرون بها وهي المعروفة باسم السيمونيات نسبة إلى سيمون ذلك الساحر الذى أراد أن يشترى من الحواريين القدرة على فعل المعجزات .

ولقـد قامت بعض الطوائف الدينية لإصلاح شئون الدين مثل جماعة ديركلونى السالف ذكره غـير أن إصلاحاتهم ذهبت هباء لأنها لم تتناول رأس الـكنيسة وهى البابوية التى كانت تحت رحمـة دسائس الأحزاب وسلطة الملوك والأمراء .

النزاع بين البابوية المعصومة والإمبراطورية المقدسة

فلما تعين البابا نقولا الثاني فى عام ١٠٥٩ أصدر أمراً بأن لا تتدخل السلطات المدنية فى انتخاب البـابا وأن لا يكون الانتخاب قاصراً على

كاثوليك روما وحدها بل يوكل أمره إلى الكرادلة من جميع الشعوب أى من جميع الكاثوليك .

ولما اعتلى غريغورى السابع[١] كرسى البابوية فى عام ١٠٧٣ حارب النظرية القائلة بأن الامبراطور ظل الله فى الأرض وأعلن أن الامبراطورية تعتمد على البطش والقوة أما الكنيسة فتعتمد على الفضيلة وهى معصومة من الخطأ وأن رجال الدين يجب أن يحلفوا يمين الولاء له ثم أرسل نوابه إلى جميع الممالك يمثلونه فكانوا بمثابة سفراء ثم أرسل إلى الملوك يذكرهم بتبعية أراضيهم للرسول بطرس ويطلب إليهم إرسال العشور . وحرم قبول المناصب الدينية من العلمانيين وهدد رجال الدين والملوك بالحرمان إذا هم خالفوا أوامره كما حرم زواج القساوسة ومن هنا بدأ الكفاح بين الامبراطورية والبابوية تحت ستار ما يسمونه بالكفاح فى أمر التولية Les investitures[٢] . ذلك لأن أمر البابا فى أحقيته وحده فى انتخاب رجال الدين يتناقض مع نظام الإقطاع المعمول به كما أسلفنا وقد نشأت من جرَّاء هذا النزاع نظريتان الأولى نظرية السلطة الزمنية المؤيدة بأقوال السيد المسيح وهى : « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . والمؤيدة كذلك بأحداث التاريخ وهى أن الهبات التى منحها پيپنُ وشرلمان للبابا من شأنها أن تجعل القوة الزمنية متفوقة على السلطة الروحانية ، والنظرية الثانية هى نظرية البابوية التى تجعل القوة الروحانية

---

(١) تخرج فى دير كلونى واشتغل سكرتيراً للبابوية واسمه الأصلى هلدبرند وكان يرى أن الكنيسة هى صاحبة السيادة على العالم وتستمد نفوذها من الله ثم تمد به الملوك والأمراء .

(٢) وهو تعيين الأساقفة ورجال الدين فى وظائفهم .

متفوقة على القوة الزمنية ذلك لأن الكنيسة مسئولة عن نفوس العالم وأعمالهم حتى أعمال الأباطرة وقالوا إن سلطة الملوك تشبه القمر الذى يستمد نوره من الشمس التى تشبه سلطة الكنيسة إلى غير ذلك من الآراء الكثيرة والأسانيد العديدة التى تدور كلها حول شيء واحد هو الطموح للسيادة الدنيوية .

قوة البابوية

ولقد بلغ هذا النزاع أشده فى ألمانيا فجمع هنرى الرابع الذى حكم من سنة ١٠٥٦ إلى سنة ١١٠٧ مجلس فورمس Worms فى عام ١٠٧٦ وأعلن عزل البابا فأجاب غريغورى بعزل الإمبراطور وحرمانه ولقد يظن لأول وهلة أن الحرمان هو أمضى سلاح فى يد البابوية فإذا صدر الحرمان على شخص هجره الناس حتى لو كان ملكا ، ويحرم من شهود صلوات الكنيسة ولا يدفن عند موته طبقاً لطقوسها وإذا صدر الحرمان على شعب أغلقت كنائسه ووقفت حركتا زواج أفراده ودفنهم . غير أن حوادث التاريخ دلتنا على أن الشعوب فى ذلك العهد وإن كانت تعنى برضاء الكنيسة وإطاعة أوامرها ولكنها كانت تخشى كذلك سلطة الملوك وعقابهم ولذلك نرى أن الشعوب كانت تميل إلى البابوية إذا ضعفت الملكية وخشيت غضب الكنيسة ثم لا تلبث أن تنضم إلى الملك إذا آنست فيه قوة وقدرة على تجنيد جيش وعبور جبال الألب ومهاجمة البابا . وهذا ما حدث بالفعل فى عهد هنرى الرابع الذى خضع فى أول الأمر لسلطة البابوية لأن أمراء ألمانيا خذلوه وأرادوا أن ينفذوا أمر البابا بعزله فأسرع إلى مقابلة البابا فى قلعة كانوسا Canossa قبل أن

يصل إلى أُجز بورج Augsbourg لمساعدة باقى الأمراء الجرمانيين فى تعيين خلفه وهناك التمس من البابا المثول بين يديه وانتظر ثلاثة أيام عارى الرأس فى شتاء عام ١٠٧٧ مرتدياً لباساً من الوبر، وأخيراً أذن له البابا بالمثول وغفر له ذنبه . ويعد هذا إذلالا كبيراً للملكية غير أن هنرى قد انتقم لنفسه بعد ذلك فسير جيوشه عبر جبال الألب لمهاجمة روما فى عام ١٠٨٤ وفر البابا غريغورى إلى «ساليرنو» Salerno ومات هناك منفيا فى عام ١٠٨٥

هذا ولم تُحَلّ مشكلة أمر التولية أى تعيين الأساقفة إلا فى عهد هنرى الخامس فى عام ١١٢٢ باتفاق فورمس Worms الذى بموجبه يتولى البابا حق تقليد الأساقفة السلطة الدينية ويتولى الامبراطور حق تقليدهم السلطة السياسية والقضائية والمدنية وتسليمهم الصولجان كما يفعل مع أتباعه العلمانيين . أما الخاتم والعصا اللذان هما شارتا الوظيفة الدينية فتقوم الكنيسة بتسليمهما .

وينص هذا الاتفاق أيضاً على أن لا يكون للاساقفة إقطاعات بغير إذن من الإمبراطور ويظهر من هذا أن النزاع لا يزال قائماً ولم يُحَل منه غير المظهر دون الجوهر ولذلك نرى أن النزاع قد تجدد فى عهد فردريك بربروسة حيث قام بعد وفاة هنرى الخامس فى عام ١١٢٥ نزاع على العرش بين عائلتين قويتين هما هوهنشتوفن وَولف ، وقد تعين من العائلة الأولى كنراد Conrat ملكا واستمر حكم هذه العائلة إلى سنة ١٢٥٠ ، ولما تولى العرش فريدريك بربروسة ذو اللحية الحمراء فى سنة ١١٥٢ قضى على هذا النزاع العائلى لأن والده كان من

الجبلين Geblin ووالدته من الجلف Gulf وكان جنديا عظيماً وسياسيا قديراً واتسعت فى عهده أملاك الإمبراطورية وأعاد ذكرى شرلمان وقضى على الثورات فى إيطاليا وما كاد يتم له الأمر كما يشاء حتى قام فى وجهه البابا اسكندر الثالث فَحَاجَّهُ بأن سلطته مستمدة من الله وحده وعين له خلفاً فاضطر البابا إلى أن يلجأ إلى فرنسا وأقام فى سنس Sens وظل يعمل هناك لإيقاظ الفتن والثورات فى وجه الإمبراطور الذى كان منهمكا وقتئذ فى جرمانيا ، ولما عاد الامبراطور إلى إيطاليا لإخماد نار الثورة قاومه اتحاد اللومبارد وقهروا جيشه بالقرب من مدينة ميلانو فى عام ١١٧٦ فاضطر الإمبراطور إلى التماس العفو من البابا والتقيا فى البندقية Venise فجلس البابا على عرشه أمام كنيسة سان مارك Saint Mark ونزل الإمبراطور عن صهوة جواده وركع على ركبتيه أمام الجمع المحتشد فأخذه البابا من يده وقبله قبلة السلام ثم باركه فى الكنيسة بعد أن حلف له يمين الطاعة . وهذه هى المرة الثانية التى خضع فيها ملوك الجرمان للبابا فى فترة قرن من الزمان .

ولما عاد فريدريك بربروس Frédéric Barberousse إلى ألمانيا انتقم من أدواق بفاريا وساكس ووستفالى لأنهم كانوا سبباً فى خذلانه أمام اتحاد اللومبارد لعدم مساعدتهم له وقتئذ فوزع دوقياتهم كما أعطى بفاريا لعائلة ويتلباخ Wittelboch وبقيت فى أيديهم لغاية عام ١٩١٨

وصارت فى عهده الأراضى الواقعة فى شرق بفاريا على نهر الطونة الأوسط دوقية منفصلة سميت بالنمسا وكان الغرض من ذلك تأمين ألمانيا

من غارات المجر وإليها انتقلت عائلة هبسبرج Habsbourg التى خلفت عائلة هوهنشتوفن كما وجدت فى الشمال دوقية برندبورج Brandbourg التى كانت درعا لتأمين ألمانيا من غارات الصقالبة وهي التى حكمتها بعد إنشائها بنحو قرنين عائلة هُوهِنْزُلِّرْن Hohenzollern وقد أخذت هذه الدوقية تنمو حتى أصبح أمراؤها ملوكا فى بروسيا منذ عام ١٧٠٠ ثم أصبحوا أباطرة فى ألمانيا منذ عام ١٨٧١ ثم انقلبت جمهورية بعد الحرب الأوربية الأولى وهى اليوم محكومة بالنظام النازى تحت إدارة زعيم الرايخ الألمانى الفوهرر أدولف هتلر .

أما فريدريك بربروس فقد توفى فى عام ١١٩٠ بعد أن زوج ابنه هنرى لوارثة عرش صقلية وجنوب إيطاليا واشترك فى الحروب الصليبية فى عام ١١٨٨ .

وقد خلفه ابنه ثم زوجته باسم ابنها فريدريك الثانى الذى ضم إليه عرش صقلية وجنوب إيطاليا فقام النزاع من جديد بين الجلف والجبلين Guelf et Geblin وفى هذا الوقت اعتلى الكرسى البابوى أنوسنت الثالث (من ١١٩٨ إلى ١٢١٦) وهو مثل غريغورى السابع من أعظم ممثلى البابوية وقد تعلم فى جامعتى باريس وبولونى حتى صار ضليعاً فى المسائل القانونية وبهذا تمكن من أن يصبغ مطامع البابوية بالصبغة القانونية وأصبح ذا نفوذ كبير على ملوك أوربا أنفسهم وهو الذى أرغم فيليب أغسطس ملك فرنسا على رد زوجته الأولى فلما رفض الملك أصدر ضده قرار الحرمان فلم يسعه إلا الإذعان . وهو الذى أكره ملك انجلترا

جون أوْ يوحنا على تعيين استيفن لنجتون Stephen Lington رئيساً لأساقفة كَنْتِرْ بِرِى Canterbery فرفض الملك هذا التعيين وأصدر البابا ضده قرار الحرمان وأنزل النقمة بلاده وحرض ملك فرنسا فيليب أغسطس على الاستيلاء على أملاك يوحنا وضمها إليه فاضطر عندئذ يوحنا إلى الاذعان وطلب إلى البابا أن يغفر له ذنبه .

والذى نتبينه مما تقدم هو مبلغ نفوذ البابا أنوسنت الثالث الذى سيطر على عروش ملوك هنغاريا والدنمارك وكستيلا فلما أراد (أُتُّو) أن يتخلص من رقابة البابا وسيطرته أقام مقامه فريدريك الثانى (من سنة ١٢١٥ إلى ١٢٥٠) مالك عرش صقلية كما أسلفنا وما درى البابا أن هذا الملك الشاب سيكون أقوى خَصْم للبابوية .

وفريدريك الثانى هذا هو كما مرّ بك حفيد فريدريك بربروسة (ذو اللحية الحمراء) قد تُرُبِّىَ فى صقلية تربية عربية إغريقية وهو أكثر ثقافة من معاصريه يتكلم لغات كثيرة منها اللغة العربية بسبب اتصاله بعلماء العرب الذين تلقى عنهم علوم الرياضة والطب والطبيعة والفلسفة وأخذ يتأثَّرهم فى الرأى والتفكير وهو الذى أنشأ جامعة نابلى ومدرسة للطب فى سالرنو Salerno وحديقة للحيوانات فى بالرمو وهو الذى نقل الأرقام العربية إلى أوربا وكان فى بلاطه من الفلاسفة ميشيل سكوت Michel Scott الذى ترجم بعض رسائل أرسطو وتعليقات ابن رشد فيلسوف قرطبة ويمكننا أن نقول بالإيجاز إن فريدريك الثانى أو الصقلى كما نلقبه هو الذى أنشأ أول حكومة مستنيرة فى أوربا بعد

بعهود الإغريق والرومان وهذه الحكومة هى التى عرفت باسم حكومة الصقليتين وكان البابا وقتئذ يتطلع لأن يكون سيد إيطاليا وألمانيا كما سيطر على باقي ملوك أوربا ولهذا ألح على فريدريك أن يفى بوعده بأن يشن الحرب الصليبية الرابعة حتي يبعده بذلك عن أملاكه كما طلب إليه أن يتنازل عن عرش صقلية فلم يجب طلب التنازل ولكنه خرج إلى الشرق للحرب الصليبية التى وعد بها للاستيلاء على بيت المقدس غير أنه لم يحارب بل اتفق مع السلطان الكامل ملك مصر وقتئذ على أخذ بيت المقدس وتوج نفسه ملكا عليه وعقد معاهدة تجارية وبذا حصل على ما وعد به بدون إراقة دماء كما حدث فى الحروب الصليبية الأخرى ونال بحكمته وسياسته ما لم ينله غيره بسيوفهم ودمائهم من قبل . ولكنه لما عاد إلى نابلى وجد البابا غريغورى التاسع قد أعلن عليه حرباً صليبية ونهب بلاده فطرد فريدريك جنود البابا وبدا النزاع من جديد بين السلطتين وانتصر فريدريك فى أول الأمر وأكره البابا على أن يسترد أمر طرده إياه من الكنيسة (وهو السلاح الذى كان البابوات يَشْهَرُونه ضد الملوك) ولكن فى عام ١٢٣٩ عاد البابا إلى طرد فريدريك الصقلى من الكنيسة فنشر فريدريك فى الحال رسالة أبان فيها مخازى البابا والكنيسة وعزا إليهما فظائع هذا العهد وعرض على أمراء أوربا جميعاً أن يصادروا أموال الكنيسة وإذا كانت هذه الرسالة لم يظهر أثرها فى الحال إلا أنها بقيت حية فى حساب الدول الأوربية كما سنرى .

هذا . وبعد وفاة فريدريك انتقل الملك إلى ابنه كنراد الرابع ومن

بعده بقيت ألمانيا بدون ملك إلى عام ١٢٧٣ حيث انتخب رودلف هبسبورج Roudolfe Habsbourg ملكا وهو مؤسس عائلة هبسبورج ولم يكن له ولا لخلفائه نفوذ فى ألمانيا بسبب نفوذ الأمراء وقوتهم . وقد انقسمت هذه المملكة إلى نحو من أربعمائة إمارة فى عهد الإقطاع غير أن هذه الأسرة ظلت حاكمة فى ألمانيا وزادت ممتلكاتها فضمت إليها بوهيميا بالوراثة وارتبطت هذه الأسرة بالمصاهرة مع غيرها من الأسر المالكة فى بورغندا وأرغونة وقشتاله ومهد بهذا طريقاً لإنشاء امبراطورية عظيمة فى عهد شارل الخامس المعروف باسم شرلكان (من ١٥١٩ إلى ١٥٥٦) .

أما فى إيطاليا فإن مملكة صِقِلِّيَةَ قد انتقل تاجها إلى شارل دوق انجو (وهو أخ للملك لويس التاسع ملك فرنسا فى عام ١٢٦١) بمساعدة البابا أربان الرابع Urbain IV وكان فرنسيا . وقد تمكن شارل هذا فى بضع سنين من القضاء على أسرة هوهنشتافن فى إيطاليا وأصبحت مملكة نابولى تابعة للفرنسيين .

ومن غرائب تاريخ البابوية أنها نشأت ضعيفة ثم قويت ومدت نفوذها على ملوك أوربا ثم استحال انتصارها خِذْلاناً فى فترة من الزمن لم تتجاوز ثلاثين عاماً وجاء خذلانها على يد الفرنسيين الذين كانوا مؤيدين لها والذين كانت البابوية تؤيدهم حتى فى هذا العهد الأخير الذى انتصروا فيه فى إيطاليا وقضوا على عائلة هوهنشتافن كما تقدم .

الحديث الثامن

الحروب الصليبية — الدولة الأيوبية

توجهت إلى زيارة أبى الهول لأتعرف ما استعصى عليّ فهمه فى الحروب الصليبية لأننى كنت دهشاً عند ما لاحظت أن الممالك الأوربية التى كانت إلى أوائل القرن الحادى عشر متحاربة يتقاتل أمراؤها وتتنافر شعوبها قد نسيت إبان هذه الحروب أحقادها وتغاضت عن مصالحها واجتمعت كلمتها وانتظمت جموعها تحت راية الصليب لتقاتل مسلمى الشرق مئات من السنين من أجل قبر المسيح الذى يعتقد المسلمون أنه لم يصلب ولم يقتل ويعتقد النصارى أنه قد رفع إلى السماء، ويكون — على كلٍّ من الاعتقادين — القبر خالياً خاوياً.

ولكنه وقد أقامت على هذا القبر سنت هيلانه والدة قسطنطين كنيسة القيامة التى سلم المسلمون مفاتحها عند استيلائهم على فلسطين إلى بطريق (بيزنطة) ثم أذن الخليفة العباسى (هارون الرشيد) بإرسال تلك المفاتيح إلى شرلمان وكان مثل هذا الصنيع فيه ما يشكل عليّ أن أدرك كيف قامت القيامة من أجل كنيسة القيامة فلما أن وصلت إلى أبى الهول ودارت هذه الخواطر بخلدى وهممت أن أسأله إذا بى كأنى أري غباراً كثيفاً، وكأن الأرض زلزلت زلزالها، ثم ظهرت من بين

سجف الغبار أعلام ورايات ثم وقفت هذه الفرسان على بعد وتوارت خلف الأهرام ثم ترجل فارس وأخذ يمشي وحوله جماعة من العلماء والقضاة والمفتين ، فلما دنا رأيته رجلا جم النشاط قوي الجسم خفيف الحركة ، تبدو عليه أمارات النبل والشجاعة والنجدة والأخلاق الرضية فنادى أبو الهول قائلا : — ياصلاح الدين

صلاح الدين : — لبيك

أبو الهول : — إن فى عنقك للأجيال أمانة يجب أن تؤديها ، فإنى رأيت أبناء هذه الأمة يتوثّبُونَ إلى ذراك ، ويتطلعون إلى مجدك ، عَلَّهم يعرفون الطريق ، ويهتدون السبيل ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لعلهم يتذكرون ، حدثهم عن الحروب الصليبية وما تمخضت عنه بينهم .

وهنا وقف صلاح الدين يقول وقد أخذ بيده سيفه الموشى يتكئ عليه :

— إذا ما أردنا أن نعرف السر فى هذه الحروب وجب علينا أن نرجع إلى ما قبل القرن الثالث الهجرى أي التاسع الميلادى الذى ازدهر فيه الشرق بالعلوم والفنون حتى بلغ أوج مجده وعظمته فى ظل الدول الإسلامية التى امتد نفوذها إلى بلاد آسيا من الشام والعراق والفرس حتى وصل إلى حدود الصين وشمل مصر ثم شمل بلاد المغرب والأندلس ولم يعد من المستطاع بعد هذا التوسع العظيم بقاء هذه الممتلكات خاضعة لحكومة مركزية واحدة بسبب التنافس بين شعوبها وتعدد الأجناس فيها .

وقد أدى هذا التنافس واختلاف الأجناس إلى استقلال الأجزاء

القاصية كبلاد المغرب والأندلس ثم تبعتها مصر والشام مما ضعفت له شوكة الدولة العباسية منذ القرن العاشر الميلادى وأصبح سلطانها قاصراً على بلاد العراق وحدها . وفى هذه الأثناء كانت القبائل التركية الضاربة فى شمال شرقى الدولة الإسلامية قد اعتنقت الإسلام ودخل الجنود المرتزقة من الأتراك فى خدمة الخليفة العباسى فى بغداد واغتصبوا منه السلطة السياسية رويداً رويداً حتى انتهى بهم الأمر فى عام ١٠٥٥ إلى تقلد « طغرل بك » مؤسس دولة السلاچقة السلطة الزمنية من القائم بأمر الله الخليفة وقتئذ الذى قنع بسلطته الدينية . وأخذ هؤلاء الأتراك السلاچقة يهددون « بيزنطة » وانتصروا عليها أخيراً فى عام ١٠٧١ فى موقعة ملاذكرد Mauzikert بالقرب من بحيرة (وان) ووصلوا إلى شواطئ بحر مرمرة وصاروا يتقاضون الجزية من امبراطور الدولة الشرقية الرومانية التى انكمشت فى القسطنطينية (بيزنطة) وضواحيها .

ولما رأى امبراطور القسطنطينية ميخائيل السابع الخطر المُحْدِق به استنجد بالبابا غريغورى السابع فى عام ١٠٨٠ ثم استنجد الإمبراطور الكسيوس مرة ثانية بالبابا « إربان الثانى Urbain II » .

وقد تكرر الاستنجاد كما تقدم فى أقل من نصف قرن منذ انفصال الكنيستين « القسطنطينية وروما » .

ولما رأى بابا روما أن الفرصة قد سنحت لبسط نفوذه غرباً وشرقاً جمع فى عام ١٠٩٥ مجلساً عامًّا فى كليرمنت Clermont دعا فيه نصارى الغرب إلى إنقاذ قبر المسيح وبالتالى بيت المقدس من أيدى المسلمين

وحث العالم المسيحى على الانضمام إلى هذه الحرب الدينية وأعلن حماية الكنيسة لأملاك المحاربين المجاهدين والتكفير عن ذنوب الخاطئين ممن يلبون دعوته ووعد الذين يموتون فى هذه الحرب بجنات الخلد والنعيم.

وقد ألْمَعَ البابا للجموع المحتشدة — إجابة لندائه وتلبية لدعوته — بما عليه البلاد التى سيحاربون فيها من ثروة ونَوَّهَ عن خيراتها من المن والسلوى مشيراً إلى أنها قد وسعت الملايين من الخلق فى عهد موسى عليه السلام وردد فى النهاية قول المسيح « ضع صليبك على كتفك واتبعنى » فسرت فى الناس روح حماسة قوية وهبُّوا بعائلاتهم للنضال مدفوعين لا بتأثير فكرة دينية فحسب بل وتحت تأثير مطامع ذاتية. ففى الوقت الذى كان فيه بطرس الناسك يحث الناس على محاربة المسلمين كان الفارس الفرنسى « جوتيه » الملقب بالمعدم Gauthier Sans avoir يطوف فى أنحاء أوربا ليدعو الأمراء إلى مغامرات حربية جديدة بعد أن ضاقت بهم ميادين القتال وضاقوا هم ذرعاً بالمغامرات فى أوربا. وعلى أثر هذه الدعوات اجتمعت فى أول الأمر الطبقات المنحطة من رقيق ومساجين وأشقياء وساروا للقتال بغير نظام ولا استعداد وعلى غير هدى وهم يجهلون طول الشقة بينهم وبين أهدافهم وقد اقترفوا فى طريقهم جرائم وفظائع شتى وأطلقوا لأنفسهم العنان فى النهب والسلب وقتلوا اليهود والمجر ظنا منهم بأنهم وثنيون مع أنهم كانوا قد اعتنقوا المسيحية حديثاً فوقعت بينهم مذابح انتهت بإبادة القافلتين الأوليين من الصليبيين. أما القافلتان الأخريان فقد وصلتا إلى القسطنطينية ورجالهما فى حالة من

الفوضى حملت الإمبراطور على الإسراع فى التخلص منهم فساعدهم على العبور إلى «نيقية» على الشاطىء الاسيوى حيث قابلهم الفلاحون السلاجقة وأفنوهم عن آخرهم وكان ذلك فى عام ١٠٩٦

وفى السنة التاليــة (أى فى عام ١٠٩٧) ابتدأت الحملة الصليبية الحقيقية بقيادة طبقة الأمراء الأشراف الخبيرين بالأمور العسكرية وكان من بينهم «جُدِفْر» Godefroy دوق اللورين و «ريموند» Raymond دوق بروفنس و «بُوهِمُنْــد» Bohémond بن «روبرت جسكار» مؤسس مملكة النورماند فى جنوب إيطاليا . وبلغ عـدد جنود الحملة نحو مائة ألف فارس وستمائة ألف من المشاة . وخشى الإمبراطور الكسيوس أن يدبر الصليبيون الاعتداء على امبراطوريته فأخذ يتصل بكل زعيم منهم ليستوثق من أنه سيرد إلى الامبراطورية ما كان تابعاً لها فى مقابل إمداده بالمؤن والذخائر وكانت آسيا الصغرى فى هذا الوقت محكومة بعدد كبير من أمراء السلاجقة من أبنـاء وأقارب الملك شاه الذى توفى فى عام ١٠٩٢ وقد اقتسموا الملك بينهم وكوّنوا حكومات صغيرة عرفت باسم حكومات الأتابكة وتمزقت بهذا التقسيم دولة السلاجقة وأصيبت الدولة الإسلامية بالوهن والضعف وحرمت زعيما قويا يقود الجنود الإسلامية لصد هؤلاء المهاجمين من الصليبيين الذين بدأوا هجومهم بحصار «نيقية» فى صيف عام ١٠٩٧ ثم تقدموا إلى دوريليم (اسكى شهر) ومنها إلى كليكيا وانتزعوا الرها وهى (أرفا) أو (ادسه) Edessa من يد أميرها التركى ولم يردوها إلى بيزنطة بل أسسوا فيها أول

امارة لاتينية فى عام ١٠٩٨ ، وهنا شك الإمبراطور الكسيوس فى إتفاق الصليبيين معه فكف عن مساعدتهم غير أنهم استمروا فى تقدمهم وحاصروا إنطاكيا واستولوا عليها وساموا أهلها سوء العذاب وقتلوا منهم عشرات الألوف وانتخبوا « بوهمند » أميراً عليها ثم تقدموا إلى أورشليم فى يونيه عام ١٠٩٩ وحاصروها بضعة أسابيع ووعدوا حاميتها الصغيرة خيراً ولكنهم ما كادوا يدخلونها حتى ذبحوا أكثر من سبعين ألفاً من أهلها ثم خَرُّوا سجَّداً أمام قبر المسيح وعيونهم تفيض من الدمع من شدة تأثرهم بنصرهم ثم كتبوا إلى البابا فى روما رسالة يهنئونه فيها بقولهم « إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا فثق بأن خيلنا كانت فى إيوان سليمان ومعبده تخوض فى بحر من دماء الشرقيين » .

وأراد الصليبيون بعد هذا النصر أن ينتخبوا جدفرى ملكا على بيت المقدس ولكنه أبى مكتفياً بلقب حامى قبر المسيح وانتخبوا بعده أخاه « بودوين » وقاموا بمساعدة أساطيل المدن الإيطالية بإخضاع عكا فى عام ١١٠٤ وصور فى عام ١١٢٤ ثم أنشأوا إمارة طرابلس وولوا عليها « ريموند »[١] .

ويتبين مما قلت ما أسفرت عنه الحرب الصليبية الأولى من نتائج قد انتبه بعدها فى الواقع أمراء السلاجقة إلى الخطر المُحْدِقِ بهم من جراء

(١) لقد جندت فى هذا العهد جنود للكنيسة جمعت بين مبادىء الرهبنة والفروسية وامتازت من بينها فرقة فرسان المعبد Templier وطائفة فرسان القديس يوحنا Chevaliers de St. Jean de Jérusalem وفرسان التيتون وغيرهم .

تماديهم فى الانقسام والتنافس وساعدت على ظهور عماد الدين زنكى الذى عين فى عام ١١٢٧ (أتابك) على الموصل والعراق فانتهز فرصة استنجاد بعض مدن الشام به نخف لنجدتها واحتل حلب وبعض مدن أخرى . ثم تمكن فى عام ١١٤٤ من فتح مدينة « الرها » وكانت من أمنع ممتلكات الصليبيين وأقواها تحصيناً وقد مات مقتولا فى عام ١١٤٦ وخلفه ولداه سيف الدين على الموصل ونور الدين على الشام . وسار نور الدين على سياسة أبيه فى مكافحة الصليبيين والعمل على توحيد قوات المسلمين ، وقد قمع بشدة وعنف فتنة قام بها الأرمن فى الرها عام ١١٤٧ بإيعاز من الصليبيين .

ولما وصلت أنباء هذه الانتصارات إلى أوربا أخذ الراهب « سان برنارد » يحرك الهمم لحرب صليبية أخرى .

ولقد انضم إلى هذه الحرب ملك فرنسا « لويس السابع » وامبراطور ألمانيا « كنراد الثالث » الذى لم ينتظر ملك فرنسا بل أسرع إلى عبور البحر نحو آسيا الصغرى وأراد اختراقها إلى بيت المقدس ولكنه تكبد خسائر جسيمة واضطر إلى التراجع إلى « نيقية » تحت ضغط هجمات السلاجقة المتكررة وانضم أخيراً إلى الفرنسيين وقصدوا جميعاً إلى دمشق وكان أميرها موالياً لهم غير أن قوات نور الدين انضمت إلى قوات أخيه سيف الدين وطاردوا الصليبيين وتغلبوا عليهم فعاد ملك فرنسا وامبراطور ألمانيا إلى بلادهما ومنيت هذه الحرب بفشل ذريع كانت من أهم نتائجه جمع كلمة المسلمين وتقوية الوحدة بينهم .

ولقد كانت مصر من أهم العوامل التى أدت إلى امتـداد الحرب الصليبية لأنها تُهِمُّ الصليبيين لصلاحيتها كقاعدة بحرية لأساطيل المدن الإيطالية وتهم السلاجقة لأنها بلد إسلامى فى دائرة الممالك الإسلامية . وهى فوق هذا وذاك تهم كلاًّ من الفريقين من الناحية الاقتصادية كما أنها تهمهما من الناحية العسكرية لأنها تهـدد الأراضى المقدسة من جهة الجنوب . ومع كل هذه الاعتبارات لم يتعرض لها أحد الفريقين حتى دب التنافس بين حكامها وأصبحت لسوء تدبيرهم ميدان قتال قبيل بدء الحرب الصليبية الثالثة . وكانت وقتئذ تحت حكم الدولة الفاطمية التى كانت فى آخر أيامها وقد حل بها الضعف والوهن وكانت كل السلطة فى أيدى وزراء لا همَّ لهم إلا العمل على استبقاء الحكم فى أيديهم مهما بلغ الثمن الذى يدفعونه لذلك من حقوق البلاد . وكان النزاع على أشده بين وزيريها شاور وضرغام فى عهـد « العاضد » آخر الخلفاء الفاطميين (من سنة ١١٦٠ إلى ١١٧١) فالتجأ شاور إلى نور الدين وارتمى ضرغام فى أحضان الصليبيين . وعرض شاور على نور الدين أن يدفع له تكاليف الحملة بأكملها وثلث إيراد مصر بمثابة جزية أما ضرغام فقـد اتفق مع « أمورى Amurry » ملك بيت المقدس . واستأنف صلاح الدين قائلاً : أخيراً انتصر عمى أسد الدين شيركوه قائد نور الدين على الصليبيين وقتل ضرغام وخلا الجو لشاور فأراد التخلص من السلاجقة وتناسى ما تعهد لهم به وأخذ يفاوض الصليبيين لنجدته ولـكنهم عجزوا عن طرد السلاجقة من مصر بعد أن حاصروا شـيركوه فى بلبيس ثلاثة أشهر

كاملة . وأخيراً اتفق الطرفان على إخلاء مصر . وقبل أن يغادر الصليبيون البلاد اتفق معهم شاور اتفاقاً سرياً علم به نور الدين فجرد فى عام ١١٦٧ بقيادة عمى شيركوه حملة ثانية عبرت نهر النيل إلى الجيزة وجاء الصليبيون كذلك طبقاً للاتفاق السرى وعسكروا فى مدينة الفسطاط وقابلوا الخليفة العاضد للتثبت من صحة هذا الاتفاق السرى مع وزيره شاور والتوقيع عليه من الخليفة نفسه، ثم تقابل الجيشان فى جنوب المنيا والتحما فى موقعة البابين التى انهزم فيها الصليبيون ثانية ودخل شيركوه الاسكندرية فاتحاً وأقامنى حاكماً عليها . ثم غادر شيركوه مصر بعد أن حمل معه مبلغاً من المال من الملك أمورى غير أن الصليبيين لم يلبثوا أن عادوا ثانية إلى مصر فاتحين غازين واقترفوا فظائع شتى وعسكروا بالقرب من مدينة الفسطاط وخشي شاور أمر نجاحهم فأحرق الفسطاط ليمنع تقدمهم[1] واستنجد الخليفه العاضد بنور الدين فجاء شيركوه للمرة الثالثة يقود جيش نور الدين واستقبله المصريون كمنقذ، وغادر الصليبيون البلاد بعد أن أصابهم الخذلان فى هذه المرة أيضاً .

وحاول شاور أن يستميل شيركوه فلم يفلح وظل شيركوه وزيراً فى مصر زهاء شهرين ثم مات فى سنة ١١٦٩ وخلفتُه وقد آليت على نفسى أن أَهَبَ جهودى وأكرس حياتى لطرد الصليبيين من الشرق فبدأت عملى فى تحويل المذهب الشيعى فى مصر إلى المذهب الشافعى وجعلت خطبة الجمعة باسم الخليفة العباسى فى عام ١١٧١ وأصبحت بعد وفاة

---

(١) ولا تزال آثار هذا الحريق بادية للعيان إلى اليوم بالجهة الغربية من القاهرة .

العاضد آخر خلفاء الفاطميين الحاكم فى البلاد المصرية . ثم فتحت بلاد النوبة واليمن ولما مات نور الدين فجأة فى عام ١١٧٤ حاولت عبثاً الاتفاق مع الملك الصالح بن نور الدين . ولما أعيانى الحال وعز عليّ الاتفاق حاربته وهزمته واستوليت على دمشق ثم استوليت بعد موت الملك الصالح فى عام ١١٨١ على حلب والموصل وبهذا تحققت سياسة نور الدين فى توحيد القوات الإسلامية المتحدة من الشمال والجنوب والشرق ولم يبق إلا أن يتهيأ لى ظرف مناسب لتنفيذ ما اعتزمته من إخراج الصليبيين نهائياً من الشرق . ومن غرائب الاتفاق أن هيأ الصليبيون أنفسهم لى هذا الظرف بأن قام أحد فرسانهم وهو « ريجنولد » صاحب حصن الكرك بقطع طريق الحجاج والمسافرين إلى مصر ونهب القوافل وقد حدث فعلاً أن سلب قافلة كانت فيها أختى ولم يكتف بذلك بل أراد أن يحذو حذو «أبرهة» الأشرم قائد الجيش الحبشى فى إعداد حملة لتدمير مكة والمدينة .

وقد ترتب على ما تقدم أن اشتعلت نيران الحرب وسقط حصن الكرك والتحمت جيوشنا بالصليبيين فى يوليه عام ١١٨٧ فى موقعة حِطّين التى هزم فيها الصليبيون شر هزيمة ووقع زعماؤهم أسرى فى قبضتى وكان من بينهم صاحب حصن الكرك نفسه و « جاى دى لوزنيان » Guy de Lusignan ملك بيت المقدس وتلا ذلك الاستيلاء على عكا ونابلس والرملة وقيسارية ويافا وبيروت . وقد سقطت هذه المدن كما تسقط أوراق الشجر فى الخريف .

وأخيراً فتحت بيت المقدس عَنْوة. ولم أعامل الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين من قبل بل أظهرت تسامحاً مقروناً بالرحمة نحو الصليبيين ونسائهم وأطفالهم وهيأت لهم فرصة لإخلاء المدينة فى خلال أربعين يوماً كاملة وفرضت عليهم دية شخصية كنت أدفع بعضها من مالى الخاص وأمرت بإطلاق سراح « جاى دى لوزنيان » من الأسر بعد أن أخذت عليه عهداً بأن لا يعود إلى محاربتى وما كاد يذاع خبر هزيمة الصليبيين فى حِطّين وفتح المسلمين لبيت المقدس حتى تهيأت أوربا لحرب صليبية جديدة كان زعماؤها « فريدريك بربروس » امبراطور ألمانيا و « فيليب أوجست » ملك فرنسا و « رتشارد » ملك انجلترا الملقب بقلب الأسد واجتمع الألمان أولا بقيادة فريدريك بربروس فى « راتسبون » Ratisbonne فى عام ١١٨٩ واخترقوا بلاد المجر والبلقان وجبال طوروس ودخلوا كليكيا فى عام ١١٩٠ وهناك مات الإمبراطور غرقاً فى نهر « سالف » « كاراسو » وتبدد جيشه فعاد معظمه إلى ألمانيا ولم يصل منه إلى عكا إلا عدد قليل.

وقد أبحر فيليب أوجست من جنوا وأبحر رتشارد من مرسيليا واستولى فى طريقه على قبرص ثم تقابل الملكان فى عكا واستوليا عليها فى عام ١١٩١ بناء على دعوة من « جاى دى لوزنيان » الذى حنث فى يمينه ودعا نفسه ملكا على بيت المقدس وبدأ يحاصر عكا فلما سقطت بمساعدة فيليب ورتشارد ملكى فرنسا وانجلترا دب النزاع بين هذين الملكين فغادر فيليب الشام وبقى رتشارد وحده وقد أظهر من ضروب

الفروسية فى حروبه ما أكسبه شهرة عظيمة وانتصر فى واقعة «رسوف» التى لم تكن حاسمة وبدأت بينه وبين سيف الدين أخى مفاوضات انتهت بصلح « الرملة » فى عام ١١٩٢ ذلك الصلح الذى لم يكن فى الحقيقة إلا عبارة عن هدنة استمرت بضع سنوات ظل فيها بيت المقدس تحت يدنا مع السماح للمسيحيين بالزيارة والحج وحماية سواحل الشام من صور إلى يافا .

ثم غادر رتشارد الشرق ولكنه وقع أسيراً فى قبضة « ليوبولد » دوق النمسا الذى لم يطلق سراحه إلا بعد أن استولى على مبلغ كبير بمثابة « دية » .

ولم يفز الصليبيون فى هذه الحرب بشىء غير أن عكا أصبحت مركزاً أساسياً لهم بدل بيت المقدس وامتد بهذا أجل بقائهم فى سوريا نحو قرن من الزمان إلا أن ثورة التعصب الدينى قد أخذت تخف حدتها وبدأ الصليبيون يدركون مبلغ ما يتحلى به المسلمون من شهامة ونخوة وسخاء . . . فبينما كان رتشارد يأمر بقتل ٢٦٠٠ أسير لتأخر وصول ديتهم فى موعدها كان « جاى دى لوزنيان » يجالسنى على مائدتى كما كنت أثناء حصار عكا أقدم الهدايا لرتشارد . وقد حمل ذلك أعداءنا على تبادل علاقات الاحترام معنا وحدا هذا برتشارد ملك إنجلترا إلى التفكير فى ترويج أخته من أخى ولم يثنه عن عزمه هذا إلا خشية الطرد من الكنيسة .

ثم عادت الحرب بعد خمس سنين من عودة الملك رتشارد الملقب

بقلب الأسد إلى أروبا وقد انضم إليها عدد كبير من الدّهْماَء كما كانت الحال فى الحرب الصليبية الأولى وكان الداعى إليها والمحرض عليها فى عام ١١٩٨ هو البابا أنوسنت الثالث الذى رأى أن يوجهها إلى مصر لأنها مصدر قوة المسلمين فى ذلك الوقت غير أن هذه الحملة سرعان ما حادت عن غرضها الأصلى فاستخدمت أولا لصالح جمهورية البندقية وثانياً لصالح امبراطور القسطنطينية اليونانى المعزول وأصبحت أشبه بجنود مرتزقة تحارب من أجل المال لا من أجل الدين وتفصيل ذلك أن الصليبيين فى هذه الحملة قد اتفقوا أولا مع رئيس جمهورية البندقية وهو الدوج دندولو Doge dandolo على أن يمدهم بالسفن والمؤونة فى مقابل أجر معلوم من المال وأن يقتسم معهم كل ما يستولون عليه . وتمكن بمهارته ودهائه من استخدامهم فى مصالح جمهوريته الخاصة فاخضعوا له فى عام ١٢٠٢ مدينة زارا التى كانت تابعة للمجر والتى كانت تنافس البندقية فى تجارتها .

ثم زارهم بعد ذلك الأمير الكسيس بن اسحق الملاك امبراطور القسطنطينية المعزول ووعدهم بمبلغ طائل من المال إذا هم ساعدوه فى استرداد عرش أبيه فقصدوا إلى القسطنطينية فى عام ١٢٠٣ واستولوا عليها ولما طالبوا الإمبراطور بالمبلغ الموعود عجز عن الدفع ولم يجن من وراء استخدام القسوة مع الأهالى لجمع المال المطلوب إلا إيغار صدورهم عليه واندلاع نيران الثورة ضده وضد الصليبيين معه وانتهى به الأمر إلى الفرار من القسطنطينية التى ارتكب فيها الصليبيون فى عام ١٢٠٤

أفظع المخازى والجرائم من قتل وسلب ونهب وتحطيم التماثيل القائمة فى الميادين والاستيلاء على الصور الفنية القيمة التى لا يزال الكثير منها فى البندقية وغيرها من المدن الأوربية باقياً إلى اليوم .

وتقاسم الصليبيون القسطنطينية مناصفة مع أهالى البندقية واختاروا دوق فلاندر امبراطوراً عليها واختار أهل البندقية رئيساً دينياً لها وأقاموا بذلك حكومة لاتينية وكنيسة لاتينية .

ثم قاموا بتقسيم البلاد إلى إقطاعيات طبقاً لنظام الإقطاع الأوربي وعينوا أشراف الصليبيين أدواقاً عليها فنشأت دوقية سلانيك ونيقية وأثينا واكتفى أهل البندقية باحتلال المرافىء وجعل حركة التجارة فى أيديهم واستمرت الحكومة اللاتينية فى القسطنطينية إلى عام ١٢٦١ ثم انهزم الصليبيون أمام غارات البلغار وتمكن فى نهاية الأمر ميخائيل باليولوغش Michel Paléologue أحد البيزنطيين من تأسيس أمارة فى نيقية فى عام ١٢٥٩ ثم هاجم القسطنطينية واستولى عليها وأعاد فيها حكم البيزنطيين إلى أن استولى عليها الأتراك فى عام ١٤٥٣ ثم تلت ذلك حملات صليبية لا أهمية لها ومنها الحملة التى قام بها فى عام ١٢١١ أطفال من الألمان والفرنسيين وقد أرجع البابا الألمان وذهب الفرنسيون إلى مرسيليا حيث قابلهم بعض التجار ومنوهم بإيصالهم إلى بيت المقدس ولكنهم باعوهم بيع السلع فى الأسواق فكانت هذه الحملة أقرب إلى أعمال النخاسة منها إلى حرب دينية صليبية .

ولقد أيقن الصليبيون بأنهم عاجزون عن استرداد بيت المقدس

ما دامت الدولة الأيوبية قوية ويحدثك عن هـذه الحملات التى وجهت إلى مصر من بعدى القاضى بهاء الدين بن شـداد الذى اشتغل بتدوين بعض هذه الحوادث ، وها هو معى ، وحينئذ تقدم القاضى وقال :

القاضى بهاء الدين : — كانت أولى هذه الحملات الموجهة إلى مصر مباشرة بعد وفاة مولاى السلطان صلاح الدين حيث تولى ولده عثمان المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ثم الملك المنصور الذى تولى وهو صبى عمره ٩ سنين ومات فى السجن وحكم سنة وشهرين سـنة ٥٩٦ ثم عم أبيه أبو بكر ابن أيوب شقيق صلاح الدين الملقب بالملك العادل والذى كان ولده الملك الـكامل ينوب عنه فى الحكم وهنا أى فى عهد العـادل وولده سـنة ٦١٤ — ١٢١٨ م كانت هـذه الحملة بقيادة جان دى بريان Jean de Brienne الذى استولى على دمياط ثم زحف نحو القـاهرة وفى هذه الأثناء مات الملك العادل وخلفه ابنه الملك الـكامل الذى حاول عبثاً الاتفاق مع الصليبيين على ترك مصر مُقابَل أخذ بيت المقدس ، ولما لم يقبلوا هذا الاتفاق قطع المصريون جسور النيل فى زمن الفيضان فطغت المياه وأحاطت بالصليبيين الذين اضْطُرُّوا إلى طلب الصلح ثم عادوا أدراجهم سـنة ٦١٧ — ١٢٢١ م ثم قام الإمبراطور فردريك الثانى براً بوعده للبابا أنوسنت الثالث بحرب جديدة ولـكنه تلـكأ حتى عام ١٢٢٨ وكان قد تزوج من ابنة جان دى بريان ونال لقباً فخريًا هو (ملك بيت المقدس) ومن العجب أنه كان محروماً (مطروداً) من الـكنيسة ولم يصحب معه أكثر من ٥٠٠ فارس ومع ذلك أصاب

من النجاح ما لم تفز به الحملات الصليبية السالفة ، فقد أمكنه بدون أن تهدر من الدماء قطرة ولا أن تذرف العيون دمعة، وبغير ركوع ولا سجود أمام قبر المسيح أن يتفق مع المسلمين على أخذ بيت المقدس منهم بشرط احتفاظهم فيه بالأماكن الإسلامية المقدسة وأن يتعهد لهم جزاء ذلك بأن يساعد الملك الكامل ضد أعدائه سواء أكانوا من المسلمين أم من المسيحيين ، ثم دخل فردريك بيت المقدس وتوج نفسه ملكا عليه ، فلم يَرُقْ هذا الاتفاق فى عين البابا ولا فى أعين الصليبيين وظل مع هذا بيت المقدس مع الصليبيين حتى استرده منهم الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٠ هـ — سنة ١٢٤٤ م [1] .

ثم قام الملك لويس التاسع بحرب أخرى دامت من سنة ١٢٤٨ إلى سنة ١٢٥٤ ففى عام ١٢٤٩ استولى الفرنسيون على دمياط وعبروا النيل وأقاموا استحكاماتهم أمام المنصورة عند البحر الصغير وكان الملك الكامل قد مات سنة ٦٣٥ هـ — ١٢٣٩ م . وتولى بعده ولده العادل ولم يلبث أن عزل وسجن ثم قتل سنة ٦٣٩ هـ ١٢٤٣ م وتولى من بعده أخوه الصالح نجم الدين أيوب الذى وقعت فى عهده هذه الحرب وفى هذه الأثناء مات الصالح فأخفت زوجته شجرة الدر نبأ موته وواصلت الدفاع وإصدار الأوامر إلى القوات ممهورة بخاتم الملك الصالح إلى أن حضر ولدها توران شاه فسلمته مُهِمَّ الدفاع فنقل أجزاء السفن على ظهور

---

(١) واستمر بيت المقدس تحت حكم المسلمين سبعة قرون متوالية حتى عام ١٩١٧ حين استولى عليه اللورد اللنبى قائد القوات البريطانية المحتلة لمصر منذ عام ١٨٨٢

الجمال إلى دمياط حيث ركبت وأنزلت إلى البحر وبهذا قطع خط الرجعة على الصليبيين الذين كانوا أمام المنصورة وتقهقروا عنها بعد أن أعياهم الاستيلاء عليها وفشا فيهم المرض وقد لحق بهم المسلمون عند فارسكور وسدوا عليهم الطريق بسبب وقوع الملك نفسه أسيراً مع الأشراف الذين كانوا معه ثم افتدى من الأسر بمبلغ من المال ثم فتك المماليك بتوران شاه لشدته وقسوته فتولت الأمر شجرة الدُّرّ أمه لما كانت تمتاز به من تدبير وحكمة ورجاحة عقل وقوة إرادة وصبر على مسئوليات الحكم ودعى لها على المنابر بعد الدعاء العباسي ونقش اسمها على النقود وأقامت ثلاثة أشهر ثم تنازلت فتولى الملك الأشرف موسى بن الملك الكامل ولما كان سلطان المماليك يزداد وينمو وكانوا قد قتلوا توران شاه ومن قبله العادل، لذلك فقد عينوا بعد عزل شجرة الدر نفسها المعز إيبك التركماني قبل الملك الأشرف بخمسة أيام حتى ثار المصريون بهم وقالوا : لا بد من سلطان من بني أيوب ثم أرسلوا إلى الأشرف وعينوه ولم يعزلوا إيبك بل كانا بمثابة شريكين في الأمر حتى انتهى بموت الأشرف حكم الدولة الأيوبية بمصر .

أما بيت المقدس فبعد أن استولى عليه الملك الصالح أيوب في عام ١٢٤٤ كما أسلفنا القول لم يبق للصليبيين إلا بعض مدن ساحلية غير أن لقب ملك بيت المقدس قد أخذ أبناء أسرة هوهنشتاوفن يتوارثونه إلى أن انقرضت هذه الأسرة فاتخذه ملوك قبرص لقباً لهم لأنهم من سلالة جاي دي لوزنيان وقد ظهرت في هذه الأثناء دولة

المغول واستولى هولاكو Holako على بغداد فى عام ١٢٥٨ م ودمرها وقتل الخليفة العباسى فحاول الصليبيون أن يستميلوا المغول إليهم ضد المسلمين ولكن قُطُز أحد سلاطين المماليك البحرية الذين حكموا مصر بعد الدولة الأيوبية انتصر على المغول فى الشام عام ١٢٦٠ فى واقعة عين جالوت وهى إحدى الوقائع الحاسمة فى تاريخ الشرق ويرجع إليها الفضل فى نجاة الشرق من إغارات المغول .

ولما جاء السلطان بيبرس عام ١٢٦٢ م جدد عهد صلاح الدين وأخذ ينتزع من الصليبيين ممتلكاتهم فاستولى على يافا سنة ١٢٦٨ وعلى إنطاكيا وطرابلس واستولى أخيراً على عكا سنة ١٢٩١ وانتهى بذلك حكم الصليبيين فى الشرق ثم قامت حرب أخيرة وجهت ضد تونس سنة ١٢٧٠ م وانتهت بالفشل بعد موت قائدها لويس التاسع ملك فرنسا .

وإلى هنا كان قد انتهى حديث القاضى .

نظرة عامة

يظهر من كل ما تقدم أن الإسـلام إنما هو دين عبادة وقيادة ، أو عقيدة ونظام ، فدعوته للناس كافة . فهو ليس كدين اليهود مثـلا محصوراً فى بنى إسرائيل وحدهم لا يُعْنَوْن بأن يشاركهم فيـه غيرهم ، ولذا لا يدعون الناس إليه ولا يقاتلون من أجله .

كذلك لم يكن الإسـلام كالمسيحية التى عنيت بتقويم الأخلاق والآداب ولم تعن بالمعاملات ونظام الحكم ، لأنها نشأت فى بلاد تسيطر عليها الدولة الرومانية ذات القوانين والنظم الوضعية ، أما الإسلام فقـد نشأ فى بقاع جرداء ليس للأجنبى سلطان عليها وليس من نظام يسود بينها إلا المواضَعات القَبَلِيَّة . فقضت إرادة الله أن يكون ظهوره للناس جميعاً عقيدة ونظاماً ، أما العقيدة وأركانها فليس هنا مجال البحث فيها ، وأما نظام الإسلام فى الحياة الدنيـا فهو مؤسس على دعائم أهمها حرية الرأى والفـكر والمساواة بين النـاس فى الحقوق والواجبـات ، تلك الدعائم التى لم تعرف الإنسانية وقتئذ إلا النَّزْر القليل منها فى عهد قدماء المصريين وهى المساواة أمام الموت[1] ، وفى القرن السادس قبـل الميلاد أى فى عهد فلاسفة اليونان وأنبياء بنى إسرائيل وبوذا وكنفشيوس

(١) راجع الحديث الأول صفحة ١٥

حيث أطلق الفكر الإنسانى من عقال المعتقدات القديمة .

وكأن القرن السادس بعد الميلاد يتمم ويكمل القرن السادس قبل الميلاد من حيث إطلاق الفكر الإنسانى من قيوده القديمة،وكأن الإنسانية كانت تترقب منذ اثنى عشر قرناً رسالة الإسلام الجديدة لا فى حرية الفكر فحسب بل وفى المساواة بين الناس أيضاً .

أضف إلى هذا أن المسيحية كانت تعانى أزمات منذ القرن الثالث الذى ظهرت فيه عقيدة الغنوستية (Gnosticisme) الوثنية الأصل والتى حاول أن يوفق بينها وبين النصرانيـة ذلك الـكاتب السريانى بردسان الذى تنصر ثم ارتد إلى الوثنيـة . ومعنى الغنوستية الأسرار العاليـة التى ترفع الروح إلى العَلاء وتنقذها من هذا العالم الجسمانى . ولقد أخذت الغنوستية تنتشر بين النصارى الذين انساق مبشروهم إلى استخدام الفلسفة الإغريقيـة فى نزاعهم مع الغنوستية وتولدت من هـذا النزاع مذاهب دينية متنوعة أهمهـا ما كان فى الأسكندرية معتمداً على فلسفة أفلاطون وما كان فى أنطاكيا معتمداً على فلسفة أرسطو . فلما أهلّ القرن الرابع بدأ النزاع فى صميم المسيحية ، وما حل القرن الخـامس حتى انقسم المسيحيون فى الشرق قبل انقسامهم فى الغرب[1] وانفصل الـكثيرون منهم عن المذهب الأصلى الأرثودكسى فوُجد اليعاقبـة والنساطرة وغيرهم . ومجمل هـذا النزاع قائم على إمكان التفرقة

(١) حين تأثر مفكروهم وفى طليعتهم اللاهوتى مارتن لوثر ببعض ما فى الإسلام فانقسموا إلى كاثوليك وبروتستانت .

أو استحالتها بين ألوهيـة المسيح وإنسانيته . وفى عام ٤١٠ عقـد لهذا الغرض مؤتمر فى مدينة سلوقية على شاطىء الدجلة . وفى سنة ٤٨٣ قبل نصارى إيران معتقدات النساطرة . وفى سنة ٤٨٩ هرب نصارى أدِسّه إلى إيران بعد أن أغلق الإمبراطور زينو (Zeno) المدرسة الإيرانية بأدِسّة بسبب المعتقدات النسطورية وصارت إيران منذ القرن الخامس (فى عهـد الساسانيين) ملجأ لـكل المهاجرين والمبعـدين من بيزنطة سواء أكانوا من اليهود أم المجوس أو روافض النصارى وأصبح هؤلاء جميعاً حلفاء طبيعيين للمسلمين ضد بيزنطة .

وعلى الرغم مما بين محمـد صلى الله عليه وسلم وأعدائه الوثنيين من الحروب فى بدر والخندق وأحد وحنين فإنه طاف بالبيت الذى يقدسونه واحترمه وأمر بالحج إليه مما كان له أعظم الأثر على نفوسهم فدخلوا فى دينه أفواجا .

ثم ما كاد الإسـلام يستقر فى المدينة حتى وجه النبى (ص) دعوته السلمية إلى ملوك الدول الأجنبية كما عرفنا . وبعـد وفاة النبى (ص) جاءت الفتوحات الإسلامية التى سردناها والتى لم يرو لنا التاريخ مثلها . ففى عام ٦٣٤ شتت المسلمون جنود الإمبراطور هرقل فى واقعة اليرموك أحد روافد نهر الشريعة واستولوا على الشام ودمشـق وأنطاكيا وأورشليم .

وفى عام ٦٣٧ اتجه جند المسلمين نحو الشرق فعبروا الصحراء مجدين فى سـيرهم ولم يتركوا وراءهم غائباً أو مريضاً أو متخلفاً وانتصروا

على جحافل فارس واستولوا عليها كما استولوا على التركستان ووصلوا إلى شرق الصين واستولوا على مصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

وفى عام ٧١١ عبروا بوغاز جبل طارق (الزقاق) إلى القارة الأوربية واستولوا على اسبانيا . ولم تمض عشر سنين حتى وصلوا إلى قلب فرنسا وفى هـذا الوقت قامت بعض ثورات فى اسبانيا واضطرابات فى شمال فريقيا فوقف سيل المجاهدين المسلمين وارتدوا إلى جبال البيرينية فى عام ٧٣٢ بعد واقعة تور — بواتييه (Poitiers) التى اشتهر فيها شارل مارتل (Charles Martel) [1] (قارلة) .

هذا ولئن وقف تيار الزحف الحربى للاسلام بعد هذه الموقعة غير أن سيل الأفكار الحرة ومبدأ المساواة بين الناس قد تغلغل بين الشعوب والأمم التى عرفت أن المسلمين لم يفرضوا عليهم دينهم بل كانوا يتركون سكان البلاد المغلوبة أحراراً فى عقائدهم فلا يفرضون عليهم غير الجزية وهى أهون ما يطالب به المغلوبون فى مقابل الدفاع عنهم فى الخارج واستقرار السلام فى الداخل واطمئنان الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم وحرياتهم الدينية والفكرية إذ كان سلبها حلالا مباحاً لكل غاصب من ذوى النفوذ والسلطان .

فالمسلمون لم يعتمدوا على قوة السلاح كالجرمان والمغول والفرس

---

(١) هو أحد رؤساء البلاط فى عهد ملوك الميروفنجيان (Merovingienne) . وموقعة تور — بواتيه هى التى مهدت السبيل إلى تأسيس عائلة جديدة حكمت فرنسا باسم عائلة كارولنجيان

بعد فتح الأقطار ولكنهم نشروا مبادىء الحريات لجميع الشعوب ولم يغيروا شيئاً من تقاليدها إلا ما كان متعارضاً مع مبادىء الحرية والمساواة فألغوا نظام الطبقات فى التركستان وفى فارس وألغوا كذلك نظام القنّ أو رقيق الأرض الذى كان منتشراً فى أوربا وهو ارتباط الزارعين بالأرض وبيعهم معها كأنهم من ملحقاتها .

فالمبادىء المتقدمة التى نشرها المسلمون كانت داعية لدخول الناس فى دينهم أفواجاً ولشيوع لغتهم العربية التى صَقَلوها منذ قرون طويلة وجعلوا منها لغة أدبية علمية ، ثم تعاونوا مع الشعوب التى خضعت لهم فى إحياء علوم الفرس واليونان التى كانت قد اندثرت معالمها وأضافوا إليها معارفهم الجديدة وتركوا هذا التراث العظيم لمن جاء بعدهم من الشعوب فكان أساساً بنيت عليه العلوم والمدنيّة الراهنة .

هذا ولقد كانت المدينة المنورة عاصمة الإسلام فى عهد النبى والخلفاء الراشدين كما رأينا ثم انتقل مركز الخلافة إلى الكوفة ثم إلى دمشق فى عهد الأمويين عام ٦٦١ ثم إلى بغداد فى عهد العباسيين عام ٧٥٠

ثم رأينا كيف انقسمت الدولة الإسلامية إلى خلافتين ثم إلى ثلاث خلافات وكانت عواصمها دائماً مركزاً لمعاهد العلم والفن كما كانت قصور الخلفاء نوادى أدبية راقية .

ولقد تفوق المسلمون على أسلافهم من الفرس والإغريق فى العلوم والفنون وأضافوا إلى تلك المعارف نتائج بحوثهم القيمة ومجهوداتهم الجبارة، وقسموا الفلسفة إلى قسمين : النظرية منها والعملية ثم قسموا الأولى

إلى ثلاثة أقسام وهي الإلهيات والطبيعيات والرياضيات ثم قسموا العلوم الرياضية إلى الحساب والهندسة والهيئة والموسيقى . وتلك المعارف هي التي سميت بالحكمة الرباعية (Quadrivium) التي كانت تدرس في أوربا طوال القرون الوسطى .

وقسموا الفلسفة العملية إلى أقسام : منها الأخلاق والاقتصاد والسياسة . وهذا فيما عدا أبواباً أخرى كالكتابة والشعر والتاريخ والنحو والعقائد والفقه الإسلامي . أما المنطق[1] فجعله بعضهم ضمن العلوم العملية وجعله آخرون وسيلة للفلسفة .

ودرسوا فن العمارة الفارسي والبيزانطي واستخلصوا منهما فناً عربياً بديعاً بالأعمدة المرتفعة الرشيقة والقباب العالية والرسوم الهندسية والحروف المنقوشة وشيدوا قصوراً ومساجد منها قصر الحمراء بغرناطة ومسجد قرطبة ومسجد طليطلة وغيرهما .

وتقدمت في عهدهم الزراعة والصناعة والتجارة فأخذوا من مصر علم الري وفلاحة الأرض ونقلوا إلى إسبانيا أنواعاً كثيرة من الأشجار كالتوت والمشمش وقصب السكر والهليون والزعفران والقُنَّب ، ومن الزهور الياسمين والكاميليا ، وجعلوا من وديان إسبانيا بساتين زاهرة ، وجنات ناضرة ، ورياضاً غناء .

الحضارة الصناعية

أما في الصناعة فقد نقلوا عن الفرس صناعة القيشاني ، وصناعة الصلب ، ومنها السيوف الدمشقية والطُّلَيْطِلِيَّة المشهورة ، وصناعة

(١) وقد ذهب كثير من علمائهم إلى نقد قواعد المنطق اليوناني وحاول بعضهم كابن تيمية وابن الصلاح والنواوي هدمها وبناء قواعد كلية من جزئيات اسلامية .

الأوانى النحاسية المنقوشة والمخرمة ، والمصنوعات الخشبية المنحوتة والمرصّعة بالفضة والسّن ، وكذلك صناعة السجاد والأقمشة ، ونقلوا عن الصين صنع الورق والبارود والأوانى الصينية واستعمال البوصلة .

تأثر الحضارة الصناعية فى أوربا بها

وقد وجدت فى اللغات الأجنبية كلمات كثيرة أصولها عربية ، فمثلا فى صناعة النسيج كلمة موسلين (Mousseline) أى أقمشة الموصل و (ماروكان) (Marocaine) أى صنع مراكش . وفى الاصطلاحات البحرية (Arsenal) الفرنسية المأخوذة من (Darsenal) الإيطالية و (Darzana) الإسبانية (وترسانة) التركية وهى جميعاً تحريف للكلمة العربية (دار الصناعة) كما أن كلمة (Amiral) هى من الكلمة العربية (أمير البحر) وفى الاصطلاحات العلمية أخذت كلمة (Algébre) من اسم مبتكر طريقته الرياضية جابر بن حيان ، وكلمة (Chimie) من كلمة كيمياء ، وأخذت كلمة (لوغارتم) من اسم واضع قواعده (الخوارزمى) الذى ظل حجة فى أوربا فى الرياضيات إلى عصر النهضة ، وغير ذلك مما لا يحصى من الأسماء التى شملت الطب والهندسة والفلك والحساب والموازين والمكاييل والأعلام .

الحضارة التجارية

أما التجارة فى عهد المسلمين فقد اتسع نِطَاقها بحراً وبرا ، وكانت مصر مركزاً لإنشاء أسطول إسلامى استولى على صِقِلّيَة ، وأخضع جنوب إيطاليا ، وأخذت السفن التجارية تجوب البحار على سواحل شمال أفريقية وجنوب آسيا لغاية الهند الصينية وجزائر السند . . . أما قوافل التجارة البرية فكانت تمر بين سوريا والعراق إلى الصين ،

وفى أفريقيا وصلت تجارة المسلمين إلى القبائل السودانيــة .

ترجمة الفلسفة

والمسلمون هم الذين ترجموا الكتب الإغريقية ، وإن الخليفة المنصور الذى حكم من ٧٥٤ — ٧٧٥ م قد أرسل حُنَيْن بن إسحاق إلى بيزنطة حيث أقام سنتين تعلم خلالهما اللغة اليونانية وصار من كبار المترجمين من اليونانية والسريانية إلى العربية .

وكان للمسلمين طريق آخر غير بيزنطة والأسكندرية لإحياء العلوم الدارسة والفلسفات القديمة وهى مدرسة (جنديسابور) (شاه بور) كما كانت مدينتا الكوفة والبصرة اللتان أُنْشِئتا على شاطئَي الدجلة والفرات فى عهد الخليفة عمر رضى الله عنــه مصدراً للعلوم والمعارف فى صدر الإسلام .

ولما أنشأ الخليفة المنصور مدينة بغداد عام ١٤٥ هـ أصبح حوض الدجلة والفرات من أنشط مراكز الحركة العلميــة فى القرنين الثالث والرابع بعــد الهجرة ، وقد أنجبت البصرة من العلماء الحسن البصرى والجاحظ والكندى من أول المفكرين الأحرار ، وتكونت فى القرن الرابع رابطة من أَحْقِيَاء[1] الباحثين باسم (إخوان الصفا وخلان الوفا) ، ونقلت رسائلهم البالغــة نحو الخمسين إلى إسبانيا فى أواخر القرن العاشر الميلادى .

إخوان الصفا

هذا . وقد ازدهرت المدنية الإسلامية فى عهد الأُمَويين بالأندلس

---

(١) أحقياء جمع أحق وهو الذى أوغل فى البحث والتنقيب واختاره العلامة أنستاس مارى الكرملى لاعضاء المجمع الملكى للغة العربية .

والفاطميين بمصر ، وكان الأخيرون يعملون على تقوية مذهب الشيعة الذي اشتقت منه الاثنا عشرية والزيدية والاسماعيلية وغيرها ولذا انتشر نفوذهم المنافس لخلفاء بغداد ، وإن كان قد وجد فى شيعة بغداد من ينكر عليهم نسبتهم إلى فاطمة الزهراء كما بينا على لسان جوهر . غير أن مصر كانت متفوقة على غيرها من الممالك الإسلامية بكثرة كنوزها من المؤلفات التاريخية، والجغرافية ، والوثائق القديمة عن العصور الإسلامية.

ابن رشد

أما فى أسبانيا فقد بذل ابن رشد مجهوداً لا يقل عن زملائه فى بغداد والفرق بينه وبينهم أنه حاول تجديد تعاليم أرسطو وإيضاحها وتطهيرها من الإفلاطونية الحديثة وقد وجد له مريدون وأنصار من الكاثوليك أكثر من المسلمين أنفسهم حتى لقد كان من تلاميذه البابا ليون الثالث قبل أن يتولى عرش البابوية .

ابن سينا

كذلك ظهر من علماء المسلمين فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ابن سينا وهو وإن كان قد ولد فى إحدى قرى بخارى عام ٩٨٠م إلا أنه تلقى العلوم الطبيعية والرياضة من دعاة الشيعة ، ومن مؤلفاته فى الطب ما كان يدرس فى جامعة مونبليه بفرنسا حتى عهد لويس الرابع عشر (أى منذ قرنين ونصف) .

ومن المعروف عن علماء المسلمين الكيميائيين أنهم قد اكتشفوا أملاحاً وأحماضاً كثيرة قد عرفوا خواصها فى أثناء بحثهم عن (الحجر الفلسفى) الذى يحول المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة ، وعن إكسير الحياة الذى يطيل العمر ، فكانت هذه الاكتشافات فاتحة التقدم العظيم

فى علم الكيمياء وكان تقدمهم رائعاً أيضاً فى علم الفلك وقياس أبعاد الكرة الأرضية .

هذا : ولقد ذهب بعضهم إلى أن حضارة الإسلام ما هى بحضارة للعرب ، ثم ذهبوا إلى أن معظم حملة العلوم فى هذه الحضارة كانوا من الأعاجم ، وليسوا من العرب .

خطأ ابن خلدون فى نظرته إلى العرب

وكان ابن خلدون المؤرخ العربى أول القائلين بهذا الرأى الذى منذ شيوعه نسج الكثير على منواله . ولا نريد أن نثبت هنا مقدار المبالغة فى هذا الرأى ، حيث إن ابن خلدون — كما عرفنا باستقراء طريقته فى البحث — كان يعد العربى النازح إلى بلاد العجم أعجمياً ، والأعجمى النازح إلى بلاد العرب أعجمياً كذلك ، فكان يتذرع بالبيئة أحياناً وبالعنصرية أحياناً أخرى للتدليل على صحة رأيه فى العرب ، ولم يجعل أحدهما مناطاً ثابتاً لاستقرائه ولا نرى ثمة مجالا لبيان ضروب مما استشهد به فى هذا الصدد .

صلة الشعوب وأثرها فى الحضارة

ونحن نرى أن العرب ما كانوا إلا شعباً كسائر الشعوب التي اعتنقت الإسلام فآخى بينها وأدت جميعاً رسالتها للانسانيـة ، ولا يغير هذه الحقيقةَ كونُ العرب أول الشعوب التى اعتنقت رسـالة محمد (ص) ولا ريب فى أن كل تقدم فى ركب الإنسانية لا يأتى من مَيزَات جنسية أو معتقدات شعبية دون مراعاة العلاقة بين شعب وآخر ، كما لامراء فى أن الصفات المنسوبة إلى الجنس الهندى الأوربى ومنـه الأعجام والإغريق — ولو سلمنا أنها متفوقة على غيرها — فإن هـذا الجنس

لو عاش في عزلة لما أفاد الإنسانية شيئاً ، ولبقى متوحشاً كما نشأ قبل أن يتصل بالمدنيات القديمة وها هي ذى قبائل (كافر) التى بقيت على جبال هندوكش تعيش فى همجية بسبب عزلتها حتى القرن التاسع عشر .

على أن الذى قد مكّن للمسلمين أن يقوموا بحضارتهم المتفوقة على غيرها إنما هو علاقتهم بغيرهم من الشعوب الأخرى (سُنَّةَ اللهِ فى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً) ولأن تجارة العالم كانت رَدَحاً من الدهر طويلاً فى أيديهم .

فالإسلام كان رابطة الشعوب فى عهد حضارته ، وعروة التآخى بين الأجناس التى دانت به وأخذت عنه حكمة الرسول فى قوله : (لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) .

زحف الحضارة الاسلامية من الشرق

كذلك إذا رجعنا إلى حديث القاضى بهاء الدين بن شداد ، وأجَلْنَا فيه الفكر ظهر لنا أن الصليبيين لم يصلوا إلى الأهداف التى رمى إليها البابوات فى روما؛ فقد بقي بيت المقدس فى أيدى المسلمين . وكذلك المدن الأخرى، وسقطت كل من المملكتين اللاتينيتين المؤسستين فى القدس والقسطنطينية، وعادت الحال إلى ما كانت عليه قبل عام ٤٩٢ هـ ١٠٩٥ م أي قبل أن تبدأ الحروب الصليبية التى كانت أشبه شيء بالهجوم الدفاعى؛ لأنها أخرت استيلاء الترك — إلى حدٍّ مّا — على الدولة البيزنطية ، وحالت طوال المدة التى استغرقتها دون مهاجمة السلاجقة لهذه التجارة بين الشرق والغرب ، فأدخلت فى أوربا كثيراً من نفائس المصنوعات والمحاصيل الشرقية ، وأهم من هذا كله أن الحروب الصليبية كانت سبباً

مباشراً فى اختلاط الغربيين بالشرقيين والأخذ بمدنية الشرق التى كانت أرقى من مدنيتهم ، وقد أخذوا عنها كثيراً من العلوم والمعارف مما أدّى إلى نشاط الفكر الأوربى بعد أن نفض عنه غبار العهد الوسيط إلى أن تركز واستقر نهائياً فى عهد النهضة الأوربية .

ولا ريب فى أن الصليبيين، الذين جاءوا إلى الشرق وقلوبهم تطفح حقداً على أهله ، ما لبثوا أن عادوا إلى بلادهم وهم مؤمنون بما يتحلى به الشرقيون الذين قاتلوهم من المروءة والنخوة وكرم النفوس . وقد أدّى بهم إيمانهم هذا إلى التخفيف من حدة عصبيتهم الدينية التى ما كان منشؤها إلا الجهل بأحوال المسلمين وما يتحلّوْن به من فضائل . وقد بدأ على إثر انتهاء هذه الحروب اهتمام الغربيين بأمر الرحلات والاكتشافات بعد الذى أذاعه عليهم الصليبيون من أنباء تلك الديار مما أفضى إلى ظهور الرحالة ماركو بولو Marco Polo فى القرن الثالث عشر الميلادى . ولا يعزب عن البال أن أوربا قد قطعت النصف الأول من القرون الوسطى فى الغزو والفتح حتى زالت الدولة الرومانية ، وجاءت القبائل المتبربرة المتوحشة التى كانت تعيش خلال الغابات والأحراش والجبال الشاهقة ، والمستنقعات ، تلك القبائل التى لم تهذب الكنيسة المسيحية من خشونتهم فى معيشتهم كثيراً ، ولم تقلل من حدة طباعهم وعاداتهم شيئاً مذكوراً ، فأخذت هذه القبائل فى هدم المدنيات القديمة واستمر الأقوياء من الأمراء والزعماء مسيطرين على الضعفاء من عامة الشعب ورقيق الأرض ، ولو استمر الأمر على هذه الحال ولم تتصل

شعوب الغرب بمدنية الشرق، لتتناول منهم شعلة المدنية والعرفان، لظل أهل الغرب على الحال التى تصورها الكتب القديمة من التأخر والجهالة . يعانون الظلم ، ويتجرعون مرارة البؤس والشقاء ، وقد أمسوا ضحية للأمراض والأوبئة .

تلك الكتب التي تحدثنا عن أحد ملوك فرنسا الذى أغمى عليه وهو يُطِلُّ من شرفة قصره ؛ لأنه تأذى بالروائح الكريهة المنبعثة من شوارع باريس ، كما أن أهل تلك العصور كانوا يتوارثون أَرْدِية أجدادهم ولم يكونوا ليعلموا شيئاً عن استعمال الثياب الداخلية ، ولا يدرون كيف يستعملون (القميص) عند النوم، فتعلموا ذلك من المسلمين ، (ولْنَلْفت النظر إلى أن لفظ Chemise إنما هو لفظ قميص محرفاً) ، وذلك دليل على أن استعمال القميص — واللفظ يُصْحَب عادة باستعمال مدلوله — لم يدخل على الأوربيين إلا فى القرن الثالث عشر .

وتُحدثنا تلك الكتب القديمة أن أحد ملوك بروسيا كان ينقل إلى قصره حوض الاغتسال كل أسبوع ليستحمّ ، فكأنه لم يكن يزيد على إنسان عاديّ يعيش فى الشرق الإسلامى يومذاك .

وتتبين لنا جليةً — مما تقدم — الحال في أوربا فى تلك العهود التى دُعيَت بحق (العصور المظلمة) . ثم إنه حين كان هذا سائداً فى الغرب كانت حضارة الإسلام فى الشرق تقضى على المسلمين بأن يغتسلوا ليتطهروا ، وأن يغسلوا أطرافهم بالماء خمس مرات فى اليوم للصلاة ، ثم لا تغرنا مظاهر ما فى الغرب خلال تلك العهود التى تبدو فى شكل كنائس

أو كتدرائيات عليها مظهر العظمة والرُّقي وفى داخلها قِسِّيسون ورهبان ، أو القصور الشامخة التى يسكنها الأمراء والنبلاء ؛ لأن هذه المبانى أيضاً كانت تتكنفها القاذورات المتراكمة من الأكواخ المحيطة بها ، والأماكن الحقيرة التى يقيم فيها عامة الشعب .

ولقد حمل التاريخ بين طياته من الأحداث ما يكفى لتصوير الحالة التى كانت سائدة قبل الحروب الصليبية، وهى واضحة الدلالة على أن العالم الأوربى كان فى ذلك العهد مكوناً من طبقتين : هما طبقة الأمراء والأشراف ورجال الدين، ثم طبقة العامة . وكانت الأولى تتسلط على السواد الأعظم من عامة الشعب ، وتتملك الأراضى والضياع . أما الطبقة الثانية فكانت على النقيض ؛ تئن من شظف العيش ، وما تلاقيه فى كفاحها للحياة من عسف وإرهاق ، وما تقاسيه من عناء وبأساء . ومما يَلْفِت النظر حقاً ويذكِّر المرء بتلك الرسوم الغابرة فى طوايا ما اندرس من التاريخ ما يُشَاهَدُ من الفوارق فى المظاهر بين الطبقات ، تلك الفوارق التى يلاحظها من قام برحلة إلى أحد بلدان الشرق اليوم بعد تدهوره ، إذ يدهشه ما ثَمَّ من تناقض عجيب ، فبينما يرى (غرفات) بالقطار الذى يسافر من حلفا إلى الخرطوم مثلاً ، غنية بطارف الرياش ، تتوفر فيها كل أسباب الراحة، إذا بالأهلين حفاة عراة، فى حالة من البؤس والشقاء يرثى لها . فهذا التناقض هو اليوم من المظاهر المألوفة فى البلاد الشرقية التى منيت بالاستعمار ، فالمبانى المخصصة لدور الحكومة ، والفنادق الرائعة ، والجنات النضرة ، كل أولئك يوهم العابر النظر بأن

البلاد فى رخاء ، وأن أهليها فى رغـد من العيش ، على حين أن الواقع ليس كذلك .

فلا يَغُرَّنَّك ما ترى من آثار تلك العصور الصليبية فى أوربا ، فذلك لا يدل إلا على نقيضه ، ولا يَسَعُنا أن نُغفل الإشارة هنا إلى أنه لما وقعت الحروب الصليبية كان من نتائجها قيام أفواج من عامة الشعب الطامحين بالاتجار مع الشرقيين، وقد نقلوا إلى الغرب مصنوعات الشرق من أقمشة وآنيـة وغيرها ، وقد أثْرَوْا من هذه السلع ، واتجه تفكيرهم إلى أن يقوموا بصنع هـذه المنتجات بأيديهم فى حوانيتهم وأكواخهم ، بدلا من استيرادها من الشرق ، ولم تكن يومئذ الآلات البخارية أو الكهربائية قد اخترعت ، ثم نجحوا فَنَمَتْ ثروتهم برواج تجارتهم ، وفى هذه الأثناء أخذ الأمراء يقومون برحلات إلى الشرق ، وكانوا فى حاجة إلى ما ينفقون فى هذه الرحلات ، فبدأوا يقترضون من أتباعهم ، أو يحصلون عليـه من اليهود أو اللومبارد بموجب وثائق يوقعونها اقراراً منهم بمبلغ الدين الذى عليهم ، وما كان هؤلاء الأتباع يتقاضون ربحاً على ما يبـذلون من قرضهم ، وإنما كانوا يحصلون على امتيازات مكتوبة يوقع عليها المدينون من الأمراء حتى أضحى أولئك وقد اشتروا حرياتهم ، وصاروا هم الذين يديرون شئون الضواحى والمدن الصناعية والتجارية ، التى أنشئت وشكلت فيها مجالس تشبه المجالس البلدية فى وقتنا الحاضر .

ومن هـذا نرى أن الحروب الصليبية وإن كانت قد أخفقت

فى تحقيق أغراضها الأولى إلا أنها كان لها أكبر الفضل فى ظهور تلك المدن الصناعية الكبيرة والضواحى المنتجة لشتى السلع فى أوربا، كما كان لها يد طولى فى ظهور الطبقة الوسطى التى كان لها شأن عظيم فى تقوية مركز الملوك والقضاء على نظام الاقطاع، وإزالة الفوارق بين الطبقات، ونقل سلطة الأمراء والأشراف إلى الأهالى. وترتب على هذا أن انتقلت الحياة السياسية والاقتصادية فى أوربا إلى مرحلة جديدة.

ولا ريب فى أن الإنسانية قد أفادت كثيراً من اختلاط الشعوب بعد الحروب الصليبية، فتقدم العالم فى الستة القرون الأخيرة خطوات واسعة جبارة، ولئن كانت حضارة مصر وبابل وآشور قد نشأت فى مدنها الكبيرة، وحضارة اليونان فى أثينا وإسبارطة، وحضارة فينقيا فى مدينتى صور وصيدا، وحضارة الإسلام فى هذا الشرق كله حيثما يممت كدمَشْق وبغداد، والكوفة، والقاهرة. وفى الغرب كغرناطة وقرطبة وطُلَيْطِلَة، فإن المدنية الحديثة قد بدأت بظهور المدن الصناعية والضواحى فى أوربا، والتى أخذت تلعب دورها بفضل مدنية الشرق، وما أسدت إلى الإنسانية من ثمرات، وما أزجت إلى الضمير الإنسانى من سجايا وفضائل وقيم أخلاقية، وما نشرت من علوم وفنون. وما نقلت من عادات وثقافات، وما هذبت من فِطَر ناشزة، وطباع فاسدة، تلك هى حضارة المسلمين وآثارها.

هذا ولقد وصلت إلى الصين فى أوائل القرن السابع الميلادى ثلاث بعثات من جهات مختلفة؛ وكانت الأولى من البيزنطيين، والثانية من

المسلمين ، والثالثة من الفرس . وكان الجالس على عرش الصين وقتئذ (Tsai Taung) تساى تونج. وهو الذى أذن ببناء كنيسة ودير ، كما صرح ببناء جامع فى مقاطعة كانتون (Canton) . وان هذا التسامح الدينى فى ذلك العهد ، وهذا الاتجاه إلى الشرق الأقصى ، له معناه وله مغزاه .

زحف الحضارة الاسلامية إلى الشرق الأقصى

فلا يخفى ان امبراطورية الصين كانت معاصرة للدولة الرومانية من قرون ، وإذا كانت الدولة الرومانية قد مدت حدودها فى آسيا إلى نهر الفرات فإن امبراطورية الصين فى عهد عائلة هان (Han) التى حلت محل عائلة تسن (Tsin) مدت سلطانها إلى التيبت (Tibet) ووصلت إلى غرب التركستان، فكانت الصين وقتئذ هى الدولة العالمية الأوسع أرجاء والأكثر سكاناً . وفى عام ٦٦ قبل الميلاد وصلت بعض الجنود الرومانية فى عهد بمباى (Pompée) إلى شواطىء بحر قزوين . وفى عام ١٠٣ بعد الميلاد أرسلت الصين بعثة إلى شواطىء هذا البحر لتتزود بمعلومات عن الدولة الرومانية .

ولقد وقفت علاقة هاتين الدولتين عند هذا الحد زمناً طويلا بسبب قلة مواصلاتهما وانهما كهما فى صد غارات القبائل الشمالية ؛ لأن الصحارى الواسعة الأرجاء والغابات الموحشة الممتدة شمالى هاتين الدولتين تقطنها قبائل عديدة تعيش فى حالة همجية ، وتغير بين آونة وأخرى على حدودهما كلما دعتهم الحاجة إلى طلب العيش بسبب قلة مراعيهم أو كثرة عددهم . وكانت القبائل الجرمانية تقطن الجزء الغربى من بدء غابات جرمانيا إلى حدود روسيا والتركستان . وكانت قبائل الهون والمغول

والتتار والأتراك تقطن المناطق الشرقيـة من هذه الأقطار المترامية الأطراف .

ولقد عرفنا حظ الدولة الرومانية من هذه الإغارات المتواليـة . أما امبراطورية الصين فقد وقفت فى صد هـذه الغارات ، بل تخطى الصينيون سـورهم المشهور وأخذوا فى فلاحة الأراضى الواقعة وراءه، فأعتدت عليهم قبائل (الهون البيض) وأرسلت الدولة الصينية الحملات التأديبية فسكن بعضهم وارتضى حكم الصين، ونزح آخرون إلى أوربا كما عرفنا ، واستقر البعض فى التركستان واستوطن آخرون شواطىء الفرات وهم قبـائل البارث (Parthes) الذين حاربوا بمبـاى وقهروا جراسوس (Grassus) فى عهـد الرومان وأنشأوا الدولة الارشيكية (Arsacides) . وقد نزح بعض هذه القبائل أيضاً إلى الهند من طريق البنجاب ومن فجاج خيبر. واستمرت هذه الاغارات تتوالى على الهند حتى القرن الخامس بعد الميلاد. ويظهر ان هذه الإغارات من قبائل مختلفة كانت هى السبب فى وجود نظام الطبقات المعروف فى الهند إلى يومنا هذا .

أما الامبراطورية الصينية فبعد أن صدت إغارات الهون وأمنت جانبهم وقعت فيها اضطرابات بسبب الانقسامات الداخلية وتفشى وباء الطاعون الذى انتشر فى القرن الثانى للميلاد ووصل إلى الدولة الرومانية . ثم ساد النظام فى الدولة الصينية واتحدت عناصرها فى عهد عائلة (سوى) (Souei) . ومن هذا التاريخ إلى القرن التاسع الميلادى أخذت الصين فى أسباب التقدم والرقى منذ حكم عائلة تنج (Tang)

وبينما كانت أوربا غارقة فى حروبها ونزاعها الدينى، وبيزنطة ماضية في مناقشاتها الجدلية التى أصبحت علماً عليها، وفارس قد فقدت مكانتها ومستعمراتها والإسلام لا يزال فى فجر نهضته وبدء حضارته، كانت الصين مركز الحضارة ومنارة الإنسانية. ومن أجل هذا ولَّى الشرقان الأدنى والأوسط وجهيهما شطر الشرق الأقصى، وأرسلا إليه البعثات من فارس وبيزنطة والحجاز فى أوائل القرن السابع بعد الميلاد.

زحف الحضارة الاسلامية من الغرب

ومن الفصول الرائعة التى يجب أن نفرد لها نُهْزَةً خالصة حضارة الإسلام فى الغرب؛ فلقد كان للفتح العربى فى اسبانيا أثر عظيم فى تقدم الحالة الاجتماعية فيها؛ لأنه أزال الفوارق التى كانت تفصل بين الطبقات، وقضى على امتيازات الاشراف ورجال الدين، وحرّر رقيق الأرض حين اعتنقوا الإسلام، وأعطى الباقين منهم على المسيحية حق شكوى سادتهم، وأوجد فى البلاد حكومة مستنيرة تجبى الضرائب من الجميع على السواء وتعمل لمصالح المجموع.

وقد ترك العرب — على ما كانت عليه سياستهم العامة — للمسيحيين كنائسهم وأديرتهم وحريتهم التامة، واكتفوا منهم بدفع الجزية يقدرونها حسب ثروة الأفراد، ورفعوا الاضطهاد عن اليهود فأصبحوا أحراراً فى عقائدهم وتدبير شؤونهم الخاصة، وبذا عاد الاطمئنان إلى نفوس المسيحيين فى اسبانيا وفضلوا الحكم العربى على الحكم القوطى.

وكان أول اهتمام العرب الذين نزلوا باسبانيا موجها إلى إصلاح

الأراضى والعناية بها فانتعشت البلاد وأصبحت الأندلس أحسن بلاد العالم وأرقاها .

ولما استدعى الخليفة الوليد بن عبد الملك عامليه موسى بن نصير وطارق بن زياد إليه أصبح حكم البلاد بيد عبد العزيز بن موسى بن نصير فأظهر كفاية عظيمة وعيّن مجلساً خاصاً لوضع القوانين والتوفيق بين مصالح قبائل العرب وبين أهل البلاد . وشجعهم على الاختلاط والتصاهر مع المسيحيين ، وبدأ هو بتزوج أرملة لذريق .

ولما قتل عبد العزيز أخذ أمراء أفريقيا الذين كان مركزهم القيروان يعينون حكاما للأندلس من قبلهم، واستمر الحال كذلك حتى أرسل عمر بن عبد العزيز حاكما من قبله وهو (السمح بن مالك) الذى قاد العرب شمالا ففتح (أربونة) على الساحل الشرقى بعد أن عبر جبال (البرانس) ودخل مقاطعة (اكيتين) ووصل إلى (طولوشه) تولوز وهناك اشتبك مع الفرنجة فى واقعة (بلاط الشهداء) فى سنة ٧٢١ م . وقد قتل فيها وتقهقر على أثرها العرب جنوبا وحصنوا (اربونة) فأصبحت مركزاً حربياً بحرياً وقاعدة لفتوحاتهم فى البحر الأبيض المتوسط .

ومن أهم الحكام الذين عينهم الخلفاء الأمويون على اسبانيا وأعظمهم كفاية ؛ عبد الرحمن الغافقى ؛ إذ كان محبوباً من الجند حازماً عادلا وطد النظام والطمأنينة فى البلاد ، واستطاع أن يوفق بحكمة بين المضريين والقحطانيين وأهل البلاد ، وسار بجيشه شمالا فاحتل (بوردو) وهزم

دوق آكيتن ودخل (برغندية) واحتل (ليون) ثم احتل نهر اللوار ، ولكنه اضطر إلى التراجع فى واقعة (تور — بواتييه) وكان يقود الفرنجة شارل مارتل (قارلة) وقد فطن الفرنجة للخطر الداهم من ناحية العرب فى اسبانيا فأخذوا يفكرون فى الطريقة التى يأمنون بها جانبهم، وقد هداهم تفكيرهم إلى توثيق علاقتهم مع اللمبارديين والامارات المسيحية فى شرق اسبانيا وترك العرب يتطاحنون إلى أن تخور قواهم وتضمحل .

ولما انتقل الملك من الأمويين إلى العباسيين فى الشرق أخذ الخلفاء يقتلون الأمويين ويشردونهم فافلت منهم عبد الرحمن الملقب (بالداخل) وهو ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وهرب إلى مصر ومنها إلى برقة ثم إلى بلاد المغرب ، وخاطب جماعة من أنصار الأمويين فى إسبانيا فبثوا له الدعوة، ثم عبر البحر إلى اسبانيا فى خلافة أبى جعفر المنصور العباسى وانتصر على يوسف الفهرى الوالى العباسى فى واقعة (موزاره) واستقل بالحكم فبايعه القوم فى سنة ٧٥٦ م . أى بعد موقعة (الزاب) التى هزم فيها الأمويون بست سنوات ، وأسس حكومة تابعة للخلافة العباسية أولاً، حتى إذا تمكن من الاستئثار بالسلطة جعلها مستقلة عن مركز الخلافة وراثيـة فى نسله فقطع الخطبة عن العباسيين ولكنه ترك لهم لقب الخليفة، وتبعه فى ذلك من جاء بعده إلى أن ضعف سلطان الخلافة العباسية ، واستمر حكمه إلى سـنة ٧٨٧ م . ولما ثبتت قدمه فى الأندلس أخذ فى بناء المسجد والقصر فى قرطبة .

ولما آنس فى العرب والبربر ميلًا إلى الأخذ بنظام الأقطاع السائد

فى أوربا فيستقل كل منهم فى مقاطعة ويتحدون وقت الخطر اخذ فى مناهضة هـذه الحركة التى كانت فى مصلحة الأعداء الذين بدأوا يزحفون جنوبا .

وكان صادق النظر السياسى لطيف الطبع شديد الميل إلى ما تنتجه الفنون والصنائع من الآثار الجليلة وما تبتدعه العقول السليمة ممـا يرفع مستوى الحياة ويرقيها وقد لقبه رعاياه (بالعادل) ومات فى سنة ٧٨٧ م .

وفى سنة ٧٩٥ م . تولى الحكم حفيده ابن الحكم وكان قاسياً غليظ الطبع معتزلا عن الناس وكانت البـلاد تموج بالفتن وبخاصة طليطلة ، وقرطبة فقضى عليها بكل حزم كما قضى على الفتن التى قام بها عماه سليمان وعبد الله . ويشبِّهه بعض المؤرخين بأبى جعفر المنصور لأن كليهما قـد ثبّتَ دعائم دولته بقوة الشكيمة .

وفى عهده تمكن شرلمـان من أخذ برشلونه والجزء الشمالى من اسبانيا ثم جاء عبد الرحمن الأوسـط أو الثانى وقد هاجم النرمانديون سواحل اسبانيا ودمروا الثغور والمدن فقاومهم حتى ردّهم خاسئين . وفى عهده ظهرت تهاويل براعـة دولة الأندلس فى العلوم والفنون والآداب وجاء من بغداد (زرياب) أحد المشهورين فى الموسيقى والغناء ووضع أساس الحركة الأندلسية الشهيرة فى الطرب والغناء والموسيقى . وفى عهده أيضاً أصبح بلاط الملك مثالا ينسج على منواله من حيث الآداب والسلوك وظهرت الفروسية بأجلى مظاهرها فى اسبانيا ومنها نقلت إلى أوربا .

ثم جاء حكم عبد الرحمن الثالث « الناصر » ٢٧ من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ — ٩١٢م وهو أكفأ من حكم أسبانيا من الأمويين فوجد بلاد الأندلس مضطربة فأخضع الثوار واحتل حصونهم ومدنهم وأصبح السيد المطاع فى البلاد ودانت له بلاد الأندلس ما عدا إقليمى (جليقية) ليون فى الشمال وقطالونيا فى الشمال الشرقى . وسرعان ما عادت الأندلس إلى سابق مجدها وشوكتها .

وهو أول من اتخذ لقب الخلافة لنفسه ولقب بأمير المؤمنين فى الأندلس وذلك على أثر ضعف الخلافة العباسية وتسلط موالى الأتراك فى بغداد . وظهر أمره فى أوربا وخشيت بأسه الدول فأرسلت سفراءها يخطبون وده .

وفى خلافته صارت مدينة قرطبة عاصمة الأندلس مركز العلوم والآداب وكثر بها العلماء من كل فن وأمها الطلبة من جميع الأصقاع لحضور دروس جامعاتها . وقد شيد المبانى والقصور الفاخرة . ومن قصوره العجيبة قصر الروضة الذى ساق إليه المياه من أعلى الجبل ، ومن منشآته أيضاً ضاحية الزهراء التى اتخذها داراً للملك وبنى بها من المبانى والقصور ما يقصر الوصف دونه .

ولما رأى أن أمراء العرب يحاولون الاستقلال عن الخلافة وأنه لا يمكن الاعتماد عليهم كثيراً . أخذ يدخل فى خدمته أطفالا من رقيق الأجانب من الجنس الصقلبى ، رباهم تربية إسلامية وعهد إليهم بمهمات الأعمال .

وفى عهده استفحل أمر الفاطميين فى شمال أفريقيا ، ولم يثنه عن عزمه فى القضاء على دولتهم إلا اشتغاله بمراقبة حركات الإمارات المسيحية فى الشمال .

ووصلت فى عهده الزراعة والتجارة والصناعة إلى أعلى درجات الرقي فى بلاد الأندلس .

وجاء بعده ابنه (الحكم الثانى) سنة ٣٥٠ هـ — ٩٦٠ م وواصل خطة أبيه فى كل شيء ، ومات فى سنة ٣٦٦ هـ ، فانتهت بموته عظمة الدولة الأموية فى الأندلس ؛ إذ ترك بعده ابنه هشاماً فى الحادية عشرة من عمره ، وكانت الوصاية عليه لحاجب الدولة ابن أبى عامر ، وكان رجلا حازماً ، كثير المطامع ، قادراً ، فأخذ مقاليد الأمور بيده، وحجز الخليفة فى قصره ولم يترك له عملا مّا ، ومنع اتصال الشعب به وقام بدور يشبه دور (حجاب القصر) فى دولة الفرنجة ، وقضى أغلب مدته يحارب الإمارات المسيحية فى أسبانيا وانتصر عليها مراراً ولكنه عجز عن كسر شوكتها .

وتشبه بالخلفاء فلقب نفسه بالمنصور ، وذكر اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة ، ووضع اسمه كذلك على النقود ، وجعل منصبه وراثيًّا فى أسرته ، ومات فى سنة ٣٩٢ هـ — ١٠٠٢ م بعد أن أدهش الأسبانيين والعالم بأعماله وجرأته ومقدرته .

ويعد عهده من أزهر وأينع العصور فى الأندلس ، ويفضل بعض المؤرخين عهده على عهد عبد الرحمن الناصر .

وخلفه ابنه عبد الملك ، وواصل سياسة أبيه فى الحكم ، ولكن مع قدر الناس لأعمال هذه الأسرة كرهوا أن يفتات على حقوق صاحب الحق الشرعى .

وكان النزاع بين الطبقات قد استفحل أمره ، وقامت الثورة على إثر موت عبد الملك ، واستمرت مدة من الزمن انتهز فى أثنائها الحكام والأمراء الفرصة واستقلوا فى مقاطعاتهم .

ملوك الطوائف

وبذا انتهى عهد خلفاء بنى أمية ، وذلك فى سنة ٤٢٢ هـ ١٠٢٩ م وجاء عهد ملوك الطوائف ؛ فظهر (بنو عباد) فى إشبيلية و (بنو ذى النون) فى طليطلة ، وانقسم عرب إسبانيا إلى أكثر من عشر ممالك فى كل مملكة أمير يدعى لنفسه حق السيادة على الآخرين ، فلا يفتأ كل منهم يُغير على الآخر ، حتى حل بهم الدمار . على أن هؤلاء الملوك كانوا من أنصار العلم والأدب ، وعلى ذلك استمرت النهضة العلمية فى البلاد على الرغم من ضعف الحالة السياسية . ولولا استنجاد العرب بالبربر فى شمال أفريقيا لتمكن الاسبانيون من طردهم من اسبانيا فى القرن الحادى عشر .

وقد اغتنم الاسبانيون الفرصة للاستفادة من هذا الانقسام والضعف ، فأخذوا يحرضون الأمراء بعضهم على بعض . وكان أول زعيم للاسبانيين فى الشمال هو (سانكو) من سنة ٩٧٠ إلى سنة ١٠٣٥ م وهو ملك (نفارة) و (قشتالة) والذى أخذ خلفاؤه يوسعون أملاكهم تدريجاً نحو الجنوب حتى وصلوا إلى نهر (التاجه) . واتفق الأذيفونش

(الفونس) السادس مع ابن عباد الثالث أمير إشبيلية حتى أخذوا فى سنة ١٠٨٥ طليطلة؛ وهى من أقوى حصون العرب. ومن أهم الأسباب التى ساعدت ملوك قشتالة على النجاح اتحاد بعض أمراء العرب معهم على البعض الآخر، وهذا يدل على أن الاعتبارات الدينية لم تكن وحدها سبباً للحروب فى القرن الحادى عشر.

دولة المرابطين أو الملثمين

وقد ظهرت فى أثناء تضعضع دولة المسلمين فى اسبانيا جماعة من البربر فى شمال افريقيا يعرفون بالمرابطين نشروا سلطانهم من غمبيا إلى الجزائر. ومؤسس هذه الدولة هو (عبد الله بن تاشفين) الذى بنى مدينة مراكش، وأهم ملوكها (يوسف بن تاشفين)، وكان تقيًّا، سياسيًّا، قوى العزيمة، دانت له بلاد المغرب كلها. وكان عرب الأندلس قد استنجدوا به قبل ذلك لما أخذ ملك قشتاله (الأذيفونش السادس) "Alphonse VI" طليطلة وهدد قرطبة، فدخل المرابطون بلاد الأندلس بجيش جرار أشاع الحماسة فى نفوس العرب، فالتقوا بالمسيحيين فى واقعة (الزلاقة) فى سنة ٤٤٩ هـ ١٠٨٦، وهى التى انتصر فيها المرابطون وانهزم الاسبانيون انهزاماً تاماً. وعاد المرابطون إلى أفريقيا، ولكن يوسف بن تاشفين لم يبر بوعوده لملوك الطوائف وضم إقليم (أندلوسيا) إلى دولة المرابطين، فأصبحت تابعة لدولة المغرب فى أفريقيا. وقد حاول أن يثبت قدمه فى اسبانيا باستصدار تقليد بحكمها من قبل الخليفة العباسى.

وقد خلعه ابنه على فى سنة ٩٨٤ م فعامل العرب معاملة أمة مغلوبة

واستحضر لذلك قبائل جمة من أفريقيا جردت القبائل العربية من أملاكها ؛ فنشبت الحرب الداخلية ، وانبرى الأسبانيون للتغلب على المسلمين بمساعدة كثير من الصليبيين .

دولة الموحدين

ثم قامت دولة الموحدين بفضل مجهودات زعيمهم محمد بن تومرت ، الملقب بالمهدى ، ووزيره وقائد جيوشه عبد المؤمن .

وكان محمد هذا قد تلقى العلم على الإمام الغزالى وأدرك كيف ينال الحكم بواسطة العقائد الدينية . ثم عاد إلى المغرب لنشر مذهب الغزالى ، وادعى أنه المهدى المنتظر . فلما قوى حزبه شرع يقاتل المرابطين بمساعدة تلميذه عبد المؤمن بن على الذى ولى الأمر من بعده ، وكان خبيراً بالحروب فأخضع دولة المرابطين ، واستنجد أهل الأندلس بالموحدين فى سنة ٥٤٦ هـ ١١٤٧ م فعبروا البحر ودخلوا البلاد فأزالوا منها بقايا المرابطين .

وكان ملوك هذه الدولة من الفقهاء المستنيرين الذين عضدوا العلم والأدب فى الأندلس ، وأهم ملوكهم أبو يعقوب يوسف ، وخلفه ابنه يعقوب بن يوسف ، وهو الذى حارب ملك البرتغال فى واقعة الكرك "Alarcos" بالقرب من بَطَلْيوس فى سنة ٥٩٢ هـ ١١٩٥ م فانتصر عليهم وكاد يظفر بطليطلة . وكان أبو يعقوب وابنه معاصرين لصلاح الدين ، وفى عصرهما ظهرت جماعة من كبار الفلاسفة والحكماء أمثال ابن رشد وابن زهرون وكثرت المدارس والمساجد والمستشفيات . ولما مات يعقوب انتهز المسيحيون الفرصة فقاموا وأعلنوا حرباً صليبية على

العرب فى أسبانيا ، وساعد على إذكاء نارها البابا أنسنت الثالث ، فاجتمع المسيحيون وقاتلوا المسلمين فى واقعة (لورقة) أو (لركة) فى سنة ٦٠٩ هـ ١٢١٢ م انهزم فيها العرب شر هزيمة ، ولم تقم لهم بعدها قائمة فى أسبانيا . وأخذ الأسبانيون يستولون على مدينة بعد أخرى ، ويفرقون بين الأمراء العرب فيساعدون البعض ضد الآخر ، حتى اقتصر سلطان العرب على ما وراء (غرناطة) فى الجنوب الشرقى من أسبانيا ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى استولى الأسبانيون على قرطبة ، وبلنسية ، وأشبيلية .

إمارة غرناطة

وفى أثناء ذلك تمكن (ابن الأحمر) من تثبيت سلطانه على غرناطة وما حولها ، فأنشأ حكومة قاومت الأسبانيين قرنين من الزمان ، واتخذ غرناطة مقرًّا لحكمه ، وبنى قصر (الحمراء) الشهير ، ووثّق العلاقات بينه وبين المغاربة ليستعين بهم ضد الأسبانيين عند الحاجة . وقد أعاد بنو الأحمر فى غرناطة مجد الأندلس السالف ، واحتفظوا بتفوقها العلمى والصناعى والزراعى فى هذه الأقاليم . ولا يزال قصر الحمراء ، وحوش السباع ، ومسجد غرناطة ، كل ذلك قائماً شاهداً على مبلغ التفوق الصناعى والعلمى للعرب . ومات ابن الأحمر فى سنة ١١٨٤ م . واستمر الحكم فى هذه الأسرة حتى قوى ملوك قشتالة ، وصارت الحرب بينهم وبين المسلمين سجالا ؛ فأخذت قشتالة مدينة جبل طارق واتحدت مع البرتغال فى موقعة (ريصالادو) Salado التى انتصرتا فيها انتصاراً مبيناً . واضطر سلطان غرناطة إلى الاعتراف لملك

قشتالة بالسيادة ، ودفع الجزية فى سنة ١٤٥٣م. ثم اتحدت أرغونة وقشتالة بزواج (فرديننـد) ملك أرغونة (بإيزابلا) ملكة قشتالة ، فصار لهما التصرف فى هذه الممالك .

وتصادف أن انقسمت الأسرة المالكة فى غرناطة على نفسها ، واستعان أحد أمرائها بفرديننـد ، فتقدم لمساعدته فى سنة ١٤٩٠ بالقرب من مدينة (لورقة) . واستمر فرديننـد وإيزابلا يعملان على طرد العرب من الأندلس حتى سقطت غرناطة فى سنة ١٤٩٢ . وبذلك تم تكوين دولة إسبانيا الحديثة .

الحديث التاسع

ضعف البابوية ــ المماليك ــ حرب المائة سنة

عدت أنظر فيما سجلت من أحاديث وما جالت بى من خواطر ، وعرفت كيف كانت الدولة البابوية من النفوذ والسلطان ، ثم كيف أن فيليب الرابع ملك فرنسا من سنة ١٢٨٥ إلى سنة ١٣١٤ قد انتصر على البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII حين فرض الضرائب على رجال الدين ، معتمداً فى ذلك على تأييد الشعب له ، وراعتنى هاتان الصورتان المرتسمتان فى ذهنى ، وأردت أن أتتبع تيارات الأمور فى المملكة البابوية، فذهبت إلى أبى الهول، وعند ما اقتربت خيِّل إلىّ وجود جماعة يجلسون فى ظله ، وقد أخذوا يتكلمون فى الشئون العامة ، ولقد رأيتنى متهيباً اقتحام المكان الذى يجلسون فيه، فسمعت كأن أبا الهول يقول:

أُدْنُ منا ولا تهيب ؛ فإن هؤلاء النفر الذين فى كنفى هم ضيوفى الذين عهدوا منى إكرامهم قد جلسوا يتحادثون فيما عنه تبحث ، وما إياه تعنى ، فاجلس واستمع إليهم عسى أن يكون فى قولهم طلبتك المنشودة .

فدنوت من مجلس القوم ؛ فرأيت كأن رجلاً عليه ثياب القساوسة من أهل أوربا وآخر يتزيى بالعباءة الجامعية (الروب) ووضع على رأسه قلنسوة الجامعات التقليدية ، وثالثاً قد تزيَّى بلباس بيزنطة القديم ·

سروال فضفاض ، إلا أنه قد استعار الجبة الشرقية فاتشح بها فوق هذه الثياب ، فبدا فى زى تركى كامل ، ذلك الزى الذى كان يسود الشرق دهراً طويلا بحكم سيادة أهله ، وسمعت الأول يقول — بعد أن استعرض فى إيجاز كيف كان الشعب الفرنسى يؤيد فليب الرابع بالقرار الذى أصدره بعدم تصدير الذهب والفضة إلى الخارج ذلك القرار الذى اضطر معه البابا إلى السعى فى الصلح حتى لا يضيع على الكنيسة ما كانت تجبيه من الأموال . غير أن هذا الصلح لم يكن فى الواقع إلا هدنة اشتد بعدها النزاع عندما ألقى الملك القبض فى عام ١٣٠١ على برنار دو سيزه — Bernard de Saisset — أحد رجال الدين ، وكان قد عينه البابا وطلب الإفراج عنه فى الحال وأرسل إلى الملك خطاباً تقتطف منه بعض فقراته للدلالة على ما كان البابا يعتقده حقًّا له فى التدخل فى أعمال السلطة الزمنية فقد جاءت فيه هذه العبارة : « لا تظن يا ولدى أنك لا تخضع للسلطة الكهنوتية ، ولا رئيس عليك فمثل هذا الزعم يعد منك بلاهة كما يعد العناد فيه والإصرار عليه كفراً وإلحاداً الخ » ودعا البابا مجلساً من القساوسة فى روما لمعاقبة الملك . وجمع الملك فى عام ١٣٠٢ مجلس طبقات الأمة فى كنيسة نتردام Notre Dame فى باريس بعد أن ضم إليه ممثلين للمدينة والشعب علاوة على ممثلى الأشراف ورجال الدين وقرر المجلس أن البابا لا سلطة له فى فرنسا إلا فى الشئون الدينية كما أن الملك لا رئيس له إلا الله وأقسم أعضاء هذا المجلس بأنهم يؤيدون الملك ويحاربون من أجله .

ثم قال :

وبينما كان البابا يستعد لإصدار قرار بعزل الملك أرسل إليه الملك[1] قوة برياسة أحد مستشاريه المدعو نوجارى Nogaret الذى استعان بعائلة كولونا La famille Colonna ألد أعداء البابا وتمكن بمساعدتها من القبض على البابا فى بلده انيانى Agnani ويروى أن البابا وهو ذلك الشيخ الهرم العنيد وجه كلامه إلى سيرا كولونا Seierra Colonna الذى كان يريد اغتياله قائلا : ها هو ذا رأسى وها هى ذى عنقى افعل بهما ماتريد . غير أن نوجارى حال دون وقوع الاعتداء على البابا مكتفياً بالقبض عليه ولم يلبث أهالى مدينة انيانى وهى مسقط رأس البابا حتى ثاروا لنصرته بعد يومين اثنين من إلقاء القبض عليه وهم ينادون ليحيي البابا وليمت الأجانب فهرب نوجارى ومن معه غير أن البابا لم يحتمل تلك الصدمة القوية ومات بعد شهر من عودته إلى روما. واختلف الكرادلة فى انتخاب خلف لبو نيفاس الثامن وبقى كرسى البابوية خالياً سنتين وأخيراً انتخب كليمنت الخامس Clement V بتعضيد ملك فرنسا وكان من قبل أسقفا لبردو وقد اختار البابا الجديد مقره فى افنيون Avignon فى مقاطعة بروفنس الفرنسية ليكون قريباً من حماية ملك فرنسا له . وبقيت افنيون هذه مقرًّا للبابوات نحو سبعين عاما من سنة ١٣٠٩ إلى سنة ١٣٧٨ . وتعرف هذه

---

(١) هو فيليب الملقب بالجميل وهو ابن فيليب الجرىء بن لويس التاسع التقي وكان يساعده رجال متضلعون فى القوانين ويشجعونه على التشبه بأباطرة الرومان . وأشهر هؤلاء المستشارين Guillaume de Nogaret et Pierre Flote.

الفترة من الزمن « بالنفى البابلى » تشبيها بما حدث لليهود قديماً من إخراجهم من ديارهم ونفيهم فى بابل .

ولا ريب عندنا فى أن هذا الحادث من أهم حوادث القرون الوسطى لا من الناحية الفرنسية فحسب بل من الناحية الأوربية أيضاً لأنه لم يكن بمثابة انتقام لما أصاب هنرى الرابع وفريدريك بربروسة فحسب بل إنه قد أتاح الفرصة للحكومات الأوربية أن تنادى باستقلال ملوكها عن البابوية الطامحة إلى بسط نفوذها على أمراء أوربا المسيحية . ونجم عن هذا أن قلت موارد الثروة لدى البابوات فلجأ هؤلاء إلى جمع الأموال بوسائل شتى أثارت الانتقادات عليهم . ومن هذه الوسائل بيع الوظائف الدينية وصكوك الغفران : وكانت الحاجة إلى المال شديدة لمواجهة المصروفات اللازمة لتشييد قصور البابوات الفخمة ولما تتطلبه معيشة البذخ والترف من إسراف .

وبعد مناقشة بين هذا القسيس وبين الجامعى فى بعض العبارات قال الجامعى : إنى قد بلوت هذه الأمور فإنه لما سادت الفوضى فى ممتلكات البابوية فى إيطاليا قرر البابا غريغورى الحادى عشر العودة إلى روما فى عام ١٣٧٧ . ومن هذا التاريخ بدأ عهد الانقسام الكبير الذى استمر حوالى أربعين عاماً ، انقسم فيه العالم المسيحى إلى قسمين ترأس كل منهما بابا بدعوى أنه صاحب الحق الشرعى وأنه يستمد سلطته من الرسول بطرس . وبذا تلاشى نفوذ البابوية وفقدت مهابتها وانهمكت الجامعات فى بحث الموضوع وفى اقتراح الحلول وانعكست بذلك الآية

الانقسام الكبير فى الكنيسة

فبعد أن كانت الكنيسة مسيطرة على الجامعات التي كانت الكتب الدينية رائدها تستمد منها بحوثها وعلومها أصبحت هذه الجامعات هي التي تفكر في إصلاح الكنيسة وتقويم اعوجاجها . وكان من أشهر الرجال الذين نادوا بالإصلاح في ذلك العهد ويكليف Wyklif من أساتذة جامعة أكسفورد وقد وقف معارضاً عندما طلب البابا المنحة المالية المفروضة على انكلترا . وتدرج من ذلك إلى إعلان حق السلطة الزمنية في ممتلكات الكنيسة وخرج من هذا إلى أنه لا يصح أن تكون للبابا سلطة إلا في حدود الكتب المقدسة . ثم تناول الطعن في البابوية وادعاآتها وأساليبها ومات في عام ١٣٨٤ وقد قام بعده يوحنا هوس John Huss من جامعة براج عاصمة بوهيميا وأعلن أنه لا يحق للانسان أن يطيع أوامر أناس مثقلين بالذنوب والخطايا .

ولما اتسعت دائرة الانتقاد على البابوية اقترحت جامعة باريس لمعالجة هذه الحال أن يعقد مجلس ديني عام تكون سلطته متفوقة على سلطة البابا نفسه وعقد أول مجلس في بيزا في عام ١٤٠٩ ولكن تخلف عنه البابوان ولم يشهداه وانبنى على ذلك أن قرر المجلس عزلهما معاً وانتخب بابا جديداً آخر إلا أن البابوين أبيا النزول عن كرسيهما وكانت النتيجة أن المجلس لم يخفق فقط في إيجاد الحل المناسب بل زاد بقراره هذه الأمور تعقيداً بإيجاد بابا ثالث . ثم انتهى الأمر إلى عقد مجلس ديني آخر في كنستانزا عام ١٤١٤ واستمر منعقداً ثلاث سنين . وقد حضره الإمبراطور سجزمند Sigismond والكرادلة والأساقفة ورؤساء الأديرة من كافة أنحاء أوربا .

وقد عزل المجلس البابا الرومانى واستقال البابا الذى عينه مجلس بيزا . أما البابا بندكت الثالث عشر Benedict XIII فقد أبى أن يستقيل وبقى فى أفنيون معتمداً على تعضيد الفرنسيين والأسبان له . ثم تخلى عنه الفرنسيون وقرر المجلس عزله فى عام ١٤١٧ وانتخب مارتن الخامس Martin V بابا جديداً وقرر إدانة حنا هوس الذى قبض عليه وتسلمته السلطة المدنية وأحرقته حيا . وكان هذا العمل بمثابة تقوية للحركة القائمة فى بوهيميا ضد الكنيسة .

وإذا كان مجلس كونستنزا قد نجح فى توحيد البابوية إلا أنه فشل فى إيقاف تيار الحركة القائمة ضد الكنيسة .

ويخيل إلينا أن آراء الأمبراطور الجرمانى فريدريك الثانى فى البابوية وما دوّنه فى إعلانه الذى نشره على أمراء أوربا وأشرنا إليه عند الكلام على النزاع الذى كان قائماً بين الأمبراطور والبابوية بشأن مرسوم التولية كل هذه قد أثمرت وآتت أكلها فقد انتشرت فى أوربا وعبرت بحر المانش إلى انجلترا ثم عادت إلى ألمانيا على يد ويكليف وهوس اللذين كانا بمثابة رسولين لفريدريك الصقلى الذى أخذ عن علماء الإسلام والإغريق حرية الرأى والفكر فكان هذا تمهيداً لحركة الإصلاح الدينى التى قامت بعد ذلك فى أوربا والتى سنتكلم عنها فيما بعد .

ولا ريب فى أن ضعف البابوية كان من أكبر العوامل لتقوية السلطة الملكية كما أنه لاريب فى أن أوربا كانت فى حالة جهالة وفوضى منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية إلى القرن العاشر أى قبل وقوع

الحروب الصليبية وقبل اتصال الغرب بالشرق . وفى ذلك العهد لم تستقر القبائل المتبربرة فى مكان واحد ولم تقم حكومات مركزية قوية ولم تخمد نار الحروب الداخلية .

ولم تظهر فى أوربا بوادر الإصلاح والرقى إلا منذ أن تكونت المدن وقويت الملكية ونشأت القوميات المختلفة وانهارت قوة الأقطاع وضعف مركز البابوية وظهرت الجامعات ونبتت فكرة البحث فى العلوم التجريبية الحديثة .

ولقد ظهر فى أوائل القرن الثانى عشر قبل ظهور ويكليف وهوس بأكثر من قرن من الزمان شاب من إقليم بريتانى غربى فرنسا يدعى ابيلارد Abilard أخذ يجوب أنحاء البلاد طلباً للعلم الذى كان فى عهده قاصراً على المنطق والمناظرة والجدل والفلسفة فى حدود العلوم الدينية . ولما استقر به المقام فى باريس تتلمذ على أستاذ الفلسفة فى مدرسة باريس التى لم تكن قد ارتقت بعد إلى مصاف الجامعات ثم اختلف ابيلارد هذا مع أستاذه فى آرائه وأنشأ مدرسة فى ميلون Melun جذبت إليها طلبة معلمه الأول . ثم درس علوم الدين على أستاذه الثانى انسيلم Anselem فى مدرسة لاون Laon . وما لبث أن اختلف مع معلمه الثانى وتفوق عليه وأنشأ مدرسة للعلوم الدينية فى باريس نفسها ولكنه أصبح هدفاً لاضطهادات شديدة منذ أن جازف بانتقاد حياة القساوسة وسلوكهم . ثم أخذ يتنقل من جهة إلى أخرى فراراً من الاضطهاد حتى وافته منيته فى عام ١١٤٢ . وكان مبدؤه فى التعليم مناقشة ما يعرض على

تلاميذه مناقشة عقلية بحتة فلا يقبل منها إلا ما يقبله العقل السليم بغض النظر عما جاء فى كتب الدين خاصاً بذلك . وبهذا أعاد طريقة الإغريق فى حل مشاكل الحياة والرجوع إلى قواعد منطق ارستطاليس وأنبياء بنى إسرائيل وبوذا وكنفشيوس .

ولقد أثارت هذه التعاليم سخط رجال الدين لأنها تقضى على مبدإ الاعتقاد بصحة الأوامر الدينية بلا مناقشة .

نشأة الجامعات فى أوربا

ولقد كان لابيلارد هـذا الفضل الأول فى ظهور جامعـة باريس حيث إن حماسته للعلم وحسن أسلوبه وقوة بيـانه وطريقة بحثه دفعت الكثيرين فى عهده لتلقى العلوم فى باريس فكثر فيها المتعلمون والمعلمون ورأوا أن يكوّنوا لهم نقـابة تدافع عن حقوقهم كغيرهم من الطوائف الصناعية والتجارية فى العهد الوسـيط فتم لهم ذلك وكونوا قبل نهـاية القرن الثـانى عشر نقابة سميت بجامعة باريس Université de Paris ومنها انتقلت هـذه التسمية إلى معاهد العلم الكبرى التى انتشرت فى أوربا فيما بعد .

ولا يفوتنا أن نشـير هنا إلى أن الدول الإسلامية كانت تنشئ المدارس بجانب جوامع العبادة لتعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن وتلقين شتى العلوم وقد نقلت معها طريقة التعليم هـذه وأساليبه إلى البلاد الأوربية التى استقرت فيها كاسبانيا وصقلية .

ولقد أمر شارلمـان العظيم بإنشاء مدارس صغيرة بجانب الأديرة وهى شبيهة بتلك المدارس الاسلامية .

ولما أنشئت جامعة باريس تمكنت منذ القرن الثالث عشر من الحصول على امتيازات تشابه ما كانت للقساوسة والرهبان . وكان ذلك على أثر مشاجرة وقعت فى عام ١٢٠٠ بين البوليس وطلبة الجامعة قتل فيها خمسة من الطلبة وحمل ذلك فيليب أوغسطس على أن يقرر إعفاء رجال الجامعة من المحاكمة أمام قضاة الملك وإحالة قضاياهم إلى محاكم الكنيسة التى أصبحت بذلك مسيطرة على الجامعة لدرجة أن كبير قساوسة باريس كان له الحق فى طرد رجال الجامعة والحكم عليهم بالغرامات ومنع إعطاء إجازات العلم لمن يستحقونها وكان لكل هذا أثره فى أن يبدأ التعليم فى الجامعة دينياً بحتاً . ولم يكن للجامعة وقتئذ بناء معين ولم تكن هناك مقاعد أو مكاتب بل كان الطلبة يفترشون الأرض حول معلمهم وكانوا ينقسمون إلى طوائف تبعاً لجنسياتهم فكنت تجد منهم جماعات الفرنسيين والنورمانيين والبيكارديين والانكليز وغيرهم كما ترى أروقة الشوام والأتراك والمغاربة وغيرهم فى الجامعة الأزهرية بمصر التى أنشئت قبل جامعة باريس بنحو قرنين من الزمان[1] . والفارق بين الجامعتين هو أن الأولى انفصلت عن الكنيسة تدريجياً وانقسمت إلى كليات متنوعة لدراسة العلوم الحديثة حين بقيت الثانية إلى يومنا هذا مخصصة لعلوم الدين على الرغم مما أدخل فيها من مبادىء بعض العلوم العصرية . ثم أنشئت بجانبها فى وقت متأخر جامعات ومعاهد أخرى للعلوم الحديثة التجريبية .

(١) أنشئت الجامعة الأزهرية بالقاهرة على يد جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله مؤسس الدولة الفاطمية فى مصر من عام ٩٧٠ إلى ٩٧٢ م راجع ص ٢٠٣ فى الحديث السابع .

وفى عهد ابيلارد قد أنشئت أيضاً جامعة فى بولونيا من شمال إيطاليا لدراسة القانون الرومانى ثم أنشئت جامعة إكسفورد فى حكم هنرى الثانى ويعزو بعض المؤرخين إنشاءها إلى انفصال الطلبة الإنجليز من جامعة باريس . ثم أنشئت جامعة كمبردج ثم جامعات أخرى كثيرة فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا ومعظمها قد أنشىء فى القرن الثالث عشر أما جامعات ألمانيا فقد جاءت متأخرة ولم يكن لها شأن كبير قبل القرن الرابع عشر . وقد حذت جامعات شمال أوربا حذو جامعة باريس في حين حذت جامعات جنوب أوربا حذو جامعة بولونيا .

أما مواد الدراسة فى بدء ظهور الجامعات فكانت قاصرة على الكتب المقدسة من التوراة والإنجيل ورسائل التبشير ثم أضيفت إليها مؤلفات أرسطو فى المنطق والأخلاق والسياسة وفى الطبيعة وما وراءها .

ولقد يبدو غريباً أن تسمح الكنيسة بتدريس هذه المؤلفات فى الوقت الذى كانت تحرم فيه دراسة الفلسفة الإغريقية بحجة أن تعاليمها وثنية . كما أنه يبدو غريباً أن تعتبر الكنيسة مؤلفات أرسطو وحدها خالية من تلك التعاليم . ويظهر لنا أن الكنيسة لم تستطع استبعاد هذه المؤلفات بعد أن عم انتشارها فى جميع أنحاء العالم لأنها طافت فعلا جميع البلاد المتمدينة قبل أن تصل إلى أوربا . والمعلوم عنها أنها انتقلت من اليونان إلى الاسكندرية حيث قام المسلمون بترجمتها إلى اللغة العربية فى القرن السابع الميلادى ونقلوها معهم إلى أسبانيا

ثم درّسوها فى جامعة قرطبة التى كان يؤمها الكثير من الطلبة المسيحيين ليرتشفوا فيها من مناهل العلم . وقد نقلها هؤلاء الطلبة بدورهم من العربية إلى اللاتينية لشدة اقتناعهم بمنطق أرسطو الذى كانوا يلقبونه بالمعلم الأول أو الفيلسوف الأوحد .

ويخيل إلينا أن تعليقات ابن رشد التى جعلت طِلاءً رُوحياً على فلسفة أرسطو هى التى رفعت تعاليمه إلى مستوى الكتب المقدسة ولذا لم تستطع أن تحول الكنيسة دون انتشارها .

وعلى أى حال فإن قوام الدراسة كان فى هذا العهد قاصراً على الكتب المقدسة ومؤلفات أرسطو . وكانت عناية كل من المعلمين والمتعلمين منصرفة إلى فهم الترجمة اللاتينية لمؤلفات أرسطو هذه ومراجعة تعليقات علماء الإسلام عليها ثم محاولة التوفيق بين كل هذا وبين ما جاء فى التوراة والإنجيل خاصا بذلك . وكان الأمر يتطلب ممن يريد إلقاء محاضرة فى موضوع مّا كالكرة الأرضية مثلا أو دودة القز أودُوَيبة النحل أو غير ذلك من الموضوعات أن يرجع إلى الكتب المقدسة ليستعرض ماجاء فيها خاصا بموضوعه ثم يقارنه بما ورد عنه فى مؤلفات أرسطو ثم لايخرج فى بحثه عن هذه الحدود . لأن علماء هذا العصر لم يخطر ببالهم أن يتركوا هذه الكتب جانباً وأن يقوموا عمليا بتربية دودة القز ليرقبوا تطورات حياتها وتحولها من دودة إلى شرنقة ثم إلى فراشة وأن يتتبعوا تلك التطورات بدراسات المشاهدة والتجربة .

وقد ترتب على هذا النوع من التعليم أنه لم يحصل تقدم إلا فى

آداب اللغة اللاتينية التى كانت وقتئذ لغة القساوسة والطبقات الممتازة من الشعوب ثم أخذت لهجات هذه اللغة تتعدد حتى ابتعدت عن لغة الرومان الأصلية . وما زالت هذه اللهجات تتطور وتبتعد عن اللاتينية حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة . ومن أهم هذه اللغات الناشئة الطليانية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية .

أما الجهات التى لم تتأثر كثيراً بالمدنيـــة الرومانية فبقيت فيها اللغة محافظة على لهجاتها الجرمانية ثم تنوعت لهجاتها هى الأخرى وأصبحت لغات خاصة مثل اللغة الألمانية والدانيماركية والهولاندية والانجليزية وغيرها .

وقد بقيت كل هذه اللغات الناشئة زمناً طويلا قبل أن توضع لها حروف هجاء لكتابتها فكانت تستعمل فى الكلام ، ويتغنى بها الشعراء والرواة ، فتترنم بقصائدهم الشعوب وتتنقل بينها أقاصيصهم من طريق السماع ؛ إلى أن جاء عهد شارلمان العظيم فظهرت أول لغة من اللغات الجرمانية المكتوبة وهى اللغة السكسونية التى دُوِّنَ بها السجل الانجليزى منذ القرن الثامن . وتختلف هذه اللغة اختلافاً كبيراً عن الانجليزية الحالية . أما اللغة الفرنسية فلم تكن فى الأصل لغة واحدة بل كان لسكان المقاطعات الشمالية لغة غير لغة أهل الجنوب ولم يدوّن شىء بهاتين اللغتين قبل أول القرن الثانى عشر حيث دونت أنشودة رولان كتابة وانتشرت لغة أهل الجنوب انتشاراً كبيراً على يد جماعة التوربادور Tourpadour الذين كانوا يترددون على قصور الأشراف

ويوقعون أغانيهم على آلة تشبه القيثارة .

وقد ظهرت مثل هذه الجماعة فى ألمانيا وهم المعروفون بالمنسنجرس Minessingets فى القرن الثالث عشر .

أما من ناحية الرسم والحفر فقد كان القساوسة يزينون الصحف الأولى من كتبهم بصور تمثل موضوعاً دينياً ؛ وكانوا يميلون إلى الألوان البهيجة وبخاصة اللون الذهبي . ثم أخذوا يصورون رسلهم وقديسيهم وبعض ما رواه الإنجيل عن الجنة والجحيم والشيطان الرجيم . وكانت الكتب غير الدينية محلاَّة بأشكال هندسية أو صور لبعض الزهور والأشجار . وكان فن الحفر عندهم قاصراً على زخرفة البناء لأن فن العمارة قد تقدم كثيراً وأصبح له شأن كبير فى آخر العهود الوسطى حيث كانوا يتبارَوْن فى تشييد الكنائس التى لا تزال موضع إعجاب فى عصرنا الحاضر ، وكان الطِّراز[1] الرومانى هو الشائع إلى القرن الثالث عشر ثم انتشر الطِّراز القوطى بعد ذلك .

ومن هذا نتبين أن القبائل المتبربرة قضت النصف الأول من القرون الوسطى فى حروب دامية وتدمير وتخريب ، ولكنها ما لبثت أن اتصلت بمدنية الشرق وحضارة الإسلام فقضت النصف الأخير من القرون الوسطى فى تشييد حضارة خاصة لم يستطع أهل القرن السابع عشر أن يدركوا حقيقتها بسبب شدة تعلقهم وشغفهم بالمدنيات

---

(١) الطراز الموضع تنسج فيه الثياب ومن المجاز قولهم « من الطراز الأول » « وما أحسن طرز فلان » وهو طريقته فى عمله ونبقته .

القديمة الإغريقية والرومانية ولا أدل على ذلك ممن قد أنجبته العصور الوسطى من كبار المفكرين مثل توماس داكن Saint Thomas d'Aquin وبونافنتور Bonavanture وروجير باكون Roger Bacon الذى يعد بحق سابقاً لعصره أو جاء قبل أوانه . وروجير هذا إنجليزى تخرج فى جامعة باريس وهو القائل « بأن ساعة واحدة تصرف فى دراسة تجريبية ومشاهدات حسية خير من عشر سنوات تقضى في قراءة الكتب » ويرجع إليه الفضل فى إثبات تفوق العلوم التجْرِيبية الحديثة على العلوم والمعارف القديمة . وقد تكلم بصراحة وإيمان عن مستقبل العلوم العملية والاكتشافات العلمية وكتب يقول : « سيصل العلم إلى اختراع عربات تسير بغير دواب وبسرعة مدهشة كما أنه سيجد وسيلة لاختراع آلة تطير فى الجو يديرها رجل جالس فى وسطها فتتحرك ولها أجنحة صناعية تصعد بها إلى الجو كالطير كما ستبتدع آلة تمخر فى أعماق البحار » .

وقد أنجبت أيضاً فلورنسا فى إيطاليا فى أوائل القرن الرابع عشر كلا من دانتى Dante وجيوتى Giotti وكان الأول أكبر شعراء عصره وقد اطلع على آداب العرب ويعزو كثير من المشارقة وبعض المستشرقين « جحيم » دانتى أو « الكوميديا الإلهية » إلى أنه نقلها من « رسالة الغفران » لأبى العلاء المعرى أما الثانى فقد كان أعظم رسام فى تلك القرون الوسطى .

ممالك أوربا الشرقية

ثم استأنف الأستاذ الجامعي قائلا : —

وإنى عند ما أستعرض حوادث التاريخ على الطلبة فى مدرجهم أبين لهم شارحاً كيف أغارت القبائل المتبربرة على الدولة الرومانية وكيف نشأت انجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا . وقبل أن أحدثكم عن نشأة الممالك فى شرق أوربا أشير هنا إلى أن بلاد البرتغال كانت فى الأصل مسكونة بقبائل الكلت وأهمها قبيلة لوزيتانيا كما كان الرومان يدعونها عند استيلائهم على تلك البلاد فى سنة ١٤٠ ق.م. ثم أغارت عليها قبائل القوط الغربيين وانتزعها المسلمون منهم فى القرن السابع الميلادى ثم استولى على بعضها الأذيفونش السادس ملك قشتالة فى القرن الحادى عشر وأعطاه إلى صهره هنرى دي بورجون Henri de Bourgone الذى أخذ يجور هو وابنه على ما بقى منها تحت يد المسلمين وانتهى الأمر بانتصار ابنه فى عام ١١٣٩ وقد نادى به جيشه ملكا عليها .

وفى عهد ملكها چان الأول اكتشفت جزر أسور ومادير Açores et Maderi وضمت إلى عرشها . وفى عهد عمانويل السعيد Emanuel Le Fortuné من عام ١٤٩٥ إلى عام ١٥٢١ م اكتشف فسكو دو جاما Vasco de Gama الهند الشرقية من طريق رأس الرجا الصالح ومن هذا التاريخ وجدت المستعمرات البرتغالية على شاطىء المحيط الهندى واستعمرت البرازيل فى أمريكا الجنوبية ولما توفى ملكها

دون هنرى Don Henri فى عام ١٥٨٠ وكانت بغير وارث جلس على عرشها ملك اسبانيا فيليب الثانى واستمر الحال كذلك إلى عام ١٦٤٠ حيث ثار الشعب البرتغالى وأعلن دوق براجنس Bragance ملكا عليها تحت اسم چان الرابع . ومن هذا التاريخ قامت حروب بين البرتغال واسبانيا استمرت حتى عام ١٦٦٥ وانتهت بخذلان اسبانيا نهائيًا بعد واقعة مونتسكليروز Montesclarose ثم عقدت البرتغال معاهدة مع انجلترا فى عام ١٦٦١ أعقبتها معاهدات أخرى منها معاهدة فى عام ١٧٠٣ أدخلت البرتغال فى الحرب عند التنازع فى الميراث على عرش اسبانيا كما أدخلتها فى الحروب التى قامت بين انجلترا وفرنسا فى عهد الجمهورية والامبراطورية الفرنسية إلى أن غزاها القائد جونوت Junot فى نوفمبر سنة ١٨٠٧ وأعلن انتهاء حكم عائلة براجنس Bragance فانتقلت إلى البرازيل ثم قامت ثورتان على الفرنسيين بمساعدة انجلترا وفى عام ١٨٢١ اعتلى عرش البرتغال بناء على طلب الشعب چان السادس الذى عاد من البرازيل بعد أن ترك فيها ابنه دون بدرو Don Pedro الذى أعلن نفسه امبراطوراً على البرازيل بعد سنة من سفر أبيه . ومن هذا التاريخ انفصلت المملكتان عن بعضهما .

ولما مات چان السادس فى عام ١٨٢٦ تنازل دون بدرو لأخته ماريا جلوريا Maria de Gloria عن عرش البرتغال وقبل أن تصل هذه إلى البرتغال أعلن عم دون بدرو نفسه ملكا عليها وحكم البلاد بقسوة فثار الشعب وجهز دون بدرو حملة بحرية وبرية ودخل لشبونة بمساعدة

الشعب فى عام ١٨٣٣ . ثم بدأ فيها عهد الثورات حتى ماتت ماريا فى عام ١٨٥٣ وخلفها ابنها بدرو الخامس ثم خلفه ابنه لويس الأول فى عام ١٨٦١

نشأة الممالك فى أوربا الشرقية

أما القبـــائل الجرمانية فإنها كانت دائبة الهجوم على جيرانها ففى عام ١٣٢٨ وصلت هذه القبائل إلى بروسيا وأسست مدينة ريغا واستعمرت شاطىء البلطيق حتى خليج فنلندا وكانت تتصادم مع القبائل الاسيوية الأخرى مثل الهون والمجر والمغول والبلغار التى كانت قد انتشرت فى أوربا الشرقية وبقيت هذه الشعوب إلى يومنا هذا مصدراً للمشاكل السياسية المعقدة . وأهم هذه الشعوب هم الصقالبة والظاهر أنهم كانوا يقطنون الأقاليم المعروفة الآن ببولندة وروسيا البيضاء والاكرين ثم انقسمو إلى قسمين اتجه أحدهما نحو وديان ألمانيا حتى هضبة بوهيميا واتجه الآخر نحو البلقان وشواطىء الأدرياتيك ومن هنا وجدت صقالبة الشمال وصقالبة الجنوب وهم اليوغسلاف Yougoslave وقد استمرت صقالبة الشمال فى حروب مع الألمان حتى انقرض أكثرهم وأصبح جرمانيا ولم ينج منهم غير البولنديين والتشيك الذين أسسوا بولندة وبوهيميا .

أما صقالبة الجنوب من اليوغسلاف فقد انقسموا إلى ثلاثة أقسام وهم :

(١) السلوفيون فى جبال الألب الشرقية وقد انضموا إلى النمسا .

(٢) الكراوتيون فى جهات الساف « Save » وقد بقوا تابعين للكنيسة الكاثوليكية . وفى عام ١١٠٢ أعطى الكرواتيون عرش

بلادهم إلى ملك المجر ولم ينفصلوا عنه إلا فى عام ١٩١٨ أى بعد الحرب العالمية الأولى .

(٣) الصربيون الذين ظلوا فى قبائل متفرقة زمناً طويلا حتى آخر القرن الثانى عشر عند ما توّج بابا روما ملكهم على الرغم من تبعيتهم للكنيسة اليونانية . وقد وصلت الصرب إلى ذروة مجدها فى عهد ملكها اتيين دوشان Etienne Douchan من عام ١٣٣١ إلى عام ١٣٥٥ وهو الذى منح شعبه دستوراً ولقب بشرلمان الشعب الصربي وكاد يغزو القسطنطينية لولا أن عاجلته منيته ثم ضعفت من بعده مملكته حتى القرن التاسع عشر حيث أخذت تنهض من جديد .

المجر والبلغار

وإن المجريين هم من العنصر الأصفر قد جاؤا من آسيا وحاربوا ألمانيا فى القرن العاشر ولما قهرهم أوتون استقروا فى وادى نهر الطونة وتوج البابا ملكهم اتيين « Etienne » وأصبحوا من ذلك الوقت تابعين للكنيسة الكاثوليكية بعد أن كانوا تابعين للكنيسة الإغريقية على ما بينا قبلُ . وقد جاروا فى الجنوب على كرواتيا وفى الشمال على سلوفاكيا وفى الشرق على ترنسلفانيا . ولما انقرضت عائلة الملوك الوطنيين من المجر فى عام ١٣٠١ توّج البابا أحد أمراء بيت انجو ملكا على المجر وهؤلاء الأمراء هم من سلالة أخ لويس التاسع ملك فرنسا .

والبلغار هم كذلك من العنصر الأصفر جاؤا من آسيا وعبروا نهر الطونة واختلطوا بالعنصر الصقلبي وأسسوا فى نحو القرن الثالث أى فى عهد (يوهانتزا) « Yohannitsa » مملكة بلغارية كبيرة امتدت

من جبال الكربات إلى حدود القسطنطينية .

الرومانيون

والرومانيون هم من العنصر الداسى «Dacie» أخضعهم الإمبراطور الرومانى تراجان «Trajan» وقد انضموا فى وقت من الأوقات إلى البلغار ثم خضع بعضهم إلى المجر فى ترنسلفانيا على الرغم من أنهم تابعون للكنيسة اليونانية على حين أن المجر كاثوليك . وقد هاجر منهم الكثيرون فأسسوا مقاطعتى الفلاخ وملدافيا «Valachie et Moldavi» .

الروس والمغول

والروس هم من العنصر السلافى جاؤا من آسيا على هيئة قبائل وأسسوا فى القرن العاشر مملكة واسعة كانت ممتدة على طول نهر الدنيبر « Dnieper » وعاصمتها كييف « Kiev » . وقد اتصلوا ببيزنطة وتمثلوا مدنيتها وتمذهبوا بالأرثوذكية فوجدت لهم روابط مع الشعوب الأرثوذكية الأخرى مثل اليونان والصرب والبلغار والرومانيين ولكنهم بقوا متنافرين مع الشعوب الكاثوليكية من البولنديين والمجر .

ثم أخذ حكم الروس يمتد شرقاً إلى حوض نهر الفولجا ولم يوقفه وقتئذ غير إغارة المغول فى القرن الثالث عشر .

ولقد تكلمنا عن المغول (المُغُل) فى جملة مواطن وأشرنا إليهم عند الكلام على العلاقة بين دولتى الصين والرومان وعند الكلام على الحروب الصليبية وسقوط الدولة العباسية وانتصار دولة المماليك البحرية فى مصر عليهم فى واقعة عين جالوت . وفى الواقع أن المغول قد لعبوا دوراً كبيراً فى تاريخ الإنسانية ففى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة تحاول السيطرة على العالم الأوربي ظهرت قبائل المغول فى شمال الصين وقامت بغزوات

لم يسبق لها مثيل وكانت بلاد الصين وقتئذ منقسمة إلى ثلاث امبراطوريات، الأولى فى الشمال وعاصمتها بكين « Pequin » والثانية فى الجنوب وعاصمتها نانكين « Nankin » والثالثة فى الوسط وهى مملكة هزيا « Hsia ».

وقد استولى المغول (المُغْل) بقيادة جنكيزخان على مملكة بكين عام ١٢١٤ ثم اتجهوا غرباً واستولوا على التركستان وفارس وأرمينيا والهند حتى لاهور وجنوب روسيا ووصلوا إلى بلاد المجر وسيليزيا وتركوا بعد موت جنكيز خان المملكة الممتدة من المحيط الباسفيكى إلى نهر الدنيبر.

وقد خلفه أوجداى خان « Ogdai Khan » الذى أسس عاصمة لملكه فى كراكوروم « Karakouroum » بمنغوليا ثم فتح مملكة الصين وعاصمتها بكين وهدم مدينة كييف « Kiev » فى عام ١٢٤٠ وأصبحت روسيا جميعها تابعة له ثم ضرب بولندة بعد أن هزم جيشاً مؤلفاً من ألمان وبولنديين فى واقعة ليجندز « Laignitz » فى سيليزيا السفلى فى عام ١٢٤١ وبعد هـذا انسحب المنغول إلى مستعمراتهم فى آسيا، وفى عام ١٢٨٠ تأسست عائلة يوان « Yuan » المنغولية التى حكمت الصين حتى عام ١٣٦٨

ولقد أظهر المغول قسوة عظيمة عند ما أغاروا على بغـداد عاصمة الدولة العباسية وخربوا أعمال الرى التى جعلت أراضى ما بين النهرين من أخصب أراضى العالم وأغناها منذ عهد السومريين ولكنهم لم يستطيعوا غزو مصر ورُدُّوا على أعقابهم فى واقعة عين جالوت فى عام ١٢٦٠ كما أسلفنا. ولم تقم للمغول قائمة بعد هذا الخذلان أمام دولة المماليك البحرية

المصرية . وقد انقسمت مملكتهم إلى ممالك عدة واستطاع الصينيون أن ينزلوا عائلة يوان عن عرش بلادهم فى عام ١٣٦٨ واستبدلوا بها عائلة منج «Ming» الوطنية التى دام حكمها إلى عام ١٦٤٤

أما الروس فقد ظلوا تحت حكم المغول إلى عام ١٤٦٠ حيث قام دوق موسكو « Moscou » فى وجههم ووضع أساس امبراطورية روسيا الحديثة .

هذا : ولهذه الفتوحات المنغولية أسباب و نتائج مهمة فى تاريخ العالم أما أسبابها فقد بقيت مجهولة لنا حتى عهدنا الحاضر حيث كتب (برى) « Bury » فى مقدمة المؤلف عن سقوط الدولة الرومانية لجيبون «Gibbon» بأن تاريخ أوربا لم يَعْزُ نجاح الجيوش المغولية فى بولندة وهنغاريا فى ربيع عام ١٢٤١ إلا إلى كثرة عددهم والواقع أن سبب النجاح هو إتقان الخطة الاستراتيجية التي كانت للجيوش المنغولية والتى لم يفقه حقيقتها قواد الجيوش الأوربية ، وإن المغول لم يتورطوا فى حروبهم إلا وهم واقفون تمام الوقوف على حالة أعدائهم العسكرية والسياسية بواسطة جواسيسهم أضف إلى هذا أن المغول كانوا يستخدمون البارود الذى عرفوه من الصين فى بنادق قصيرة .

وأما نتائج هذه الفتوحات فأهمها أن المغول كانوا يطاردون فى فى غزواتهم منذ القرن الثالث عشر بعض قبائل تركية كانت فى التركستان ثم انتقلت تحت ضغطهم إلى أسيا الصغرى وعرفوا تاريخيًا باسم الأتراك العثمانيين وهم الذين استولَوْا بعد ذلك على بيزنطة فى عام ١٤٥٣

نشأة الأتراك العثمانيين

وهنا رأيت أبا الهول يقول: أيها الأستاذ الكريم لقد بلغت من الحديث موضعاً مما يكون افتياتاً على التاريخ فيه أن يقول اللسان والواقع صامت، أو يُبيّن القلم حين تنطوى الأحداث وتندرس المعالم، وإلى جانبكم جليسكم هذا هو السلطان سليم الفاتح، فاشرأبَّ عنقا الرجلين إلى جليسهما وكأنهما لم يكونا قد رأياه من قبل وأخذا يرجوانه أن يصل ما انقطع من حديث الأستاذ، فأخذ السلطان يشرح أسباب قيام الدولة العثمانية وكيف نشأت ومِمَّ انحدرت فقال: (نحن معشر الأتراك العثمانيين من الجنس الطورانى والمغولى مثل البلغار الذين زحفوا إلى شرق أوروبا خلال القرن الثامن. ولقد علمنا من آبائنا الذين تعهدونا بالتربية على الوتيرة التى نشأوا عليها حين لقنونا: كيف أننا معشر الأتراك العثمانيين آخر القبائل الاسيوية التى نزحت إلى أوربا واستوطنتها وقد كانوا فى منتصف القرن الثالث عشر قبيلة صغيرة اكتسحها المغول فأخذت تجوب آسيا الصغرى حتى التقت بجيشين يقتتلان فاندفعت هذه القبيلة الصغيرة إلى ميدان القتال آخذة بناصر الضعيف من الجيشين حتى انتصر على خصمه وتبين أن المغلوب هو جيش من المغول أغار على قونية فى عهد مليكها السلطان علاء الدين من الأتراك السلاجقة فكافأ علاء الدين هذه القبيلة — التى ظهر أنها تتصل به — على حسن

نشأة الأتراك العثمانيين

صنيعها وأقطعها جزءاً من مملكته بالقرب من « بروسة » .

ولما مات رئيس هذه القبيلة فى عام ١٢٨٨ خلفه ابنه الأكبر عثمان الذى سميت باسمه الدول العثمانية .

ولما عاد المغول فى عام ١٣٠٠ وأغاروا على دولة السلاجقة بآسيا الصغرى وقضوا عليها ألبتة، وتوفى السلطان علاء الدين ؛ استقل كل أمير بمقاطعة وأخذ عثمان ينظم جيشه ويوسع فى أملاكه ويجور على أملاك غيره إلى أن وافته منيته فى عام ١٣٢٦ . قد خلفه ابنه اورخان الذى استولى على بروسة وجعلها مقرًّا للدولة الحديثة وأنشأ فرقة الانكشارية المعروفة فى تاريخ الأتراك العثمانيين والتى كانت من أسباب عظمة تركيا العسكرية ثم أصبحت سبباً للقلاقل والفتن والاضطرابات إلى أن قضى عليها السلطان محمود الثانى فى عام ١٨٢٦ .

وقد تولى الحكم بعد اورخان ابنه مراد الأول الذى استولى على أنقرة وكانت مقر سلطة بعض أمراء السلاجقة الذين ما لبثوا أن اندمجوا رويداً رويداً فى دولة العثمانيين واستولى عَلَى ادرنة فى عام ١٣٦١ ونقل إليها عاصمته ثم استولى على «فلبه» وأحاطت هذه الفتوحات بالقسطنطينية ثم عنى ببناء بعض السفن الصغيرة فى بحر مرمرة فكانت النواة الأولى للقوة البحرية العثمانية .

وفى هذه الأثناء كون المسيحيون حلفا من الصرب والبلغار والمجر وأرسلوا إلى بابا روما يطلبون مساعدته لإيقاف زحف الأتراك المسلمين وسارت جيوش هؤلاء الحلفاء إلى أدرنة ولكنهم ارتدوا عنها مقهورين

ثم تقابل الجيشان فى سهول «قوصوه» وأسفرت المعركة عن اندحار الحلفاء أمام قـــوة الأتراك فى عام ١٣٨٩ وموت ملك الصرب وموت الكثير من أمراء أوربا الذين جاؤا لمساعدة البلقانيين، وفقدان الصرب والبلغار لاستقلالهما، وقد قتل السلطان مراد بعد الموقعة من يد أحد جنود الأعداء كان بين القتلى أثنـاء تفقد السلطان لميدان القتال . وخلفه ابنه بايزيد الملقب بالصاعقة وقد أعجب ببسالة الصرب فى حربهم معا بنه فعين اسطفان وهو ابن ملك الصرب المقتول فى قوصوه ملكاً على الصرب مكان أبيه يحكم البلاد حسب قوانينها بشرط أن يدفع الجزية وأن يقدم عدداً من الجنود يشترك مـع العثمانيين فى حروبهم ثم تزوج السلطان باخت اسطفان ملك الصرب الجديد غير أن انتصار الأتراك فى قوصوه ووصولهم إلى شواطىء الدانوب قـد أثار فى أوربا فـكرة الحروب الصليبيـة هذه الفكرة التى لم تفارق أوربا ولـكنها كانت خامدة مدة بسبب ما قام من النزاع بين فرنسا وانجلترا وأدى إلى حرب معروفة فى التاريخ بحرب المائة سنة فلما وقفت هذه الحرب مؤقتاً فى عام ١٣٨٩ عاودت الفرنسيين فـكرة الحروب الصليبية فلبى نداء ملك المجر نحو عشرة آلاف فرنسى بقيادة (چان) « الذى لايخاف » وهو ابن دوق برغونيا وانضموا إلى الفصائل الأخرى من الألمـان والفلاش والمجر برياسة ملك المجر (سجسمند) « Sigismand » وحاصروا نيقوبوليس فانقض عليهم بايزيد وهزمهم شر هزيمة فى عام ١٣٩٦ . وبينما كان بايزيد يستعد لفتح القسطنطينية إذ هـاجم المغول بقيادة تَيْمُورْلَنْك

(تيمور الأعرج) أسيا الصغرى وكان هذا القائد مسلما ومن أصل تركى جاء من التركستان وحل محل المنغول وأسس فى آسيا الوسطى امبراطورية لا تقل عظمة عن امبراطورية جنكيزخان وكانت قاعدتها سَمَرْقَنْد وأرسل جيوشه فانتصرت فى روسيا والعجم وبين النهرين بل والهند ذاتها وامتد سلطانه فى أواخر القرن الرابع عشر من الصين إلى القوقاز .

وعلى الرغم من أن بايزيد وتيمورلنك كانا مسلمين ومن عنصر واحد فقد نشبت الحرب بينهما بسبب السيادة على آسيا الصغرى والتقيا فى أنقرة[1] وهزم بايزيد شر هزيمة ووقع أسيراً ومات كمداً فى عام ٨٠٩ هـ ١٤٠٣ م ونقلت رفاته إلى بروسة ليدفن بجانب أجداده .

ولقد كادت هذه الهزيمة أن تكون حاسمة فى تاريخ الأتراك العثمانيين لولا انقسام دولة تيمورلنك الذى مات عام ٨١١ هـ ١٤٠٥ م وهو عائد إلى الصين وتغلُّب السلطان محمد الأول من عام ٨١٩ هـ ١٤١٣ م إلى عام ٨٢٧ هـ ١٤٢١ م على ما صادفه من صعاب حيث فاز بضم شمل الدولة العثمانية وقضى على الفتن والحروب التى قامت بين أبناء بايزيد ثم عقد المعاهدات مع امبراطور القسطنطينية والأمراء المسيحيين الآخرين ليتفرغ لتوطيد دعائم الدولة حتى وافته منيته وخلفه ابنه مراد الثانى من عام ٨٢٧ هـ ١٤٢١ إلى عام ٨٥٧ هـ ١٤٥١ م وفى عهده أخذ امبراطور القسطنطينية يشجع مصطفى بن مراد الأول للمطالبة بعرش أبيه وأخذ

---

(١) أنقرة شمال آسيا الصغرى وفى كتب العرب قديماً (أنكورية) وقد مات بها امرؤ القيس عائداً من عند ملك الروم قال « رب طعنة مسحنفرة ، وجفنة متحيرة تبقى غداً بأنقرة » .

يزوده بالسفن والجنود ويدفعه لمحاربة أخيه ولكنه لم يفلح وتمكن مراد الثانى من أن يضم إليه جنود أخيه وأن يقبض على مصطفى ويقتلَه . وأراد بعد ذلك أن ينتقم من امبراطور القسطنطينية فحاصر المدينة فى عام ١٤٢١ ولكنه اضطر إلى الارتداد عنها ليواجه جيشاً أوربياً جديداً اخترق بلاد البلقان بقيادة أحد أمراء رومانيا يدعى جان هُنْياد ووصل إلى « وارنه » على ساحل البحر الأسود وكان ملك المجر هو الذى جمع له هذا الجيش وقد انتصر العثمانيون عليه انتصاراً باهرا فى عام ١٤٤٤

ولما مات السلطان مراد فى عام ١٤٥١ كان حكم الأتراك قد توطد فى البلاد التى فتحوها رغم مقاومة (اسكندر بك) الذى دافع طويلا عن بلاده فى ألبانيا الحصينة بطبيعة أرضها ووعورة طرقها ومسالكها . وقد بقيت أعمال جان هُنْياد واسكندر بك من الأقاصيص القديمة فى تلك البلاد .

وقد خلف مراداً ابنُه محمد الثاني الملقب بالفاتح من عام ١٤٥١ إلى عام ١٤٨١ وهو الذى وجه عنايته إلى فتح القسطنطينية التى فشلت أمام حصونها القوية محاولات أسلافه للاستيلاء عليها وأراد الامبراطور قسطنطين باليوغولوس أن يستمد قوة جديدة من الغرب فعقد اتفاقاً يقضى باتحاد الكنيستين اليونانية واللاتينية غير أن هذه المحاولات ذهبت هباء بعد أن خمدت نيران الحروب الصليبية ولم ينتج هذا الاتفاق إلا انقساماً جديداً بين رعايا الإمبراطور الذين ثاروا عليه بسبب

قبوله ضم الكنيستين وقد قال وقتئذ أمير البحر اليونانى « إنى لأوثر أن أرى عِمَامة محمدٍ فى كنيسة القديسة صوفيا على أن أرى فيها قَلَنْسُوَة مندوب البابا » .

أما السلطان محمد فبعد أن جهز حملة لفتح عاصمة الدولة الرومانية الشرقية بدأ يحاصرها منذ ٥ أبريل سنة ١٤٥٣ ولم تمض أربعة وخمسون يوماً حتى اقتحم الأتراك حصون المدينة وفتحوها عَنْوة بعد أن نقلوا أسطولهم من البسفور إلى خليج قرن الذهب على ألواح من الخشب مدهنة بالشحم لسهولة الانزلاق .

أما الامبراطور بالياغولوس فقد وجدت جثته بين القتلى فى الوقت الذى كان فيه سكان المدينة وأهلها ينتظرون فى الميادين العامة ظهور ملاك من السماء يرسله خالق الكون لطرد المسلمين كما كانوا يزعمون .

وقد أعلن السلطان محمد الفاتح أهل المدينة بأنه لايعارضهم فى إقامة شعائرهم الدينية وبأنه يضمن لهم حرية دينهم وأملاكهم ، وقد ترك لهم حق انتخاب بطريق تكون له كل السلطة فى قضايا المسيحيين المدنية والجنائية كما ترك لهم كنائسهم ماعدا بعض كنائس منها كنيسة القديسة صوفيا التى حولها إلى مسجد ليقيم فيه المسلمون شعائرهم الدينية وكأن السلطان محمد الفاتح قد نفذ بهذا العمل رغبة أمير البحر اليونانى لحول القلنسوة إلى عمامة فى كنيسة « أيا صوفيا »[1] .

---

(١) ويرى الكثير من المؤرخين أن عام ١٤٥٣ يعتبر مبدأ لتاريخ العصور الحديثة وذلك أولا — بسبب سقوط الدولة الرومانية الشرقية التى عاشت ألف سنه بعد زوال الدولة الرومانية =

ولما مات السلطان محمد الفاتح في عام ١٤٨١ خلفه ابنه بايزيد الثانى أبى إلى عام ٩٢٨ هـ ١٥١٢ م وكان ضعيفاً فثار عليه أخوه الأصغر وبدأ الانكشارية يتدخلون فى سياسة الدولة كما كانت تتدخل الجنود فى سياسة الدولة الرومانية حتى أرغموا بايزيد على التنازل عن العرش لى ثم استأنف سليم الأول قائلا : فحكمت من عام ١٥١٢ إلى عام ١٥٢٠ وفتحت البلاد المصرية فى عام ١٥١٧ وضممتها إلى الدولة العثمانية وأهمية هذا الفتح أن الخليفة العباسى تنازل عن لقب الخلافة لسلاطين آل عثمان.

هذا ولقد بلغنا ممن لحق بنا من أرواح سلاطين الإستانة العلية أن دولتنا العلية العثمانية قد بلغت ذروة قوتها ومجدها فى عهد سليمان القانونى من عام ١٥٢٠ إلى عام ١٥٦٦ وأصبح لتركيا فى مدى القرون التالية شأن كبير فى سياسة أوربا عرف فى السياسة الدولية « بالمسألة الشرقية » . ولا ريب فى أن العثمانيين قد أسسو دولة إسلامية جديدة ضمت بلاد آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا وهذا عدا بلاد المجر والممالك البلقانية ، وكادت تخضع لها النمسا وأصبح لها أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط ، ولم يوقف تقدم الاسلام فى أوربا غير حادثتين عظيمتين هما قوة الدولة الروسية باستقلال موسكو فى عام ١٤٨٠ وخروج العرب المسلمين من اسبانيا فى عام ٨٩٨ هـ ١٤٩٢م

= الغربية . وثانياً — لأن حرب المائة السنة بين فرنسا وانجلترا انتهت فى هذا التاريخ وقد جرت الخراب والدمار طوال قيامها فى الممالك الأوربيـة . وثالثاً — لأنه تاريخ اختراع المطبعة بمعرفة جوتنبرج ونشر أول كتاب مطبوع للتوراة .

الدولة الروسية

ومن هنا تعلم أننا قد استقررنا فى أوربا بعد أن تغلبنا على الممالك المسيحية الغربية التي ناوأتنا ولم توجد فى هذا الوقت من الجهة الشرقية غير مملكة مسيحية واحدة قادرة على منازعتنا وهى مملكة بولونيا التى عقدت اتفاقاً فى عام ١٣٨٦ مع دوقية ليتوانيا التى كانت مسيطرة على بعض المقاطعات الروسية ومعها كييف « Kiev » وبهذا الاتحاد أمكن مطاردة جماعة التوتون « Chevaliers Teutoniques » الذين كانوا حجر عثرة أمام كل تقدم نحو بحر البلطيق ، فلما تم لهما النصر فى واقعة تاننبرج « Tannenberg » فى عام ١٤١٠ استوليا على جميع البقاع الشمالية ما عدا بروسيا الشرقية التى اعترفت فى النهاية بسيادة بولونيا عليها ، ولم تقف قوة بولونيا عند هذا الحد بل ضمت إليها بوهيميا فى عام ١٤٧٠ وهنغاريا فى عام ١٤٩٠ غير أن البولنديين والليتوانيين كانوا من الكاثوليك المتحمسين لمذهبهم فلم يستطيعوا استمالة الشعوب الروسية الأرثوذكسية ، أضف إلى هذا أن طبقة الأشراف البولنديين كانت قد أضعفت قوة حكومتها بسبب شدة نزعتها الاستقلالية وأخذت بولونيا التى وصلت إلى أوج مجدها فى القرن الخامس عشر تضعف رويدا رويدا بينما كان الحظ يبتسم لمملكة أخرى فى شرق أوربا تكونت حول مدينة موسكو وهى التى بدأت تظهر فى التاريخ تحت اسم الدولة الروسية .

وموسكو هذه لم تكن إلا قاعدة لإحدى الممالك الصغيرة التى أسسها النورمانيون والتى كان أمراؤها تابعين لمملكة « عشيرة الذهب » Horde d'or وقت إغارة المنغول على روسيا أما كيف تمكن أمراء هذه المدينة الصغيرة من تكوين دولة روسيا الكبيرة فأمر له تاريخ يحسن بنا إيراده بإيجاز فيما يأتى :—

لقد كانت قبائل الصقلب النازحة من آسيا الوسطى تجوب وديان روسيا بين الدنيستر والدنيبر « Dniester et Dnieper » ولقد أشار سائحو الإغريق إلى وجود هذه القبائل الصقلبية منذ القرن الرابع الميلادى . ولما كانت البلاد الروسية يخترقها طريق طبيعى من الشمال إلى الجنوب ويبدأ من بحر البلطيق ثم يمر ببحيرة لادوجا ثم يصل إلى الدنيبر ومنه إلى البحر الأسود . ولما كان هذا الطريق مفتوحا أمام الغزاة والفاتحين فقد سلكه النورمانيون فى الوقت الذى ظهروا فيه على مسرح التاريخ وأسسوا ممالكهم فى أوربا الغربية كما أسلفنا . ففى عام ٨٦٢م عبر بحر البلطيق ثلاثة إخوة من النورمانيين وأسسوا ثلاثة ممالك ثم مات اثنان منهم وبقى الثالث الذى عرف فى التاريخ باسم (روريك) « Rurik » وهو الذى استولى على أملاك أخويه المتوفَّيَيْن وأسس مملكة صقلبية عاصمتها كييف « Kiev » بالقرب من البحر الأسود ، وبلغ القسطنطينية خبر تأسيس هذه المملكة الصقلبية الجديدة فنزح إليها بعض رهبان بيزنطة للتبشير ونشروا فيها المذهب الأرثوذكسى من غير مزاحمة من المبشرين الكاثوليك الذين كانت غايتهم موجهة إلى غرب أوربا ، يَنْدَ

أن هذه المملكة الجديدة لم تدم طويلا بسبب تلك التقاليد القديمة التى كانت تعتبر المملكة تركة يقتسمها أولاد الملك المتوفى وكانت بسبب هذه التقاليد مرتعاً خصباً لكل أنواع المنازعات بين الورثة ؛ ولهذا دب الخلاف وانتشرت الفوضى فى هـذه المملكة إلى عام ١٢٢٤ حيث أغار عليها جنكيزخان الذى كان قد استولى على الصين وبخارى وتشقند وتركستان وبقيت روسيا تحت سيطرة المنغول نحو قرنين من الزمان حتى عام ١٣٨٠ ، وكانت أوربا فى مدى هذين القرنين مشغولة فى حروبها الدينية والمنازعات بين سلطتى الأباطرة والبابوية فلم تتخلص روسيا من سيطرة المنغول بقوة أوربا ولكنها تخلصت منها بسلوك أمراء موسكو وهى عاصمة إحدى الممالك الصغيرة التى كانت تابعة لدولة (المنغول) المعروفة باسم (عشيرة الذهب) «Horde d'or»[١].

فكان أمراء موسكو يتظاهرون بالتمسك الشديد بالأرثوذكسية ليستميلوا إليهم بيزنطة وكانوا يتظاهرون فى الوقت عينه بالخضوع للخان الكبير المسلم وهو رئيس « العشيرة الذهبية » التابعة له فكانوا له كصنائع يجمعون له الجزية ويرشدونه إلى خصومه فى المقاطعات الأخرى . وقد تمكنوا بهذا السلوك من أن ينقلوا من كييف إلى موسكو الرئيس الدينى للارثوذكسية وحصلوا من متبوعهم الخان المسلم على لقب « الأمير الكبير » فأصبحت موسكو أعظم مدينة روسية . وقد

---

(١) لقد اعتنق المغول فى الصين ديانة بوذا واعتنق الاسلام المغول الذين اتجهوا غربا وكونوا « عشيرة الذهب » هذه .

شيدوا فيها كنيسة التثليث وهى أول مقر للارثوذكسية الروسية وعند ضعف الدولة المغولية التى انقسم بعضها على بعض ثم وجد لها «خان» فى القرم وآخر فى قزان ، وانفصمت عراها ولم تعد لها قوة مركزية واحدة ، فقد انتهز أمراء موسكو هذه الفرصة فأعلنوا عصيانهم عليها وجمعوا حولهم العنصر الصقلبي لتحرير بلادهم . وفى هذه الأثناء تزوجت (زويه) «Zoé» ، أى صوفيا » باليوغولوس وهي إبنة توماس أخ قسطنطين باليوغولوس امبراطور بيزنطه من ايڤان الثالث أمير موسكو «Ivan III»

وفى عام ١٤٦٢ أى قبل أن تمضى عشر سنوات على فتح الأتراك للقسطنطينية فى عام ١٤٥٣ أعلن إيڤان الثالث فى ممالك أوربا بأن مملكته الصقلبية الجديدة تطالب بجميع حقوق الدولة البيزنطية سواء فى ذلك السلطة الزمنية أو الدينية . وبعد مضى جيل واحد أى فى عهد إيڤان المخيف اتخذ أمراء موسكو لقب قيصر واعترفت أوربا الغربية لهم بذلك اللقب فأصبح المطالبون بحقوق بيزنطة من سلالة عائلة ما كانت لتخطر على بالها هذه المطالبة التى استمرت ستة قرون وكانت سبباً فى حروب ومنازعات دولية إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤

وقد قتل فى عام ١٩١٨ قيصر روسيا نيقولا وعائلته وهو آخر القياصرة الروسيين الذين كانوا يحملون صليب النسر ذى الرأسين وهى شارة أباطرة الدولة الرومانية الشرقية ويغلب على ظننا أن مطامع روسيا فى استامبول وفى المضايق لا تزال قائمة وستكشف لكم الحرب العالمية الحاضرة عن مدى هذه المطامع .

هذا. ولم تنقرض العائلة النورمانية التى تناسلت من ذرية (روريك) إلا فى سنة ١٥٩٨ بموت (فيدور الأول) « Feodor 1 » ثم جلس على عرش القياصرة فى روسيا (بوريس جودونس) « Boris Godonnes » وهو من التتار وقد أنشأ جيشاً كبيراً احتاج — لكي ينفق عليه — إلى الاستيلاء على أرض المزارعين الذين جعلهم كرقيق الأرض وأصبح منذ هذا التاريخ أهالى روسيا من طبقتين هما طبقة الأشراف وطبقة العبيد من الفلاحين.

ولما مات بوريس هـذا انتخب (البويار) « Boyards » وهم من الأشراف ملكا هو ميخائيل «Michel» من عائلة (رومانوف). وفى عام ١٦٧٢ ولد (بطرس) المعروف تاريخاً باسم بطرس الأكبر ولكن أخته (صوفيا) استولت على العرش عندما كان سن أخيها بطرس عشر سنوات. وهى التى أرسلته إلى إحدى ضواحى موسكو فاتصل منذ نعومة أظفاره ببعض الأجانب الأوربيين الذين كانوا فى تلك الضاحية (من أساتذة ألمان وحلاقين إيطاليين وتجار هولانديين وأصحاب حانات اسكوتلانديين ومعلمى رقص من الفرنسيين وغيرهم).

ولما بلغ بطرس السابعة عشرة من عمره استخلص عرشه من أخته وأراد أن يحول روسيا التترية البيزنطية إلى مملكة تشبه الممالك الأوربية. فقام بعمل كثير من الإصلاحات الداخلية وأعلن فى عام ١٧٢١ أنه هو الرئيس الدينى للكنيسة الروسية. ومن هذا التاريخ لم نجد فى

روسيا نزاعاً بين السلطتين المدنية والدينية كما حدث فى أوربا غير أن هذه الإصلاحات كانت موضع نقد من أنصار الرجعية الروسية الذين قاموا بثورتين أثناء غيابه عن مقر ملكه حيث هبت الثورة الأولى بزعامة أخته فى أثناء غيابه لزيارة أوربا فى عام ١٦٩٨ ونشبت الثورة الثانية بزعامة ابنه الكسيس فى أثناء زيارته الثانية لأوربا فى عام ١٧١٦ . وقد قمع بطرس هاتين الثورتين بعنف وقسوة فسجن أخته وقتل ابنه فى سجنه وأكره الثوار على الوصول إلى منفاهم فى سيبيريا سيراً على الأقدام .

وأخيراً نقل بطرس عاصمة ملكه إلى مدينة جديدة أنشأها فى عام ١٧١٢ على شواطىء البلطيق سماها سان بطرسبرج وقد أطلق عليها بعد ذلك إسم بتروجراد ثم لينجراد «Petrograde et Leningrade» على إسم لينين زعيم الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الأولى .

ولاريب فى أن أعمال بطرس الأكبر وبخاصة قيامه بإنشاء أسطول روسى كبير ورغبته فى استنشاق نسيم البحر البلطيق قد لفتت نظر بلاد السويد إلى مطامعه ولهذا قامت الحرب بينه وبين ملك السويد شارل الثانى عشر وانضمت إلى روسيا بولونيا والدانيمارك والساكس ومع هذا انتصرت السويد بفضل عبقرية ملكها فى واقعة نقارا فى عام ١٧٠٠م غير أن السويد وجهت جهودها بعد هذا النصر إلى الانتقام من بولونيا والدانيمارك وتخريب بلادهما حتى ضعفت قوتها . وفى هذه الأثناء جهز بطرس الأكبر جيشاً فى داخل روسيا ودربه أحسن تدريب وانقض به على خصمه شارل الثانى عشر وانتصر عليه فى واقعة

بولتاڤا عام ١٧٠٩ وبقيت ذكرى شارل هذا من الأقاصيص القومية على الرغم من أن السويد فقدت عند عقد صلح نستاد «Nystad» فى عام ١٧٢١ جميع مستعمراتها على بحر البلطيق ماعدا فنلندا وأصبحت روسيا بفضل بطرس الأكبر دولة عظيمة لم ينازعها أحد فى أوربا الشمالية غير ظهور دولة فتيه جديدة هى بروسيا .

وفى الوقت الذى كانت فيه روسيا آخذة بأسباب الرقي والقوة كانت الدولة العثمانية آخذة فى التأخر والضعف لأسباب أهمها أن أحفادنا العثمانيين بعد فتوحاتهم العديدة واختلاطهم بالشعوب المختلفة قد انتقلت إليهم عيوب هذه الشعوب ونقائصهم فبعد أن كان سلاطين آل عثمان فى مقدمة جيوشهم ينتقلون بهم من نصر إلى نصر أصبحوا يتركون قيادة جيوشهم واممهم ويعكفون على حياة الرفاهية والبذخ فى القصور الشامخة التى كان يسكنها أباطرة الدولة البيزنطية وهذه هى سنة الله فى خلقه وما مثل الدولة العثمانية إلا كمثل الدولة الرومانية التى أعطت للشعوب التى أخضعتها صفاتها العالية وأخذت عنها عيوبها ونقائصها فكان السلطان سليم الثانى حفيدى أنا الذى غزوت بلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر وأبى سليمان العظيم الذى غزا بلجراد «Belgrade» فى عام ١٥٢١ ورودس فى عام ١٥٢٢ وقهر المجر فى عام ١٥٢٦ واستولى على بودابست فى عام ١٥٢٩ وفتح أرمينيا وكرواتيا « Croatie » وجورجيا «Georgie» واليمن ووصل إلى أسوار فينا « Vienne » أقول إن السلطان سليم الثانى هذا كان أول سلاطين العثمانيين الذين عدلوا عن قيادة

جيوشهم وأساطيلهم وبقوا فى قصورهم محاطين بدسائس البلاط يجهلون حقيقة مايجرى فى خارجها أو فى داخلها .

وقد أدت هذه الحالة السيئة إلى تدخل الجند فى شؤون الدولة وفى تعيين السلاطين وعزلهم وبينما كانت هذه الفوضى منتشرة فى الداخل كانت الدولة عرضة لحروب شنتها عليها بولونيا والنمسا وفارس والبندقية ثم بخاصة روسيا وتعتبر واقعة (لبانت) «Lepante» البحرية فى عام ١٥٧١ مبدأ لتضعضع القوة العسكرية العثمانية ففى هذه الحرب البحرية تحالفت اسبانيا فى عهد فليب الثانى مع جمهوريات البندقية و (جنوة) بإيعاز من البابا (بى الخامس) «Pie V» ضد السلطان سليم الثانى وانهزم فيها الأسطول العثماني . ومن هذا التاريخ فقدت تركيا سيادتها على البحر الأبيض المتوسط . ثم أعقبت هذه الحرب حروب أخرى برية . ففى عهد السلطان محمد الرابع قهرت الجيوش العثمانية أمام فينا فى عام ١٦٨٣ وكان قائد الجيش المعادى (سوبيسكي) «Sobieisky» وهو الذى اعتلى عرش بولونيا تحت اسم جان الثالث سوبيسكي « Jean III Sobieisky » وفى عهد السلطان مصطفى الثانى قهرت الجيوش التركية على نهر الدانوب أمام محالفة أخرى من النمسا وبولونيا وروسيا والبندقية عام ١٦٩٩ وعقب هذه الحرب تنازلت تركيا بعد صلح (كرلويتز) « Carlowitz » عن المجر التى ضمت إلى النمسا وعن أزوف « Azof » التى أعطيت لبطرس الأكبر وعن بلاد الموره « Morée » التى أعطيت لجمهورية البندقية ثم اشتبكت تركيا مع الروسيا فى حروب طوال القرن الثامن عشر وكانت النمسا

تنضم غالباً إلى الروسيا فى هذه الحروب التى فقدت فيها تركيا بلاد القرم وجميع ممتلكاتها شمالى البحر الأسود وأخيراً وليس آخراً اتفق فى معاهدة جاسى « Jassy » فى عام ١٧٩٢ على جعل نهر الدنيستر Dniester حداً فاصلا بين الامبراطوريتين واشتبكت تركيا فى حرب مع فرنسا عندما احتل بونابرت الأراضى المصرية ثم قامت ثورات الانكشارية التى لم تخمد إلا فى عهد السلطان محمود الذى قضى عليها فى عام ١٨٢٦ ثم بدأت بعد ذلك أعمال الدول فى البلقان بإحياء الشعور الوطنى فى الممالك البلقانية فقامت ثورة اليونان ولما أخمدها ابراهيم باشا بن محمد على الكبير والى مصر تدخلت الدول الأوربية للدفاع عن استقلال اليونان وتجمعت الأساطيل الانجليزية والفرنسية والروسية وأغرقت الأسطول المصرى التركى فى واقعة (نافارين) «Navarin» فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ وخرجت اليونان من سيطرة تركيا .

وفى عام ١٨٣٢ قام النزاع بين تركيا ومصر وانتصر الجيش المصرى فى وقائع قونية وقوتايه ونزيب وكاد جيش محمد على الكبير أن يعبر جبال طوروس ويهاجم القسطنطينية لولا تدخل انجلترا وحلفائها من الدول الأوربية فيما عدا فرنسا . وأخيراً عقدت معاهدتا ١٥ يوليه عام ١٨٤٠ و ١٤ يوليه عام ١٨٤١ وأصبحت ولاية مصر بموجبها وراثية فى أسرة محمد على كما تقرر مبدأ حفظ كيان الدولة العلية وهو المبدأ الذى وضعته السياسة الدولية وقتئذ لأسباب يطول شرحها وتأيد بعد ذلك فى حرب القرم (من عام ١٨٥٣ إلى عام ١٨٥٦) التى انتهت بخذلان

روسيا أمام انجلترا وفرنسا و(شرطانية) سردينيا وعقد معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ التى قررت حياد البحر الأسود .

وفى عام ١٨٦٦ أصبحت رومانيا مملكة وراثية بتعيين شارل الأول من عائلة الهوهنزلرن ملكا عليها ثم قامت فى الوقت ذاته ثورة فى جزيرة (إقريطش) كريت تدخلت فيها اليونان وتدخلت أوربا بعدها وانتهت بمؤتمر دولى عقد فى باريس فى عام ١٨٦٩ غير أن الصرب انتهزت فرصة هذه المشاكل وحصلت على الجلاء عن بلادها فى عام ١٨٦٧ ثم قامت ثورة فى بلاد الهرسك فى عام ١٨٧٥ مؤيدة بالعناصر الصقلبية من البلاد الأخرى وامتد لهيبها إلى البوسنة وأرادت تركيا أن تمنح أولئك بعض الامتيازات غير أن الثوار رفضوا ؛ وانتهزت الدول الأوربية فرصة الاعتداء فى سالونيك على قنصلى فرنسا وألمانيا وعقدوا مؤتمراً فى برلين جمع الروسيا والنمسا وألمانيا بحجة الدفاع عن المسيحيين فى تركيا وانضمت إليهم فرنسا وإيطاليا وفى غمار هذه المشاكل قام فى قلب تركيا حزب يتهم الصدر الأعظم بانتمائه إلى روسيا ضد السلطان ، ولما أُبعد الصدر الأعظم قام الطلبة وغيرهم يطلبون بدورهم عزل السلطان فعُزل السلطان عبد العزيز وتولى بعده السلطان مراد الخامس الذي عزل هو كذلك بعد شهر واحد من اعتلائه العرش بحجة مرضه وتولى بعده السلطان عبد الحميد الثانى وفى هذه الأثناء ظهرت بوادر الثورة فى بلغاريا ثم أعلنت صربيا والجبل الأسود الحرب على تركيا معتمدتين على معاونة روسيا ، فلما قهر الجيش الصربى الذى كان يقوده الجنرال سالروسى

(شرنايف) « Ichernayeff » وأصبح مركز الثوار ميؤوساً منه وأصبح
طريق بلغراد مفتوحاً أمام الأتراك أرسلت روسيا بلاغاً نهائياً إلى تركيا
ترتب عليه قيام الهدنة شهرين امتدت بعدها إلى أوائل مارس عام ١٨٧٧
وقبل انتهاء أجل الهدنة عقد مؤتمر من الدول العظمى فى القسطنطينية
فى ٢٣ ديسمبر عام ١٨٧٦ برياسة الجنرال الروسى (اجناتيف) « Ignatieff »
سفير الروسيا لدى الباب العالى وفى ذلك اليوم عَيْنِه أعلنت تركيا
الدستور العثمانى فى صدارة مدحت باشا وفى ١٩ يناير عام ١٨٧٧ رفضت
تركيا ما عرضته عليها الدول فى هذا المؤتمر على اعتبار أنه تدخل فى
شؤونها الداخلية ومناف لاستقلالها فأعلنت روسيا الحرب على تركيا
فى ٢٤ أبريل عام ١٨٧٧ بعد تعبئة جنودها على حدود تركيا الأوربية
والأسيوية وتحركت معها دول البلقان التابعة لتركيا وأعلنت رومانيا
استقلالها بعد أن عقدت اتفاقية حربية مع روسيا وعبر جنودها نهر
الطونة أمام الجنود الروس الذين فى آسيا فقد كانوا تحت قيادة الغراندوق
ميخائيل وقد استولت فى بادىء الأمر على أردهان وبايزيد وحاصرت
قرص وباطوم وهددت أرضروم بثلاثة جيوش روسية فاضطر القائد
التركى مختار باشا الغازى إلى التراجع أولاً ثم تمكن بمهارة وشجاعة من
صد الجيش الروسى ورفْع الحصار عن قرص وباطوم واسترداد بايزيد
وتوغل جيوشه فى أرمينية أما فى أوربا فبعد أن عبرت الجيوش الروسية
نهر الطونة تمكن الجيشان الروسيان اللذان تحت قيادة كل من ولى
العهد والغراندوق نيقولا من التوغل فى الأراضى البلغارية ولحق بهما

القيصر بشخصه غير أن عثمان باشا الغازى القائد التركى تمكن من الدفاع عن بلفنا « Plevna » دفاعاً مجيداً وطارد جيش تركى آخر جيوش ولى العهد وأخرجها من مراكزها أمام (روستشوك) « Roustchouk » كما أخرج سليمان باشا الجيوش الأخرى الروسية من الروملى .

غير أن الامدادات قد وصلت إلى الجيوش الروسية فانعكست الآية وقهر مختار باشا الغازى بسبب النجدات التى أرسلها من جيشه إلى أوربا ثم سقطت بلفنا واحتل الروس صوفيا فى ٥ يناير سنة ١٨٧٨ وهى أول مرة يدخلها جيش مسيحى منذ عام ١٤٢٤ ثم احتلت الجيوش الروسية ادرنة والتجأ السلطان عبد الحميد إلى انجلترا التى أرسلت أسطولا لحماية القسطنطينية فى ١٣ فبراير سنة ١٨٧٨ فوقفت الجيوش الروسية عند شطلجه وأمضيت فى ٣ مارس سنة ١٨٧٨ معاهدة سان استفانو على بعد ثمانية عشر كيلو متراً من القسطنطينية ولكن النمسا وانجلترا اعتبرتا هذه المعاهدة القاسية مضرة بمصالحها وجمعت انجلترا جيوشاً هندية فى مالطة وعند ذلك حدث صلح سرى بين روسيا وانجلترا وأخيراً عقد مؤتمر برلين فى ١٣ يولية سنة ١٨٧٨ تقرر فيه إعطاء بلغاريا استقلالاً داخلياً ومنح الروملى الشرقية شبه استقلال واحتلال النمسا للبوسنة والهرسك واستقلال الجبل الأسود بعد أن ضمت إليه (انتيفارى) « Antivari » واستقلال صربيا ورومانيا التى تنازلت عن بسارابيا إلى الروسيا ووضع نظام للملاحة فى الدانوب ووضع نظم للحكم فى كريت وبعض مستعمرات أخرى كما تنازلت تركيا لروسيا عن أردهان والقرص وباطوم، ثم أمضيت

بين تركيا وانجلترا معاهدة فى ٤ يونية سنة ١٨٧٨ تنازلت فيها تركيا عن جزيرة قبرص لانجلترا ، فهذا ما كان فى أوربا الشرقية وباقى القارة على العموم . ثم استأنف قائلا كما نقلناه في الفصل التالى .

ولقد عن لى أن أشرح لكم عصر المماليك السابق لدولتنا فى مصر هؤلاء المماليك الذين كونوا حضارة عظيمة وكانوا محل إجلال الدول جميعاً فى فترة ليست بالقصيرة وكانت تدين لهم بلاد العرب بأسرها ويغلب إطلاق هذا الاسم (المماليك) على كل رقيق أبيض كان يؤسَر فى الحرب أو يشترى من أسواق النخاسة ، وكان الخلفاء الفاطميون أول من استخدم المماليك الأتراك فى مصر تشبهاً بالعباسيين فى بغداد ، ثم جاء الأيوبيون فاستكثر صلاح الدين منهم وجندهم فى جيشه وكان المغول فى ذلك الحين يغيرون من آونة إلى أخرى على شمال آسيا وغربها ويدمرون قراها ، فهاجموا أهلها ومعهم أولادهم وبناتهم وانتهز تجار الرقيق هذه الفرصة فملأوا الأسواق بالفتيان والفتيات من قفقاسيا وجورجيا والجركس .

وقد اشترى الملك الصالح أيوب مايربو على الألف منهم ؛ ولما كثر عددهم أسكنهم جزيرة الروضة بالقرب من المقياس ولذا سُمُّوا بالمماليك البحْرية وكان المماليك يلقنون أرقى التعليم فى عصرهم وبخاصة فى السياسية والحرب فى حين كان تعليم الشعب مهملاً .

وقد عظمت شوكة المماليك البحرية بعد واقعة المنصورة حتى عز عليهم الصبر على معاملة (طوران شاه) الشديدة لهم فقتلوه وارتضوا

(شجرة الدر) زوج الملك الصالح ملكة على مصر وتزوج منها رئيس قواد المماليك (أتابك العساكر) عزالدين إيبك التركمانى وأصبح ملكا على مصر باسم الملك (المعز) فى سنة ٦٤٨ هـ — ١٢٥٠ م فتغلب على منافسيه من بقايا الايوبيين ودانت لحكمه مصر وأكثر الشام .

وفى ذلك الحين انحدر التتار من أواسط روسيا بقيادة (هولاكو) واكتسحوا بغداد وقتلوا المستعصم آخر خلفاء العباسيين بها فى فبراير عام ١٢٥٨ م — ٦٥٦ هـ واستولوا على الشام وأرسل هولاكو إلى مصر رسالة تهديد بالغزو إذا أبت الخضوع له وكان (قطز) قد ولى السلطنة فقتل الرسل وتقدم بالجيوش المصرية التى انتصرت فى حروبها الصليبية وقد أخذتها نشوة النصر إلى حدود فلسطين وهزمت المغول فى موقعة (عين جالوت) فى آخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ وقتل قائدهم (كتبغا) نائب هولاكو وصهره ومد (قطز) نفوذه إلى نهر الفرات فحقد عليه أكبر قواده وتآمر على قتله فى الطريق وهو عائد إلى مصر فى يوم السبت ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م فاختاره المماليك سلطانا

موقعة عين جالوت

ولقب نفسه (السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس البندقدارى الصالحى) وهو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك البحرية وكان مملوكا دخل فى خدمة الملك الصالح فظهرت مقدرته فى موقعة المنصورة وغيرها . ولما ولى الحكم نظم جيش مصر وأعاد إنشاء البحرية المصرية وعنى بإصلاح الثغور والحصون وأنشأ البريد بين العاصمة وسائر أنحاء الدولة فكانت الخيل تحمله من القاهرة إلى دمشق فى ستين ساعة وأوجد

الظاهر بيبرس

أيضاً بريد الحمام وكانت له حمائم خاصة يتناول من أجنحتها الخطابات حتى لا يطلع على ما فيها من اسرار الدولة أحد سواه .

ومن أهم أعماله إنشاء الترع وبناء القناطر وتحسين حالة الجسور وتخفيف الضرائب وسن القوانين العادلة فأحبه الشعب ونال رضاء أهل الشام باعترافه بحكامهم المحليين وجدَّ فى إقامة المعاهد والمساجد وأهمها مدرسة بشارع بين القصرين ومسجده الكبير بميدان الظاهر بالقاهرة وكان خارج المدينة فى ذلك العهد .

إحياء الخلافة العباسية

وقد أحيى الخلافة العباسية لتثبيت مركزه من الوجهة الشرعية فاستدعى أحد أبناء العباسيين وأقامه خليفة فى مصر بلقب (المستنصر بالله) وظلت الخلافة طوال حكم المماليك ولم يكن للخليفة فى الغالب أكثر من الاسم والاعتراف بلقب السلطان ، على أن الخلافة جعلت لمصر مركزا ممتازا لأن أمراء الهنود وغيرهم كانوا يطلبون من الخليفة تقليداً بجعل مركزهم مشروعاً وزادت أهمية الخلافة فى أواخر دولة المماليك وعند دخول العثمانيين مصر .

وكانت حماية مصر من إغارة المغول عليها من أهم ما يشغل بيبرس ولذا صادق كثيراً من الملوك ومنهم امبراطور الدولة الرومانية الشرقية وسلاجقة الروم وأمراء صقلية وأرغن Aragon أو الثغر الأعلى ، ولما كان الصليبيون يوالون المغول أراد بيبرس أن يتشبه بصلاح الدين بطرد الباقين منهم فحاربهم إمارتهم نحو عشر سنوات استولى فى خلالها على صفد ويافا فى عام ١٢٦٨ ثم انطاكيا وغيرها من حصونهم المهمة ثم سار إلى نهر

الفرات بجيش عظيم لمهاجمة المغول رأساً وعبر النهر على ظهور الخيل وهزم المغول وطردهم من تلك الأصقاع ليأمن شرهم ولكنه انتصر على حلفائهم فى أرمينيا وغنم غنائم كبيرة وعاد إلى مصر وجرد حملة إلى بلاد النوبة العليا التى كانت مسيحية وهزم النوبيين عند (دنقله) وأخضعهم لحكم المسلمين لأول مرة وفرض عليهم الجزية وأصبح ملك مصر يمتد من أعالى الفرات والأناضول إلى السودان .

السلطان قلاوون

ومن أعظم من جاءوا بعده السلطان (قلاوون) من عام ١٢٧٧ إلى عام ١٢٩٠ وهو الذى هزم المغول عند حمص هزيمة لا تقل أهمية عن هزيمة (عين جالوت) وبخاصة أن المغول كانوا فى ذلك الحين يراسلون (البابا) وملوك أوربا للتعجيل بإرسال حملة صليبية تقضى على سلطة مصر ، واتقاء لهذا الخطر أبرم قلاوون اتفاقاً دفاعياً مع أمراء قشتالة وصقلية وعقد معاهدة تجارية مع جنوى ووطد الروابط الاقتصادية بينه وبين بعض ملوك أوربا واليمن وسيلان .

وكان فى خدمته أكثر من اثنى عشر ألفاً من المماليك الجراكسة والمغول ومن بينهم نحو أربعة آلاف يسكنون فى أبراج القلعة ويسمون لذلك بالمماليك البرجية تمييزا لهم عن المماليك البحرية .

وكان قلاوون معروفاً بالحلم والعدل والجود وحب الخير . ومن أعماله الباقية البيمارستان (المستشفى) الذى أعده للمرضى وبخاصة النساء وجهزه بمعمل كيميائى وعين فيه المحاضرين. والقبة التى بها قبره وكانت بها مكتبة عامة تحوى كتباً كثيرة فى جميع الفنون . ثم المدرسة التى عين بها

علماء المذاهب الأربعة لتدريس علوم الدين وأضاف إليها مكتباً للأطفال ومدرسة للصبيان وملجأ للأيتام. وكل هذه الآثار بالنحاسين بالقاهرة.

السلطان خليل بن قلاوون ١٢٩٠ — ١٢٩٣ م.

وقد خلفه ابنه خليل يوم السبت ٦ ذى القعدة ٦٨٩ هـ ١٢٩٠ إلى ٦٩٣ هـ ١٢٩٣ م وكان على عكس أبيه قاسياً ميالا إلى الفتك بكل من يشك فى إخلاصهم له. فقتل وزير أبيه وأقصى عن الحكم أكثر من كانوا فى خدمته. ولكنه تشبه بأبيه فى أمر واحد وهو عزمه من أول توليه الحكم على طرد الصليبيين من المشرق ومهد لذلك باسترضاء القضاة والفقهاء بمصر واستنهاض ولاة سوريا لمعاونته ولما أتم استعداده حاصر (عكا) وأقام حولها أكثر من تسعين منجنيقاً فاستماتت حاميتها فى الدفاع عنها وساعدتهم نجدة من جزيرة قبرص وكان فى استطاعتهم المقاومة طويلا لولا ما دب بينهم من تنافس ونزاع كان من نتائجه أن عاد أكثر جنود قبرص إلى جزيرتهم تاركين إخوانهم فى أشد المواقف حرجاً.

وقد تمكن السلطان خليل بن قلاوون بفضل هذا التخاذل من إخضاع (عكا) فى عام ١٢٩١ بعد حصار لم يطل كثيراً عن أربعين يوماً. ولم ينج من حامية عكا أحد بل وقعوا جميعاً بين قتيل وأسير وأحرقت مدينتهم ودمرت فدب الخور فى قلوب بقية الصليبيين فَجَلَوْا عن القلاع التى كانت بأيديهم وانتهت بذلك الحروب الصليبية بعد أن أقلقت الشرق الأدنى قرابة قرنين من الزمان.

وحاول السلطان خليل أن يهزم المغول الذين كانوا يهددون سوريا إذ ذاك وأخذ بعض القلاع منهم. وعاد إلى القاهرة واستقبله الأهالى

بأعظم مظاهر الحفاوة والإجلال فدخلها دخول الظافر يتقدمه أسرى الفرنجة مكبلين بالأغلال تليهم أعلامهم منكسة ورؤوس قتلاهم على أسنة الرماح .

ولم يطل حكمه لأن كبرياءه وقسوته قد أثارتا حقد المماليك وسخطهم فكاد له جماعة منهم واغتالوه فى الجيزة وهو ذاهب فى إحدى رحلاته إلى الصعيد وهو على فراشه ليلا بتواطؤ إحدى نسائه مع مملوك له يدعى بيدرا الذى تولى الملك يوماً واحداً ثم قتل . وقد دفن فى قبته بالنحاسين .

الملك الناصر محمد بن قلاوون

ومن عظماء سلاطين المماليك البحرية الملك الناصر محمد بن قلاوون تولى الملك عدة مرات أهمها ولايته الثالثة من عام ٧٠٩ هـ ١٣١٠ إلى عام ٧٢٠ هـ ١٣٤١ م .

وبلغ من حسن سمعته أن طلب إليه إمبراطور الهند أن يساعده على المغول وخطب وده قيصر الروم وجاءت وفود البابا وملوك فرنسا ترجوه أن يحسن معاملة المسيحيين فى دولته فى مقابل معاملة المسلمين النازلين باروبا بالمثل فكان الناصر يعمل جهده لإنصاف المسيحيين وإقامة العدل بينهم فى وقت ساد فيه الجهل والتعصب .

ولما نزل القحط بالبلاد جلب إليها الغلال من سوريا وألزم الأغنياء بيع مايزيد عن حاجتهم بسعر محدود وأبطل الضرائب المرهقة وقضى على إقطاعات الأمراء التى كانت تنقص من دخل الحكومة وحفر ترعة من فوة إلى الاسكندرية (ترعة المحمودية الآن) وفتح

بذلك طريقا مائية للتجارة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض فضلا عن إخصاب الأراضى التى تشقها تلك الترعة وشيد قصوراً شاهقة داخل القلعة وخارجها وأقام نحو ثلاثين مسجداً وكثيرا من الصهاريج العامة والحمامات والمدارس . ولم يقتصر اهتمامه على القاهرة بل تعداها إلى مكة وبعض مدن الشام ودفن فى قبة والده .

المماليك البرجية أو الجركسية

ولما كثر الهياج وعمت الفوضى لتقليد الأمر الأطفالَ من بيت قلاوون الذى حل به الضعف وافق الخليفة والأمراء والمشايخ على أن يكون السلطان رجلا لا طفلا واختاروا فى عام ١٣٨٢ الظاهر سيف الدين برقوق أحد مماليك البرجية سلطانًا وزاد النزاع الحزبى بانتقال الحكم إلى هؤلاء المماليك وكثر حصار القلعة وخرجت سوريا عن طاعة مصر وتعددت حوادث القحط والوباء حتى كان السكان أحيانا ينقصون إلى الثلث وثقلت الضرائب فبدأ الناس يثورون وشاعت الخيانة والغدر وكثر التعذيب بشتى الطرق .

ومن المماليك البرجية (المؤيد شيخ المحمودى) من عام ١٤١٢ . إلى عام ١٤٢١ . وهو الذى أعاد الأمن فى مصر واسترد الشام كلها إلى طرسوس وتوغل بجيوشه إلى أواسط أسيا الصغرى . وقد أدخل تغييراً مهمًّا فى نظام الجيش فأصبح يتكون من :

(١) جنود نظاميين تنفق عليهم الحكومة .
(٢) مماليك السلطان وتصرف مرتباتهم من الأملاك السلطانية الخاصة.
(٣) مماليك الأمراء وكان كل أمير يصرف على مماليكه .

وكان المؤيد تقيا ورعاً وشاعراً موسيقياً يشجع طلاب العلم ويحن إلى الفقراء أيام القحط . ومن آثاره جامع المؤيد بجوار (باب زويلة) المعروف (بيوابة المتولى) .

وقد خلفه (الأشرف بارسباى) الذى استولت الجنود المصرية فى آخر عهده على النصف الشرقى من أسيا الصغرى وبذا أصبحت أملاك مصر تجاور الأتراك العثمانيين بالجزء الغربى من شبه الجزيرة .

نظام الحكم

واستمر حكم المماليك البحرية نحو مائة وثلاثين سنة من عام ١٢٥٠ إلى عام ١٣٨٢ يتعاقب فيها على عرش مصر أشدهم بأساً وأكثرهم أتباعاً لا يكادون يعترفون بالوراثة لأمير ما عدا قلاوون إذ استمر الحكم فى أسرته حوالى مائة سنة ثم جاء المماليك الجراكسة من عام ١٣٨٢ إلى عام ١٥١٧ وظلوا يختلف أقوياؤهم على عرش مصر حتى انتهت دولتهم .

وكان يحدث فى كلٍّ من العصرين أن يعظم نفوذ أحد الأمراء فيقتل السلطان الذى لم يكن له غير الاسم أو يخلعه ولم يكن للسلطان عاصم إلا حرسه . فكان يمنحهم إقطاعات واسعة ويفرق عليهم النعم ويجزل لهم العطايا والإحسان حتى أصبح الجزء الأكبر من أرض مصر قطعاً قطعاً لضباط الحرس والجند الذين كانوا أحياناً يعزلون السلاطين ويولونهم .

وكان لكل أمير من ضباط الحرس وموظفى القصر وغيرهم حرس من مماليكه يقومون على حراسته والدفاع عنه إذا ما حاصر قصره أمير آخر ويفدونه بأرواحهم فى ميدان القتال .

وكان هؤلاء الأمراء وأعوانهم خطراً على السلطان فإذا تحالف

جماعة منهم عليه سد أعوانهم منافذ القصر وعمد حليف من خدم السلطان إلى طعنه وعند ذلك تختار هذه الجماعة واحداً منهم للعرش وبذا ينتهى الأمر . أما إذا قام حزب معارض فتصبح شوارع المدينة ميادين للقتال ويغلق الأهالى حوانيتهم[1] ويُهْرَعون إلى منازلهم ثم يقفلون أبواب الحارات التى كانت تعزل كل حى عن سواه . وقد يستمر ذلك أياماً يجوب فيها المتحاربون الشوارع العامة وينهب كل فريق منهم بيوت الأعداء ويسبى نساءهم وأولادهم ويصوب الفريق الآخر السهام ويسدد الرماح من نوافذ المنازل وسطوحها إلى أعدائه فى الطرقات .

وكان السلاطين مثقلين بالواجبات يجلسون للقضاء والفصل فيما يقدمه لهم عامة الناس من المظالم ويشرفون على كل مكاتبات الدولة من داخلية وخارجية .

الاحوال الاجتماعية والاقتصادية

كان المماليك يميلون إلى إقامة الحفلات الرسمية وكانوا مولعين بالرياضة البدنية كالصيد والرماية وركوب الخيل وألعاب السيف والرمح والسباحة.

أما حياتهم الخاصة فأوْضَح وصف لها ماورد فى كتاب ألف ليلة وليلة لأن أكثره مستمد من حياتهم فى القاهرة ويؤيد ذلك ما خلفوه وراءهم من قصور فخمة بديعة التنسيق تتجلى فيها آثار الصناعة العربية الدقيقة من نافورات ومصابيح ومباخر وأباريق وآنية مرصعة بالذهب والفضة وتحف وطرائف جعلت عصر المماليك أزهى عصور الفن الإسلامى المصرى.

ولقد كان المماليك وهم جماعة أجنبية لا تربطهم بالبلاد روابط وطنية

---

(١) من الأفعال اللازمة للبناء للمجهول قال تعالى : « وجاءه قومه يهرعون إليه » .

أو عائلية يسفكون الدماء ويظلمون الرعية ثم بعد هم يستمتعون بمنتجات الفن الجميل ولكنهم كانوا يسخون بالأوقاف على المؤسسات الخيرية ويشيدون المساجد والقصور التى تعد بحق من آيات الفن ويبالغون فى العناية بالمسكن والملبس والأثاث ويشجعون الآداب والفنون بقدر ماتسمح به أوقات الفراغ من الحروب الحزبية فيما بينهم .

أما عامة الشعب فكانوا يزرعون الأرض ويدفعون الضرائب ليعيش منها المماليك ويصنعون لهم مايحتاجون إليه من مختلف الحاجات وكان قليل منهم يعمل فى القضاء وما إليه من الوظائف الدينية وفيما عدا ذلك لا يتصلون بالهيئة الحاكمة ولا تدخل لهم فى شئون الحكم .

ولقد وجدت الصلات التجارية بين الشرق والغرب بعد أن اتصل الشرق بالغرب فى أثناء الحروب الصليبية وتاق الغرب إلى الاستمتاع بنفائس ماكان ينتجه الشرق من مختلف الطرائف والحاجات وكانت البضائع تنقل من الشرق إلى الغرب بطرق ثلاث هى :

أهمية التجارة

(١) طريق السويس — من المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى السويس ثم إلى القاهرة بالقوافل حيث تشحن فى السفن وتسير فى فرع رشيد إلى قرب الرحمانية ثم فى ترعة مكان ترعة المحمودية الحالية إلى الاسكندرية ومنها إلى إيطاليا فاسواق أوربا .

(٢) طريق اسكندرونة — من المحيط الهندى وخليج البصرة ونهر الفرات إلى حلب واسكندرونه بطريق القوافل ثم إلى إيطاليا فاسواق أوربا .

(٣) الطريق البرى إلى قسطنطينية — بين شرق آسيا وغربها مارا من جنوبى جبال (التاى) ثم محاذيا لبحيرات (بلكاش) و (بيكال) و (بحر الخزر) إلي جنوب روسيا ومنتهيا إلى القسطنطينية ومنها إلى أسواق أوربا .

ويتضح مما تقدم أن معظم التجارة بين آسيا وأوربا براً أو بحراً كانت تمر بمصر أو بالشام التابعة لمصر وكان فى استطاعة خلفاء مصر وسلاطينها التحكم فيها كما يشاءون .

وأهم ما كان ينقل من الشرق حرير الصين و بفتة الهند وشاش الموصل والجواهر الكريمة التى تزدان بها تيجان الملوك والأمراء من زمرد وزبرجد وياقوت وماس وغيرها مما يوجد بالشرق وخصوصاً فى الهند ولم تكن أوربا تعرف سوى الطب العربى وعماده بالطبع العقاقير الشرقية كالتمر هندى والمر والراوند وزيت الخروع والنشادر والسنامكة والصمغ العربى والأفيون وهو المسكن الوحيد فى ذلك العصر والكافور والزعفران

وما كانت الكنائس الكاثوليكية وهى لا تحصى عدداً فى غرب أوربا تستغنى فى طقوسها عن البخور ومصدره الشرق .

وفوق هذا كان الأوربيون يعوزهم غذاء الأغنام شتاء فيذبحون كثيراً من هذه الحيوانات ويجففون لحومها ويفعلون مثل ذلك فى السمك ولم يكن بد من التوابل كالفلفل والقرنفل وجوز الطيب والقرفة والزنجبيل ، ولا يقل عن هذه أهمية مواد الصباغة كالعظلم (النيلة) وأدوات الزينة والتمر واللازورد .

هـذا قليل من كثير من نفائس الشرق وهو يكفي للدلالة على أن قدراً غـير قليل من الكماليات بل والضروريات المنزلية كان يستحضر من آسيا إلى أوربا فى العصور الوسطى . وكل هذه الـكنوز والطرف كان أكثرها يمر بين السويس والاسكندرية وبقيتهـا بالشام . وكان سلاطين المماليك يفرضون عليها فى الحالين (التصدير والتوريد) ضرائب جمركيـة لا يسهل علينا تصديقها ؛ ضرائب كانت تبلغ ثلث ماتساويه السلع فى مصر . وبذلك جمع سـلاطين مصر من هذه التجارة أموالا طائلة بنوا منهـا أكبر المساجد وأفخم المدارس والمستشفيات والسبل وما إليها مما يعد أبدع ما لدينا من الفن العربى وناهيك بجامع السلطان حسن عظمـة وجامع قايتباى تنسيقاً ودقة صنع . بهـذه الأموال عاشوا فى نعيم وترف صـار مضرب الأمثال وكثر إحسانهم فى الأعيـاد والمواسم مما كان يخفف غائلة الفقر بين الأهالى واحتفظوا بجلال الملك وأبهة الدولة ما بقيت مصر والشام ملتقى البائع الشرقى والمشترى الغربى وكانت الاسـكندرية أكبر مركز لتلك التجـارة فأقام أكثر الدول الأوربية بها وكالات تشرف على مصالح تجارتها .

ولما كان الإيطاليون أقرب الأوربيين إلى الإسكندرية لم ينته القرن الثالث عشر حتى كان نقل التجارة من مصر والشام إلى أوربا وقفاً عليهم وكان أسبق مدن إيطاليا (بيزا) ولـكنها كانت نظرا لموقعها الطبيعى دون (جنوى) و (البندقية) اللتين وقعت بينهما المنافسة طويلا تريد كل منهما أن تنفرد بتلك الغنيمة العظيمة وما لبثت (البندقيـة) أن

فازت بفضل قربها واكتفت جنوى بتجارة القسطنطينية ومن البندقية كانت التوابل وبقية سلع الشرق تنقل إلى (أنفرس) و (بروج) ومدن الهنسا مما درّ على البنادقة ذهب أوروبا حتى أثرى أهلها حكومة وشعبا فامتد ملكهم فى وادى نهر (البو) و (دلماسيا) وجزر اليونان وإقريطش (كريت) و (قبرص) وصارت هذه المحطات بينها وبين حلب واسكندرية فلا عجب أن سبقت (البندقية) غيرها فى الطباعة والتصوير فى أواخر العصور الوسطى .

وقد استمرأ المماليك والإيطاليون هذه المكاسب الكبيرة واشتط الأولون فى فرض المكوس ورفع الآخرون الأثمان طلبا لزيادة الأرباح حتى صارت تحف الشرق تباع بأثمان باهظة فضاق المشترون ذرعا ودب الحسد فى قلوب بعض الأمم الأوربية . واعملوا الفكر فى نيل شطر من تلك الأموال التى ما زالت تتدفق فى جيوب المصريين والبنادقة فلم يعد لمعالجة الموقف أحسن من البحث عن طريق جديد يحول التجارة عن مصر والبندقية وقد أدى هذا إلى الاكتشافات الجغرافية .

وعند ما وصل السلطان سليم إلى هذا الحد من الحديث أراد أبو الهول أن يحدد نصيب كل من الحاضرين فى تلك الأحاديث فأشار إلى الأستاذ الجامعى أن يستأنف حديثه الذى وقف عند حده حين بدأ السلطان سليم ذكر تاريخ الدولة العثمانية فقال الأستاذ :



إنه فى الوقت الذى فتح فيه الأتراك القسطنطينية ووسعوا فيه أملاكهم فى جنوب شرقى أوربا خرج المسلمون من الأندلس وكأن الإسلام أبى إلا أن يحدث مداً فى الشرق يصحبه جزر فى الجنوب الغربى من أوربا حيث كانت فرنسا وانجلترا مشتبكتين فى حرب المائة سنة وهي عدة حروب متقطعة بينهما استمرت من ١٣٣٨ إلى ١٤٥٣ وكان السبب فيها أن ملك انجلترا بعد فقده لنرمنديا وانجو فى سنة ١٢١٤ كان يطمح فى أن يملك (بواتو) و (أكتين) و (غسقونيا) فيعرقل جهود ملك فرنسا فى سبيل توحيد مملكته سياسياً.

ولما كان ملوك انجلترا متمسكين بحقوقهم فى هذه الأقاليم وكان ملوك فرنسا مصممين على نشر سلطانهم عليها جميعاً لم يكن بد من وقوع حرب بينهما تنتهى إما بنجاح ملك انجلترا فى إخضاع فرنسا وإعلان نفسه ملكا عليها أو بتمكن ملك فرنسا من طرد الانجليز نهائياً وضم أملاكهم الفرنسية إلى فرنسا.

النزاع بين انجلترا وفرنسا

وقد بدأ النزاع بين انجلترا وفرنسا على إثر انقراض أسرة هيوكابت الحاكمة فى فرنسا — بموت الابن الثالث لفليب الرابع فى سنة ١٣٢٨ وادعاء أدوارد الثالث ملك انجلترا حق تتويج نفسه ملكا على فرنسا لأن والدته هى ابنة فليب الرابع؛ ولكن علماء القانون فى فرنسا لم يسمهم

إزاء هذه المطامع إلا أن يعلنوا أن التقاليد الفرنجية القديمة لا تجيز لسيدة أو وريثها اعتلاء عرش فرنسا وعلى ذلك انتخب فليب السادس أول ملوك أسرة فالوا Valois ملكا على فرنسا . ولكن سرعان ماقام النزاع بين مدن فلندرة وبين ملك فرنسا إذ حاولت الاستقلال فأمر ملك فرنسا حاكمها بقمع هذه الحركة وكانت هذه المدن من أغنى مدن أوربا فى العصور الوسطى لاشتهارها بالمنسوجات الصوفية ، وكانت تربطها بانجلترا علاقات تجارية متينة وكانت انجلترا تصدر لها أحسن الأصواف التى كانت تعتمد عليها فى منسوجاتها ولذلك انحازت هذه المدن إلى جانب ادوارد الثالث عندما أعلن حقه فى تاج فرنسا .

الأصواف الانجليزية

وفى سنة ١٣٣٦ أمر حاكم فلندرة بسجن التجار الانجليز الذين فى بلاده ومنع ادوارد الثالث من جانبه تصدير الصوف واستيراد المنسوجات الصوفية لشل الحركة التجارية وسعى فى حماية الصناع الفلمنكيين فنقلهم إلى بلاده وأسكنهم إقليم نورفلك Norfolk الذى بدأت تظهر فيه صناعة الأصواف . وكانت السفن الانجليزية تعمل فى البحار للاحتفاظ بسيادة الانجليز على البحر بين انجلترا وفرنسا .

هذه هى مقدمات حرب المائة سنة التى بدأت فى فرنسا فى سنة ١٣٤٦ عندما هاجم ادوارد الثالث ساحل نرمندية وتوغل فى الداخل حتى اقترب من باريس ثم عاد وقابل الفرنسيين فى واقعة كرسى Crecy التى انتصر فيها والتى لها أهمية كبرى فى التاريخ إذ تبين للعالم أن الصفوف المتراصة من المشاة إذا عملت بالاتحاد وأحكمت استعمال الأقواس

والرماح أمكنها الانتصار على الفرسان بسهولة . وعلى أثر هذه الموقعة أخذ الإنجليز كاليه واستمرت فى حوزتهم قرنا من الزمان .

و وقفت الحرب بين الفرنسيين والإنجليز عندما انتشر الطاعون المعروف (بالموت الأسود) واجتاح أوربا كلها من سنة ١٣٤٨ إلى سنة ١٣٤٩ وأفنى ما يقرب من نصف السكان .

الموت الأسود فى أوربا

وفى سنة ١٣٥٦ اشتبك الإنجليز مع الفرنسيين فى حرب أخرى انتصر فيها الأمير ادوارد الملقب (بالأمير الأسود) ابن ادوارد الثالث فى واقعة (بواتييه) Poitiers وأخذ (حنا) ملك فرنسا أسيراً إلى لندن ونظراً إلى أن هذه الانتصارات لم تكن حاسمة اضطر والده ادوارد الثالث فى النهاية إلى عقد معاهدة (برتينى) Bretigny فى سنة ١٣٦٠ تنازل فيها عن حقه فى تاج فرنسا وعن حقوقه فى (نرمنديه) فى مقابل أخذه (بواتو) و (غيين) و (غسقونيا) و (كاليه) وتبلغ مساحتها ثلث مساحة فرنسا تقريباً يحكمها من غير الاعتراف بسيادة ملك فرنسا عليها .

ولم تستمر هذه المعاهدة طويلا لأن الأمير الأسود عندما حكم الأقاليم الجنوبية نيابة عن والده اشتد فى معاملة الأهالى الذين يفضلون بطبيعة الحال الحكم الفرنسى على الإنجليزى فقاموا بثورة ضد الإنجليز وشجعهم عليها مرض الأمير الأسود وموته وضعف ادوارد الثالث فى شيخوخته ، وتمكن ملك فرنسا شارل الخامس (من سنة ١٣٤٦ إلى سنة ١٣٨٠) من استرداد الأقاليم التى أخذها الإنجليز بالتدريج ولم يبق لهم بعد موت ادوراد الثالث فى سنة ١٣٧٧ من الممتلكات فى فرنسا سوى كاليه وإقليم صغير حول بوردو .

وقد وقفت الحرب ثانية بين فرنسا وانجلترا لسوء الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى المملكتين :

ففى فرنسا التى كانت ميدانا لهذه الحروب تعطلت الزراعة والصناعة والتجارة وانتشر الجنود وعاشوا بالنهب من مهاجمة البلاد .

ثورة العبيد

أما فى انجلترا فإنه لما قلت الأيدى العاملة بسبب الموت الأسود واحتاج الأشراف إلى عمال فى ضياعهم ومزارعهم ارتفعت الأجور لدرجة لجأ معها الأشراف إلى الحكومة فأصدرت قانونا يهدد بسجن من يرفض الأجور القديمة فتذمر رقيق الأرض وثار الفلاحون فى سنة ١٣٨١ واجتمع منهم نحو مائة ألف فى جنوب وغرب انجلترا وهاجموا قصور الأشراف وأحرقوها ودمروا مابها وأبادوا سجلات عبوديتهم وفتحت لهم لندرة الأبواب فدخلوها وقابلوا الملك الصغير رتشارد الثانى ووعدهم بإلغاء الرق فتفرقوا؛ ولكن الأشراف قد انتقموا من زعماء الحركة انتقاماً مريعاً .

العودة إلى المطالبة بتاج فرنسا

وفى سنة ١٤١٥ أعلن هنرى الخامس حقه فى تاج فرنسا ، التى أراد محاربتها لتقوية مركز أسرته فى انجلترا واستمالة الناس إليه وهاجمها فى السنة التالية وانتصر على الفرنسيين فى واقعة اجنكورت (Agincourt) بالقرب من (كرسى) وعقدت معاهدة (تروى) (Troyes) فى سنة ١٤٢٠ تقرر فيها أن يكون هنرى الخامس نائباً عن الملك فى فرنسا وأن يتوج ملكاً عليها بعد موت شارل السادس غير أنه فى سنة ١٤٢٢ مات الاثنان وترك هنرى الخامس ابنه هنرى السادس وعمره بضعة أشهر فعين دوق

بدفورد (Bedford) وصياً على الملك فأحسن القوامة وواصل الانتصار على فرنسا وبمساعيه أعلن هنرى السادس ملكاً على شمال فرنسا إلى نهر اللوار جنوباً فأسقط فى يد ولى العهد فى فرنسا (الدوفن) (Dauphin) الذى لم يجرؤ على تتويج نفسه ملكاً على فرنسا .

وقد قوى مركز هنرى السادس فى فرنسا وبخاصة عندما انضمت إلى جانبه برغندية وهى من أغنى وأقوى المقاطعات فيها وذلك على أثر قتل دوقها فى وليمة أقامها الدوفن واستطاع الانجليز محاصرة أورليان التى تعتبر مفتاحاً لجنوب فرنسا .

وفى الوقت الذى كانت فيه المدينة مشرفة على التسليم جاءت النجدة ، حيث ظهرت فى شرق فرنسا فتاة قروية تدعى (جان دارك) (Jeanne d'Arc) أعلنت للناس أنها سمعت منادياً يناديها بأن تقوم وتحارب على رأس الجيش الفرنسى لطرد الانجليز من فرنسا والأخذ بيد ولى العهد وتتويجه ملكاً على فرنسا فى كنيسة (ريم) (Reims) وأضافت : إن مصدر هذه الرسالة سر إلهى وإنها مدفوعة بالقوة الالهية لتنفيذ مهمتها فاستخف بدعوتها الناس فى أول الأمر ولكنها نجحت فى مقابلة ولى العهد (الدوفن) الذى أجابها إلى طلباتها ، وكان مجرد وجودها فى وسط الجنود الفرنسية كافياً لإظهار حماستهم وإحياء روح جديدة فيهم لا عهد لهم بها من قبل وهى روح الاستبسال والاستماتة فى سبيل الدفاع عن أرض الوطن (فرنسا) .

جان دارك

وقد سارت جان دارك وهى فى ملابس الرجال على رأس الجيش

الفرنسى الذى هزم الإنجليز فى سنة ١٤٢٩ ورفع الحصار عن أورليان بفضل ما أظهره من البسالة والشجاعة والإقدام .

ثم حققت الفتاة باقى برنامجها وتوج (الدوفن) فى كنيسة ريم ملكاً على فرنسا فى نفس السنة ، وأرادت العودة إلى قريتها ولكن ألح عليها الملك بالبقاء فى الجيش حتى يتم طرد الإنجليز فبقيت ودبت فى نفوس القواد عوامل الحسد والغيرة فتركوها تقع أسيرة فى أيدى البرغنديين فباعوها لحلفائهم الإنجليز الذين لم يعاملوها كأسيرة بل كساحرة ملحدة وشكلوا لمحاكمتها محكمة دينية حكمت عليها بالإحراق ونفذ الحكم فى مدينة روان .

وبعد ذلك مات دوق بدفورد وانحاز البرغنديون إلى ملك فرنسا فى سنة ١٤٣٥ فساعد ذلك كثيراً على طرد الفرنسيين للإنجليز فى سنة ١٤٥٣ ولم يبق لهم إلا (كاليه) وبذلك تم توحيد فرنسا سياسيا وبدأ ملوكها يثبتون عرشهم ويقوون سلطانهم فى البلاد حتى أصبحت فرنسا من أقوى الممالك فى أوربا إذ استطاع لويس الحادى عشر من سنة ١٤٦١ إلى سنة ١٤٨٣ ومن بعده شارل الثامن من سنة ١٤٨٣ إلى سنة ١٤٩٨ أن يحتفظا بجيش دائم وأن يوطدا السلطة الملكية الاستبدادية ، ونجح لويس الحادى عشر من ضم دوقيتى (برغندية) و (بروفنس) إلى التاج الفرنسى ولم يبق من الدوقيات المهمة إلا (برطانية) التى ضمها إليه شارل الثامن فى سنة ١٤٩١ بزواجه من وارثتها فأصبحت فرنسا كتلة واحدة قوية .

وفى سـنة ١٤٩٤ غزا شـارل الثامن إيطـاليا وسرت بذلك روح النهضة الحديثة إلى الفرنسيين فخرجوا من العصور الوسطى .

حروب الوردتين فى انجلترا

أما فى انجلترا فقامت حروب داخلية بين أحزاب الأشراف المختلفة تعرف بحروب الوردتين نسبة إلى الوردة الحمـراء وهى شـارة أسرة لنكستر والوردة البيضاء وهى رمز أسرة يورك وكانت كل من الأسرتين تدعى أنها أحق بالملك من الأخرى .

وبدأ النزاع عند ما ثار دوق يورك على الملك هنرى الثالث وطرده وتوج نفسه فى سنة ١٤٦١ باسم إدوارد الرابع (من سنة ١٤٦١ إلى سنة ١٤٨٣) واستمر حتى مات إدوارد الرابع وخلفه إدوارد الخامس فى الثانية عشرة من عمره بوصاية عمه دوق جلستر الذى زج به وبأخيه وأقاربه فى السجن واعتلى العرش باسم رتشارد الثالث من سنة ١٤٨٣ إلى سنة ١٤٨٥ ولم يهدأ له بال حتى قضى على ابنى أخيه فى السجن فسخط عليه الشعب وقام دوق رتشمند (Richmond) من سلالة إدورار الثالث من أسرة لنكستر وحارب رتشارد وانتصر عليه فى واقعة (بزورث) (Bosworth) فى سنة ١٤٨٥ . وقـد قتل رتشارد فى المعركة وأعلن رتشمند ملكا على انجلترا باسم هنرى السابع وبذلك وضع أساس أسرة (تيودور (Tudor) فى انجلترا وحسم النزاع بتزوجه من (اليصابات) (Elizabeth) وارثة أسرة يورك .

وبتولى أسرة تيودور الحكم بدأت عوامل النهضة تظهر فى انجلترا وبزغ فجر تاريخها الحديث .

في أسبانيا

أما في أسبانيا فقد عرفنا كيف اتحدت ممالكها التي كانت تخوض غمار حروب شعواء طوال القرن الرابع عشر وعرفنا كيف استولى فرديناند ملك (أرغن) Aragon وايزابلا ملكة (قشتالة) على غرناطة وهي آخر معقل للمسلمين في أسبانيا. ومن هذا التاريخ حل عهد الملكية المطلقة كما حدث في فرنسا وانكلترا وبدأ فرديناند وايزابلا حكمهما بالاستبداد المطلق معتمدين على قوة الكنيسة ونفوذها فاستصدرا بادىء ذي بدء من البابا في عام ١٤٨٠ أمراً بإعادة محكمة التفتيش تحت اسم (الخدمة المقدسة) لتبحث ضمائر الناس وعينا رئيساً لها يدعى (تركمادا) (Tarquimada) وقد ترك أثراً من أسوإ الآثار في تاريخ القسوة البشرية فمحكمة قشتالة قد أحرقت وحدها من الأحياء سبعمائة نسمة وسجنت خمسة آلاف كانوا يقاسون أفظع أنواع التعذيب في سجنهم وذلك بخلاف من نفي من اليهود جماعات ومن عذب من المسلمين بالرغم من معاهدة التسليم التي نصت على أن تترك للمسلمين حرية دينهم.

ولا ريب في أن هذه القسوة قد أضعفت من قوة البلاد فاتجه فكر ملوك أسبانيا الكاثوليك إلى مد نفوذهم خارج حدود المملكة فشجعت أيزابلا (كريستوف كلمبوس) في عام ١٤٩٢ على اكتشاف العالم الجديد كما أخذ فرديناند يعمل في السياسة الأوربية إلى أن تولى ابنه (شارل) في عام ١٥١٦ ولعب دوراً مهماً في تاريخ أوربا. وشارل هذا هو المعروف تاريخاً باسم شرلكان وسيأتي ذكره بعد.

في إيطاليا

وأما في إيطاليا فلم تتحد ممالكها بل بقيت كما كانت في عهد

الإقطاع ولم تحصل على وحدتها كما حدث فى فرنسا وانكلترا وإسبانيا فكانت إيطاليا تشمل جمهورية البندقية ودوقية ميلانو فى الشمال وجمهورية فلورنسا والمملكة البابوية فى الوسط ومملكة نابولى فى الجنوب .

أما البندقية فقد كانت أقوى هذه الممالك وأتقنها نظاماً وأكثرها ثروة بسبب علاقتها التجارية بالشرق وكان لها أسطول تجارى بلغ عدد سفنه ثلاثة آلاف وثلاثمائة سفينة وعدد بحارته ستة وثلاثون ألف بحار وكان يلقب رئيس الجمهورية بالدوج . وكانت هذه الجمهورية ارستقراطية حيث كانت إدارة الحكم فيها للطبقة الأرستقراطية من بين العائلات التى لم يزد عددها على مائتى عائلة وكانت أسماء هذه العائلات مدونة بكتابها الذهبي ولهذا أصبح الدوج منذ القرن الخامس عشر تحت رقابة مجلس العشرة الذى امتدت سلطته إلى جميع شئون الجمهورية وكانت أحكامه تنفذ بطريقة سرية ولكنها مرعية .

وعلى الرغم من هذا الحكم المؤسس على الإرهاب والاستبداد فقد اتسع ملك هذه الجمهورية حتى شمل البندقية واستريا ودلماسيا (Istrie et Dalmatie) على شواطىء الأدرياتيك وأصبحت البندقية صاحبة السيادة على هذا البحر .

ثم أخذت تزاحم جنوة فى البحر الأبيض المتوسط غير أن الأتراك أوقفوا تقدمها باستيلائهم على كريت والمورة وجزر الأرخبيل .

ولقد أنشأت جمهورية البندقية أولى العلاقات الدبلوماسية فكان سفراؤها أكثر اطلاعاً وعلماً بنوايا البلاد المجاورة لها والتى ارتبطت بها تجارياً .

أما دوقية ميلانو فكانت بلاداً زراعية أسستها في الأصل عائلة فيسكونتي (Les Visconti) التي صاهر منها الدوق دورليان فأصبحت زوجته جدة الملك الفرنسي لويس الثاني عشر ثم انقرضت عائلة فيسكونتي في عام ١٤٤٧ فاستولى على هذه الدوقية فرنسوا سفورزا (François Sforsa) وجعل من ميلانو مهداً للنهضة العصرية بكتابها وفنانيها ثم انتقلت السلطة في آخر القرن الخامس عشر إلى لورفيج سفورزا الذي سجن صاحب الحق واغتصبه منه ثم استعان بملك فرنسا شارل الثامن فكان هذا باعثاً من بواعث حروب فرنسا في إيطاليا .

أما فلورنسا فقد كانت كالبندقية من أغنى ممالك إيطاليا بسبب تجارتها الزاهية وصناعة غزل الصوف ونسجه وقد اشتهرت بمصارفها المالية وقد تدخلت في السياسة الأوربية بسبب انتشار عملائها في الأسواق المالية الأوربية كما كانت مهدا للكتاب والفنانين ووصلت إلى ذروة مدنيتها في القرن الخامس عشر حيث كانت مركزا للنهضة الفكرية وسميت (أثينا الإيطالية) .

غير أن نظام الحكم في فلورنسا كان مرتكزا على نظامها الاقتصادي فنشأ بين طبقة الفنانين والصناع الراقين وبين عامة الشعب نزاع دائم للسيطرة والغلبة ؛ وأخيراً تهيأت الظروف لرئيس عائلة الميديس (Midicis) الغنية المسمى كوسم (Cosme) للسيطرة على المدينة من عام ١٤٣٥ إلى عام ١٤٦٤ بغير قتال ولا سفك دماء ، وكان ذلك لمجرد نفوذه وأهليته وثروته كما فعل بريكليس في أثينا من قبل . غير أن الاضطرابات قامت

بين عائلة الميديس وخصومها واستمرت زمنا ضعفت فى غضونه فلورنسا ولم تستطع أن تلعب دورا فى حوادث القرن السادس عشر.

أما المملكة البابوية التى كانت تمتد من الادرياتيك إلى البحر الأبيض المتوسط فلم تكن سلطة البابا فيها محترمة بل كان كثير من الطامعين يحكمون بأمرهم فى كثير من نواحيها وكانت تنازع البابا فى روما عائلتان هما عائلة أورسينى وعائلة كولونا (Orsini et Colonna) وأصبح البابا يحاول بسط نفوذه وسلطانه كأنه أمير دنيوى وكان فوق ذلك يسعى ليقتنى هو وعائلته الثروات العظيمة ولذلك سمى هذا العهد بعهد الأقارب والأصهار. وكان اسكندر السادس بورجيا (Alexandre VI Borgia) من عام ١٤٩٢ إلى عام ١٥٠٣ أكثر البابوات قحة ومجانة، وكان على الرغم من مظهره الفتان لا ضمير له، حيث كان يرى أن الاغتيال والقتل ودس السم من الوسائل العادية للوصول بها إلى أغراضه. حتى إن الكاتب الشهير مكيافيل جعله نموذجاً لمؤلفه، «الأمير».

أما مملكة نابولى التى تقرب من نصف مساحة إيطاليا فكانت تنتقل من يد إلى أخرى: ولما هم شارل الثامن ملك فرنسا لتثبيت حقوقه التى أوصاه بها والده لويس الحادى عشر وجد الأهالى يرحبون به كأنه منقذ لهم من حكم ملوك أرغن Aragon.

على أن الممالك الإيطالية كانت دائما متنازعة فلم يوجد فيها وقتئذ جيش وطنى ولا روح وطنية، ولهذا كانت منذ آخر القرن الخامس عشر مسرحا لحروب الدول الأوربية للاستيلاء عليها بسبب ثروتها وفنونها وانقساماتها الداخلية.

في ألمانيا

أما ألمانيا فقد بقيت تحت نظام الاقطاع من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر وكانت منقسمة إلى ممالك عديدة بلغت في وقت من الأوقات بين الخمسمائة والستمائة مملكة تحت أسماء مختلفة من دوقيات، إلى الـكترات ، إلى مارجرافيـات ، إلى مدائن حرة Duchés électorate Margraviats

ولو أن جميع هـــذه الممالك كانت مرتبطة ببعضها تحت اسم الامبراطورية الجرمانية ؛ إلا أنها كانت تختلف عن المملكة الفرنسية والانجليزية من حيث إن الامبراطور الجرماني ينتخبه باقي أمراء ألمانيا بغير حاجة إلى تصديق البابا ؛ وقد ترتب على ذلك أن التاج كان ينتقل من عائلة إلى أخرى ، غير أن عائلة هابسبورج تمكنت منذ عام ١٤٣٨ من المحافظة على هذا التاج بين أفرادها ومع ذلك فقد بقيت سلطة الامبراطور محدودة بمجلس الامبراطورية (La Diète de l'Empire) بحيث إنه لم يكن إلا منفذاً لارادة ذلك المجلس الذي كانت تتنازعه أغراض الأمراء المتضاربة ودسائسهم المتنوعة .

ولقد استمرت هذه الفوضى حتى عام ١٣٥٦ حيث نظم الإمبراطور شارل الرابع قواعد الانتخاب بقانون عرف باسم القانون الذهبي .وقد قضى بأن يكون الانتخاب من حق سبعة من الأمراء فقط وهم ملك بوهيميا ودوق السكس ومرجراف برندبورج وكونت (الردون) الرين وثلاثة من رجال الاكليروس وهم أساقفة تريف ومايانس وكولونيا (Tréve, Mayance et Cologne) فكان هذا الانتخاب اشبه شيء بالبيعة التي كانت تحدث من ذوي الرأي والنفوذ عند انتخاب الخلفاء الراشدين في صدر الإسلام .

وقد خول هذا القانون لكل واحد من هؤلاء حق التصرف المطلق فى مملكته فكان ذلك اعترافا صريحاً بتجزئة الامبراطورية الجرمانية .

هذا ولقد برزت من العائلات الحاكمة فى هذه الممالك المتعددة عائلتان هما أسرة الهوهنزلرن وأسرة هابسبورج . أما الأولى فقد كان مقرها فى جنوب ألمانيا ثم انتقل إلى نورنبرج (Nurenberg) وكانت دائنة لأحد الأباطرة المسمى سيجسمند (Sigismond) وقد عجز عن الوفاء واضطر إلى التنازل لهذه العائلة عن مقاطعة براندبورج فى مقابل هذا الدين ، وبذا بدأ الدهر يبسم لهذه العائلة التى وصلت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر إلى ذروة المجد وأصبح أفرادها ملوكا لبروسيا ثم أباطرة على ألمانيا الحديثة .

أما أسرة الهابسبورج فكان حظها الحسن سريعامنذ اعتلى رودلف عرش النمسا وأصبح أغنى أمراء ألمانيا ؛ وإذا كانت هذه الأسرة قدفقدت تاج النمسافترة من الزمن إلا أنها قداستعادته فى عام ١٤٣٨ وظلت محتفظة به حتى إن فردريك الثالث اختار ابنه حال حياته ليكون حاملا للقب امبراطور الرومان الذى بقى لورثته من بعده . وهو الذى خلق فى مدة حكمه من عام ١٤٣٩ إلى عام ١٤٩٣ عظمة عائلته المعروفة تاريخاً باسم بيت النمسا (Maison d'Autriche Puissance) وقد اتبع سياسة المصاهرة فى تأسيس عظمة هذا البيت فزوج ابنه ماكسيمليان من مريم ابنة شارل الجرىء دوق برجونيا ولهذا انضمت إلى أملاك ابنه بلاد الفلندر

والبلاد الواطئـــة ولوكسمبرج وأرتوا وفرانس كونتيـــه .

ولما اعتلى ماكسيمليان هـذا عرش أبيه على النمسا واستريا وكارنت والتيرول وجنوب الالزاس (وقد استمر ، حكمه من عام١٤٥٣ إلى عام ١٥١٩) اتبع عين سياسة أبيه فى المصاهرة ؛ فزوج ابنه فيليب الجميل (Philippe le Beau) من حنينة المجنونة (Jeanne la Falle) وهى ابنة فرديناند وايزابلا (Ferdinand et Isabelle) ملكى الأرغن وقشتالة ووارثة عرشيهما فأنجب هذا الزواج شرلكان المشهور ثم عقد مصاهرة أخرى مع وارثة عرش بوهميا وهنغاريا وكانت هذه المصاهرات الثلاث البرجونية والإسبانية والبوهمية هى التى خلقت عظمة بيت النمسا وهددت فى أوائل القرن السادس عشر كيان الإمبراطورية الفرنسية وحققت شعار فردريك الثالث وهو : (للنمسا حكم العالم) .

وعلى الرغم من قوة بيت النمسا وعظمته لم تستطع عائلة هابسبورج أن تسيطر على المقاطعات السويسرية فمنذ عام ١٢٩١ م اجتمع مندوبو شوتس واورى واونتروالد (Schwitz, Uri et Unterwald) فى ربوع روتى (Rutti) وأسسوا تحالفاً فيما بينهم انضمت إليه مقاطعات أخرى مثل لوسرن فى عام ١٣٣٢ (Lucerne) وزوريخ وجلارس وبرن فى عام ١٣٥٣ ثم انضمت إليه فى القرن السادس عشر فريبورج وسولور، وبال وشافوزن وأبانزل — (Fribourg Soleure, Bâle, Schaffausen et Appenzill) — وأصبحت هـذه المقاطعات تؤلف اتحاداً تابعاً اسمياً للإمبراطورية . أما فى الواقع فقد كانت المقاطعات مستقلة تماماً ولقد

حافظ أهلوها على استقلالهم بقوة جندهم الذين امتازوا بالشجاعة والصفات العسكرية فأصبحوا يستخدمون كجنود مرتزقة لملوك أوربا . .

ويظهر لنا من كل ما تقدم أن ألمانيا كانت مثل إيطاليا مقسمة وفى حالة فوضى سياسية ؛ غير أن هذه الفوضى لم تقف فى سبيل تقدم ألمانيا فى التجارة وإنماء ثروة مدنها التى أصبحت أغلبيتها مستقلة كأنها ممالك قائمة بذاتها لكل منها حكومة ومجلس وجيش ويربطها ببعضها حلف للدفاع عن كيانها من الاعتداآت الخارجية يعرف تاريخاً باسم الحلف الهانسياتيك (Ligue Hanséatique)

وقد شمل هذا الحلف فى أواخر القرن الرابع عشر نحو ثمانين مدينة كانت أكثر ثروة ورفاهية من غيرها ومن هذه المدن همبورج وبريم ودانتزيج ولوبيك التى كانت عاصمة لهذا الحلف الذى أسس فى الخارج مراكز تجارية فى نوفوجرود فى روسيا وبرجن بالنرويج وبروج فى بلاد الفلندر ولوندرا فى انجلترا .

ولقد استتبع هذا التقدم فى التجارة تقدماً أدبيا وفنيا فقد كثر إنشاء الجامعات فى ألمانيا منذ القرن الرابع عشر وبلغ عددها فى أوائل القرن السادس عشر نحو الخمس عشرة جامعة؛ واشتهرت مدينتا نورنبرج وأجزبورج (Nurenburg et Augosbourg) بالمدينة الجرمانية فأنجبت الأولى فى أوائل القرن السادس عشر أمثال مارتن بيهايم (Martin Behaim) العالم الفلكى وبيتر فيشر (Peter Vischer) والبرت دورر (Albert Durer) الرسامين والنحاتين فى الفن الجرمانى .

أما اجزبورج فقد كانت تحت تأثير الفن الإيطالى بسبب تجارتها مع جمهورية البندقية وقد أنجبت هولبين من عام ١٤٩٧ إلى عام ١٥٤٣ وكان أكبر فنان فى عصره حتى صار رسام هنرى الثامن ملك انجلترا .

كذلك أنجبت اجزبورج چان جوتنبرج (Jean Gutenberg) الذى كان له فضل اختراع المطبعة، فعم انتشار التعليم وارتقاء الفكر الانسانى، وكان هـذا الاختراع من أهم أسـباب النهضـة الأوربية التى أدت إلى المدنية الحاضرة .

وفى هذا العهـد الذى أخذت فيه أوربا تنفض عنها غبار القرون الوسطى وتؤسس الممالك الحديثة فيها تـكونت فى مصر دولة جديده اتصلت بالممالك الإيطالية وكانت صـلة التجارة بين الشرق والغرب . وهذه الدولة هى دولة المماليك البَحْرية والبُرْجية التى تحدث عنها وعن نشأتها السلطان سليم العظيم . وهنا قال أبو الهول : صهْ

الحديث العاشر

الاكتشافات الجغرافية

لقد انتهى الحديث التاسع عن حلقات هامة فى تاريخ الإنسانية، وإن كان قد لفتنى منها أن السلطان سليم قد أفضى إلى ذكر العلاقات التجارية وما كان يقوم به كل من التجار البنادقة وحكومات المماليك فى مصر من تسابق فى طلب الربح وتحصيل المال، الأولون باجتلاب السلع والتحف الشرقية، والآخرون بفرض المكوس الباهظة، ولقد لفتنى أيضاً مثل هذه العلاقات، سيما بين الشرق وما يتخلله من مجاهيل، والغرب، وما فيه من أساطير فى تلك العصور الوسطى إلى أن أعود إلى أبى الهول كى استوحيه أمر تلك الاكتشافات التى ذكرت فى الحديث السالف ولم يشرحها أحد أو يعلق عليها من إجمالها، فرأيت كأن أبا الهول يومىء برأسه إلى قادم أجنبى فى زى الرحالين الجوابين يتمنطق بوطاب قد ملأه بزاده، ووقف عن كثب منا، وعرفت من أبى الهول أن القادم هو (بطرس كوفلهام) (Pedro Covilham)، الذى جاء مصر عام١٤٨٦م يبحث عن مملكة القس حنا، تلك الأقصوصة التى انتشرت بين أهالى القرون الوسطى عن وجود مملكة عظيمة واسعة الأرجاء، كائنة بالقرب من بلاد الصين أسسها قس اسمه حنا، فالتفتُّ إليه وقلت : —

أيها السيد — لقد دل تعريف أبى الهول عنك أنك جوّاب رحالة ، ولقد ذكرت لنا الكتب القديمة أن للعرب نصيباً فى الرحلات والاكتشافات الجغرافية ، وليس هذا بالأمر الغريب لأنه كان للعرب فى أول القرن الثامن الميلادى (الثانى الهجرى) ملك واسع الأرجاء ، وحضارة باذخة وارفة الظلال ، كان من مظاهرها نصيبهم فى الدراسات الجغرافية . فنبغ منهم الإدريسى ، راسم أقدم خريطة جغرافية فى العالم ، ثم ابن بطوطة السائح الجواب ، والمقريزى صاحب الخطط . بل والذى يدهشنا حقاً أنه قد ثبت من الأبحاث العلمية الحديثة وجود كلمات عربية فى لغة هنود أمريكا كالألفاظ المصرية التى ظهرت فى لغة العرب . ومن هذه الرحلات العربية ما لا يعلم الناس عنها إلا النزر القليل ، حتى إنه لم تعد لها قيمة علمية فى الاكتشافات الجغرافية .

من تلك الرحلات قصة التاجر سليمان الذى رحل إلى سور الصين الشمالى (أو سد يأجوج ومأجوج كما يسميه العرب) فى عهد الخليفة العباسى (الواثق) وذلك بين عام ٨٤٢ و ٨٤٥ م ، ومنها قصة سائح من قريش يدعى ابن وهب الذى كان موضع حفاوة إمبراطور الصين وإكرامه ، وأخيراً قصة الثمانية الفتيان المسلمين فى أسبانيا الذين ركبوا البحر واتجهوا نحو الغرب صوب المحيط الأطلسى ثم وصفوا رحلتهم بعد عودتهم إلى لشبونة ، والتى يظهر منها أنهم وصلوا إلى إحدى جزر الخالدات أو جزيرة (آسور) أو (مادير) وقد لقب هؤلاء الفتيه بـ (المغرورين) وعرف الحى الذى كانوا يقيمون فيه باسم (دوب المغرورين) ويخيل إلينا

أن قصة هؤلاء الفتية كانت شائعة فى القرون الوسطى حتى قيل إن كولومبس كان يحفل بها .

ولا ريب أيها الجوّاب الرحالة فى أن رحلات العرب كانت تشبه رحلات النرمانديين من حيث إنها كانت مغامرات متقطعة غير متواصلة. وهنا هش فى وجهى قائلا : —

إن للعرب على أية حال فضلاً كبيراً إن لم يظهر فى تدوين رحلاتهم ففى نقل معارفهم إلينا التى ساعدت من جاء بعدهم من الرحالين فيما عنوا به.

ولقد كانت فكرة أهل القرون الوسطى فى أوربا أن الأرض مستطيلة أو مستديرة ولكنها ليست كروية ، فلما نقل المسلمون علوم اليونان إليهم وأضافوا إليها معارفهم كما نقلوا استخدام البوصلة فى الملاحة البحرية تقدمت عندهم العلوم الجغرافية والفلكية وفن الملاحة البحرية فكان ذلك من أهم الأسباب المساعدة على الاكتشافات الجغرافية . أضف إلى ذلك أن الحروب الصليبية نقلت إلى أهل أوربا أخبار الشرقيين ووصف بلادهم مما دفعهم إلى حب السياحة، ثم ازدادت رغبتهم فى ذلك منذ القرن الثالث عشر عند ما قرأوا مغامرات ماركو بولو وإخوته فى أسفارهم إلى بلاد الصين واليابان، غير أن هذه المغامرات لم تكن فى مقدور كل إنسان ؛ ذلك لأن السياحة فى البحار كانت تكتنفها أخطار عديدة والملاحون معرضون لأمراض كثيرة بسبب سوء التغذية وعدم صلاحية مياه الشرب الآسنة فى الجفَان (البراميل) وكانوا يعتقدون أنه يوجد فى قاع البحار الواسعة أحجار تجذب السفن إليها فتغرقها ، لهذا ولغير هذا

لم يرافق المكتشفون الأولون غيرَ المسجونين من اللصوص والقتلة الذين كانوا يوعدون بالعفو عنهم عند عودتهم .

ويجدر بنا أن نلفت النظر إلى أن تلك السياحات البحرية لم يكن المقصود منها أول الأمر خدمة العلم أو الحصول على تجارة الشرق بل كان الدافع إليها أولا حب المغامرات فمنذ عام ١٠٠٠ ميلادية وصل إلى شواطىء أمريكا الشمالية بعض سكان البلاد السكنديناقية ثم عادوا ولم يتركوا أثراً فى سياحتهم سوى بعض الأقاصيص القومية. وفى عام ١٤٠٢ أسس من يدعى جان بتنكور (Jean Bethencourt) مملكة نورمندية فى جزر كناريا لم يدم عهدها طويلا .

فلما فتح الأتراك القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ وكانت مصر وقتئذ محكومة بدولة المماليك الذين كانوا يسيطرون على التجارة بين الشرق والغرب أخذ تجار البندقية الذين كانوا ينقلون السلع الشرقية من القسطنطينية والاسكندرية إلى أوربا يتحكمون فى أثمان هذه السلع وخصوصاً التوابل التى كان يستهلكها سكان أوربا بكثرة لحفظ اللحوم والأسماك من العطب قبل أن يعرف العالم طرائق حفظ الأغذية بالثلاجات وغيرها ، وقد ترتب على ذلك أن أخذت فكرة البحث عن طريق آخر للشرق تنمو ، فلما انتصر مسيحيو إسبانيا والبرتغال على المسلمين وطاردوهم فى شمال أفريقيا اتجهت فكرة هذين الشعبين إلى السياحة البحرية غرباً لأغراض ثلاثة : أولها تجارى وهو الوصول إلى تجارة الشرق من طريق البحر ، وثانيهما عسكرى وسياسى وهو

الإحداق من الخلف بالممالك الإسلامية من هذا الطريق البحرى، وثالثها هو البحث عما كانوا يسمونه بمملكة القس حنا ، وهو الهدف الذى عُنُوا به كثيراً.

فى عام ١٤١٥ نظم الأمير هنرى، الإبن الخامس لجان الأول ملك البرتغال ، رحلة بحرية لاكتشاف شواطىء أفريقيا جنوب مراكش ، كما أنشأ فى مدينة سان فنسان (Saint Vincent) مدرسة للعلوم الجغرافية الفلكية والملاحة البحرية. ثم حذا الملك جان الثانى حذو الأمير هنرى فى تنظيم هذه الرحلات وإعدادها فى مدة حكمه من عام ١٤٨١ إلى عام ١٤٩٥ الذى قمت فى عهده بهذه الرحلة فى عام ١٤٨٦ ، ولكنى لم أتجه نحو شواطىء أفريقيا غربا بل عبرت البحر الأبيض إلى مصر حيث أحطت بشىء عن صلة الكنيسة الأرثوذكسية فى مصر بشقيقتها الصغرى فى الحبشة ، بيد أنه لم يدر بخلدى أن مملكة القس حنا تكون بالقرب من هنا ، إذ المعروف والشائع يومئذ أن هذه المملكة قريبة من الصين. ولهذا توجهت إلى عدن ثم عبرت الخليج الفارسى ووصلت إلى كلكتا بالهند فلم أعثر على مملكة القس حنا ولكنى اكتشفت جزيرة القمر وهى مدغشقر ، ثم قفلت راجعاً عن طريق مكة والمدينة متنكراً وقد عرفت ثمة الحادث المتداول بين أهل الحجاز الوارد ذكره فى القرآن فى « سورة الفيل » وهو حادث اعتداء نجاشى الحبشة على شبه جزيرة العرب وإرساله الجيوش ومعها فيل إلى مكة، فلما علمت به عدت فعبرت البحر ثانية ودخلت بلاد الحبشة وفككت رموز قصة مملكة القس

حنا ، واستبان لى أن هذا القس الذى ذاع صيته فى القرون الوسطى بين سكان أوربا ماهو إلا النجاشى، وأن مملكته ليست سوى الإمبراطورية الحبشية التى اعتنقت المسيحية فى القرن الرابع الميلادى، أى فى الوقت الذى حكم فيه الإمبراطور ثيودور الرومانى من عام ٣٧٨ إلى عام ٣٩٥ وحظر عبادة الأوثان نهائياً فى الدولة الرومانية ، وذلك قبل أن يعتنق المسيحية سكان البلاد السكندينافية فى شمال أوربا بنحو سبعة قرون .

وفى عام ١٤٨٧ أرسل جان الثانى بعثة أخرى بقيادة دياز (Diaz) فوصل إلى جنوب أفريقيا واكتشف رأس الرجاء الصالح فى عام ١٤٨٨ وفى هذا الوقت انقسمت آراء النوتية (البحارة) فرأى بعضهم أن طريق رأس الرجاء الصالح أقرب الطرق لأهدافهم، ورأى البعض الآخر أن الاتجاه غربا فى الاطلانطى هو أقرب طريق للوصول إلى الصين والهند . ويدلنا هذا الانقسام فى الرأى فى هذا العهد على أمرين جديرين بالعناية .

فالأمر الأول يدل على أن جماعة النوتية والبحارة كانوا وحدهم يعتقدون وقتئذ بصحة رأى الإغريق والعرب فى نظرية كروية الأرض، تلك النظرية التى لم يستطع أهل هذه العصور الوسطى الجهر بها خشية الطرد من الكنيسة حتى إن العالم البولندى نيقولا كوبرنيق (Nicolas Copernic) الذى كان يعلم أن الأرض إنما هى جرم كروى من الأجرام التى تدور حول الشمس لم يجرؤ على نشر اكتشافه خشية محاكم التفتيش، ولذلك لم يطبع كتابه إلا فى عام ١٥٤٣ وهو التاريخ الذى

مات فيه وكان ذلك بعد اكتشافه العلمى بست وثلاثين سنة تقريباً .

أما الأمر الثانى فهو أن أهل هذا العصر كانوا يجهلون وجود القارة الأمريكية وكانوا يظنون أنهم سيصلون بعبورهم الأطلنطى إلى القارة الاسيوية . وكان كريستوف كولومبوس من شيعة هذا الرأى ، وقد مات بعد اكتشافه العظيم وهو يعتقد أنه قد وصل إلى بعض الجزر فى القارة الاسيوية ، لا إلى القارة الأمريكية .

وكريستوف كولومبوس هذا قد سافر إلى ايسلاندا فى عام ١٤٧٧ وهى مسكونة بأسلاف النورمانديين الذين استوطنوا اجرونلاند ووصل أجدادهم إلى شواطىء أمريكا فى القرن العاشر الميلادى ولم يستطيعوا الإقامة فيها أكثر من بضع سنوات بسبب ماوقع عليهم من اعتداء الاسكيمو (Les Esquimaux) وهم السكان الأصليون .

ولا يبعد أن يكون كريستوف كولومبوس قد وصل إليه نبأ رحلة النورمانديين فى صورة الأساطير القديمة التى يمكن أن تكون متداولة وقتئذ فى تلك الأصقاع .

غير أن الأمر الذى لا شك فيه هو أن كولومبوس حصل على معلومات من صائدى الأسماك فى اسكتلاندا، ثم عاد إلى البرتغال وتزوج بابنة أحد النوتية الذين كانوا فى خدمة البرنس هنرى، وكرس حياته لهذا الاكتشاف الجغرافى وأرسل بمشروعاته إلى بلاط إسبانيا والبرتغال . وبعد أن تغلب على المصاعب الجمة التى صادفته ابتسم له الدهر عندما سقطت غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين (فرديناند وايزابلا) فى

٢ يناير عام ١٤٩٢ حيث أمضى كولومبوس فى إبريل من نفس هذا العام إتفاقاً مع هؤلاء الملوك استطاع به أن يرأس بعثة فى رحلة بحرية اشتركت فيها ثلاث سفن وثمانية وثمانون بحاراً من الأشقياء والمجرمين. وقد وصل فى رحلته هذه إلى شواطىء أمريكا فى ١٢ أكتوبر ثم عاد إلى ميناء بالوس (Palos) فى إسبانيا فى ١٥ مارس عام ١٤٩٣ محروساً ببعض من أحضرهم معه من أهالى أمريكا الأصليين الذين كان يسميهم هنوداً ، لاعتقاده أن ما اكتشفه إنما هو بعض جزر الهند ، ثم ذهب تواً إلى برشلونة ينبىء فرديناند وإيزابلا بأن كنوز الصين واليابان أصبحت أبوابها مفتوحة على مصراعيها لأمر جلالتهما وإذنهما ، وعلى الرغم من أن كولومبوس قد قام بتلك السياحة نحو أربع مرات فإنه مات وهو يعتقد أنه لا توجد قارة أخرى بين آسيا وأوربا ، وأن اكتشافه إنما كان إيغالاً فى بلاد الصين لا فى القارة الأمريكية .

وفى هذه الأثناء كان المكتشفون البرتغاليون أوفر حظاً ؛ ففى عام ١٤٩٨ وصل فازكو دوجاما (Vasco de Gama) إلى شواطىء ملابار (Malabar) وعاد إلى لشبونة (Lisbonne) يحمل تجارة التوابل .

أما الإسبانيون فلم يتجاوزوا الصخور الثلجية فى نيوفوندلاند (Newfoundland) التى كان النورمانديون قد وصلوا إليها قبل ذلك بخمسة قرون .

وأما الإيطاليون فقد وصل الرحالة أمريكو فزبوسى — (Amerigo Vespucci) — وهو إيطالى من مدينة فلورانس إلى شواطىء البرازيل .

ولما لم يجد أثراً لبلاد الهند أطلق إسمه على تلك الأصقاع فسميت أمريكا من ذلك الحين .

وأخيراً اكتشف الرحالة ماجيلان (Magellan) فى عام ١٥١٩ فى أمريكا الجنوبية الثغر الذى سمى باسمه والذى خرج منه إلى المحيط الهادى الذى سمى بذلك لهدوء مائه ، واستمر فى رحلته غرباً زهاء ثمانية وتسعين يوماً ذاق فيها آلام الجوع والعطش حتى وصل إلى جزر الفيلبين وقد سميت كذلك تيمناً بابن شرلكان ومات ماجيلان هناك ، غير أن البعثة واصلت رحلتها حتى اكتشفت جزائر مولوك (Moluques) التى تكثر فيها التوابل، وبعد ذلك اكتشفت جزيرة بورنيو (Bornéo) ولم تكتشف استراليا (Australie) إلا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر بمعرفة الشركة الشرقية الهولاندية . وبعد ذلك عادت هذه البعثة من رحلتها إلى إسبانيا فكانت أعظم بعثة استكشافية استغرقت ثلاث سنوات ، وصرفت من الأموال ما صرفت ، وأضاعت من الرجال ما أضاعت ، ولكنها حققت باكتشافاتها للناس جميعاً أن الأرض كروية وأن القارة التى بدأ باكتشافها كولومبوس ما هى إلا قارة أخرى غير القارة الاسيوية .

ومنذ ذلك العهد أخذت البرتغال وأسبانيا تتاجران مع الهند وأمريكا ثم تدخل البابا اسكندر السادس لمنع التصادم بينهما بسبب المنافسة التجارية فرسم حداً فاصلا يمر بين الدرجة الخمسين من خطوط الطول غربى جرينوتش وجعل للبرتغال حق الاتجار مع البلاد الواقعة شرقى هذا الخط وللأسبان حق الاتجار مع البلاد الواقعة غربيه . وبهذا

أصبحت كل أمريكا ما عدا البرازيل من نصيب اسبانيا . أما الهند والأراضي الأفريقية فكانت من نصيب البرتغال .

ومن هذا التاريخ أخذ البرتغاليون يحتكرون تجارة الشرق لأنفسهم قسراً واقتداراً؛ ففي عام ١٥٠٢ أحرق فازكو دوجاما سفناً للعرب كانت راسية في ميناء كلكوتا بعد أن جدع أنوف البحارة وقطّع أيديهم وآذانهم. فاتفقت جمهورية البندقية مع أمراء مصر من المماليك والتجار من العرب وأنشأوا أسطولا في البحر الأحمر لمقاومة البرتغاليين، غير أن أسطولهم هذا وإن كان قد حاز بعض الانتصارات في أول الأمر إلا أنه حطم تحطيما نهائيًا في عام ١٥٠٩ ففكر البنادقة وقتئذ في شق قناة السويس. غير أن حروب إيطاليا حالت دون تنفيذ هذا المشروع الذي كاد يقضي علي البرتغاليين قضاء مبرما والذي لم ينفذ إلا بعد مضى أربعة قرون تدهورت في غضونها مصر وجمهورية البندقية معاً، وبخاصة بعد أن تمكن البوكرج (Albuquerque) وهو خليفة فازكو دوجاما، من إغلاق البابين الموصلين إلى البحر الأبيض المتوسط بالاستيلاء على عدن في مدخل البحر الأحمر في عام ١٥١٣ ، وعلى ميناء أرموز (Ormuz) في مدخل الخليج العجمي في عام ١٥١٥ . ولم تمض على هذا الحادث سنتان حتى أغار الترك على مصر وضمت إلى أملاك تركيا في عهد السلطان سليم الأول في عام ١٥١٧ (كما سبق ذكره) .

هذا ولم يجن البرتغاليون كثيراً من جهودهم لأنهم كانوا شعباً صغيراً لم يستطع الاحتفاظ بغير المناطق الساحلية؛ فكانت امبراطوريتهم

مكونة من محطات ساحلية بها مكاتب ومخازن تجارية ينقلون منها السلع الشرقية إلى لشبونة ثم يبيعونها إلى تجار من الهولانديين الذين تمكنوا فى نهاية الأمر من الاستيلاء على أهم هذه المستعمرات فى جزر السوند وحلوا فيها محل البرتغاليين .

أما الأسبان فقد وجدوا فى الانتيل (Antilles) قبائل همجية فسهل عليهم استعمارها، غير أنهم صادفوا فى المكسيك وفى البيرو — Mexique) et Peron (— شعوبا متمدينة منذ القدم كما دلت عليهم آثارهم فكانت لسكان المكسيك كتابة تشبه الكتابة الهيروغليفية ولكن كانت آلهتهم كآلهة الشعوب القديمة تقدم إليها الضحايا البشرية بكثرة هائلة ولقد استعمر الأسبان هذه البلاد فى مدى أربع سنوات من عام ١٥١٩ إلى عام ١٥٢٢ بمعرفة فرديناند كُرتس (Ferdinand Cortez) الذى جاءها سعيا وراء الثروة فتمكن ببضع مئات من جنوده من التغلب على تلك المملكة الواسعة الأرجاء .

ويرجع الفضل فى هذا الفتح السريع إلى أن أهالى تلك البلاد كانوا قد خضعوا لعنصر جديد عرف باسم استيك (Aztique) وكانوا يعتقدون أن آلهتهم سترسل إليهم من ينقذهم (وهو أشبه شىء بالمهدى المنتظر) . فلما رأوا كرتس بخيله التى لم يروها من قبل ، وبمدافعه التى كانت تدوّى كالرعد ظنوا أن هذا هو المنقذ الذى أرسل من السماء .

هذا : ولم تمض عشر سنوات على فتح بلاد المكسيك حتى بدأ البرتغاليون بفتح مملكة البيرو وكانت محكومة بطبقة ممتازة معروفة

باسم أنكا (Les Incas) وعلى رأسها زعيم معروف بأنه ابن الإله (الشمس) وهى بلاد غنية بذهبها وفضتها، وقد استمع الأسبان المرابطون فى برزخ بناما أقاصيص الأهالى عن ثروة البلاد الهائلة فانبرى كل من فرنسوا بيزار(François Pizarre) راعى الخنازير وزميله المارجو(Almargo) وكان فى الأصل لقيطاً، للإغارة على تلك البلاد التى كان يتنازعها فى ذلك الوقت اثنان من الزعماء. وقد تم الاستيلاء عليها فى عام ١٥٣٢ بجرأة نادرة وبجنود لم يزد عددها على السبعين والمائة وبخيل لم يتجاوز عددها السبعين حصاناً. ثم اختلف الغازيان لتلك البلاد فسجن بيزار شريكه المارجو ثم خنقه فى سجنه فى عام ١٥٣٨ فانقض جند المارجو على بيزا وقتلوه فى عام ١٥٤١ ولم تهدأ بعد ذلك الاضطرابات إلى أن أرسل الإمبراطور شرلكان حاكماً من قبله على هذه البلاد التى وضعها تحت سلطته مباشرة فى عام ١٥٤٧

أما حكم الأسبان فى هذه البلاد فقد كان حكماً بالغاً نهاية القسوة والفظاعة لم تمح فى ظله المدنيات القديمة فقط بل قضى فى بعض المقاطعات على جميع السكان من الأهالى الأصليين؛ فقد كان عدد سكان سان دومنيك (Saint Dominique) فى عام ١٤٩٢ نحو مليون نسمة لم يبق منهم غير أربعين ألفاً فى عام ١٥٠٩ ثم تناقص العدد فى خمس سنوات تالية فاصبح ثلاثة عشر ألفاً ثم انقرض الباقون من الوجود بعد ذلك. ولهذا قامت فى أسبانيا حركة للدفاع عن هؤلاء التعساء الذين كانوا يسخرون فى الأعمال بقسوة وغلظة وفظاعة، وقد أدت هذه الحركة إلى

استخدام العبيد السود الذين جيء بهم من أفريقيا بدل الأهالى الوطنيين وعرفت من هذا التاريخ تجارة النخاسة التى استمرت حتى القرن التاسع عشر والتى ذهبت بأرواح الملايين من سكان أفريقيا .

ولقد كان الإسبان على نقيض البرتغاليين؛ حيث لم يكتفوا باحتلال شواطىء البلاد التى استعمروها ولكنهم توغلوا فى داخليتها واتصلوا بالأهالى الأصليين وصاهروهم ، فكانت ذراريهم خليطاً جديداً من الشعوب معروفا تاريخاً باسم ميتيس (Metis) أضف إلى هذا أن اسبانيا كانت قد أنشأت فيها حكومات منظمة فلما زالت امبراطورية الأسبان فى أمريكا بقيت عوائدهم ومدنيتهم ولغتهم منتشرة إلى اليوم فى البلاد التى غزوها كالمكسيك والبيرو وأمريكا الوسطى وجزء عظيم من أمريكا الجنوبية .

وقد نجمت عن تلك الاكتشافات الجغرافية نتائج مهمّة فى تاريخ العالم وتطور حضارته كما يأتى :

أولا — قد انتقلت تجارة العالم من البحر الأبيض إلى المحيط الأطلنطى فتدهورت البندقية وجنوة ومصر وجميع موانئ البحر الأبيض كمرسيليا .

ثانياً — أثرت إسبانيا إثراء عظيم بسبب الذهب والفضة المنهوبة من معابد وقصور بل وقبور البيرو والمكسيك . هذا : فضلا عما كان يستخرج من بطون الأرض . ولقد اكتشف فى عام ١٥٤٥ منجم من الفضة فى البيرو يبلغ ارتفاعه سبعمائة متر .

ثالثاً — غلاء المعيشة بسبب هذا الإثراء حتى إن بودان (Bodin) ذلك المحقق الاقتصادى قال فى عام ١٥٦٨ : « إن كل شيء زاد ثمنه عشرة أضعافه فى مدى السبعين سنة الماضية » .

رابعاً — إن إسبانيا قد استغانت بهذه الثروة لتغذية جيشها وأسطولها وأصبحت بذلك متفوقة على غيرها إلى منتصف القرن السابع عشر .

خامساً — إن هذه الثروة لم تبق فى يد الشعب الإسبانى الذى اعتمد عليها فلم يعمل لتقدم الصناعة فى بلاده بل كان يبتاع ما يحتاج إليه من الخارج وبذا انتقلت الثروة إلى الخارج .

سادساً — إن نزوح هذه الثروة إلى خارج إسبانيا قوّى فى البلاد الأوربية طبقة الصناع فقويت الطبقة الوسطى التى كان لها شأن عظيم فى تطور العالم فى أوربا .

إن هـذه الاكتشافات الجغرافية جرّت وراءها اكتشافات عن الشعوب الإنسانية والمـدنيات القديمة وزادت بهـذا معلومات العالم فى النباتات والحيوانات الجـديدة فوجهت الفكر الإنسانى إلى ميدان البحث فى العلوم والمعارف وقربت أوربا من عصر نهضتها وعصر الإصلاحات الدينية فيها .

ويظهر لنا مما تقدم أن الإنسانيـة لا زالت تخطو فى كل عصر خُطُوات نحـو الرقى والتقدم ، وإذا كانت سفن قـدماء المصريين والبابليين التى كانت تجرى فى نهرى النيل والفرات قد استبدلت بها سفن الفينيقيين والإيجيين والإغريق والقرطاجيين والرومانيين بسبب

ما أدخل عليها من التحسينات التى اقتضتها ظروف الرحلات فى المياه الواسعة فإن سفن البرتغاليين والإسبانيين حلت محل هذه الأخيرة وامتازت عنها إتقاناً بسبب الرحلات فى المحيطات الواسعة الأرجاء. وكذلك حلت سفن الهولانديين والإنجليز محل هذه الأخيرة ويخيل إلينا أن المدنية بعد اليوم سيعقد لواؤها على الطائرات لا على السفن، وستعود البحار هادئة لسكنى الأسماك وتصبح الأجواء غاصة بوسائل النقل الإنسانى وينتقل بذلك محور المدنية المستقبلة من البحر إلى الهواء.

تم الجزء الأول

كلمة تقدير

بعد ما فرغت من كتابة هذه الأحاديث عهدت إلى الأستاذ محمد عبد المنعم ابراهيم المحامى ورئيس جماعة الكُتَّاب بأمر القيام على طبعها وتصحيحها وعمل فهارسها .

وفى يوم من الأيام تحدث إلىّ بالتليفون أن إحدى آيات التوراة محرفة — وكنت قد ضمنتها صلب الكتاب — وعندما نقلها الناسخ فى هامشه أخطأ فسألت الأستاذ عبد المنعم وهل يحفظ التوراة ؟ !

قال : لا وإنما هو عهد بالتصحيح إلى الأستاذ محمد نجيب المطيعى عضو الجماعة — وهو يستظهر كثيراً من نصوص التوراة والإنجيل والقرآن وقد أخذ بقسط وافر فى بحث علوم الحديث واللغة وغيرهما .

فطلبت منه أن أراه وهنأته على ما أوتى من قوة الحافظة وسعة الاطلاع .

فإلى هذين الشابين أقدم شكرى على ما أسدياه لى من معونة أولهما على ما بذله من جهد فى طبع هذا الكتاب وعمل فهارسه — وثانيهما على مجهوده فى التصحيح ومراعاة جانب الدقة فيه .

القاهرة { ١٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٤
٣٠ مارس سنة ١٩٤٥

حفنى ناصف (توقيع)

فهرس الموضوعات

فهـــرس الموضوعات

صفحة

صفحة

الحديث السابع

صفحة

الحديث الثامن

الحديث التاسع

صفحة

الحديث العاشر

فهرس الأعلام

(ج)

(ح)

(١) (الطبرخزى) بفتح الطاء والباء وسكون الراء وفتح الخاء نسبة إلى طبرستان (طبر) وخوارزم (خزى) وهى نسبة مركبة من بلدى أبيه وأمه وتجد هـذه العبارة فى كتب العرب يريدونه لاغيره فحرره .

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(هـ)

(و)

(ى)



فهـــرس الأماكن

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الأقوام والأمم

(ا)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

تصحيحات

برقت فى أثناء التصحيح ومضات خاطفة من الخطأ المطبعى لم أدركها وهى لا تخفى رغم قلتها على فطنة القارىء الأريب ففى :

صفحة	سطر			
٥٥	١١	القيصر يوليوس	(والأَوْلى)	يوليوس قيصر
٩٢	٩	أنافيوس	(وضبطها)	أناثيوس
١١٤	٣	ودَدْت بصرية كسائية	(والأفصح)	ودِدْت
١١٩	١٣	على يد أبو بكر	(وصوابها)	على يد أبى بكر
١٥٨	١١	وَكرِ	(وصوابها)	وكْرَ
١٥٨	١٤	أعطُوا	(وصوابها)	أعطَوُا
١٧٨	١٨	أخوه ا	(ووضعها)	أخواه
١٩٢	٤	الرُّقة	(وضبطها)	الرَّقة
٣٤١	٢	ليأمن شرهم ولكنه انتصر	(وتحريرها من غير الاستدراك « لكنه »)	
٣٤٧	٩	تدخُــل	(وصوابها)	تدخُّـل

المصحح

